السودان بعيون غربية

بدرالدين حامد الهاشمي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: السودان بعيون غربية
«الجزء الثالث»

اسم المؤلف: بدر الدين حامد الهاشمي

تصميم الغلاف: إياس عوض الهاشمي

رقم الإيداع : ٢٠١٤/١١٢٣٦



الطبعة الأولى ٢٠١٤م



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٤٠٤١٦ - ٢٢٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

إهداء

إلى والدى ... كما ربيانى صغيرا

وإلى كل من علمنى حرفا

وإلى وطنى الكبير وعائلتى الصغيرة...

الجزء الثالث

تقديم : الدكتور عبد السلام نور الدين

◇◇◇◇◇◇

-١-

بدر الدين حامد الهاشمى : الأستاذ الدكتور الذى يكتفى بكتابة اسمه مجردا من الألقاب العلمية التى بذل جهدا وذكاءً وصبرا وسنين عددا لنيلها - أكاديمى مرموق فى علوم الأدوية ومحاضر جامعى ومشرف على طلاب الدراسات العليا ومع ذلك لم أكن أعرف من كل ذلك شيئا حينما بعثت له قبل أكثر من سنتين برسالة متأججة الإعجاب لترجماته الرصينة لمقالات وأبحاث ومدونات ذات عمق وأبعاد وجدوى وفى ذات الوقت بعيدة عن متناول غير المتخصصين فى شعابها الضيقة فانتقاها بعناية من مظانها وترجمها بجزالة ، ولخص بعضها دون ابتسار أو اختزال بعد تقديم موجز مصوب ومعلق بين معقوفتين دون تدخل فى بنية النص .

-٢-

ليس كثير الورود أن تعثر فى الفضاء الكتابى الذى يجوب فيه السودانيون بأقلامهم جيئة وذهابًا وعلى وجه أدق على متن الصحف الورقية والأخرى الإلكترونية بكاتب مثل بدر الدين الهاشمى ، وقد اختار بعد نظر وتدبر "الترجمة" كمعادل موضوعى أو مقابل موازى لعرض التصور والتصديق لديه لذا يحرص دائما "كقارئ" على انتقاء مختاراته و"ككاتب" على تجويد اللغة كحامل لفكرة جلبابها الجدية والطرافة فى سياق أطروحة أخلاقية أو جمالية أو اجتماعية أو تاريخية أنثروبولوجى أو اقتصادية لا تكاد تبين للوهلة الأولى ولكنها تنداح شيئا فشيئا اتساعا كلما تقدم بها إيضاحًا لإضاءة النفق المظلم

يحسن بنا إذا رغبنا فى سبر غور مكابدة بدر الدين الذى يجمع بين القارئ والكاتب والمترجم فى واحد أن نستعين بألبيرتو مانويل فى سطور فى تاريخ القراءة " كان ..... يقرأ من أجل "المعنى أعلى مراحل الفهم، والذى يقرأ نصا بقصد ترجمته يشتغل بأكثر عمليات

"الأسئلة والأجوبة" نقاء فى سبيل اصطياد (تصيد) أكثر الأفكار غموضا ومراوغة. أقول: "اصطياد" الفكرة وليس "نقلها"، فإن من طبيعة "كيمياء "هذا الضرب من القراءة أن المعنى فيها يستحيل فور ترجمته إلى معنى آخر مواز ومختلف. يمضى المعنى عند الشاعر فى التقدم كلمة إثر أخرى، متحولا من لغة إلى أخرى".

-٣-

يبدو من مختارات ترجمات بدر الدين الهاشمى (انظر سودانايل منبر الرأى ٢٦٨ مقالا وروايتى المئذنة وحارة المغنى ومحتويات هذا الكتاب -السودان بعيون غربية الجزء الأول والثاني) أنه يسعى بدأب متصل "مع سبق الإصرار والترصد" إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير القانونى فى سياق جد متباين- لإضاءة الوجود و الطابع القومى للذات السودانية من زوايا وأركان وأبعاد وأزمنة وأمكنة متباينة ومتعددة دون أن يغفل أو أن يتجاهل سدول الضباب التى تحجب تلك الرؤية بتدبير له مقاصد مصلحية أو بتداعيات عفوية .

-٤-

هل يمثل بدر الدين حامد الهاشمى الأكاديمى غير مجهول المكان فى ميدانه الواسع والمثير الجاذب -علم الأدوية - الذى أطل على الثقافة والفكر فى السودان من بوابة الترجمة المتواصلة ظاهرة جد جديدة فى عالم تراجم السودانيين ؟ تشق الإجابة على هذا السؤال دون تلمس لبعض معالم ومسار التراجم فى السودان الذى لا يقع فى هذا الحيز المحدود لمقدمة لا تحتمل الإطالة - ومهما يكن من أمر فقد أبدع الدبلوماسى صلاح هاشم فى نقل بعض عيون الاستشراق الروسى إلى العربية (أغناطيوس كراتشوفسكى - تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ، وسار على ذات المنوال بتوجه مغاير الشعراء الكبار تاج السر الحسن (١٩٣٠ -٢٠١٣ م) وجيلى عبد الرحمن(١٩٣١ -١٩٩٠ م) وعبد الرحيم أبو ذكرى(١٩٤٤ -١٩٨٩ م) فى نقل إبداعات بارزة من مستحسن الأدب السوفيتى والرومانى الحديث إلى قراء العربية ، ولا يخطر فى بال أحد بالطبع إغفال ترجمات جمال محمد أحمد (١٩١٦ -١٩٨٦ م) وفى ذراها " أفريقيا تحت أضواء جديدة" ، وقد أضاف على المك ١٩٣٤ - ١٩٩٢ م) إلى المكتبة السودانية العربية "نماذج من الأدب الزنجي الأمريكى ١٩٧١م: قصص وأشعار ومقالات مع مقدمة تعريفية". تشمل المختارات

أعمالا أدبية بداية بعام ١٨٩٠ م وحتى ١٩٦٠م، و"الأرض الآثمة" لباترك فان رنزبرج: ترجمة بالاشتراك مع صلاح أحمد إبراهيم ١٩٧٢م و"المختارات من أساطير الهنود الأمريكيين وحكاياتهم" ظهرت أجزاء منه في الصحف.

لم تتخلف المدرسة الاشتراكية السودانية بشقيها الماركسي والبعثي وعلى رأسها عبد الخالق محجوب (١٩٢٧ -١٩٧١ م) والجنيد على عمر وهنرى رياض ومحمد على جادين بإثراء تلك المدارس بمدد فكرى كانت فى أمس الحاجة إليه (الماركسية وعلم اللغات-الأدب فى عصر العلم -قرامشى -صراع الثروة والطبقة فى السودان).

كان لتفرق الشعراء والكتاب والدبلوماسيين وأساتذة اللغة الانجليزية فى المدارس الثانوية والجامعات أيدى سبأ منذ انقلاب مايو(١٩٦٩م) وهزيمة حركة ١٩ من يوليو (١٩٧١م) وقد استصحبت نزاعات الانقلابين فصلا بالجملة من الخدمة العامة وتدهورا فى مستوى الحياة المعيشية ، اقتضت هجرات جماعية إلى الجزيرة والخليج ، ثم وقع الخروج الكبير لكل شرائح وفئات المتعلمين والمهنيين السودانيين بعد انقلاب الثلاثين من يونيو(١٩٨٩م) إلى كل أركان الكوكب الأرضى ، وأضحت الاستعانة بخبرات السودانيين فى الترجمة من العربية وإليها من ضرورات ونوافل وسائط الإعلام ليس فى الجزيرة والخليج فحسب ، ولكن فى كل أصقاع العالم ، ثم انبثقت فى خواتيم الألفية الثانية الوسائط الصحافية والتواصل الإلكترونى حيث عثر السودانيون فى مواقعها على آلية جد مبتكرة لتجميع شتاتهم ، ولم طاقاتهم الفكرية وكانت منفذا جديدا للبحث والتواصل مع كل ثقافات العالم عبر الترجمة التى أضحت الواشجة الوثقى بين مبدعى وكتاب السودانيين فى المهاجر مع بعضهم البعض ومع الأمة السودانية التى تبحث عن مكان يليق بها فى القرية العالمية .

وفى هذا السياق يبرز الترجمان الممتاز بدر الدين حامد الهاشمى ، ليس كظاهرة جديدة ولكن تواصلا صاعدا لصلاح هاشم وجمال محمد أحمد وتاج السر الحسن وجيلى وأبو ذكرى وعلى الملك وكتعزيز إيجابى لمشروعه الخاص فى بلورة الوجود الفاعل لذاتية السودانيين القومية ، الذى ينبغى أن يكون حاضرا بعيون مفتوحة وعقل شجاع لا كما يتصورون أنفسهم تحت أثر مخدر من التفكير الرغائبى ، وليس بالخضوع لرغائب عيون

الآخرين - بل بالاحتكام إلى الموضوعية بشرائط العلم الطبيعى والاجتماعى الذى توفر عليه هذا الأكاديمى العالم الترجمان وفى هذا السياق علينا أن نقرأ بتفحص راشد: "السودان بعيون الكتابات الغربية".

عبد السلام نور الدين
ليدز - بريطانيا - فبراير ٢٠١٤م

تقديم

د. عبد الله جلاب

◇◇◇◇◇◇

لقد سبقنى إخوة أجلاء فى التعريف بالأخ البروفسور بدر الدين حامد الهاشمى من خلال تقديم كل منهم للأجزاء السابقة لهذا الجهد المتميز الذى بلغ الآن بهذا الكتاب جزأه الثالث. وبهذا وتلك الأجزاء السابقة قدم بدر الدين الهاشمى نفسه كواحد من أهم المترجمين السودانيين لتراث هام فى مجال الدراسات السودانية. فهو بجهده المتصل فى هذا المجال يقدم للقارئ السودانى ما كتب عنه ونظر إليه بعيون غربية لينظر إليه هو الآن بعيون سودانية فى المقام الأول ، وينظر إليها بعيون غير سودانية من قراء اللغة العربية، ومن المهتمين بالشأن أو الدراسات السودانية.

ولعل ما يميز بدر الدين دون غيره من المترجمين هو أنه قد دخل هذا المجال لا من باب التخصص الأكاديمى أو المهنى ، وإنما دخله من باب الهواية والتكليف الشخصي. لذا فهو يلج هذا المجال متحررا من كل القيود، لذا ولعل كل الذين ظلوا يتابعون ما يقدم من ترجمات مختارة لدراسات متنوعة فى المجال السودانى قديمه وحديثه كتبتها جماعات أجنبية يحمدون ، ويشكرون له الدقة فى ترجمة هذه الأعمال والسلاسة فى صياغة معانيها وأسلوب كتابتها وكتابته لها.

فهو يقوم بعمل إبداعى فى إطار ما يقدم باقتدار وأمانة علمية أجزاء هامة من تراث ضخم كتب على مدى السنين بلغة أخرى تعتبر اللغة الثانية بالنسبة للسودانيين وقد ترقى إلى اللغة الأولى فى مجال البحوث والدراسات عن وحول السودان الكبير. هذا ومن جهة أخرى يعطى بدر الدين الترجمة السودانية شكلا ومنهجا آخر يضيف إلى قام به من قبل المرحوم عبد الله رجب وما يقوم به منذ وقت طويل محمد على محمد صالح. ولعل ما يجمع ما بين ثلاثتهم مع اختلاف المهن والأعمار هو ذلك الحب الخاص والصبر على مثل هذا العمل الشاق والممتع لمن يهواه.

ولعل تطور وسائل الاتصال والنشر الإلكترونى وما تيسر منها للسودانيين وغير السودانيين قد أعطى هؤلاء وأولئك فرصة نادرة للاطلاع على بعض من أعمال هامة كان لها الأثر والخطر فى تكون وجهات نظر، وربما سياسات بعينها تجاه السودان والسودانيين ذات يوم. لذا فقد أضافت مثابرة الأخ بدر الدين على التواصل مع هذا العالم الجديد من القراء السودانيين فى داخل البلاد، وعلى مختلف مواقع انتشارهم فى المهاجر وعلى مدى أعمارهم واهتمامهم بعدا جديدا، وهاما لتراث هام كان بعيدا عن بعضهم إن لم نقل معظمهم وغير معروف للبعض الآخر. وقد لا تقف أهمية هذا العمل الكبير جدًا وبكل المقاييس عند هذه الحدود، بل تتجاوزها إلى تنبيه وتذكير العاملين على أمر الثقافة والبحث الأكاديمى السودانيين بأن هناك ما يجدر النظر إليه بعيون بحثية جديدة.

لقد شمل كتاب "السودان بعيون غربية" فى أجزائه الثلاثة مجالات واسعة فى إطار ما كتب عن السودان من قبل أجيال من الباحثين فى مجالات ودوريات الدراسات السودانية وغيرها من الدوريات الأكاديمية. جمعت تلك الكتابات فأوعت وضمت بعض علماء الأنثروبولوجيا الأولى والآثار والإداريين البريطانيين الذين تحولوا بشكل أو بآخر إلى مؤرخين أو دارسين أو كتاب لبعض ملاحظاتهم، وذكرياتهم أيام الخدمة فى السودان. هذا تحتوى مختارات وترجمات بدر الدين أيضا على دراسات أو أوراق كتبها بعض علماء ودارسى المراحل اللاحقة إبان مراحل الدولة الوطنية فى تلك المجالات وغيرها من مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية واللغات.

لا شك أن الدراسات السودانية قد حفلت برصيد وافر من الكتابات التى كان جلها لا يحفل أو يحتفل بمن كتبت عنهم تلك الدراسات، وأجريت عنهم البحوث. ولم يتيسر لمن كتبت عنهم وقتها مراجعة حقائقها أو ما جاء فيها. إضافة إلى أن تلك البحوث قد كتبت بالغة الانجليزية ولم يتيسر لها من ينقلها إلى اللغة العربية فظلت حبيسة صحفها ومكتبات الجامعات، لذا فإن هذه الترجمات تقدم للأجيال الوسيطة والجديدة إفادات جديرة بالتأمل لما كتب ذات يوم عن مجتمعات سودانية عاشت حياتها بالشكل الذى أرادت.

وما اختاره بدر الدين هو جزء من كل من شارك فيه من رواد الأنثروبولوجيا

الاستعمارية والباحثين فى مجالات التاريخ والآثار فى تلك المرحلة وقد دخلوا بدراساتهم تلك مداخل شتى على مثل تلك الحيوات ووصفوها ووصفوهم بأوصاف شتى لا تختلف عن ما تميز به ذلك العلم الوليد مع بداية المرحلة الاستعمارية فى وصفه لتجمعات بشرية مشابهة. فقد قامت قواعد علم الأنثروبولوجيا وقتها باعتبار أنه علم يتحدث أو يقوم بدراسة أقوام لم تتدرج فى مراقى التقدم الإنسانى عن طريق التكنولوجيا والمعارف الحديثة ، وما ظل ينتج من ذلك من التطور الإنسانى والاجتماعى ما تجلى أو يماثل ما حدث فى مجتمعات أولئك الدارسين الأوربية.

ويقوم علم الأنثروبولوجيا فى أطواره الأولى على منطلقات عنصرية تعتبر معظم الذين خضعوا لمثل تلك الدراسات بأنهم على جهل بالمعرفة بالكتابة والقراءة وأنهم قبائل لا تتعدى معارفهم وممارساتهم الدينية والطقسية حدود تلك المواقع الجغرافية المحدودة والمحددة بعالم تلك القبيلة ، وهم بذلك جماعات متخلفة أو بدائية فى إطار سلك التطور الإنساني ، وبذلك فإن بعض تلك الترجمات تلفت نظر الدارسين الجدد أو الأجيال اللاحقة فى مجال تلك العلوم والدراسات إلى المشاكل التى أصحبت تلك العلوم فى مراحلها الأولى وما ترتب على ذلك من مشاكل كبرى على تجارب الحكم والأحكام المطلقة الناتجة من تلك المنطلقات العرقية التى لم تر فى تلك المجتمعات إلا قبائل متخلفة وجماعات بدائية.

وبذلك فقد خصصت علم الأثربولوجيا لدراسة مثل تلك المجتمعات وعلم السوسلوجيا لدراسة مجتمعاتهم باعتبارها المجتمعات المتقدمة ، وبذلك وضعت تلك المدرسة وقتها مقاييسها الخاصة لدرجات التطور أو عدمه لدى تلك الجماعات ، كما تنقل إلينا كيف تطور ذلك العلم على أيدى آخرين إلى مراق أرحب وأوسع فى مجالات البحث والدرس للمجتمعات الإنسانية.

يأتى هذا الجهد الجبار وهو يدخل مرحلته الثالثة من قبل بدر الدين وبمجهوده الفردى فى وقت أخذت فيه الدراسات السودانية فى المهجر تتسع لتضم أعدادًا كبيرة من الأكاديميين السودانيين وغير السودانيين فى جامعات العالم المختلفة ومراكز البحوث لتضيف إلى الذين ظلوا فى تلك المجالات لسنين عديدة وإلى ما ظلت تنتجه المطابع

والدوريات البحثية والأكاديمية وما يقدم في المؤتمرات العلمية ، وبقدر ما ساهمت النظم الشمولية وضعف الإمكانيات والموارد للجامعات السودانية في مجال البحوث عامة والبحوث في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية والسياسية خاصة فقد اتسعت دائرة ومنابر تلك البحوث في خارج السودان ، ومما لا شك فيه أن ذلك الأمر قد ألقى بظلاله السالبة على شامل مستويات الحوار السوداني وأشكال الخطاب السياسي والثقافي والاجتماعي. في ذات الوقت نرى انفصاما كاملا بين الذي يجري في داخل السودان وخارجه في مجال البحوث والدراسات السودانية. إذ نرى الآن جمعيات الدراسات السودانية في شمال أمريكا وبريطانيا وألمانيا تستقطب دارسين من السودانيين وغير السودانيين من جميع أنحاء العالم إضافة إلى ذلك نجد ما تقدمه مراكز البحوث المختلفة في مجالات الدراسات الشرق أوسطية والإفريقية وغيرها من أعداد الباحثين القدامى والجدد بحيوية أكبر من أي وقت مضى.

في ظل كل ذلك نتطلع الجزء الرابع من "السودان بعيون غربية" من إعداد بدر الدين حامد الهاشمي.

د. عبد الله جلاب
أستاذ الدراسات الإفريقية والدينية
جامعة ولاية أريزونا
رئيس جمعية الدراسات السودانية لشمال إفريقيا
فينكس - أريزونا - فبراير ٢٠١٤م

ألفة الترجمان ونشر الوعي بالتاريخ

خالد موسى دفع الله

◇◇◇◇◇◇

ما ارتج على وصف واضح المعنى فى صدري، شحيح الإبانة على لسانى مثل ترسمى وصف الجهد المعرفى المبدع للبروفيسور بدر الدين الهاشمى فى سلسلة ترجماته "السودان بعيون غربية". وقد سبقتنى ثلة من أرباب القلم وأساطين الكتابة فى تقديم الكتابين السابقين من هذه السلسلة، ولم يتركوا فى تقديمهم قولا لمستدرك، أو نعسة طرف لمستفيق، ولكن حسبى أن أسدد وأقارب على حواشى الإبداع الموشى للبروفيسور بدر الدين الهاشمي، وهو قلم سيال المنبع، غزير الإنتاج، جم النشاط، وافر الحيوية فى تتبع ما يكتب عن السودان فى مظانه الغربية، وظل يرفدنا على نحو دارج بمتعة المعرفة ودهشة الاكتشاف والسياحة عبر التاريخ. والبروفيسور بدر الدين الهاشمي، ليس ترجمانا نابها فحسب استجاد صنعتها، وأتقن فنها وحذق أدواتها، ولكنه فذ ملهم فى هذا الضرب من المعرفة، إذ دخل إلى أبواب الترجمة من باب الهواية لا الاحتراف، فهو عالم مجيد فى حقل تخصصه العلمى فى علم الأدوية والسموم، منذ يفاعته الأكاديمية الباكرة بجامعة الخرطوم حتى نيله درجة الدكتوراه من جامعة أدنبرا، وهو يصدر فى إبداعه الترجمانى عن مشروع أصيل لنشر الوعى بالتاريخ، حسبه فى ذلك وعى عميق برسالته وتعلق بمادة بحثه واختيار موضوعاته وترجماته التى خصصها لما يكتبه الغربيون عن السودان. وهو بهذا الوعى لا يصق على التاريخ ولكن يعيد بعثه حيا يسعى بين الناس من حيث إعادة نشره وتعريبه بعد أن استطال مكثه فى أرشيف الوثائق وأضابير الكتب وحواشى المدونات ومتون الحوليات. للبروفيسور الهاشمى أياد سابغات لا تنقبض، وجفن لا يطرف ومثابرة لا تكل عن تتبع ما كتبه الغربيون عن السودان فى مظانه قديما وحديثا على سعة نشرها فى مساقات معرفية مختلفة وتخصصات متباينة ودوريات ومطبوعات متفرقة، ومكتبات موزعة فى شتى أنحاء المعمورة.

إن المتأمل فى سيرة إنجازاته العلمية يكتشف أنه قد حاز مجدلا مؤثلا يكفيه بحسن الذكر إن كانت تلك بغيته ومضرب خيمته ومبرك راحلته، وذلك بما حقق من إنجازات، وبما نشر من أوراق وبحوث، و نال من جوائز وأوسمة، وبما حازت بحوثه وأوراقه من صيرورة التداول المرجعي والاقتباس العلمى من طلاب العلم فى جامعات العالم المختلفة والدوريات المتخصصة. هذا إضافة إلى خبرة أكاديمية متميزة فى جوانب التدريس والبحوث والإشراف العلمى والخبرات الاستشارية والإدارية، والتحكيم وتصميم المقررات وإدارة المؤسسات الأكاديمية على مستوى العالم.وهو قد عمل طيلة ثلاثة عقود من الزمان فى جامعات ومؤسسات مرموقة فى مختلف القارات وأستاذًا زائرًا أو مقيما فى بريطانيا، وأمريكا، والإمارات وليبيا، وتايلاند، والسعودية، واستقر به المقام الآن فى جامعة السلطان قابوس بمسقط. لو أراد البروفيسور بدر الدين الهاشمى أن يستأثر بهذا المجد لكفاه، ولكن أرقه العلمى وتفانيه فى خدمة قضية المعرفة، واستغراق همه لرفد المجتمع بخبرته، جعلته يستفرغ طاقته المبدعة فى مشروع ثقافى موسوم بنشر الوعى بالتاريخ. وهو يقدم على ذلك النشاط الحيوى بألفة وحميمية، وهذه الألفة هى اختيار استسغت اقتباسه من البروفيسور عبد الله على إبراهيم لتعريب كلمة (باشون) الإنجليزية بعد أن استحسن نقلها من تأملات الدكتور المرحوم محمد عبدالحي. وهو فى مشروعه الذى يضع لبنته الثالثة فى هذا الكتاب يصدر عن وعى مطلق بذاته إزاء ما يجب أن يفعله المثقف تجاه مجتمعه. قول سقته من قبل وأنا به زعيم، وهو متنزع من حواشى أوراق السجن لغرامشى إذ يقرر أن المثقف العضوى ليس من يختزن معارفه وتأملاته وأفكاره مع نفسه وخاصته، ولكن هو من يستطيع أن يقوم بوظيفة المثقف فى المجتمع.وذلك عين ما يقوم به البروفيسور الهاشمى فى نشر ترجماته فى الجزء الثالث من هذا الكتاب من سلسلته المعروفة "السودان بعيون غربية".

جاء بروفيسور الهاشمى من قلب البندر إذ ترعرع فى حاضرة السودان الأولى الخرطوم ، وشهد فى مدارج وعيه الباكر مخاضات السودان الكبرى وفتح أعينه على تحديات الثقافة الماثلة حينها، فشب على حبّ المعرفة والمطالعة ، وكان لشغفه بالقراءة الحرة أثر باكر لاكتشاف موهبته المخبوءة لحب الترجمة التى تعهدها بعد ذلك بالمثابرة والدربة حتى استقامت مطواعة الرسن، سلسلة القياد لطموحه العلمى ومشروعه الثقافى

والمعرفي. وتلمس موهبته البكر وهي تنمو حثيثا إذ كتب القصة القصيرة وهو في عهد الطلب بالمرحلة الثانوية في ستينات القرن المنصرم، وظني أن توجهاته العلمية وخوضه معركة التحضير للدراسات العليا و هموم التدريس والبحث العلمي قد أجلت تفتق موهبته بشكلها الزاهر التي نستمتع بفيض ثمرها ونضير غرسها الآن، وهو قد شارك في ترجمة كتب المقررات الأكاديمية في جامعة الملك سعود. والمتأمل في سيرته الترجمانية يقف أمام مشروع شاهق المبنى، فهو لا يحفل بالترجمة كعمل أداتي ميكانيكي، ولكن باعتبارها عمل مبدع يشكل الوعي العام وينقل الثقافة ويثرى المعرفة. وما يقوم به البروفيسور الهاشمي من عمل في فن الترجمة واختيار مادته تنوء بإنجازه المؤسسات ذوات العدد، وهو جهد فردي يستحق الاحتفاء والإشادة والتكريم. واختار لمشروعه بحسه الترجماني المبدع، ووعيه الثقافي المتقدم أن يكون محوره تاريخ السودان قديما وحديثا، وما كتبه الغربيون عن بلادنا الحبيبة في مختلف أنواع المعارف والنشاطات والتخصصات، مثل حقول الحكم والإدارة، والقضاء والمحاكم، والمعارك والعلوم العسكرية والدراسات الإنسانية والأنثربولوجية والتاريخ والجغرافيا والثقافة واللغات والمذكرات والسيـ حة والمذكرات والسير الذاتية والتراجم وغيرها.

وهو كذلك كاتب شامل إذ نشط منذ منتصف عقد الثمانين في نشر مقالات دارجة في الصحافة السودانية تعلق بعضها بشرح ما التبس على العامة في شأن الأدوية والعلاج وفوائد المنتجات الطبيعية، هذا إضافة إلى مقالات متعددة الاهتمامات والموضوعات في الأدب والثقافة والعلوم. ومن ثم استمر في كتابة زاوية صحفية ثابتة منذ منتصف عقد التسعين إلى يوم الناس هذا.وله كذلك سهم وافر في تأسيس ورعاية الجمعيات العلمية والثقافية.

وبروفيسور الهاشمي لا يقبل على الترجمة بحثا عن المقابل اللغوى لنقل المعنى، ولكن ينقل إلى القارئ روح النص، كأنك تقرأ النص بلغته الأصل، وذلك يتطلب حذقا لغويا ومهارة بلاغية عالية في لغتي الترجمة، وكما قال الجاحظ: " ولا بد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن علمه في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، حتى يكون فيهما سواء وغاية"، وذلك ما أشار إليه حديثا في نظرية

التكافؤ الديناميكي العالم اللغوى يوجين نادايا ويعنى بها " جودة الترجمة فى نقل الرسالة من النص المصدر للنص الهدف فتكون استجابة قارئ الترجمة كاستجابة قارئ النص المصدر"، وعلى ذات السياق يساوى الشاعر الألمانى العظيم غوته بين خاصية النبوة ووظيفة الترجمة إذ يقول : "يقول القرآن بأن الله يبعث لكل أمة نبيا يتحدث لغتها، كذلك كل مترجم هو بمثابة نبى فى أمته".

إن النشاط المبدع الذى يقوم به البروفيسور الهاشمى لا يرتكز على نقل المعارف والثقافات وتفاعلها فى الفضاء الكونى، فحسب بل هو ضرب من الوعى بالتاريخ، والتربية الوطنية. فهو مثلا لا يقدم النص المعرب من ترجمة المقابل باللغة الإنجليزية فحسب بل يعمل على ربطه بأحداثه والتعليق عليه وإجلاء غوامضه ووضعه فى سياقه التاريخي.كما يقوم بالتعريف بالكاتب وتوضيح مصدر النص وتاريخ النشر. كما يوضح على نحو دقيق طبيعة المادة المترجمة هل هى (ترجمة وتلخيص، أم ترجمة وعرض ، أم ترجمة فقط). وتلك دقة علمية اشتهر بها البروفيسور الهاشمى مستقاة من ميسم تفوقه البحثى وتميزه العلمي. وللبروفيسور خاصية أخرى فى إضاءة النص المترجم وهى ربطه بنظائره ومتشابهاته من حيث الموضوع أو تاريخ الكتابة. إن من آيات إبداع الكاتب فى هذا السياق مثلا مقاله عن الدور الذى لعبته حيوانات السودان مع الجيوش المتحالفة يقول: "ذكرنى هذا المقال القديم بمقال نشر فى صحيفة "كريستيان سينس مونتور" فى عام ٢٠٠٧م بعنوان "الحمير فى دارفور" يصف فيه الكاتب الحمار فى سنوات الحرب فى دارفور بأنه ليس فقط دابة للنقل والحمل، بل هو سيارة "بيك أب" حية لحمل الماء والحطب، وللفرار من أتون القذائف وجحيم المعارك، ولإنقاذ الأرواح... ولعله بهذا التوصيف يفضل بعضا من بنى البشر من مختلف الملل والنحل والألوان".

إضافة إلى كل هذا التميز الباذخ ، فهو أيضا صاحب خاصية أخرى فى الترجمة وهو اختيار المفردة المعبرة بحس لغوى بديع سواء كان من المقابل اللغوى الفصيح أو الإيحاء من المخزون الشعبى المعبر، فمثلا يقول فى الجزء الثانى من كتابه "السودان بعيون غربية" فى مقال عن الأمثال الشعبية بقلم هنرى جاكسون.يقول الكاتب: إن السودانيين يجيدون المرح والردود السريعة المفحمة ويفهمون لغة "المطاعنات".وهى عبارة موغلة فى الثقافة

السودانية.

شرفني البروفيسور بدر الدين الهاشمي بالمشاركة في تقديم الجزء الثالث من سلسلة كتابه "السودان بعيون غربية". وهذه أريحية العالم وديدن المثقف الأصيل. فهو عالم ومحقق ثبت في ميدان تخصصه الأكاديمي، ومبدع متفرد في نشاطه الترجماني وهو يصدر عن رؤية ثاقبة ومشروع ثقافي لنشر الوعي بالتاريخ،وتعميق التربية الوطنية.وهو في ترجماته لا يسلم بالمزاعم والأوصاف التي تقدح في السودانيين،مهما علا كعب كاتبها بل ينتقدها ويفندها ويرد عليه بحس وطني أصيل مثل تعليقه على تقرير اللورد كرومر الوارد في الجزء الثاني بعنوان "السودانيون في بداية القرن العشرين"، إذ يقول: وما ورد في التقرير مثير للغيظ وداع للكراهية".

وهو كاتب جم المواهب متعدد الاهتمامات وافر النشاط بريع الاختيارات في كل ما يصدر عنه. تحفظ له المكتبة السودانية إضافة إلى الأجزاء الثلاث من كتاب "السودان بعيون غربية" أيضا ترجمات هامة للروائية السودانية العالمية ليلى أبو العلا "حارة المغني" و"مئذنة في ريجنت بارك"التي طرزها إضافة إلى براعة الترجمة بروح سودانية أليفة تكاد تحسها تسري بين السطور والرواية تدور معظم أحداثها في السودان، هذا إضافة إلى الكتاب التوثيقي الهام عن يوميات ثورة أكتوبر للبروفيسور الأمريكي "كلايف طومسون" وكتاب عن "أتبرا: مدينة الحديد والنار للبروفيسور لأحمد سيكنجة . يمثل النشاط الترجماني المبدع للبروفيسور بدر الدين الهاشمي في كتابَه الذي بين يديك عزيزي القارئ ركنا أصيلا في مسودة مشروع الوعي والنهوض الثقافي الخلاق في السودان.

خالد موسى دفع الله

برلين –ألمانيا –فبراير ٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المترجم

◇◇◇◇◇◇

هذا هو الجزء الثالث من كتابي (السودان بعيون غربية)، وهو كسابقيه مجموعة من المقالات المترجمة التي أنشاها كتاب غربيون باللغة الانجليزية في أغوار القرن الماضي .تناولوا فيها مختلف شؤون الحياة السودانية في علوم التاريخ والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأنثروبولوجي (الأناسة) وغيرها.

وقد شملت مقالات هذا الجزء من الكتاب بعض أوجه التاريخ من التأصيل التاريخي تارة، والإحاطة بذكره ومعرفته تارة أخرى، كما أنها ضمت مقالات تتناول التاريخ السياسي، والعسكري، والاقتصادي والفكري، وغير ذلك مما سجله كتاب غربيون عن بعض قبائل السودان مثل قبيلتي الكبابيش والبجا، وعن تطور التعليم في العهد الاستعماري مثل مقالة مدرسة كتشنر الطبية، وعن فترات سياسية كفترة حكم المهدية مثل مقالة القس الإيطالي الأسير س. روزيقونولي عن أم درمان في عهد الخليفة عبد الله، وعددا آخر من المقالات عن محمد أحمد المهدي ومهديته وطرفا من صراعه مع حلفائه، مما لا يقربه غالب الكتاب السودانيين المعاصرين ، ولا يواجهونه لأسباب بعضها معلوم.

وكما ذكرت في مقدمة الجزأين الأول والثاني من هذا الكتاب أود أن أؤكد هنا أيضا أن ما جلبته من المصادر المختلفة ليس تاريخا منهجيا بالمعنى المعروف، فلست بمؤرخ، ولكنه محض اختيارات لقليل مما كتبه في عهود سابقة بعض الغربيين ممن عملوا في السودان أو تخصصوا في تاريخه أو تراثه.

وكثير مما كتبوه قد لا يوافق ما درسناه في المدارس وحفظناه كحقائق لا يتطرق إليها الشك. وهذه – في اعتقادي المتواضع – هي ميزة هذا الكتاب – إن كانت له من ميزة على الإطلاق – فهو يهدف إلى لفت أنظار القراء السودانيين وغيرهم ممن قد لا تتاح لهم، بسبب حاجز اللغة أو عدم توفر المصادر الغربية، خاصة القديمة منها، إلى أن هنالك آراءً

وأفكارا وتفسيرات للأحداث التاريخية غير ما نؤمن به أو ما قد جبلنا عليه.

ولا يشك عاقل فى أن تاريخ كثير من الشعوب والدول (ومنهم بلا أدنى ريب بلادنا) مليئة بكم هائل من الروايات التى يتضح عند البحث المعمق والتمحيص الدقيق أنها مكذوبة أو موضوعة أو منتحلة أو مدسوسة، إما بقصد أو بغيره.

وكثيرا ما نسمع من بعض الكتاب (والمسؤولين كذلك!) عن ضرورة ما سموه إعادة كتابة تاريخ السودان، وتلك دعوة مضللة وخاطئة وباطلة إن كان القصد منها إعادة كتابة تاريخ السودان لتمجيد سير بعض من حكمونا على مختلف العصور، أو لتزيين أو طمس أو إخفاء مواقف قد لا تشرف من قاموا بها.

فبما أن التاريخ كما كتب أحدهم هو "مرآة الأمم، يعكس ماضيها، ويترجم حاضرها، وتستلهم من خلاله مستقبلها، كان من الأهمية بمكان الاهتمام به، والحفاظ عليه، ونقله إلى الأجيال نقلًا صحيحًا، بحيث يكون نبراسًا وهاديًا لهم فى حاضرهم ومستقبلهم"، ولعل أهم ما جاء فى هذه المقولة هما كلمتا (نقلا صحيحا)، ولا يكون النقل الصحيح إلا بالقراءة و(إعادة القراءة) بصورة راشدة ونزيهة ومتجردة (بقدر ما يمكن بشريا).

بيد أنه من الواجب أيضا أن نذكر أننا قد لا نكون قد أبعدنا النجعة إن قلنا إنه ما من مؤرخ (مستقل تماما)؛ فربما كان وجود هذا الصنف من البشر من رابع المستحيلات، غير أن ما لايدرك كله لا يترك جله بالطبع.

فالتمعن فى تاريخ البلاد القريب والبعيد قمين بتجنيبنا تكرار أخطائه، وقديما قيل: إن التجارب الخاطئة التى لا تورث حكمة ولا موعظة تعيد إنتاج نفسها كرة أخرى، ودونك ما ترى وتحس وتسمع وتعلم مما يجرى فى العالم الآن.

وأخيرا أتقدم بالشكر والامتنان لكل من أكرمونى من أصدقائى العديدين المنتشرين فى قارات العالم المختلفة بتزويدى بأصول بعض المقالات النادرة التى تعذر على الحصول عليها، ومشاركتهم إياى بآرائهم واقتراحاتهم وتصويباتهم اللغوية لما جاء فى هذا الكتاب، أما ما قد طرأ من تقصير أو خطأ قد يجده القارئ هو بالطبع من مسؤوليتى وحدي.

وأشكر كذلك نفرا كريما من مثقفينا من مختلف الاتجاهات الفكرية والسياسية الذين

اقتطعوا من أوقاتهم الثمينة للكتابة عن هذه المقالات المترجمة والتنويه بها من دون أن أحظى بمقابلة أى منهم كفاحا حتى يومى هذا.

والشكر موصول كذلك لأفراد عائلتى الصغيرة والممتدة لمؤازرتهم إياى أشد المؤازرة، خاصة فى عام حزننا المنصرم، وهو العام الذى ترجمت فى غضونه معظم هذه الدراسات.

والله من وراء القصد وهو سبحانه المستعان

بدر الدين حامد الهاشمي

مسقط، عُمان

فى أول مارس ٢٠١٤م

وَدْ مَدَنِي
من بعض ما جاء فى فصل
من كتاب: "السودان: أيام وعادات"
تأليف: هنرى سيسيل جاكسون

◇◇◇◇◇◇

تقديم: نعرض هنا لجزء يسير من فصل بعنوان "وَدْ مَدَنِي" نشر فى كتاب للإدارى البريطانى هنرى سيسيل جاكسون بعنوان "السودان: أيام وعادات" عن دار نشر ماكميلان البريطانية عام ١٩٥٤م. للمؤلف كتب عديدة أخرى أشهرها "تاريخ مملكة سنار"، و"الزبير باشا وتجارة الرقيق" و"الأمير عثمان دقنة"، و"القس ليلوين قوين"، ومقالات عديدة تم نشرها فى مجلة "السودان فى مذكرات ومدونات".

***

بعد قضائى لعامين فى أم درمان صدر قرارى بنفى لمدة قصيرة إلى الجيلى القريبة من شمال الخرطوم، ثم أرسلت بعد ذلك لعامين كاملين للعمل فى الكاملين، والتى وصلتها فى أسوأ ظرف يمكن تخيله. لقد وقع على عبء التعامل – بمفردي – مع وباء خطير يسمى spotted fever إضافة لمجاعة ضربت المنطقة وسببت زيادة مهولة فى سرقات الماشية. كنت أقضي وقتى فى التعامل مع عقابيل ذلك الوباء وتصريف أعمالى المكتبية اليومية العادية ، ثم أفرغ من بعد ذلك لفض المنازعات بين الجيران حول ملكية البهائم، وأظل أفصل فى ما هم فيه يشتجرون حتى ساعة متأخرة من الليل.

كنا – نحن معشر رجال الإدارة – نمج العمل فى المراكز الكبيرة، ليس فقط لأن حرية العمل فيها أقل من ما هو متوفر فى سواها، بل لأن العمل فى تلك المراكز الكبيرة عمل مكتبى بحت لا يدع للإدارى وقتا كافيا للطواف الميدانى على كافة مناطق عمله. رغم هذا فقد تمنيت فعلا هذه المرة أن أنقل للعمل فى وَدْمَدَنِي حيث يعمل فيها وبالقرب منها عدد كبير من البريطانيين فى مجال الإدارة وفى مشروع الجزيرة، والذين كانوا يمثلون مجتمعا سعيدا فى مدينة عامرة بوسائل الترفيه وأنواع الألعاب الرياضية مثل البولو والبريدج

والتنس. قبل سنوات كانت أرضية ملعب التنس بود مدنى لا تصلح للعب فى موسم الأمطار، إلا أن الملعب الآن مجهز للعب فى كل المواسم، ولا ينغص على اللاعبين غير هجوم بعض القرود الرمادية التى تتخذ من أشجار لبخ ضخمة قرب ملعب التنس مسكنا لها.

لم تكن ود مدنى مدينة بهيجة المنظر، بيد أن تخطيطنا لها كان عمليا جدا. تحاشينا عمل دوارات ومنحنيات فى الطرق، وآثرنا أن تكون الطرق واسعة ومتعامدة مع بعضها، ذلك تقليلا لفرص امتداد الحرائق بين المبانى والأحياء، ولتسهيل عملية حفظ الأمن فى المنطقة خاصة تحت جنح الظلام فى تلك الطرق غير المضاءة. كانت بعض بيوت التجار ومحالهم مبنية بالطوب الأحمر، بينما كانت معظم بيوت المدينة مشيدة بالطين اللبن. كانت هنالك أيضا بعض القطاطى المبنية من القش والمحاطة بزرائب من الشوك. فى تلك الأيام لم يكن لدينا فائض أموال لنعين بها عمال لنظافة المدينة، لذا فقد ألزمنا كل مواطن بتنظيف نصف الشارع المقابل لبيته أو محله التجارى يوميا، وحافظنا بذلك على المدينة نظيفة طوال الوقت.

كان هاجس انتشار الحرائق فى قطاطى القش يجول دوما فى خاطري، وحاولت — دون جدوى — إقناع السكان بالانتقال إلى منطقة أخرى. حلت المشكلة من حيث لا أدرى بأن تصادف أن شب حريق ضخم أتى على كامل المنطقة التى كنا أجاهد — دون جدوى — من أجل إزالتها! دهشت عندما وجه الأهالى المتضررون أصابع الاتهام لى بالتسبب فى ذلك الحريق. يبدو أن ذلك كان انعكاسا لفشلنا فى إقناع الأهالى بطرقنا فى العمل وبمقاصدنا وأهدافنا، وانعكاسا أيضا لفشلنا فى فهم ما يجول فى رؤوسهم. كان القصص التى تذيع بين عوام الأهالى عن المفتشين البريطانيين تشجع على سيادة روح الشك وعدم الثقة. فقد سمعت قصة (مختلقة دون ريب) عن باشمفتش بريطانى كان يركب حصانه ويعدو به فى شوارع ملكال بينما كان أحد شباب النوير العراة يظل متعلقا بلجام الحصان الحديدي، وسمعت أيضا عن باشمفتش بريطانى آخر كان الأهالى فى بربر يسمونه "أبو سبعة سنين" لأنه لا يحكم على أحد من المتهمين الذين يحضرون أمامه بغير السجن لمدة ثابتة لا تتغير هى "سبع سنين"! وظلت تلك الفرية ثابتة على الرجل بعد مرور عشرين

عاما على مغادرته لبربر! كم من الأعوام سيمر قبل أن ينسى الناس تهمة إحراق حى القطاطى التى ألصقت بى زورا وبهتانا؟!

كانت ثكناتنا واسعة فسيحة لا تحدها أسوار وتبعد قليلا عن المدينة، وكانت حيواناتنا الأليفة تتجول حرة طليقة حول الثكنات. كان أحد تلك الحيوانات أربيل له قرون حادة كان يثير غضب لاعبى التنس عندما يقتحم عليهم ملعبهم بغتة، وكانت هنالك أيضا لبوة صغيرة كنا نسميها "فاطمة" كنا نلاعبها كقطة أليفة بيد أنه سرعان ما تقرر ترحيلها مع كتيبة الجيش المنقولة للعاصمة وكان من المقرر وضعها فى حديقة الحيوانات بالخرطوم بيد أنها نفقت فى الطريق، ربما بسبب إجهاد النقل والازعاج الذى يصاحبه. وعلى ذكر الحيوانات، أذكر أنى وزوجى أخذنا غزالا صغيرا من سنكات إلى بورتسودان معنا فى عربة النوم بالقطار. كان كمسارى القطار فى حيرة من أمره: أيفرض على تلك الغزالة قيمة تذكرة كاملة أم نصف تذكرة؟!

كان كل الموظفين البريطانيين تقريبا يحتفظون فى منازلهم بحيوانات أليفة من كل الأنواع، فهذه الحيوانات كما يقول الروائى جورج أورويل: "لا تثيرك بكثرة الأسئلة ولا تزعجك بالانتقاد". كانت الغزلان الأربعة التى كانت عندى فى أم درمان ، ثم أتت معى للجبلى هى أقرب حيواناتى الأليفة إلى قلبي.

لعله من أشق الأمور على نفس الباشمفتش أن يحكم على أحد المتهمين بالإعدام. كانت مداولات المحاكمة تتم بلغة أجنبية لا يجيدها الباشمفتش، وعادة ما يكون المتهم من غير المتعلمين ولا يحسن الدفاع عن نفسه، وليس له من محامٍ أو نصير يدافع عنه، وليست هنالك هيئة محلفين. كان على الباشمفتش البريطانى أن يقوم بنفسه بإعداد ملف القضية من الألف إلى الياء ، ثم يقوم من بعد ذلك بلعب دور القاضى ليفصل فى القضية! من أسوأ التجارب التى مررت بها اضطرارى للتحقيق فى قضية غامضة معقدة وجدت فيها جثة مجهولة يبدو أنها لرجل قتل عمدا (مضى الكاتب يسرد قصة طويلة من صفحتين عن تفاصيل هذه القضية والتى انتهت بالحكم بالإعدام على المتهم، ثم خفف الحكم للسجن المؤبد. بعد عشرة سنوات من السجن تم الإفراج عن الرجل بعد مراجعة الحكم، بيد أن أهل القتيل لم يمهلوا الرجل فاغتالوه فور خروجه من السجن فى عام ١٩٢٦م. المترجم).

من أغرب الحالات التى مرت بى هى حالة رجل دخل مكتبى فجأة وعرفنى باسمه وأعلن عن تسليم نفسه للسلطات، تذكرت أن اسم ذلك الرجل قد ورد فى قضية مقتل كولن اسكوت مون كريف نائب المفتش فى رفاعة فى عام ١٩٠٨م. كان الرجل قد هرب عقب مقتل الإدارى البريطانى ولجأ إلى دارفور (والتى كانت مستقلة عن دولة الحكم الثنائى تحت قيادة السلطان على دينار). بعد هزيمة ومقتل ذلك السلطان فى عام ١٩١٦م قرر المتهم الرجوع لموطنه (ربما لأن المجرم –لسبب ما – يعود دوما لمكان الجريمة!). لما شعر الرجل بأن الشرطة تتعقبه آثر تسليم نفسه إلى الباشمفتش!

لا بد من الإشارة إلى أن قصاصى الأثر فى شمال السودان يتمتعون بمهارة فائقة فى تعقب الجناة والوصول لأمكنة اختبائهم، وشهادتهم –عندما يشهدون بالحق – لا تقل صدقا وموثوقية عن الشهادات التى يصدرها مكتب بصمات اليد. لا ريب أن لهؤلاء دورا مقدرا فى حل أسرار كثير من القضايا الجنائية فى شمال السودان منذ عقود طويلة.

كانت قوة الشرطة فى ذلك الزمان تستعين بجنود معاشيين يسمون "خفراء" أو "حراس ليليين"، وهو نظام يشابه ما كان سائدا فى إنجلترا فى ما قبل عهد رئيس الوزراء البريطانى السير روبرت بيل (١٧٨٨ – ١٨٥٠م). إن وصف هؤلاء الرجال بأنهم "حراس ليليون" هو وصف مجامل ملطف، إذ إن هؤلاء يقضون غالب ليلهم يغطون فى نوم عميق، بل ويشاهدون عند مغيب الشمس يحملون عناقريبهم الصغيرة وهم فى طريقهم لعملهم! شهد أحد هؤلاء الخفراء ذات مرة أمامى بأنه سمع صوت استغاثة يصيح "حرامي... حرامي" فاستيقظ من نومه (العميق) ولحق باللص وأمسك به! كان من المفترض أن يقوم هؤلاء الحراس الليليون بالمرور على عدد من النقاط لتسجيل أرقامهم (وهذا الأمر مما ورثته الحكومة من نظام الخليفة السابق). كان الناس يسمعونهم ليلا وهم يصيحون "نمرة واحد" و"نمرة اتنين" وهكذا.

كنت أجد أحيانا فرصة للتجوال خارج مدينة مدنى لتفتيش مناطق مديرية النيل الأزرق. كانت أسعد تلك الجولات هى التى لقيت فيها الشيخ (الرباطابي) بابكر بدرى فى رفاعة. حكى لى الشيخ بابكر عن أيام حبسه بعد هزيمة معركة "توشكي" فى عام ١٨٨٩م، وتسليم البريطانيين له للمصريين والذين استعبدوه لعامين كاملين، تم إطلاق

سراحه عن طريق الصدفة المحضة، إذ سمعه عمدة البلدة التي كان مسترقا فيها وهو يرتل القرآن بصوته الندي، فاستخلصه ذلك العمدة لنفسه ويقى في بيته لعامين آخرين لتعلم حرفة دبغ الجلود قبل أن يسمح له بالعودة لموطنه.

لما عاد بابكر بدرى لأم درمان وجد أن المهدى قد توفى وحل محله في سدة الحكم الخليفة عبد الله. كان الرجل لا يزال مؤمنا بالمهدية بيد أنه بدأ مع مرور الأيام يفقد الثقة في الخليفة عبد الله، عمل بابكر بدرى في البدء كسمسار مع رجل اسمه "مهدى أحمد". منحه ذلك الرجل ذات مرة أربعين قرشا ليبدأ عمله الخاص، بيد أن بابكر بدرى رفض ما عده "إحسانا" وعوضا عنه طلب من مخدمه أن يضمنه عند تاجر يهودى اسمه نيثين. اشترى بابكر بدرى بعض ياردات من قماش وبمشاركة شقيقه صار يتاجر في القماش بين رفاعة وكركوج واكتسب سمعة طيبة كتاجر أمين وصادق. عندما افتتحت أول مدرسة في رفاعة تقدم طالبا التعيين كناظر (مدير) لها فقبل طلبه ومنحته المديرية جنيهين كراتب شهري، تم تخفيضها إلى جنيه واحد بسبب الضائقة المالية التي ألمت بالمديرية في تلك السنوات. بيد أنه في عام ١٩٠٣م زار العقيد ديكينسون المدرسة، وأعجب جدًا بالتقدم الذي حدث فيها فنفحه من جيبه الخاص ثمانية جنيهات تعويضا عن ما أنقص من مرتبه، ووعده بالنظر في رفع راتبه لثلاثة جنيهات شهريا، بعد ذلك غدت مدرسة رفاعة الابتدائية واحدة من أفضل وأشهر المدارس في السودان، وفي عام ١٩٠٧م زار مفتش التعليم رفاعة فطلب منه بابكر بدرى السماح له بفتح مدرسة للبنات، رحب المفتش بالاقتراح شريطة ألا يقل عدد التلميذات في الفصل عن اثنتى عشرة في تلك المدرسة المقترحة، وافق بابكر بدرى على ذلك الشرط ونجح في جمع العدد المطلوب من التلميذات (منهن أربع من بناته وخمس من بنات أخواته وبنات أقربائه الآخرين).

في عام ١٩١٧م تم تعيين بابكر بدرى كمفتش للتعليم، وبعد تقاعده عن العمل الحكومى أنشأ مدارس الأحفاد في أم درمان، والتي نجحت نجاحا فائقا للحد الذي بلغ فيه عدد طلابها في عام ١٩٥٠م نحو ٨٠٠ طالب، كانت آخر مرة أسمع فيها عن بابكر بدرى هي عندما كان ذلك الشيخ التسعيني يطوف بمناطق السودان المختلفة في محاولة منه لجمع ٦٠٠٠٠ جنيه لبناء مدرسته الجديدة. منحته الحكومة البريطانية وسام

الإمبراطورية البريطانية وهو في نظرى يستحق هذا الوسام وأكثر. تم تعيين ابنه كأول وزير صحة في السودان، وتقلد عدد من أفراد عائلته وظائف مهمة في البلاد. تعرفت في كمبردج على "ثابت حسن" أحد طلابه السابقين، والذى تحصل على دبلوم في علم الآثار في عام واحد (بينما يحتاج الطالب البريطاني إلى عامين للحصول على نفس الدبلوم).

لا شك عندى في أن السودان يدين بالكثير لبابكر بدرى لرؤيته الرائدة الثاقبة.

أم درمان أيام المهدية: ملخص لبعض ما جاء فى كتاب للأسير الإيطالى س. روزيقونولى

فارنهام ريفش Farnham Rehfisch

◇◇◇◇◇◇

تقديم: هذه ترجمة مختصرة لبعض ما جاء فى مقال طويل للأكاديمى الراحل فارنهام ريفش (والذى عمل لسنوات طويلة أستاذا لمادة الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى جامعة الخرطوم فى ستينيات القرن الماضي.) يلخص فيه ما كتبه أسير المهدى الإيطالى س. روزيقونولى فى مؤلفه:

I meei Dodici Anni di Prigionia in Mezzo ai Dervisci

والصادر فى عام ١٨٩٨م عن الحياة فى أم درمان بين عامى ١٨٨١م و١٨٩٤م. يلاحظ أن ما جاء به المترجم باللغة الإنجليزية هو عبارة عن شذرات متفرقة من كتاب القس الإيطالى لا يربطها تسلسل تاريخى معين، بيد أنها عظيمة الفائدة فى معرفة الحياة الاجتماعية فى أم درمان بعيون أسير مسيحى لا يخلو من تعصب (ضد المسلمين واليهود أيضا!) ويغض لآسريه وثقافتهم، ورغم ما فيها من حكايات يصعب تصديق بعض تفاصيلها أو الوثوق بصحة وقوعها.

نشر هذا المقال فى مجلة "السودان فى مذكرات و مدونات" العدد ٤٨ الصادرة فى عام ١٩٦٧م.

المترجم

استعرض هولت (هو البروفيسور البريطانى الراحل ب. م. هولت المتخصص فى تاريخ السودان والشرق الأوسط والأدنى. المترجم) كثيرًا من المصادر المكتوبة عن تاريخ المهدية فى السودان، واتضح له أن الكتب التى "ألفها" سجناء المهدية من أمثال سلاطين والأب أوهرفالدر قد قام بتحريرها السير وينجت باشا (خليفة كتشنر فى حكم السودان بين عامى ١٨٩٩م – ١٩١٦م. المترجم)، ربما لأنه كان يرى أن وظيفته تحتم عليه أن يشيع الدعاية المضادة للمهدية، بيد أن كتابات سيوزى ونيوفلد وروزيقنولى (وهم ثلاثة أوربيين قضوا فى أسر الحكم المهدوى مددا متفاوتة) هى من المصادر الأوربية المكتوبة عن المهدية التى لم تمتد إليها يد ونجت بالتحرير أو الحذف أو الإضافة.

وجدت فى كتابات القس الإيطالى روزيقنولى عن مدينة أم درمان فائدة عظيمة، فقد سجل وبدقة متناهية الأحوال اليومية لسكان أم درمان فى عهد المهدية بأكثر مما فعل أى كتاب أوروبى آخر، إذ إن المؤلف ركز معظم كتاباته على أحوال السكان الاجتماعية، بينما خصص الآخرون جل كتاباتهم لتحليل الأوضاع السياسية والعسكرية فى دولة المهدية. ويبدو أن السبب فى ذلك هو أن روزيقنولى كان متحررا من القيود التحريرية التى كان سيفرضها ونجت إن امتدت يده لما كتب ذلك القس الإيطالي. صرم روزيقنولى ثمانية أعوام من حياته فى أم درمان حيث سمح له بالعمل فى تجارة متواضعة بالسوق مما أتاح له الالتقاء ب "رجل الشارع" بصورة يومية. كان بالفعل رجلًا دقيق الملاحظة، بيد أنه يجب القول أيضا بأنه من الواضح أن الرجل كان متحاملا على الإسلام والنظام المهدوي. سمحت لنفسى بحذف كل ما أورده روزيقنولى من أحكام قيمية إذ أنها لا تضيف شيئا يذكر لمعلوماتنا عن تلك الفترة.

وصل القس الإيطالى روزيقنولى للخرطوم يوم ١٨٨١/١/٢٨م بناء على دعوة من كمبونى (هو القديس المشهور دانيال كمبونى المولود بإيطاليا فى ١٨٣١/٣/١٥م والمتوفى السودان فى ١٠/ ١٠/ ١٨٨١م. المترجم) وأرسل على الفور لكردفان حيث عمل مبشرا فى إرسالية الدلنج، ثم سافر للأبيض فى ذات العام الذى حاصر فيه المهدى المدينة وأسقطها. أحضر روزيقنولى لأم درمان مع جيش المهدية فى يوم ٢٦/ ٥/ ١٨٨١م وبقى بها حتى تمكن من الهرب فى عام ١٨٩٤م.

جاء فى بعض ما كتبه روزيقنولى عن تلك الرحلة من الأبيض لأم درمان ما نصه:

"وصلت قافلتنا مساء يوم ١٨٨٦/٥/٢٥م لمشارف أم درمان، حيث بتنا ليلتنا خارجها، وصادف وصولنا هبوب عاصفة رملية كثيفة كان بمثابة نذير لنا بما سنلقاه فى تلك المدينة المتربة. كانت عاصفة رملية قوية لم تكتف بحجب الرؤية تماما أمامنا، بل كانت تلفح وجوهنا، وبعنف شديد، بالرمال وكل ما كانت تجده فى طريقها، مما جعل التنفس الطبيعى أمرا عسيرا بل ومؤلما. فى صبيحة اليوم التالى دخلنا أم درمان بعد مسيرة شهر كامل من الأبيض. كانت القلعة القديمة قد تحولت لمعسكر ضخم يصل طوله لنحو ستة كيلومترات، وكان مزدحما بالأكواخ التى بنيت على عجل وتناثرت كيفما اتفق فى المكان دونما تخطيط أو تنسيق. وما أن حل عام ١٨٨٨م حتى امتدت أم درمان لمسافة كيلومترين فى اتجاه تلال كرري، وبلغ عدد سكانها المتباينى الملامح والأشكال والألوان نحو ١٢٠٠٠٠ إلى ١٣٠٠٠٠ نسمة، أتوا من جميع بقاع السودان. فى الوقت الحالى (المقصود بالطبع فى ١٨٨٨م. المترجم) أخذت المدينة طابعا عربيا واضحا، إذ بنيت بيوتها من الطين وعرشت سقوفها بسيقان الذرة. كانت بيوت الأغنياء مسورة بحيطان، بينما كان الفقراء يحيطون بيوتهم بزرائب للبهائم، وكان مدخل كل دار يحمى ليلا بطريقة غريبة وبدائية حيث تقطع شجرة صغيرة مليئة بالشوك وتوضع بحيث تكون أغصانها الشوكية أمام المدخل وجذعها للداخل، وبذا يمنع المتطفلون واللصوص من الدخول، ويمكن لصاحب الدار أن يضع أو يزيح الشجرة متى شاء. كانت الشوارع فى أم درمان ضيقة وملتوية وقذرة وكثيرة الانحناءات ومليئة بالحفر والجداول الصغيرة. لا تكاد تجد بقعة فى أم درمان ليس فيها جيفة متحللة تصدر منها رائحة كريهة لا تطاق. يصعب على المرء أن يهتدى لبيت أحد من الناس إذ إن البيوت جميعها متشابهة وليس للشوارع أسماء تميزها.

عند بلوغنا لأم درمان عوملنا فى البدء كأسرى حرب. كنا أحرارا فى التجول فى المدينة بيد أن الخروج منها ونحن على قيد الحياة كان محرما علينا. اهتبلنا فرصة الحرية النسبية التى منحت لنا فمضينا نجوس فى المدينة بحثا عن رفاقنا القدامى. رأينا فى تجوالنا معسكر المهدية القديم، والذى لم يبق منه غير حائط مبنى من الطين اللبن. شاهدنا أيضا بقايا جثث بقيت منذ أيام الاستيلاء على أم درمان بعضها لم تدفن، والبعض الآخر مغطى فقط

بطبقة رقيقة من التراب. كانت أرض المكان مغمورة البياض من كل تلك العظام البشرية الكثيرة المتناثرة. من تلك البقعة كان يمكن للمرء رؤية النيل الأبيض وضفافه الخضراء، وبعيدا على الجانب الآخر يمكن رؤية النيل الأزرق أيضا. بدت الخرطوم لنا من بعيد تثير الشجون ببقايا مبانيها خلف كتلة كثيفة من النباتات.

مررنا بالمسجد الذى شيد بالطوب المحروق، والذى يعتبر مبناه صرحا كبيرا بالمقارنة بما كان مبنيا فى ذات المكان أيام حياة المهدي، إذ لم يكن حينها غير أرض خالية مفروشة بقماش فقير النوعية ومحاطة بسياج من بضع شجيرات، دلفنا إلى السوق آملين أن نلقى فيه أحدًا من معارفنا، وكان السوق بالنسبة لنا متاهة حقيقة، إذ كان يموج بالمئات من العاطلين المتفرجين والفضوليين والمشترين والباعة واللصوص، مما جعل السير فى وسط تلك الجموع أمرا عسيرا لا يخلو من المخاطر، وكانت أصوات وجلبة تلك الجموع عالية صاخبة تصم الآذان. كان التجار يرجعون لبيوتهم مساء وهم يحملون بضاعتهم معهم وذلك لانفراط عقد الأمن. كانت معظم البضاعة المعروضة بالسوق مصرية الصنع، إذ لم يكن الخليفة قد فرض عليها بعد تلك الضرائب العالية التى فرضها فى سنوات لاحقة، فبيت المال كان مايزال يحوى حينها كمية كبيرة من الذهب والفضة التى غنمت من المدن التى تم الاستيلاء عليها.

سألنا تاجرا يهوديا قابلناه فى السوق عن مكان أخواتنا الراهبات. عرض علينا الرجل فى دماثة عالية القهوة وهو يجيب على أسئلتنا. ما إن جمعنا من الرجل من المعلومات ما يلزمنا حتى خلصنا أنفسنا منه ومن تهذيبه الاحتفالى المصطنع وأسرعنا الخطو نحو "الفريق" حيث يسكن جمع من الأسرى المسيحيين. هنالك قابلنا القسيسين بولنارى ولوكاتالى والراهبتين اللتين أوكل أمرهما الخليفة لرجلين أغريقين (فى الواقع زوجهما لهما قسرا. المترجم). كان لدينا الكثير لنتحدث عنه بعد فراقنا الطويل، فجلسنا نتسامر لساعات، ودعونا لقضاء الليل كضيوف عليهم، فذهب ريجنتو مع لوكاتالى بينما ذهب الأب أوهرفالدر مع الرجل الإغريقى كوكورامباس الذى عهد إليه رعاية إحدى الراهبتين، وأخذت أنا لبيت رجل سورى اسمه نعوم كان يدعى أنه طبيب.

رأينا العديد من الأغاريق والسوريين واليهود الذين كانوا قبل سنوات قليلة تجارا

أثرياء فغدوا اليوم فقراء يشتغلون بأعمال يدوية بسيطة ليحصلوا بالكاد على ما يسد رمقهم. أتى جوستاف كلوتز لمقابلتنا، لم يكف الرجل عن الحديث عن رغبته فى الفرار من أسر الخليفة، وقام بالفعل بتنفيذ ما عزم عليه لاحقا وكانت النتيجة مأساوية، إذ بلغنا فى سبتمبر من ذات العام أنه وجد ميتا (أو مقتولا) فى نواحى القلابات وهو فى طريقه لأثيوبيا. لم نقابل سلاطين إذ إن الخليفة كان قد بعث به مع الأمير يونس ود الدكيم فى مهمة حربية فى "ود عباس" (قبالة سنار).

فى اليوم الأول لوصولنا لأم درمان أخذنا الأمير المسؤول عنا لمقابلة الخليفة عبد الله. كان أول سؤال وجهه لنا الخليفة هو عن ما نعلمه عن هروب الأب بونومى (والذى كان قد نجح فى الفرار من قبضة المهدويين فى الأبيض عقب سقوطها على أيديهم)، ثم أمر بوجوب بقائنا فى "الفريق" المخصص للأسرى تحت إشراف ذلك الأمير الذى أحضرنا أمامه، وأخطرنا أيضا أنه لن نتلقى أى عون مادى من الدولة بعد الآن، وأن علينا أن نكسب عيشنا بأنفسنا منذ ذلك اليوم. فى مساء ذلك اليوم دعانا الأغاريق لحفل عشاء كان متواضعا جدا، بيد أنه بالقياس إلى شظف العيش التى كابدناه كأسرى للمهدى فى الأبيض فقد كان ذلك الحفل مترفا بهيجا.

لم تمر إلا أيام قليلة على وصولنا لأم درمان حتى شهدنا فيها عرضا ضخما كان يقوده الأمير حمدان أبو عنجة العائد لتوه من الأبيض. غادر الخليفة داره مع طلوع شمس تلك الجمعة وهو يسير بتؤدة بين حراسه متفقدا طائفة من الجند، ثم جلس فوق سرج جمل ضخم يراقب الصفوف المتحركة من جنوده وسط أصوات التهليل والتكبير والحمد. بعد الفراغ من العرض أدى صلاة الجمعة، ثم قاد الجموع فى موكب كبير لا يقل أفراده عن ستين ألفا محارب. كان الجميع وبإشارة واحدة منه ينحنون ويلتفون برؤوسهم أو وسطهم، ثم يقفزون وهم يرفعون سيوفهم وحرابهم نحو السماء. كانوا خلال تلك الحركات يصدرون أصواتا صاخبة وهتافات رتيبة. وبالنظر إلى العدد الهائل من الرجال الذين كانوا يصيحون عاليا فقد بدت لى تلك الأصوات وكأنها أصوات وحوش ضارية يتردد صداها من بعيد. وقفنا مشدوهين بل مذعورين مرعوبين من ذلك المشهد الرهيب الذى استمر لساعات ثلاث والذى لم نر له من قبل نظيرا. راقبنا الجميع وهم يصلون.

كـانوا يركعـون ويقعـون سـاجدين مـرددين بصـوت واحـد: "الله أكـبر". كنـا نعلـم أن المصريين ينغمون (فى الأصل يغنون. المترجم) القراءة فى الصلاة بأصوات ندية، بيد أن الخليفة أمر بأن تكون القراءة فى الصلاة والابتهالات كلها على نغمة رتيبة واحدة لا تتغير.

بعد انقضاء الصلاة أمر الخليفة بإطلاق البنادق. أثار صوت إطلاق النيران بعض المتفرجين بنوبة تعصب مفاجئة فألقوا بأنفسهم إلى مرمى النيران فلقوا مصارعهم على الفور. لم يبد على الخليفة أدنى توتر أو قلق مما حدث أمامه بل قال: إن أولئك الضحايا هم شهداء سيدخلون الجنة مباشرة، فأثار قوله موجة من الرضاء والحبور فى أوساط الجموع المتراصة. بعد انتهاء الاستعراض العسكرى أمر الخليفة قائد كل علم بأن يحضر أمامه ليقدم فروض الولاء والطاعة وليجدد البيعة. فعل الجميع ذلك بحماس وتزاحم مفرط حتى إن الجموع المتدافعة كادت أن تسحق الخليفة نفسه، كانت نتيجة تلك الفو ضى أن قضى بعضهم دوسا تحت حوافر الخيل أو اختناقا بين الحشود، بعد أن هدأ الجميع تم دفن من ماتوا دون إظهار أدنى شعور بالحزن أو ملمح بالفقد بينما كان الجميع يرددون أن "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

قضينا فى ضيافة الإغريق والسوريين قرابة شهر كامل، وكان لابد من أن نجد لنا بعد ذلك عملا نقتات منه ويكفينا تضيف الناس. بدأنا ببناء بيوت صغيرة لنا، وساعدنا فى ذلـك بعـض الشـباب الـذين كـانوا يقيمـون فى السـابق معـا فى إرسـاليتنا، وكـانوا يـأتون لمساعدتنا فى البناء فى أوقات فراغهم بعد الفراغ من الخدمة فى بيت الخليفة. عندما اكتمل بناء بيوتنا آثرت العمل فى مجال نسج حصائر القش، وهو العمل الذى كنت أمارسه من قبل، بينما أقبل الأب أوهرفاللدر على صناعة الأنوال المستخدمة فى نسيج أوشحة و أقمشة قطنية مختلفة. وجد ريقتو له عملا مع الإغريقى كوكورامباس.

سرعان ما هجرت مهنتى بعد أن أيقنت أننى لن أكسب منها ما يكفى لسد الرمق حتى إن وصلت الليل بالنهار فى العمل. وجدت رجلًا مسلما طيبا وعدنى بإيجاد عمل لى فى مجال خياطة ملابس الدراويش البسيطة فى منزلي. بيد أن هذه المهنة لم تدر على ما يقابل نفقات الحياة اليومية ودفع "الفطرة" التى فرض على دفعها فى شهر رمضان (وقيمتها نحو قرشين مصريين) وإخراج الزكاة، والتى كان من الواجب علينا دفعها فى منتصف كل سنة

وهى نسبة ثابتة من الدخل الصافي، ومنصوص عليها فى القرآن. كانت الزكاة و"الفطرة" هما الضريبتان الوحيدتان التى فرضهما المهدى على الناس، بيد أن الخليفة فرض لاحقا مزيدا من الضرائب بحسب مزاجه وهواه.

فى كل ما مارسناه من مهن لم نكن نكسب أكثر من ثلاثة قروش مصرية فى اليوم. ولكن ذات يوم اقترح على خادم أمير الأبيض أن أجرب التجارة والشراكة معه، واختار لى بيع الفاصوليا المطبوخة والخبز (لعلها الكسرة. المترجم) فى السوق. استشرت الأب أوهرفالدر فى الأمر فصدنى عنه وقال ما معناه إنه يجدر بى ألا أشارك مسلما فى عمل تجاري، فهم قوم تعوزهم الأمانة وحسن النية والطوية. خسر ريقنتو مالا كثيرًا من عمله مع جورج استانبولى (لاحظ أن الكاتب كان قد ذكر فى فقرة سابقة أن الرجل وجد عملا مع الإغريقى كوكوراماباس. المترجم). اقترح الأب أوهرفالدر على أن نشترك معا فى عمل تجارى ما، وراقت لى الفكرة. أسرعنا الخطا لبيت المال للحصول على الموافقة وتحديد الموقع الممنوح فى السوق. أجيب طلبنا بسرعة فائقة إذ إن الخليفة كان قد أمر بتسهيل أمر حصولنا على سبيل لكسب العيش. بيد أن حصولنا على قطعة أرض خالية فى السوق لم يكن كافيا، إذ كنا نفتقر للمال لبناء عشة صغيرة نستخدمها كمتجر صغير لنا. اقترح على الأب أوهرفالدر أن نلجأ للاستدانة من رجل يهودى يقال له: بسيونى كنا قد سمعنا عنه ما سرنا. لم أكن على معرفة بالرجل، وأثارت فى نفسى فكرة مد يدى بالسؤال لرجل يهودى الكثير من الامتعاض، وأمضيت عدة أيام وأنا أقلب الأمر وأفكر فى ما يجب على فعله. تخلصت أخيرا من شعورى بالامتعاض من أن أبدو كشحاذ ملح أمام يهودى فذهبت لبسيونى وطلبت منه قرضا بعشرة طالر (يبدو أنه نقد جرمانى فضى كان سائدا فى أوروبا لأربعمائة عام. المترجم). حدثنى بسيونى أثناء المقابلة أنه من أصل إيطالى ومن مدينة ليفورنو تحديدا. كان يجيد التحدث بلغتى (الإيطالية) على نحو متوسط، وهو متزوج لامرأة من مدينة سيميرنا (الواقعة على بحر إيجة فى الأناضول. المترجم). أبدى الرجل لطفا زائدا وهو يوافق على منحى القرض المطلوب، بل وزاد أنه يعتبر ذلك المال هدية منه لي، وظل يرفض وبإصرار فى ما أقبل من شهور أن أرد له ما استدنته منه.

قمنا بتجهيز المحل بتثبيت أربعة أعمدة خشبية عليها غطاء من قماش، وسورنا المحل

بحوائط قصيرة لا تتعدى سنتيمترات قليلة استخدمناها كمقاعد للزبائن. ربحت تجارتنا من يومها الأول، بيد أن العمل كان شاقا، إذ كان على القيام بخدمة عدد كبير من الزبائن فى وقت واحد. أصبت كذلك بنوبة حزن وكآبة شديدة من كوني، وأنا القس المسيحي، أعمل خادما لهؤلاء الناس. كان للقساوسة فى سنوات الاحتلال المصرى للسودان سلطة ونفوذ قويين على هؤلاء الناس، واليوم انقلب الحال فصرت خادما أطيع أوامرهم! كان علينا توفير الماء للزبائن، وكانت المياه عزيزة المنال فى أوقات كثيرة، فثمنها كان يحدد بحسب عدد النساء العاملات فى بيع المياه فى السوق وقتها. فى بعض الأحايين كنا نضطر لدفع ما يصل لخمسة ليرات ثمنا للبرمة الواحدة".

فى تلك الأيام أصدر الخليفة أمرا صارما لأمير دنقلا عبد الرحمن النجومى بالهجوم على مصر واحتلالها. كانت تلك هى أواخر عام ١٨٨٨م ونذر عام جدب ومجاعة تلوح فى الأفق. كانت لحملة النجومى هدفان مزدوجان أولهما : هو الحفاظ على هيبة المهدية بعد أن كاد صيتها يذهب بين الناس، وثانيهما : هو صرف الأنظار عن المجاعة التى بدأ الناس يحسون آثارها بالفعل. كانت تلك المعركة فى نظر الخليفة فرصة لنهب غنائم ومؤن من العدو، بيد أن الرجل لم يكن يحمل فعلا أمر تلك الحملة على محمل الجد، وإلا لكان قد أخذ لها عدتها، ووحد كل الرايات ولقادها بنفسه. كان يقال: إن النجومى من أشجع أمراء المهدية وكان يلقب ب "باب الفتوح". وبالإضافة لشجاعته الفائقة فقد أظهر ذلك الأمير فى غضون حصار الخرطوم (والذى كان من أبرز فرسانه) روحا عسكرية شديدة الانضباط. قيل: إنه سمع أحد القادة المشاركين فى حصار الخرطوم يقول من فرط الإحباط: إن الحصار لم يظهر فائدة، وأن غردون ليس مثل هكس باشا، فما كان من النجومى إلا حز رأسه بالسيف. قتل النجومى وهو لما يبلغ الثانية والأربعين من العمر فى المعركة التي جرت ضد السردار قرينفل قائد الجيش البريطانى – المصرى فى الثالث من أغسطس ١٨٨٩م فى توشكى شمال وادى حلفا، وقتل معه فى تلك المعركة ما يربو على ١٥٠٠ من الجنود (الدراويش) بينهم ١٢ من الأمراء و٥٠ من حملة الرايات.

عندما غادرت الحملة أم درمان فى طريقها للشمال ألفينا أنفسنا فى وضع عسير إذ كسدت تجارة مطعمنا الصغير لقلة الزبائن. كان علينا التخلى عن بيع الفاصوليا المطبوخة

وأن نتخذ لنا حرفة صغيرة أخرى لكسب حفنة قروش فى نهاية كل يوم. ولزيادة الطين بلة فى حالتنا، فقد أمر الخليفة بإعادة تنظيم السوق، تلك العملية التى كانت من نتائجها أن فقدنا المحل الذى كنا نستخدمه كمطعم صغير. كانت الخطة الجديدة تقضي بتجميع كل أصحاب الحرف الواحدة فى جانب واحد من السوق، فمنحنا قطعة أرض صغيرة فى مكان فى السوق خصص لبائعي الأغذية. كان هذا يعنى زيادة حدة المنافسة، وجعل حياتنا التعيسة أصلا أكثر عنتا ومشقة. وفوق هذا وذاك كان يجب علينا الحصول على تمويل آخر لبناء محلنا الصغير، ولم يكن أمامنا من بد غير طرق باب الاستدانة المذل تارة أخرى. اتفقت مع "روقتو" (أسير إيطالى آخر. المترجم) على أن أستخدم المحل أسبوعا، ثم يستعمله هو أسبوعا آخر، وهكذا دواليك، إذ إن حجم العمل لم يكن ليستوعبنا معا فى ذات المكان. كان كل منا خلال أسبوعه "الحر" يقوم ببيع وشراء حب البطيخ وزيت السمسم وبعض الأشياء البسيطة الأخرى، وصنع الأحذية وحياكة الثياب ونسج المفارش وما إلى ذلك.

سأحاول هنا أن أعطى فكرة مبسطة عن السوق الذى قامت السلطات بتنظيمه بالقوة. أزيلت كل البيوت والعشش التى كانت موجودة فى داخل السوق، وأنشئ فى طرفه سجن ومحكمة، وسور المبنيان بزريبة لتحديد مكانهما. كانت مساحات المحلات المخصصة لكل حرفة تتفاوت بحسب عدد المشتغلين بتلك الحرفة، وكان على صاحب كل محل القيام بتشييد محله وتظليله حماية له وللزبائن من حر الشمس. شيدت فى السوق شوارع ضيقة متقاطعة وغير منتظمة، صارت متاهة حقيقية وفى غاية القذارة بعد أيام قليلة من افتتاحه. غدا ذلك السوق مركزا لكل أوجه النشاط فى المدينة.

كنا بين حين وآخر نؤمر بالعمل دون أجر (كعمال سخرة) ويضاعف ذلك من محنتنا الثقيلة، إذ كان الخليفة قد أمر ببناء قبة ضخمة فى المكان الذى قبض فيه المهدي. وللحصول على مواد البناء اللازمة كان الخليفة يرسل العمال للخرطوم لهدم بعض مبانيها المبنية بالطوب المحروق، ونقل ذلك الطوب بالمراكب لأم درمان واستخدامه فى بناء القبة فى أم درمان. قرر الخليفة أن يشارك جميع سكان أم درمان فى بناء قبة المهدي، ووعد أنهم سيجزون الجنة نظير ذلك العمل. قسمت الأعباء بحيث يظفر كل حى ببناء قسم من

القبة. افتتح الخليفة المشروع بنفسه حيث سار فى موكب مهيب ومعه كل الأمراء إلى النهر ليحضر الماء ومواد البناء لموقع العمل.

كان هدف الخليفة هو جعل قبة المهدى مزارا يحج إليه : "مكة السودان". كان من ضمن تصميم المشروع تشييد ساحة ضخمة حول المسجد والذى كان مقدرا له أن يسع ل ٧٠٠٠٠ مصلٍّ، ويمكن لنصف ذلك العدد أن يستظل بظل مفارش موضوعة على أعمدة منصوبة.

افتتح الخليفة مشروع بناء القبة بنفسه، وزاد من حماسة الناس له ذلك الوعد الذى أطلقه الخليفة بدخول الجنة لكل من يساهم فى البناء. كان أكثر الناس تحمسا للمشروع هم الذين يقطنون فى الأحياء يقطنها فى الغالب البقارة والمتعصبون الآخرون، والذين توافدوا رجالا ونساء وأطفالا للعمل فى البناء، بيد أن الآخرين كانوا أقل حماسا للعمل دون أجر، وتفادى بعضهم تلك السُّخْرَةُ برشوة الأمير، مما ضاعف من حجم العمل على من لا قبل لهم بدفع تلك الرشوة. كنا نجبر على ذلك العمل المجانى لمدة يومين أو ثلاثة فى الأسبوع، وكان العمل يتلخص فى حمل الطوب والماء لمسافة كيلومتر كامل من النهر لموقع بناء القبة وذلك تحت لهيب شمس حارقة، وفى بعض الأحايين كنا نساعد البنائين فى عملهم. كان مما زاد أعباءنا المالية، ونحن على فيه من فقر وبؤس، فرض الخليفة لضريبة إضافية لتكملة بعض الآثار الأخرى، ففرض بيت المال على كل أمير أن يجمع ممن تحته من السكان مبلغا محددا بأى وسيلة يراها. حدث ذات مرة أن عجزت عن الدفع، فألقى بى فى السجن.

كانت "قبة المهدي" تتكون من قاعدة مربعة يبلغ طولها أربعة أمتار وارتفاعها ستة أمتار، وبداخلها توجد غرفة لها أربعة أبواب، ويدخلها الضوء عبر ١٢ نافذة دائرية، ثلاثة فى كل جانب، وهى موضوعة عاليا تعلو أقواس الأبواب. صنعت زوايا الركائز من مربعات حجر جيرى أخذت من مبنى الإرسالية التبشيرية بالخرطوم، مثلها مثل الأبواب التى أحضرت من بعض مبانى الخرطوم المهدمة. كانت القبة نفسها ترتفع لسبعة أمتار وبنيت على شكل "رأس السكر" وفى أعلى نقطة فيها وضعت حربة. حلت تلك الحربة محل الهلال الذى كان قد وضع فى البدء، إذ إنه قيل أن الهلال هو رمز مصري. كانت القبة

الخالية قد بنيت فوق قبر المهدي. بنيت على كل جانب من أركان قاعدة المبنى أربع قباب صغيرة تقوم على أربع أعمدة صغيرة ووضعت فى أعلى كل منها حربة (ربما لتستخدم فيما بعد لقبور خلفاء المهدى الأربعة). كانت كل المبانى مبنية من الطوب والملاط والرمل والكلس، ومدهونة بخليط من الرمل والكلس، وكان المبنى من الداخل مزخرفا من الداخل بأشياء متنوعة غنمت من القادة الأجانب والمحليين الذين هزمتهم جيوش المهدية، بعضها مصرى والبعض الآخر سوداني، والباقى كان قد غنم من جون ملك أثيوبيا. صمم المبنى وأشرف عليه مهندسون كانوا يعملون سابقا فى الحكومة المصرية. كانت الضرائب التى سبقت الإشارة لها تستخدم كرواتب للبنائين. كانت كل مبانى أم درمان، عدا القبة وما حولها، ذات طابق أرضى ومبنية بالطين، إذ إن الخليفة منع منعا باتا البناء بالطوب المحروق والملاط، حتى يكون مبنى القبة مميزا وفريدا ويمكن رؤيته من كل مكان فى أم درمان.

لقد شهدت مبنى تلك القبة وهو يبنى، ثم رأيته من بعد ذلك من على البعد، ولم أجد فى نفسى الرغبة فى أن أقرب منه إذ إن ذلك كان سيعرضنى لأولئك المتعصبين والذى كانوا يتوافدون عليه بالآلاف للصلاة.

ما إن تم الفراغ من بناء القبة حتى فكر الخليفة فى التخطيط لبناء سور حجرى مدهون بالطين والكلس حول القبة وكذلك حول بيته. ومن أجل تلك الغاية طرد الخليفة ساكنى البيوت الذين شاء حظهم العاثر أن يمتلكوا منازل حول بيته. أرسل الخليفة رجاله فجأة ودون سابق إنذار لطرد جميع من كل فى تلك المنازل المجاورة لبيته، بل ومنعهم من أخذ أبواب وأخشاب بيوتهم وأغراضهم الأخرى، ولم يسمح لهم بأخذ شيء من منازلهم تلك غير بعض الأدوات المنزلية. أحل الخليفة البقارة التعايشة المخلصين له والقبائل السوداء محل أصحاب تلك البيوت، إذ كان الخوف قد بدأ يساوره والشك يملؤه فيمن حوله من غير هؤلاء من سكان أم درمان وغيرها، فبدأ يأخذ حذره من رعيته ويبدأ عهدا طويلا من الإرهاب. بلغ طول السور الضخم الذى بناه الخليفة أكثر من ثمانية أمتار، وعرضه يزيد عن مترين، وتم تشييده بالطريقة المعتادة، أى بنظام العمل بالسخرة، وبصعوبة بالغة إذ كان من اللازم تكسير الصخور للحصول على الحجارة وجلبها لموقع العمل من موقعها

البعيد. والعادة أيضا كلف سكان كل حى فى أم درمان بتشييد جزء من السور، لذا تفاوت تقدم العمل بحسب همة ونشاط أفراد الأحياء المختلفة. كنت قد أجبرت على أداء ذلك العمل حتى تمكنت من الفرار من المدينة، ولم يكن العمل قد اكتمل حينئذ. كنا عندما يحين دور حينا فى المشاركة فى بناء السور نعمل طوال اليوم دون أجر، ولولا ما كان يتفضل به على الإيطالى سوجارو لمت بالقطع من الجوع وفرط الإرهاق. كنت كثيرًا ما أستدين قرضا ربويا فاحشا فقط حفظا للحياة، وتمكنت بعون من سوجارو من رد كل تلك الديون ذات الفائدة العالية.

جمع الخليفة فى بيته والبيوت التى من حوله من يثق فيهم من أهله وأفراد عشيرته، وكانوا يحتفظون بكميات كبيرة من الأسلحة والمؤن والذخائر واللافتات. للسور بوابة واحدة حراستها مشددة، وكان يحرم على "الغرباء" دخول تلك القلعة الحصينة، والتى كانت أشبه بقرية صغيرة وبها سوق منفصل. بعد معركة أقوردات أحس الخليفة بمزيد من القلق والخوف والتوجس فأضاف حائطا طينيا جديدا وجلب حوله مزيد من جنود الحراسة (أقوردات هى مدينة تقع الآن فى دولة أرتريا على الطريق بين كسلا ومصوع، وكانت في٢١/ ١٢/ ١٨٩٣م مسرحا لمعركة دامية بين الجيش الإيطالى وجيش الخليفة، انتصر فيها الجيش الإيطالي. المترجم).

عشت فى أم درمان فى مسْغَبَةٌ وبؤس شديدين، وكثيرًا ما كنت أحاول النوم ليلا وأنا أتضور من الجوع. وكأن الحرمان المادى الذى كنا نكابده لم يكن كافيا، فكنا هدفا سهلا ودائما للسخرية والإساءات أيضا. فعلى سبيل المثال حدث أن ألغى الخليفة استخدام العملة المصرية من التداول فى الأيام التى كنا نبيع فيها الفاصوليا والخبز فى مطعمنا الصغير بالسوق، واستبدلها بقطع من القماش المحلى (يمكن الرجوع للمقال الذى قمنا بترجمته عن "سك العملة فى عهد المهدى والخليفة" بقم اتش. س. جوب وعن المشاكل التى نجمت عن استخدام قطع قماش الدمور عوضا عن النقد. المترجم). كان طول تلك القطعة القماشية يبلغ نحو ذراع وهى تعادل ربع تالر (عملة جرمانية. المترجم). لم يكن أحد من الناس يقبل استخدام تلك القطعة من القماش كبديل للنقد رغما عن إصرار "بيت المال" على ذلك. كان من نتائج ذلك أن قام بعض المضاربين بشراء تلك القطع القماشية

بنصف قيمتها الاسمية واستخدامها لاحقا فى شراء بضائع من "بيت المال" حيث تقبل تلك القطع بكامل قيمتها كنقد مبرئ للذمة. وفى آخر المطاف أوقف استخدام تلك القطع القماشية كنقد بعد أن تبين للخليفة خطل الفكرة وتسببها فى ما لا يحصى من المشاكل والخصومات.

حدث ذات مرة أن أتى لمطعمى بعض الزبائن وبعد فراغهم من تناول الفاصوليا (الطبق الوحيد الذى أقدمه) دفعوا لى قيمة ما تناولوه بقطع من الدمور، بل وأصروا على أن أدفع لهم "الباقي" بالعملة المصرية. لم يكن ذلك باستطاعتى فاقترحت عليهم أن يأخذوا من الفاصوليا ما يرغبون نظير القيمة الرسمية للقماش الذى دفعوه. أجابونى بسيل من اللعنات والشتائم المقذعة. غضبت بالطبع ونفد صبرى فرددت عليهم - ولأول مرة فى حياتى - ووصفتهم بالقذارة، ولم يكن ذلك من مألوف طبعي. حضر حاجب المحكمة وأخذنى لأقف أمام القضاة الأربعة المختصين بشؤون السوق والتجار فيه. كانوا جالسين على حصيرة وأمامهم نسخة من القرآن الكريم كانت تستخدم لأداء القسم. تم الحكم على بأربعين جلدة بالكرباج (سوط من جلد وحيد القرن). وكما هو الحال مع أحكام ذلك النوع من المحاكم تم تنفيذ الحكم على الفور. تم طرحى أرضا وبدأ أحد العاملين بالمحكمة فى جلدى على ظهري. شهد عقوبتى طائفة من المتسوقين والمتسكعين والذين - والحق يقال - لم يسخروا منى أو يعيروني، إذ أننى احتملت الجلد دون إظهار أى قدر من الجزع أو الصراخ أو التلوى من الألم.

مضت أيام حياتنا القاسية البائسة تمر فى بطء رتيب قاتل، ليس فيها من لحظة فرح أو حبور واحدة. كانت تخترق أحيانا رتابة تلك الأيام ما كنا نظنه أحداثا قد تبعث فينا بعض الأمل فى فرج قريب... بيد أنه سرعان ما كانت آمالنا فى النجاة تتبخر وتتبدد، بل وتسوء حالنا أكثر وأكثر.

فى يوم ٢٤/١٠/ ١٨٩١م حدث تمرد ضد الخليفة وأفراد قبيلته المسيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد بسبب المعاملة السيئة التى كان يلقاها الخلفاء الآخرون من الأشراف وأفراد عائلة المهدي. كان أفراد عائلة المهدى فى حالة من الفقر والبؤس الشديد إلى الحد الذى كانوا لا يجدون فيه ما يكفيهم من الطعام. كان الحال بالنسبة لنساء المهدى أشد

بؤسا، فقد كن قد منعن من الخروج أو الزواج ، وفرض عليهن ارتداء ثياب الحداد بصورة دائمة. دعت تلك الحالة بعض الخلفاء (الأشراف) وأفراد عائلة المهدى لحمل السلاح ومحاولة قتل الخليفة. لم يكلل ذلك التمرد الدموى والذى أودى بحياة الكثيرين من الطرفين بالنجاح. كانت أيام ذلك الصراع العديدة أيام رعب شامل قضاها سكان أم درمان فى بيوتهم لا يجرؤون على مد رؤوسهم خارجها. بدت أم درمان فى تلك الأيام وكأنها مهجورة تماما، وعاث فيها البقارة والعرب من خارجها نهبا وسلبا وقد أمنوا العقوبة. بدا وكأن حكم الخليفة قد آذن بزوال رغم أنه كان يبعث بين حين وآخر بجماعات من فرسانه لتطلب من السكان التزام الهدوء والسكينة،وتطمئنهم بأن الوضع تحت سيطرته. دعت تلك الفوضى سكان كل حى لتنظيم أنفسهم وتكوين فرق للحراسة والدفاع عن حيهم، بينما شدد الخليفة الحراسات على مخازن سلاحه وعتاده واستقدم المزيد من رجال عشيرته المخلصين لأم درمان. دعا الخليفة معارضيه للتفاوض فى قبة المهدي، وتم اللقاء بين الطرفين مثمرا عن هدنة ووعد من الخليفة بعطايا ومنح وتكريم للمعارضين لحكمه. أوفى الخليفة بوعده خلال أيام الهدنة، بيد أنه انقلب عليهم فى صبيحة يوم من أيام بداية عام ١٨٩٢م فاعتقل الخليفة محمد شريف وأبناء المهدى وأتى بهم للسجون مصفودين. لم يفت عليه أن يشير إلى أن تلك هى مشيئة الله التى رآها فى منامه. استثنى الخليفة واحدا من هؤلاء وكان هو الخليفة ود حلو لأنه كان كبيرا فى السن وغبيا لا خوف منه ولا خطر (هكذا! المترجم). أمر الخليفة بوضع ثمانية أغلال على كل واحد من المعتقلين من الخلفاء والأشراف لمنعه من الحركة، بيد أنه كان ينعم على الواحد منهم بإزالة الأغلال واحدا بعد الآخر بصورة دورية. وذات ليل قام الخليفة بنفى بعض معارضيه لجبل الرجاف حيث لقوا حتفهم هنالك بعد زمن قليل بسبب وخامة الهواء، وقام بنفى البعض الآخر لفاشودة حيث أمر أميرها الزاكى طمل بأن يقتلهم ضربا بالعصى بمجرد وصولهم وأن يترك جثثهم فى العراء أو أن يلقى بها فى النهر كطعام للتماسيح. ألقت أخبار تلك البربرية فى معاملة سجناء الخليفة الرعب فى قلوب سكان أم درمان فسرى الخوف فى نفوسهم على سلامتهم الشخصية. سمعت وتأكدت شخصيا من أخبار تلك الممارسات البربرية من أحد عبيد الزاكى طمل السابقين (واسمه كارلو)

وهو من السود الذين كانوا يعملون تحتنا فى السابق، وبعد وفاة الزاكى طمل عين كأحد حراس الخليفة. كان كارلو، مثله مثل كل من كان يعمل فى خدمتى قبل المهدية، يحفظ لى الود ويزورنى بصورة شبه يومية تقريبا ويسر إلى بما كان يجرى فى أوساط عائلة الخليفة. كذلك علمت من كارلو بالطريقة التى تخلص بها الخليفة من القائد القوى الزاكى طمل، والذى كان الخليفة يغار منه ويخشاه، خاصة بعد أن خاض عدة معارك فى القضارف صد فيها تقدم الجيش الإيطالى وصار بطلا فى نظر الكثيرين. استدعى الخليفة الأمير الزاكى لأم درمان بعد أن عين قريبه أحمد على فى مكانه، واستقبله فى أم درمان استقبال الأبطال بيد أنه استخدم حيلة ما لفصله عن حرسه الشخصي، ثم قام يعقوب شقيق الخليفة بدعوة الزاكى لمنزله حيث كان فى انتظاره ثمانية من عبيد يعقوب السود الأشداء قاموا بتقييده وربط يديه بالسلاسل الطوال حتى إن كتفيه خلعتا من مكانهما ، ثم شلت يداه تماما. كان الخليفة يخشى بأس الزاكى وقوته لذا ظل فى أثناء عملية اعتقال الأمير يقف على باب داره ممتشقا سيفه وبندقيته خوفا من أن يحرر الزاكى نفسه من الاعتقال ، ويحدث ما لا يحمد عقباه، تم أخذ الزاكى إلى سجن "الساير" (سجن مبنى من الحجر دون نوافذ وله باب واحد صغير) على ظهر حمار حيث حبس فى زنزانة صغيرة مربوطا بسلسة حديدة حول عنقه وممتدة إلى أعلى الباب بحيث لا تسمح للأمير المسجون بالرقاد أو الجلوس. بعد ثلاثة أيام وجد الأمير الزاكى ميتا، فأخذت جثته ليلا وألقيت فى النهر. تلك كانت هى نهاية رجل طاغية مستبد أوغل فى دماء الكثيرين. وكان يحكم على ضحاياه دون أن ينطق بكلمة، بل يكتفى ببرم شاربه!

لم يكن الخليفة يولى حال شعبه البائس أدنى اعتبار، وأنصب كل اهتمامه على مصالحه الشخصية. أكد لى كثير من المقربين له أنه كان يحتفظ لنفسه بغرف مكدسة بالتالارات (مفردها تالر وهى عملة جرمانية) والتى بدأت تتناقص شيئا فشيئا من "بيت المال". كانت تلك الأموال مخبوءه فى صناديق ذخيرة كانت تخص الجيش المصري، ولمنع سرقتها كانت تخاط حول تلك الصناديق قطع من جلود الأبقار، وتترك لتجف، فيصعب فتحها بعد ذلك. قيل أن الخليفة كان يحتفظ لنفسه بقدر كبير من النقد تحسبا لليوم الذى قد يضطر فيه للهروب من أم درمان، وأجد نفسى الآن متفقا مع هذه الفرضية.

يحكم الخليفة السودان اليوم بالحديد والدم، ولم تعد عنده شعارات "حكم العالم" و"عودة الدين الحق" إلا أهدافا ثانوية. لم يكن مسموحا للمسيحيين بدخول البلاد خوفا من "التأثير الأجنبي"، بينما بقى قليل من الأسرى الأوربيين فى أم درمان هم أربعة إيطاليين وألمانى واحد وتسعة عشر إغريقيا وثمانية من اليهود وثمانية سوريين (لم عدهم كاتب المذكرات من الأوربيين؟ المترجم). كان هؤلاء الأسرى ممنوعين من مغادرة البلاد حتى لا تعلم القوى المتحضرة حقيقة حالة الاهتراء والانحطاط التى يمر بها السودان. ولذات السبب منع الخليفة المسلمين من السفر لمكة لأداء فريضة الحج. كان سكان وادى النيل يأملون ويترقبون فى شوق عودة المصريين لحكم السودان بصورة من الصور بعد أن أضر بهم اضطهاد الخليفة، والذى كانوا يرونه يعمل لطردهم من أرضهم وإحلال عشيرته البقارة مكانهم.

بلغ السودان اليوم الدرك الأسفل من الفقر والعزلة، فقد أودت به الحروب والمجاعة والأمراض وأهلكت الحرث والنسل، وقضت بالكلية على بعض القبائل، بل وتضاعفت أعداد الحيوانات الوحشية مئات المرات نسبة لانخفاض أعداد الصيادين، وصارت تتجاسر وتهاجم القرى بالعشرات وتفتك بالأطفال والعجزة والمرضى الذى لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم أمام تلك الوحوش الجائعة.

تتكون أم درمان من خليط من كل الأعراق والقبائل الموجودة فى السودان، وكان يوجد فيها كذلك مصريون وهنود وعرب من مكة وسوريون وأغاريق وإيطاليين وأتراك وإثيوبيون وأفارقة من آكلى اللحوم البشرية من قبيلتى "نيام نيام" و"المانقبوتو" (لعل المقصود بالنيام نيام قبيلة الزاندي، والمانقبوتو قبيلة أصلها فى الكنغو. توجد كثير من الكتابات الأوربية عن القبائل التى يزعم أنها تمارس أكل لحوم البشر، وفى الأمر أخذ ورد ونظر. المترجم). تتراوح سحن الناس وألوانهم فى أم درمان ما بين اللون الأسود الداكن إلى الأقل دكنة حتى نصل للون الأبيض، يمكن القول بأن أم درمان هى متحف حقيقى لكل أنواع البشر، تجد فيها أناسا عراة وآخرين يزينون أجسادهم فى مواضع مختلفة بمختلف أنواع الوشم، وترى نسوة لا يبدين من أوجههن غير العينين، وأخريات يسرن عاريات إلا من خرقة بالية تغطى بالكاد أفخاذهن. كان من بين السكان ساميون أنوفهم

معكوفة ولحاهم كثة، وزنوج/ زنجانييندوو وسامة وأجساد قوية رشيقة وأنوف فُطْسٌ وشفاه غليظة ممتدة. ويقطن متسبو كل عرق من الأعراق المختلفة فى أم درمان فى الغالب فى خيهم الخاص، ويصعب التداخل والتصاهر بينهم. تتعدد كذلك الألسن واللهجات التى تتحدث بها تلك المجموعات السكانية المختلفة، بيد أن لغتهم المشتركة التى يفهمونها ويتحدثون بها جميعا هى العربية، والتى كان لها طابع مقدس ورسمى كذلك. يزعم أتباع المهدى أن آدم وحواء كانا يتحدثان العربية، وأنها لغة أهل الجنة، حيث لا توجد هنالك لغة أخرى.

أقدر عدد سكان أم درمان فى تلك السنوات ب ١٥٠ ألف نسمة، بيد أن هذا العدد لا بد أنه قد زاد زيادة مقدرة بعد أن أمر الخليفة كل سكان المدن والقرى والدساكر التى تهدمت خلال سنوات الحرب وما بعدها بالهجرة لأم درمان، ولكنه كان عندما يشك فى احتمال حدوث تمرد أو انتفاضة ضد حكمه، يأمر أتباعه باجتثات مستوطنات كل من يظن أنه متورط بصورة ما فى تلك الانتفاضات أو التمرد.

وتناقص عدد السكان بشكل مريع أثناء المجاعة التى حاقت بالبلاد فى عام ١٨٨٩م. وكانت مخازن "بيت المال" مملوءة بالذرة التى استولت عليها القوات المهدية أثناء الحرب أو تلك التى كانت موجودة فى مخازن الإدارة المصرية حتى عام ١٨٨٧م. إلا أنه سرعان ما بدأت تلك الكميات تتناقص وبسرعة دون أن تعوض، إذ إن النشاط الزراعى كاد أن يتوقف بعد أن شارك المزارعون فى التمرد والانتفاضات التى قامت ضد حكم الخليفة وتم قتلهم أو اعتقالهم، أو تم تجنيدهم فى جيش الخليفة للمشاركة فى حروبه الكثيرة. وجعلت حروب المهدية المستمرة تلك الناس يفضلون عدم الانتظام فى عمل معين والعيش على القليل الذى كان يجود به "بيت المال" اعتمادا على شعارات المهدية التى كانت تنادى بالمساواة للجميع، وظل العمل الزراعى من الأعمال غير المرغوب فيها وذلك لاستمرار حالة الحرب وكذلك بسبب ما كان يقوم به أتباع المهدى من سرقات ونهب للمحاصيل. وكذلك انقطعت الصلات التجارية التى كانت تربط السودان بجيرانه بسبب انفراط عقد الأمن فى البلاد والضرائب الباهظة. ولم يكن الناس يزرعون غير الذرة، وكان إنتاجها قليلا لا يكفى حاجة كل السكان. ومن قوانين المهدية التى

عوقت الإنتاج الزراعى أنه كان مفروضا على من يرغب فى الزراعة من سكان أم درمان أن يحصل على إذن خاص من الخليفة قبل الخروج من أم درمان، ومعلوم أن الخليفة كان لا يرغب فى أن يغادر أحد من السكان أم درمان حتى لفترات قصيرة، علما بأن ممارسة الزراعة فى تلك الأيام كانت قصرا فى الغالب على العبيد.

حدثت الكارثة فى عام ١٨٨٨م عندما نفد مخزون الذرة من "بيت المال" وكان من المستحيل الحصول على أى كمية من الذرة بسعر رخيص وزمن معقول من أى مصدر. سرعان ما غدت أم درمان مسرحا لأحداث رهيبة. كان أنصار المهدى فيما مضى يسخرون من المصريين الذين حاصروهم فى مدينة الأبيض وأجبروهم على أكل الكلاب والحمير والجلود والقاذورات، واليوم أجبرتهم المجاعة هم أنفسهم على فعل كل ذلك، بل وأكل حتى أطفالهم.

نجا الأغنياء من آثار تلك المجاعة بشرائهم، وفى الوقت المناسب، لكميات كافية من الذرة. بيد أن الفقراء لم يكن بوسعهم التحسب أو الاستعداد لتلك الكارثة، فقد قفز سعر إردب الذرة من ٦٠ ليرة إلى ٢٥٠ ليرة. رأيت فى عيون تلك الحشود الهزيلة ذات الغور الذى رأيته فى عيون الناس ، وهم يهيمون على وجوههم وهم تحت الحصار فى الأبيض، ولكن فقط مع اختلاف الأعداد. رأيت فى أم درمان أيضا جموعا كثيرة من البشر يبحثون عن أى شيء يدخلونه فى أفواههم فقط لمجرد حفظ مهجهم، وشاهدت مئات من جثث من قضوا جوعا ملقاة على الطرق لم تجد من يلقيها فى النهر أو لذلك المكان الذى اختاره الخليفة كمقبرة. اليوم هنالك تلال من العظام المبيضة هى كل ما بقى من أولئك الذين ماتوا من الجوع. تكاثرت الضباع فى أم درمان واكتسبت جرأة عجيبة فصارت تجوس خلال شوارع المدينة، وذكر لى الأب أورفالدر أن ضبعة وجدت طريقها ذات مرة للعشة الحقيرة التى اتخذها سكنا له. كذلك تكاثرت الجوارح والطيور الأخرى فغطت سماء المدينة المنكوبة. كذلك شاعت عمليات خطف الأطفال، فقد حدث ذات يوم أن أفلحنا فى تخليص طفل من "براثن" رجل جائع، ولم يكن ذلك ليتم لولا أنه طرقت مسامعنا صرخات ذلك الطفل اليائسة. وحدث أيضا أن اقتحمت المحكمة امرأة وهى فى أشد حالات الفزع تطلب الحماية من والدتها التى زعمت أنها قد التهمت ولدها الأصغر،

وذكرت أنها ستكون الضحية المقبلة دون ريب. قبض على تلك الأم البائسة وأودعت السجن حيث فقدت عقلها وفارقت الحياة بعد أيام قلائل. تقاطرت علينا عدد من الأمهات يعرضن أطفالهن (للبيع أو الإهداء) بعد أن عجزت أثداؤهن المتغضنة عن إطعامهم، وجاءت ذات يوم امرأة للأب أورفالدر وعرضت عليه شراء أطفالها فأبى ولكنه أعطاها قليلا من الذرة وصرفها بعد أن دعا الله أن ييسر حالها، عادت المرأة في اليوم التالي ومعها طفلان فقط بعد أن مات الثالث من الجوع، ثم أتت في اليوم الذي يليه ومعها طفل واحد. تلك كانت آخر زيارة لها لنا.

شاع بين الناس في الأقاليم البعيدة الذين أضرت بهم المجاعة أن الغذاء متوفر في مدينة الخليفة، فظل يتوافد على أم درمان يوميا مئات الجياع من بربر وكسلا والقلابات وكركوج والأمل يحدوهم في أن يتناولوا أول إفطار لهم فيها بعد طول صيام. بيد أن كل ما فعلوه هو زيادة عدد الجثث الملقاة في الطرقات. وعجز الحراس عن إيقاف السرقات التي تكاثرت في تلك الأيام.

يا لها من أيام جهنمية تلك التي كابدناها!

وكان المبشرون من أمثالنا يتلقون بين حين وآخر عونًا إلهيًا يأتينا من الإرسالية، حين كان يبعث لنا مثلا بنحو ٢٠٠ تالر، ولكن كان من يسلمنا إياها يعطينا نصفها أو أقل بعد خصم ما يسميه " تكاليف الترحيل"، رغم أنه كان علينا أن نوقع على استلام المبلغ كاملا غير منقوص. بسبب تلك الإعانة كان لدينا ما يكفينا من ذرة لحفظ أرواحنا، بل وتوفر لدينا أحيانا بعض القليل لنعطيه للفقراء والمساكين.

ونجا من الموت جوعا بعض الشباب الزنوج من أتباعنا من الذين قبض عليهم المهدويون في إرسالية الدلنج وفي الأبيض، وكان عزاؤنا في تلك الأيام العصيبة هو تمكننا من تعميد الأطفال الذين كانوا يأتون إلينا طلبا للمساعدة وهم على شفا الموت من فرط الجوع. لم يكن بمقدورنا بالطبع أن نطيل من أعمار أجسادهم، بيد أننا بتعميدهم قد أعطينا الحياة لأرواحهم (التعميد في المسيحية بحسب ما جاء في موسوعة الويكيبيديا هو سر من أسرار الكنيسة السبعة تمارس بطقس معين هو التغطيس في الماء بغرض إزالة الخطيئة الأصلية، ومن يجري تعميده يصبح تابعًا ليسوع المسيح وتابعًا للكنيسة المسيحية.

المترجم). ذاع بين الناس فى أم درمان مثل يقول: إن "من لم يمت فى مجاعة سنة ستة (١٨٨٩م) لن يموت أبدا".

كانت واحدة من أخطاء الخليفة العديدة هو فرضه على تجار المحاصيل بيع الذرة للبقارة بسعر متدن لا يزيد عن ٣٠ ليرة للأردب، بينما كان سعره لغيرهم يبلغ نحو عشرة أضعاف ذلك الثمن. عد التجار ذلك نهبا مقننا لثروتهم.

قبل وقوع نازلة المجاعة، وفى غضون حرب ود النجومى ضد الإنجليز قرب وادى حلفا، كان نحو ٨٥٠٠٠ من الدراويش بقيادة الأمير الزاكى طمل يحاربون جيش الملك جون (يوحنا) ملك أثيوبيا والبالغ تعداده ١٥٠٠٠٠ على الحدود الشرقية وذلك فى معركة وقعت فى يوم ٩/ ٣/ ١٨٨٩م. كانت الأمور تتجه نحو هزيمة ماحقة للدراويش لولا أن رصاصة طائشة اخترقت قلب الملك الإثيوبى فخر صريعا، وتراجع بعدها الجيش الإثيوبي. لاحق الدراويش الجيش الإثيوبى المتقهقر وبعد يومين ألحق به الهزيمة فى معركة على الشاطئ الأيمن لنهر أتبرا، وظفر بجثمان الملك القتيل وحز رأسه وبعث به للخليفة فى أم درمان. لم يكن الخليفة يدرك مقدار الخسائر البشرية التى حاقت بجنده فى اليوم الأول للمعركة بل سر سرورا عظيما لرؤية رأس ملك إثيوبيا ، وأمر بعرضه على كل سكان المدينة، وإقامة الاحتفالات ابتهاجا بذلك الانتصار، بل وكان يؤمل أن يبعث برأس عدوه الإثيوبى لأعدائه فى الشمال كرسالة تحذيرية لحكامها تنذرهم بما ينتظرهم من سوء المصير لولا أن أخبار المعركة وخسائرها البشرية فى يومها الأول قد وصلته.

وجد الخليفة نفسه محاصرا ومنقطعا عن العالم الخارجى إلا من شاطئ البحر الأحمر، فهنالك الصحراء من جهة، وأعدائه الأثيوبيين من جهة أخرى، وهناك محطة وادى حلفا، والتى أغلق بابها الجيش البريطاني. عمل ذلك الجيش أيضا على إغلاق منفذ البحر لمنع دخول السلاح والذخائر والأغذية، وهاجم جنود العقيد هوليد اسميث حاكم سواكن معسكر الأمير عثمان دقنة يوم ١٩/ ٢/ ١٨٩١م وقتل ٧٠٠ من الجنود و١٧ من الأمراء مما دعا عثمان دقنة للانسحاب من معسكره، وبذا اكتمل حصار السودان. سرعان ما بان أثر ذلك الحصار فى أم درمان، فقد ارتفعت أسعار البضائع بصورة جنونية، واختفت بودرة الذخيرة مما حفز أحد الأغاريق لاقتحام عالم صنع الذخيرة، بيد أنه قتل عندما

انفجر محله في يناير ١٨٩١م، ونشر ذلك الانفجار الفزع في قلوب المواطنين. لجأ "بيت المال" لتصنيع الذخيرة من مناجم رصاص في دارفور، بيد أنها كانت ذات نوعية متدنية، ولجأ الخليفة للتهريب من مصر، وكذلك أغرى بعض التجار اليهود في المدينة لشراء ما عند المواطنين من أسلحة مخبأة فجمعوا منهم ما زاد على ألف بندقية. عندما تجمع ملاك البنادق أمام الخليفة لينالوا أثمانها ذكرهم بأن حيازة الأسلحة محرمة على الأفراد، وأمر بالتجار اليهود فزجوا في السجون. ولم يكن ذلك الفعل بمستغرب من الخليفة والذى كان عهده عهد رعب وإرهاب، ولا قيمة عنده لقانون، وكانت القرارات تصدر من فمه بحسب مزاجه في تلك اللحظة. لم يتبق لجيش المهدى بعد نفاد الذخيرة سوى السيوف والحراب، بينما حفظت البنادق في المخازن العسكرية.

كان الخليفة يختلف عن المهدى في أنه كان أكثر اقتصادا فيما يتعلق بالطعام، بيد أنه كان لا يتورع عن الانغماس في الشهوات الأخرى، فقد قيل : إنه كان في بيته أكثر من نصف ألف من الحريم، وكان ما إن يسمع عن امرأة جميلة في مكان ما حتى يأمر بضمها لحريمه. كان الجواسيس والبصاصون من أتباعه ينقلون إليه ما يقوله (ولا يقوله) سكان المدينة، وأخبار من لا يحبونه ويتحدثون عنه بما يكره، وكان أولئك يلقون جزاءً نكرا.

نزع الخليفة منذ أن تولى حكم البلاد سلطات الأمراء وأسلحتهم وشاراتهم العسكرية، وخالف توجيه المهدى بأن تصلى كل مجموعة من الناس خلف أمير معين، فأمر بأن يصلى كل الناس في مسجد واحد تحت إمامته في جميع الصلوات، وكان يرسل الحراس للبحث في المدينة عن المتخلفين عن أداء الصلاة خلفه دون سبب مقنع، والقبض عليهم وجلدهم، كان أولئك الحراس مسؤولين عن مراقبة التزام الرجال بزى الدراويش المرقع، وكان السجن هو عقوبة كل من لا يلتزم بالزى المقرر المعتاد.

في البدء كان يراد لنا أن نشهد الصلاة في المسجد، وذقنا بسبب امتناعنا عن ذلك الجلد والسجن، وكنا أحيانا نلوذ بالفرار والاختباء في أوقات الصلاة، ثم لجأنا لرشوة الحراس بالهدايا ليتركونا في سلام. بيد أن ذلك لم يجد إلا عندما خفف تطبيق القوانين التى كانت تحتم أن يشهد الجميع الصلوات جميعا في مسجد الخليفة.

كان تنفيذ عقوبة الجلد على الرجال والنساء من المشاهد اليومية المألوفة، حيث كان

الرجال يجلدون على باطن الرجلين (بواسطة الفلقة)، بينما كانت النساء يجلدن على أيديهن، وكان يشهد عمليات التعذيب تلك الشيوخ والشباب على حد سواء، ويطلقون صيحات السخرية والاستهجان إن أظهر المجلود أدنى تململ أو صرخة ألم. كانت الآلة المستخدمة فى الجلد هى الكرباج وهو سوط مؤلم جدا، وأقول هذا عن تجربة شخصية، خاصة إن أجبر الرجل على السير فوق الحصى الساخن بعد الجلد إمعانا فى التعذيب. أما عمليات الإعدام فقد كانت تتم بسرعة فائقة، إذ يحضر المدان يجرجر أغلاله ويشد وثاقه، ثم يقاد للمكان المخصص للإعدام، وينخز بالسيف فيركع فتحز عنقه بسرعة فائقة. تزال بعد ذلك منه الأغلال والخرق التى كانت تغطيه، وتترك الجثة ملقاة دون دفن كطعام للضباع والجوارح.

من أمثلة العقوبات الجماعية التى نفذها الخليفة كانت إعدامات البطاحين الذى رفضوا دفع الجزية. فقد أحضر ٦٩ رجلًا منهم للمثول أمام الخليفة فى أم درمان، فأمر بإعدام ١٨ منهم فى ساحة السوق على ثلاثة دفعات، ثم تم إعدام ٢٤ منهم فى ساحة العرض وأمر بقطع أيادى وأرجل البقية فى ساحة مسلخ الحيوانات، وتركوا ينزفون حتى الموت، والخليفة قائم ينظر. وفى يوم ١٧ مايو ١٨٨٧م أمر الخليفة بإعدام ١٠٠ من رجال الكبابيش فى ساحة السوق لاتهامهم بالقيام بمساعدة البريطانيين فى حملة الإنقاذ النيلية.

كانت دولة الخليفة مقسمة إلى ثمانى إمارات على رأس كل منها أمير، ويكون الأمراء عادة من البقارة المخلصين الخاضعين مباشرة للخليفة، ويقيمون فى عواصم إماراتهم وهى دنقلا وبربر والمتمة وكركوج والأبيض وفاشودة والفاشر والرجاف. يوجد فى كل إمارة بيت للمال، وقاضى بيت فى شؤون السكان، وجباة للضرائب لا يسألون عما يفعلون، ويمارسون أشد أنواع الظلم والابتزاز من أجل استخلاص أقصى قدر ممكن من المال لمصلحتهم الشخصية. كانت كل أموال بيوت المال فى الإمارات المختلفة تصب فى النهاية فى "بيت المال" فى أم درمان والذى كان يتولى إدارته يعقوب وعثمان شيخ الدين (شقيق الخليفة عبد الله وولده) وغيرهما من أقرباء وخلصاء الخليفة، والذى كان يستأثر لنفسه بعشر ما يرد لبيت المال من كل عاصمة عدا دنقلا، والتى كان يخصص دخل ضرائبها كله له دون غيره.

كان إخلاص الناس وعاطفتهم نحو الخليفة (والذى كانت السلطات تبقيه بالقوة والتخويف) يتناقص وباضطراد كلما بعد المرء عن أم درمان، وكان السكان فى أطراف البلاد الذين كانوا يحافظون على نوع ما من الإتصالات مع القوي الأوربية ينتظرون ويؤملون حل ربقتهم على أحر من الجمر.

كان بيت المال بأم درمان يحوى مخزنا لما ورثه الحكم المهدوى من التركية مثل أدوية قديمة، ومطبعة حجرية، وآلة لصنع الصابون، وكانت هذه الأشياء نادرا ما تستخدم. كذلك كان فيه متحف يعرض غنائم وتذكارات كل حروب المهدية، مثل سرير يوحنا ملك أثيوبيا. أقيم (حديثا) ببيت المال مكتب للتلغراف مهمته الأصلية الاتصال بمخزن الأسلحة فى الخرطوم، وليسهل الاتصال بالخرطوم وبيت الخليفة، وهو مفتوح -نظريا- للعامة أيضا.

يساعد القاضى (وهو بمثابة رئيس المحكمة العليا) أربعة أو خمسة قضاة يجلسون على الأرض فى قاعة المحكمة، وبجانبهم كتبة يسجلون ما يقال أثناء المحاكمة. كانت "العدالة" عند هؤلاء سلعة تباع وتشترى، مثلها مثل أى بضاعة، ولكن كان الخليفة يوقع بمن يسمع بخيانته للأمانة أشد العقوبات.

كانت الذرة هى الطعام الأساس لسكان أم درمان، وهى ذات أنواع وألوان مختلفة، وأفضل أنواع الحبوب عندهم هى الدخن الذى يزرع فى كردفان، ومنه نوع أبيض يسمى القصابى والماريق، ونوع أصفر يسمى الصفرا (علمت من خبير أن ما أورده القس الإيطالى ليس صحيحا، إذ إن القصابى والماريق ليستا من أنواع الدخن، بل هى من أنواع الذرة. المترجم). من أنواع الذرة الأخرى فى أم درمان الفتريتة وهى ذات لون رمادى شاحب. أما أردأ أنواع الذرة فهى الذرة الحمراء، وهى ما يستهلكه فقراء السكان والعبيد. تخزن الذرة فى حفر فى التربة تحاط بمادة لزجة غرورية من الطين وروث الإبل وذلك لحفظها من النمل الأبيض (الأرضة). لصنع الكسرة تطحن الإماء الذرة أولا بين حجرين خشنين بالمرحاكة (وهنا شرح القس الإيطالى لقرائه كيفية صنع الكسرة بشيء من التفصيل. المترجم) أو العصيدة (والتى شبهها بالثريد الإيطالى المعروف بالبولينتا) التى تصب فى قداحة (الجمع الدارج لكلمة قدح. المترجم). يبدو أن كل شيء فى السودان

يجب أن يسحق أولا ويحول لبودرة قبل أن يؤكل، حتى اللحم يقطع لقطع صغيرة ويجفف تحت حرارة الشمس ويدق، ويستعمل مسحوقه لاحقا كملاح للشرموط. أما اللبن فيشربه السودانيون عادة مخمرا. عندما كنا نعمل فى الإرسالية فى غرب السودان كان طعامنا يحضر على الطريقة الأوربية، ولم يكن ينقصنا شيء، ورغم ذلك كنا نعانى من الإسهال المستمر والحمى والتى كنا نعزوها للملاريا، والتى فشلت كل الأدوية التى جربناها فى مداواتها. تبينت من خبرتى أن سبب علتنا كانت فيما نأكله، ووصلت لقناعة مفادها أننا يجب أن نتناول فقط ما يأكله الأهالى أنفسهم، فالخبز المصنوع من عجين القمح والخمر واللحم واللبن الطازج كلها كانت تسمم أجسادنا. فى أحد أيام الأسر فى أم درمان تحصلت بطريقة ما على لسان ثور، فقمت بسلقه والتهامه وأنا فى غاية الاستمتاع. ما هى إلا دقائق إلا والمغص المعوى يكاد يفتك بي. لاحظت أن الأهالى يزدردون أحشاء الحيوانات كالأبقار والإبل وأكبادها ورئاتها وقلوبها دون طهي، ولا يصيبهم من ذلك أدنى مكروه، بل هم يعدون أكباد الإبل النيئة من أعز أنواع الطعام، خاصة إن أكلت مع كثير من الشطة الحمراء والبصل. يضاف السائل الصفراوى (المرارة) للرئة عبر الرُّغامَى (قصبة الرئة)، ثم تنفخ وتقطع وتؤكل نيئة مع البصل. لم أتعود فى البدء على ذلك النوع (الغريب) من الطعام، وكنت أتحاشاه بقدر الإمكان، بد أنى تعودت بعد مرور السنوات على أكل اللحم نيئا كما يفعل الأهالى دون أن يصيبنى ضرر، وصرت أشتهيه عندما لا أجده، بل غدوت مغرما بأكل الجراد السمين الشهي، والذى كان يغزو البلاد بين حين وآخر ويتساقط بعضه على الأرض فيلتقطه الناس ويقطعون منه الأجنحة والسُّوقِ والرؤوس فتخرج معها الأحشاء، ثم ويشوونه على ألواح فخارية أو معدنية على النار، ثم يبيعونه فى الأسواق بالأكوام، أذكر أن الأب أوفالدر عاد للمنزل ذات مساء سعيدا بعد تناوله لوجبة جراد لذيذة دعاه لها سلاطين.

كان أغنياء أم درمان يأكلون فى بعض المناسبات لحومًا طازجة للدواجن والأغنام والإبل، وطريقة طيها تكون بتقطيعها لقطع صغيرة وطهيها مع بصل سبق قليه فى زيت سمسم أو سمن حتى يحمر، ويؤكل "الملاح" مع الكسرة وحدها، ويؤكل اللحم بمفرده. كان فقراء أم درمان يأكلون وجبة واحدة فى اليوم بينما كان الأغنياء يتناولون عادة وجبتين

فى اليوم، الأولى هى وجبة خفيفة فى الصباح مكونة من العصيدة (وقد تضيف لها بعض الأسر الثرية كبد الإبل) مع شرب البقنية أو المريسة، ثم وجبة كاملة بعد ساعة أو ساعتين من غروب الشمس. عادة ما يشرب المرء مع وجبة الطعام الماء من أقداح مصنوعة من قرع مجفف، وتوضع فوق القرعة طبقة من أوراق الذرة لتخفف من تسرب طعم القرع المر للماء.

يتناول سكان أم درمان مختلف أنواع المشروبات مثل المريسة والبقنية من الذرة والنبيذ (الشربوت) من التمر (شرح القس الأسير ويتوسع طرق صناعة المريسة والبقنية والنبيذ مما لا داعى لذكره هنا. المترجم)، وهذه المشروبات جميعها تصيب الرجل الغربى بالغثيان. المريسة شديدة الإسكار، وتختلف عن البقنية فى القوام والكثافة. أما النبيذ عندهم فله حلاوة غير مستحبة (فى الأصل مقرفة. المترجم) وهو مرغوب بشدة رغم ارتفاع ثمنه. يصنع البعض ليلا الكحول (العرقي) من الذرة، ويتم تقطيره فى أوانٍ فخارية. كل ما ذكر هى مشروبات محرمة قانونا ومن يقبض عليه وهو يصنعها أو يتناولها فسيلقى عقابا قاسيا (غالبا بالجلد بالكرباج)، مع الغرامات المالية لزيادة إيرادات بيت المال.

يتناول الرجال والنساء وجباتهم اليومية بصورة منفصلة، وتكون غالبا فى مجموعات من الجيران، بينما يأكل الأحرار طعامهم بعيدا عن العبيد (الذين كانوا يتناولون أكثر أنواع الأطعمة بؤسا). اكتسبت مع مرور الأيام فى الأسر العادة المحلية فى عدم تناول المرء للطعام بمفرده فصرت أتناول طعامى مع رفيقى الإيطالى ريجتو دائما، إما فى عشته أو عشتي.

يمر اليوم عند غالب الناس بصورة رتيبة مملة. فمن يفرض عليهم العمل مثل العبيد والآخرين يعملون طوال اليوم دون انقطاع، أما الثرى منهم فيستيقظ مبكرا ويذهب للصلاة فى المسجد، ثم يعود لمنزله لتغسله زوجته الأولى وتعطره، وتقدم له وجبة اليوم الأولى. بعدها يقوم الرجل بعدة زيارات لمن لديه معه أمور تجارية أو غير ذلك، ويذهب للمسجد أربعة مرات أخرى خلال اليوم لأداء بقية الصلوات جماعة. بعد صلاة العشاء قد يقضى الرجل بعض الوقت فى قراءة القرآن وتفسيره قبل أن يعود لداره ليتناول الوجبة

الثانية ويخلد إلى النوم، إذ إن الخليفة كان يمنع الطواف فى المدينة ليلا.

يعيش العربى أيامه يومًا بيوم دون نظر أو تدبر للمستقبل، ويعمل فى هذه الصنعة أو تلك التجارة التى أتاح له الذكاء أو الصدفة العمل فيها فى تلك اللحظة، وإن كسب بعض المال من صناعته أو زراعته تلك، يبدأ فى الاستمتاع بمباهج الحياة دونما عمل، إلى أن ينفذ ذلك المال فيعود للعمل من جديد. إن أول ما يفعله العربى إن وجد مالا هو أن يتزوج، ثم يشترى عددا من العبيد، وبذا يضمن لنفسه الراحة والرفاه، فالزوجة ستتولى إدارة شؤون البيت، بينما سيقوم العبيد بالخدمة (المجانية) فى غير ذلك من الأمور. يستمرئ الرجل حياة الدعة والخمول إلى أن تسوء حالته المادية فيقوم ببيع عبيده أو العودة للعمل لتمكن من جمع مبلغ صغير من المال يمكنه من إعادة الكرة والعيش مرة أخرى كسيد عاطل. كان من نتائج ذلك النوع من السلوك أن ضعفت الثقة عند غالب التجار، فصاروا يطمعون فى الأرباح السريعة، وكثرت السرقات، ولم تجد معها العقوبات الرادعة ولا العسس. يقوم اللصوص بقطع محافظ الناس الجلدية المعلقة على رقابهم بدقة وحرفة عالية خاصة فى الأسواق، وفى هذه الأيام صاروا يتسورون جدران البيوت، ولم تسلم حتى عشتى الصغيرة من السرقة فى عديد المرات.

لا تقوم النساء الحرائر بأى أعمال تذكر، وقلما كن يغادرن المنزل أو يقمن من "العناقريب" التى ينبطحن عليها طوال اليوم (حتى عند تناول الطعام)، فالخدم يقمن بكل ما لزم عمله بينما هن يقضين غالب اليوم فى الاعتناء بأنفسهن بمساعدة بعض صغار الفتيات الرقيق. وفى بعض الأحايين تمارس هؤلاء الفتيات الصغيرات مكرا أنثويا يسرقن به اهتمام ملاكهن عندما لا يكن مشغولات بنسج الأقمشة والبسط، وصنع أشياء بسيطة من سعف النخل.

للزوجة الأولى سلطة نسبية تتحكم بها –لحد ما– على بقية زوجات الرجل، بيد أن العلاقات بين الزوجات عادة ما تكون علاقة خصام، إلى الحد الذى ينبغى على الزوج فيه التدخل والفصل بين الزوجات، وأول ما يفعله الزوج فى هذا الصدد هو أن يجعل كل زوجة "توقد نارها" بمفردها (أى أن تطبخ طعام عائلتها الصغيرة بمعزل عن بقية الزوجات الأخريات).

تتعرض صغار البنات للختان، وتقضى البنت منهن ما لا يقل عن أربعين يومًا وهى مقيدة على السرير، بينما كان ينظف جرحها بالماء الحار. لا تضع المرأة الحامل مولودها فى بيت زوجها، بل فى بيت والدها، وبعد الولادة تتعرض لعملية تشابه الختان الذى تعرضت له كطفلة صغيرة، ويلزم أن تبقى طريحة "العنقريب" لأربعين يومًا قادمة تؤوب بعدها لبيت بعلها. لا تكشف المرأة المتزوجة عن وجهها للرجال الغرباء خلا العينين، ولا تغادر بيتها إلا فى موكب فيه عدد من النساء الرقيق. وعلى الرغم من قواعد السلوك الصارمة المتعارف عليها بالبلاد فإن الحيل التى كن يمارسهن أولئك النسوة لبلوغ ما يرغبن فى عمله لا حصر لها، بل وكان بعضهن كثيرًا ما لا يتورعن عن "القوادة" لأزواجهن.

تتحلى النساء فى أم درمان بأنواع مختلفة من الحلي، فيضعن مثلا أقراطا ثقيلة تتطلب ربطها بخيط حول الرأس، أو قلادات مصنوعة من حلى صغيرة غالية الثمن يقال: إنها نمساوية الصنع. توجد أيضا قلادات من المرجان أو الكهرمان أو الزجاج، وبعض القلادات من العملات الذهبية والفضة الأوربية الصغيرة، كذلك كانت النساء فى أم درمان يضعن أساور من الفضة الثقيلة أو العاج أو النحاس، أما الأساور الذهبية فهى لثريات النساء فقط.

تتم عملية التنظيف الشخصى عند النساء بمسح كامل الجسد بالدهن أولا، ثم دلكه من بعد ذلك بمسحوق الكسرة وخميرة الخبز، وهذا من شأنه أن ينظف البشرة ويطرى الجسم. بعد ذلك يقمن بدهن أجسادهن بمختلف أنواع الدهون والمراهم العطرية التى تخبأ فى أوانٍ فخارية صغيرة وتحرس بعناية. تتكون هذه الدهون العطرية من زيت السمسم المغلى مع دهن حيوانى يضاف إليه خليط من مساحيق خشب الصندل والقرنفل وصدف البحر السوداء (الضفرة) والمحلب. وقبل أن يبرد كل ذلك الخليط تضاف إليه عطور مستوردة من جدة. تقدر النساء (الحرائر) تلك العطور المخلوطة تقديرا عاليا للحد الذى يقمن فيه بتحضيرها بأنفسهن ولا يتركن عملها لرقيقهن من النساء (يلاحظ هنا أن القس الإيطالى لا يفرق كثيرًا بين ما تسميه النساء "اللخوخة" للتنظيف، و"الدلكة" للتعطر. المترجم).

يرتدى الرجل بنطالا متوسط الطول (سروال) وقميصا طويلا (عراقي)، بينما تلف المرأة قطعة قماش متوسطة الطول حول وسطها، وإن كانت المرأة من الحرائر فستغطى كامل جسدها (ويشمل ذلك الوجه عدا العينين) بقماش قطنى أبيض يأتى من بربر.

توجد فى أم درمان مدارس (خلاوى) للأطفال يتعلمون فيها القرآن والقراءة وهم جلوس على الأرض، ولا يستفيد من خدمات الخلاوى تلك إلا أبناء الأثرياء الذين بمقدورهم نفح الشيخ بالعطايا.

لم يكن حال المسترقين بالسوء الذى هو عليه الآن. ففى عهد التركية (الذى كان أكثر رخاء ورفاه من العهد المهدوى الحالي) كان مالكو العبيد يعاملونهم معاملة إنسانية، بيد أنه ونتيجة للفقر الذى عم البلاد فقد صار السادة يطعمون عبيدهم أقل القليل الذى يكفيهم للبقاء أحياء وقادرين على العمل (بأكثر مما كانوا يعملون فى العهد السابق). يعد الناس هنا العبد والعبدة أقل شأنا من الرجل الحر والمرأة الحرة، إذ هما لم يخلقا إلا لخدمة وإسعاد مالكهما. كان الملاك يأمرون رقيقهم من الجنسين بالعمل فى المدينة أو خارجها فى الحقول أو غير ذلك من شاق (أو فاسق) الأعمال ويطالبونهم بتسليمهم ما يحصلون عليه من أجور كاملا غير منقوص وإلا سيتعرضون لأشد العقوبات. كنت كثيرًا ما أرى أولئك المسترقين الأشقياء يسيرون حفاة وشبه عراة على الرمال الساخنة فى حر الصيف وهم يتكلفون مشقة أحمال ثقيلة والعرق يسيل من أجسادهم، كان باطن أقدام هؤلاء المساكين فى خشونة لحاء الأشجار. فى الشتاء يتعرض هؤلاء العبيد للبرد الشديد وهم شبه عراة فتشقق جلودهم دون أن يحصلوا على قطعة دهن صغيرة يمسحون بها الشقوق فى أجسادهم. كانت مفروضا على النساء المسترقات أداء كثير من الأعمال التى كان يقوم بها العبيد، ولكن بالإضافة لذلك كان على هؤلاء النسوة العمل على "المرحاكة" ليلا وتحضير العشاء للسيد. ولضمان ألا تغفو العبدة أثناء عملها أو أن تدخل بعض حبوب الذرة فى فمها كان عليها أن تواصل الغناء أثناء عملية طحن الذرة. وكان السادة يضعون حول عبيدهم الذين كانوا يشكون فى أنهم يفكرون فى الإباقُ سلاسل حديدية حول أرجلهم، ثم يأمرونهم بمواصلة ذات العمل الذى كانوا يقومون به. وكان هؤلاء السادة ينكحون عبيدهم ما يملكونه من رقيق النساء طلبا للذرية وزيادة أعداد ما يملكونه من رقيق، دون

اعتبار لأى علاقة إنسانية بين الاثنين. ولا يعتق العبد إلا إذا انضم للجيش، ولا تعتق العبدة إلا إذا حملت من رجل حر. ولا مجال للعبد للهرب من سيده، فقد جرب ذلك الكثير من المسترقين (خاصة الشباب) الذين حاولوا الهروب نحو أثيوبيا ومصر، وتم القبض عليهم عند الحدود مع الدولتين وأعيدوا لسادتهم حيث لقوا معاملة أسوأ مما سبق وجلدوا بالسياط وشرطت جلودهم وحشيت جروحهم بالفلفل الحار، وأثقلت أرجلهم بالسلاسل الحديدية.

وازدهرت تجارة الرقيق فى عهد الخليفة عبد الله. وكان بيت المال وتجار الرقيق يعرضون العبيد (من الجنسين) على المشترين فى "سوق العبيد" فى أم درمان بالقرب من بيت المال، والذى كان يتلقى العبيد كعوض عن الغرامات المالية أو العقوبات أو الضرائب التى يفشل بعضهم فى دفعها، فتتم مصادرة عبيد المتخلفين عن الدفع بعد تقييم أثمان رقيقهم. كذلك كان بيت المال يتلقى العبيد الأبقين الذين تتم استعادتهم ولم يتم التعرف على سادتهم لفترة أطول من ٤٠ يوما، ويتلقى كذلك العبيد الذين يغنمون من الحروب. يقيم بيت المال مزادا لبيع وشراء العبيد مرتين أو ثلاثة فى الأسبوع، وكان تجار الرقيق يحاولون بأقصى ما لديهم إثناء المشترين من عامة السكان عن شراء العبيد فى تلك الأيام، ليظفروا هم بشرائهم لأنفسهم وبالسعر الذى يريدونه، وليحافظوا على مهنتهم كسماسرة رقيق. ويجب أن نذكر كذلك أن بعض الملاك كانوا يعرضون رقيقهم من الجنسين للبيع فى السوق بمجرد بلوغهم لسن تجعل أسعارهم مجزية اقتصاديا.

كان تجار الرقيق يعرضون يوميا بضاعتهم من العبيد، بعد أن تدلك أجسادهم/هن بالدهن (حتى تغدو لامعة جذابة). كذلك يدرب العبدة على الإجابة على أسئلة يعلمون أن المشترى المحتمل قد يسألها للعبدة، وهذا مما يرفع من قيمتها فى السوق. كان العبد والعبدة يجردان فى وسط السوق من كل ملابسهما عدا خرقة صغيرة تربط حول وسط الجسم، وكان المشترى يتفحص فى تؤدة وحرص سائر أعضاء العبد (والعبدة على وجه الخصوص!) دون حياء من الرأس إلى أخمص القدمين، إذ إن كل عيب فى الجسد يقلل من قيمة "البضاعة". كان اللون الأسود الغامق هو اللون المفضل للمشترين، وتتناقص قيمة العبد أو العبدة مع انخفاض سواد البشرة. كانت العبدة التى بلغت الحلم لتوها هى ما

يرغب فيه كثير من المشترين لجعلها "سرية/ محظية" وكان سعر الواحدة منهن يتراوح بين ١٥٠ و ٣٠٠ فرنك (سبق أن قمت بترجمة مقال نشر في موقع سودانايل والجزء الأول من هذا الكتاب بعنوان "سلاطين والخليفة" لبايرون فارويل تطرق فيه الكاتب لتفاصيل دقيقة لما كان يجرى في سوق العبيد بأم درمان، وذكر فيه أن سعر الفتاة المسترقة "السرية" كان يبلغ ١٨٠ - ٧٠٠ دولار، وذكر للمقارنة أن سعر جمل الركوب كان يتراوح بين ٢٠٠ — ٤٠٠ دولار. المترجم).

ليس في السودان أطباء، بل يعتمد المرضى كليا على "الفكي" وما يكتبه من آيات قرآنية أو كلمات سحرية غامضة على ورقة صغيرة كعلاج شامل وعام لمختلف أنواع الأمراض، ويستخدمون أحيانا بعض أجزاء نباتات مختلفة مثل "التمر هندي" و"القونقوليس" كان الرجال والنساء، وربما بسبب الحر الشديد، يعمدون للحجامة مرة كل شهر لإخراج الدم الفاسد، ويقوم بهذه العملية أحد العبيد بوسائل بدائية (هنا وصف القس الإيطالي تفاصيل العملية الدموية بتوسع وببعض الأخطاء أيضا. المترجم).

جربت شخصيا العلاج الشعبي في أم درمان مرتين، إذ كنت قد أصبت بآلام شديدة في ظهري من حمل الأثقال لمسافات طويلة في أيام بناء قبة المهدي. استلقيت على بطني وربط الطبيب الشعبي (البصير؟) منديلا كبيرا مليئا بالرمل على ظهري ورش عليه في أركانه الأربعة زيت السمسم، ثم أشعل المنديل بالنار وغطى المنديل بإناء فخاري، بعد فترة قصيرة صارت الحرارة غير محتملة، فنقل الطبيب الشعبي المنديل والغطاء الفخاري لمنطقة أخرى في ظهري وهكذا دواليك. نجح ذلك العلاج في تخفيف آلام ظهري نجاحا كبيرا. في مرة أخرى وفي أحد أيام رمضان من عام ١٨٩٤ م (أي في عامي الأخير كأسير في أم درمان) أصبت بإرهاق وإحباط وارتباك عظيم، بل فقدت القدرة تماما على النطق في عديد المرات اثناء حديثي مع زبائن مطعمي الصغير، وأحسست بشيء يخنق صوتي بداخلي، نصحني البصير السوداني بتناول نبات السنامكي للتخلص من ما في جوفي لمدة ثلاثة أيام مع أكل قليل من الطعام غير المملح، ثم من بعد ذلك مباشرة تناول نبات يسمى الفشاغ المغلي مع السكر مرة في الصباح ومرة في المساء لتسعة أيام متصلة، لم يسمح لي خلالها بأكل شيء عدا التمر والعسل. بعد ذلك سمح لي ببعض اللحم واللبن. ما هي إلا

أيام قليلة وكنت قد تخلصت تماما مما كنت أشكو منه من علة.

كان هنالك مرض مروع وشائع فى كردفان خاصة فى منطقة جبال النوبة يسميه الأهالى "فرنتيت" يسببه كائن دقيق (ميكروب) يسمى "فلاريا ميدسنيسز" يعيش فى مياه البرك التى تتراكم بعد الأمطار، ويصيب من يدخل أحد أطرافه فى تلك المياه الملوثة. يغزو هذا الكائن الدقيق جلد المريض فى الأطراف السفلى وينمو ويطول ليصير مثل الخيوط أو أوتار الكمان. لا يسبب وجود هذا الكائن الدقيق أى ألم للمريض إلا فى موسم الأمطار التالي، حيث تتضخم هذه "الخيوط" وتكون كيسا متكورا تحت الجلد فى أى منطقة بالجسم مثل الخصية أو اليد أو القدم، ويلتهب الجسم فيشعر المريض بحمى وألم شديد (بحسب ما هو معلوم الآن فلا صحة لكثير ما ذكره الكاتب قبل أكثر من مائة عام عن هذا المرض وناقله. المترجم). رأيت فى أم درمان (حيث لا يستوطن هذا المرض) عددا كبيرا من المصابين بمرض الفرنتيت، وكانوا يعالجون بروث الأبقار، والذى أعتقد أنه مسكن فقط للمرض وليس علاجا جذريا له. يمكن علاج الفرنتيت جذريا بطريقين: أولهما جذب طرف الدودة وسحبها برفق وربطها بقصبة صغيرة، فتقوم الدودة بعد أيام بالخروج وتلف نفسها حول القصبة إلى أن تخرج بالكامل من جسم المريض. لهذا الضرب من العلاج محاذيره، ففائدته لا تقع إلا بعد مرور وقت طويل، وعادة ما لا يحس المريض بأى تحسن فى هذه الفترة، وإن تم جذب الدودة بقوة، فستنقطع ويبقى جزء منها فى داخل الجلد قد يحدث غرغرينا. قمت بمساعدة كثير من المصابين بهذا المرض بهذه الطريقة، ولم أكف عن حمد الله أن عافانى من الإصابة بهذا المرض الخبيث. أما الطريق الثاني فهو الكى بالنار، رغم أنها قد تصيب المريض بعجز دائم فى العضلات أو الأعصاب إن كان البصير المعالج غير مجيد لصنعته. ساعدت كثيرًا من المصابين بالفرنتيت عندما كنت قسيسا فى إرسالية الدلنج، بيد أنى شهدت أيضا موت الكثيرين بهذا المرض. كذلك يتعرض كثير من سكان أم درمان (خاصة صغار الأطفال) للسعات العقارب القاتلة. تكثر العقارب (خاصة الصفراء أو الصفراء المخططة باللون الأسود) فى شوارع أم درمان، خاصة عند مغيب الشمس، وتستهدف من يمشون حفاة (وهم كثر). كان كثير من الفقراء الذين لا يجدون حذاءً يستعيرون أحذية الآخرين من أجل السير فى شوارع

المدينة بعد المغيب. يذهب سم العقرب والورم الذى يصحبه بسرعة من القدم إلى الساق، ولعلاج ذلك يجب ربط الموضع المصاب وشقه بموسى أو سكين ومسحه بمسحوق البوتاس الكاوي، ويمكن أن يذاب قليل من هذه المادة ويعطى للملدوغ ليشربه من أجل إيقاف القيء الذى يصاحب عادة لدغ العقارب. إن استخدم هذا العلاج فور حدوث اللدغة، فالشفاء مضمون.

يؤمن العرب بالخرافات، ورغم أن الخليفة عبد الله قد منع الناس لبس التمائم والأحجبة، إلا أنه كان يخاف السحر ويخشى عين من كانوا يمثلون فى حضرته، فسمح مؤخرا ببعض التمائم ومنع بعضها. قام الخليفة بمنع عادة تزيين عتبة أو باب الدار أو مدخل الزريبة برأس حمار أو تمساح. بيد أنه سمح باستخدام بعض الآيات القرآنية ونثر دم البهيمة الذبيحة على مدخل الدار درأ للعين والحسد، لا يفرط العربى فى قلامة ظفر من أظفاره أو شعرة من شعر رأسه، فكل هذه يدفنها العربى بحرص شديد فى ركن من أركان البيت أو تحت جذع شجرة لأنه يؤمن بأن الله سيسأله عنها يوم القيامة. إن حدث وقام أحدهم بالثناء على صحة الرجل الممتازة أو صحة أطفاله أو بهائمه فإن الرجل سيخاف العين وسيأمره فى انزعاج عظيم أن يقل بصوت عالٍ: "ما شاء الله" وكأنه نطق بكفر عظيم. كذلك لا يقوم الزوج أو امرأته بعرض المولود الجديد للغرباء لذات السبب، وينتظران لشهور عديدة قبل عرض المولود عليهم بعد أن يقوم "الفكي" بتحصينه بعدد من الأحجبة التى تعلق على عنق المولود. ويعلق البعض جزءًا من مشط شعره أو عود أسنانه فى سبحته طلبا للحماية من الحسد والعين الشريرة.

ويخاف كل الناس فى أم درمان من الظواهر الطبيعية كالكسوف والخسوف، فعند حدوث أحدهما يبدؤون فى الصياح وضرب "النقارة" والأوانى المعدنية وكل ما يصدر صوتا عاليا وحادا. ويتواصل هذا الهرج والمرج حتى ينجلى الكسوف أو الخسوف، ويوزعون فى اليوم التالى "كرامة" النجاة من شروره على الفقراء والمساجين والأطفال.

وتجد أن قزحية عين كل أهالى أم درمان سوداء اللون، ولعل هذا ما يدهشهم ويخيفهم إن رأوا أناسا لهم لون قزحية مختلف، فيسمون المرء "عين كديس". كان ذلك الوصف ينطبق علي، وقد وصفت به مرارا فى معرض السخرية والازدراء والإساءة، بل كانت

النساء (أكثر من الرجال) يقلن عندما يروننى فى الطريق "يا شناتك" أى ما أقبحك! وكانت المرأة التى تجلب لي برمة الماء من السوق تتركها عند باب عشتي وتهرول مسرعة بالابتعاد خشية أن تقع عينها على عيني (ذات القزحية المختلفة اللون) فقد شاع عند العامة إن الرجل "عين كديس" هذا ملك السحرة أو حتى من آكلة لحوم البشر! وبالنظر إلى كل هذا الجهل والتعصب الدينى فإنه من اللافت للنظر ألا يسمع المرء أى مقولة تدل على الكفر، فالكل يبدأ أى عمل يريد القيام به باسم الله!

وكان من الواجب على كل منا، نحن الأسرى المسيحيين، أن نساند بعضنا البعض ماديا وروحيا فى بيئتنا المعادية تلك. وقد فعلنا ذلك، كل بقدر طاقته. إلا أننى تلقيت صدمات عنيفة فى غضون سنوات أسرى المرة. من ذلك وفاة سيستر كونسيتا يوم ٣/ ١٠/ ١٨٩١م بعد أن أصيبت بداء التيفوس الذى كانت تداوى مريضا سودانيا كان مصابا به. رحلت فى هدوء ويجنبها الأب أورفالدر والسيسترات الأخريات. إن امتد أجلها قليلا فقد كان يمكن لها أن ترى العالم المتحضر مجددا. وفى ليلة الثلاثين من نوفمبر من ذات العام كنت ورفيقى ريجيتو فى محلنا الصغير بالسوق (بعد أن تأكدنا من أن التمرد على الخليفة قد أخمد تماما) عندما أقبلت علينا خادمة ريجيتو وهى تلهث وسألتنا إن كنا قد رأينا "أبونا يوسف" (وكان ذلك هو الاسم المهدوى للأب أورفالدر). رددنا عليها بالنفي، وقلنا لها : إنه ربما يكون قد ذهب للخرطوم لزيارة مواطنه الأسير نيوفليد. أصرت الخادم على أن ذلك مستحيل بسبب أن بيته مغلق من الداخل والخارج، وأن أحدًا لم يجبها عندما طرقت الباب مرارا مما يعنى أن كل السيسترات اللواتى كن يسكن معه قد غادرن البيت. هززنا أكتافنا للتدليل على عدم أهمية الأمر، وواصلنا فى عملنا ولم يخطر ببالنا أبدا أن الرجل قد فر من أم درمان. بعد سويعات كنا نغلق محلنا فى سلام عندما أحاط بنا فجأة عدد من الأسرى السوريين والأغاريق وكانوا فى غاية الانزعاج والضيق. ذهبوا بنا لبيت الأسير منولى حيث وجدنا عنده أمير الحي، والذى سألنا عن أخبار ومكان الأب أورفالدر وبقية السيسترات وهم موقنون بأننا نعرف الإجابة. وكانوا يخشون من عواقب غضب الخليفة الوخيمة إن علم بهروب الأسرى المسيحيين. أنكرنا –وكنا صادقين– معرفتنا بكل ما سألوا عنه، فلم يصدقونا أو تظاهروا بعدم التصديق. وانطلق الأمير

لإخبار سيده بخبر الهروب فأمر الخليفة بإرسال الدوريات فى كل اتجاه للبحث عن الهاربين، وبعث برسالة خاصة لأمير بربر للقبض عليهم إن عبروا إمارته. لو نفذت كل أوامر الخليفة بسرعة كافية لتم القبض على الأسرى الهاربين دون شك، بيد أن الله كان معهم. وفى تلك الأيام كان الخليفة وأنصاره قد فرغوا للتو من إخماد تمردِ الأشراف، وخلال تلك الصدامات خسر الخليفة معظم جماله، فاستغرقت عملية شراء ثلاثة جمال لمطاردة الهاربين خمسة أيام كاملة. ويكفى معرفة ذلك لتبين مقدار الضعف الذى كانت عليه الدولة المهدية فى تلك الأيام.

وقام بقية الأسرى باحتجازنا معهم حتى منتصف الليل، ثم أعادونا لبيتينا المتجاورين حيث وجدنا أن الخليفة أمر بوضع حراسة مشددة على بابينا خوفا من أن نلحق بمن هرب من الأسرى. كان الأب أورفالدر قد استغل وفاة سيستر كونسيتا فطلب من سيستر كاثيرين أن تأتى لمنزله لتحل محلها وتعمل على النول، وكان موكب الهاربين يضم بالإضافة للأب أورفالدر والسيسترات فتاة سوداء اسمها عديلة كانت قد اعتقلت عند سقوط الخرطوم ، وبما أنها كانت فتاة وحيدة بعد وفاة والدتها، فقد بيعت كرقيق فاشتراها أمير القضارف مورجان بانسريزو (أحد طلابنا السابقين) وأهداها للأب أورفالدر، حيث بقيت فى خدمته.

فى صبيحة اليوم التالى ذهبت مع رفيقى ريجنتو للعمل فى السوق كالعادة، فأتانا من طلب منا الذهاب معه لمحل أغاريق أخذونا منه لبيت الأب أورفالدر حيث وجدنا رئيس المحكمة فى انتظارنا مع عدد كبير من الأنصار، أخذت بعيدا ريثما يتم الفراغ من استجواب رفيقي، ثم استوجبت أنا مرارا فى غيابه، ثم تم استجواب كل من له أدنى علاقة بنا. وأخذنا للمحكمة حيث أوتى بامرأة كبيرة السن تسكن فى البيت الذى يقابل بيت الأب أورفالدر ، وسئلت عن ما رأته ليلة السبت (ليلة هروب الأب أورفالدر والسسترات) فأجابت بأنها رأت اثنين من رفقاء الأب الهارب يدخلون داره فى ذلك اليوم عديد المرات. وسئلت إن كانت قد تعرفت على هذين الشخصين فأشارت دون أدنى تردد بأصبعها لى ولرفيقى ريجنتو، وعلى إثر ذلك أمر القاضى بوضعنا فى الأغلال ، وأخذنا للسجن بعد أن أخبرنا بأنه قد حصل على إذن مؤقت من الخليفة لنا بالذهاب لمحلنا

بالسوق ويبيع ما يحتويه من بضاعة، كان من حسن حظنا أن شهادة امرأة واحدة عند العرب لا يعتد بها، وإلا لكنا من الهالكين. لم نكن في واقع الأمر قد زرنا الأب أورفالدر يوم السبت، بل كنا قد زرناه يوم الخميس للتأكد من أن التمرد قد أخمد تماما، وزارنا هو في اليوم التالي في محلنا وطلب منا قرضا مقداره تالر واحد. علمنا لاحقا أن بعض الأسرى السوريين (ولإبعاد التهمة عن أنفسهم) قد أغروا تلك المرأة بالكذب في شهادتها عن اليوم الذي زرنا فيه الأب أورفالدر. في اليوم التالي تمت إعادتنا للمحكمة بعد عدد من الاستجوابات المنفردة والمتكررة، وعلمنا بأن محلنا وممتلكاتنا قد تمت مصادرتها كلها. وأخذ الجند رفيقي ريجتو لزريبة تم فيها تعذيبه بالكرباج كي يعترف بما يعلم. ثم أتى دوري فحاولوا خداعي بالقول بأن ريجتو قد اعترف وأنه من الخير لي أن أعترف أيضا، لم يكن لدينا ما نعترف به فأخذنا للسجن مجددا. وبعد أيام أمر الخليفة بإطلاق سراحنا فذهبنا لمحلنا وبيتنا فوجدنا أن كل شيء قد تمت سرقته. خسرنا كل ما نملك. وفي اليوم التالي أخذنا للمحكمة مع كل المسيحيين الآخرين حيث طلب من كل واحد الحصول على ضامن يتعهد بعدم هروبنا وإلا أخذنا للرجاف قرب قوندكورو (محطة تجارية على الشاطئ الشرقي للنيل الأبيض على بعد ٧٥٠ كيلو جنوب الخرطوم. المترجم) حيث ينفى عتاة المجرمين. وضمننا إغريقيان (ندما بعد ذلك على ضماننا لتأكدهم من عزمنا – إن عاجلا أو آجلا – على الهرب) وكانا ينامان عند بابنا حتى لا نهرب و "نخرب بيتهما" كما كانا يقولان لنا في استعطاف.

وبعد هروب الأب أورفالدر كنت القسيس الوحيد المتبقي، لذا بدأت في القلق والخوف من أن أقع فريسة للمرض ولا أجد من يعتني بي وأن أعجز عن مساعدة نفسي، أو أن أموت في هذه الديار دون أن أجد من يصلي علي.

وعدت للعمل من جديد مع عدد من المخدمين السودانيين، والذين تفننوا في خداعي واستغلالي، ولم أشأ مقاومتهم خوفا على حياتي.

وفي عام ١٨٩٠م سمعت بأن الإيطاليين قادمون، وسمعت بمعركتهم مع جيش الدراويش. علمت لاحقا أن النقيب الإيطالي فارا جهز جيشا لتخليص البني عامر من الحكم المهدوي. وبعد عامين سمعت بانتصار الجيش الإيطالي بقيادة النقيب هيدالو على

عشرات المئات من الدراويش فى سهول سيرويتى على بعد ١٠٠ ميل من أغوردات (جرت تلك المعركة فى ١٦/٦/ ١٨٩٢م فى سيروبيتى فى أرتريا. المترجم). كذلك وصلتنا الأنباء عن معركة سنهت فى نهاية عام ١٨٩٥م وهجوم الأوربيين ضد القوات المهدوية فى بحر الغزال وفازوغلي. بيد أن كل تلك الأنباء لم تكن مصدر أمل عظيم لنا لتضاربها الشديد. وأفزعت هزائم الدراويش المتتالية الخليفة عبد الله فشدد الحراسة على بيته وزاد عدد حراسه الشخصيين المخلصين من ١٣ إلى ١٥، واستدعى فرقة من جنوده المتمركزين فى الجزيرة لحراسته فى أم درمان. كذلك أحدث سقوط كسلا فى أيدى القوات الإيطالية صدمة كبيرة لدى الخليفة وجنوده، فقد كان تكتيك الجيش الإيطالى مختلفا عن تكتيك الجيش البريطانى والمصرى (والذى كان مألوفا للدراويش)، واستخدم الإيطاليون فى معركتهم ضد الدراويش قوة ضارية بوابل من الرصاص والمتفرجات أودت بحياة عدد كبير منهم. كنت أسمع الدراويش فى أم درمان يتحدثون بإعجاب وشيء من الرهبة عن قوة الجيش الإيطالى ورجاله، ورغم أنهم لم يسمعوا من قبل بإيطاليا من قبل إلا أنهم بعد هذه المعارك صاروا يعدونها من القوى العظمى. وعلى المستوى الشخصى شعرت ببعض الفخر، إذ لم أعد ضحية للسخرية والهزء، وصرت أعلن بفخر أنى إيطالي، بعد سقوط كسلا كثر الحديث بين السكان فى أم درمان بأن الإيطاليين قادمون (بالتعاون مع البريطانيين)، بل وكثر عدد المترددين على بيتى (كرجل إيطالي) من الذين يطلبون أن أقول عنهم قولا حسنا أو أزكيهم عند قادة الجيش الإيطالى عند استيلائه على أم درمان (لعل القس الإيطالى هنا يبالغ كثيرًا فى تقدير قوة الجيش الإيطالى وقدرته على الاستيلاء على عاصمة المهدية، ولو كان ذلك بمقدوره لفعل! المترجم). أعلن الخليفة بعد سقوط كسلا حالة الاستنفار العام فى البلاد، ودعا سكان أم درمان للصلاة والدعاء فى أقدس مكان بها (قبة المهدى)، بل إن بعض المتعصبين مسحوا أوجههم بترابها بعد أن حضهم الخليفة على الجهاد والتطوع عندما ذهب بهم جميعا للنهر حيث أمرهم بالوضوء والشرب من مائه، وخطب فيهم مذكرا إياهم بالجهاد وبالجنة التي سيدخلونها، وكال السباب واللعنات على الإيطاليين وحث على قتالهم والثأر منهم. بعد ذلك مباشرة أمر بصرف البنادق المخزنة وذخيرتها للمتطوعين (يجب ملاحظة أن القس الإيطالى كان قد

ذكر في بداية كتابه إن الذخيرة التي ورثها الحكم المهدوي من الأتراك كانت قد نفدت كلها، ولذا كانت البنادق قد جمعت ووضعت في المخازن. المترجم). ارتفع ثمن الحربة من ٥ - ٦ قروش فجأة إلى ٤ - ٥ تالرات، وغدت المدينة أشبه بمعسكر حرب ضخم. وفي محاولة منه لتجميع وتقوية الصف الداخلي قام الخليفة كذلك بإطلاق سراح أبناء المهدي من السجن، وأمر بإعادة أقرباء المهدي من المنفى الذي كان قد أرسلهم إليه وأقام الاحتفالات لتكريمهم والتي شملت سباق الهجن والخيول وإطلاق الصواريخ والألعاب النارية والموسيقى (يصعب تخيل وجود صواريخ وألعاب نارية وموسيقى في عهد الخليفة عبد الله! المترجم). دعا كذلك كل الأمراء في الأقاليم المختلفة للعودة لأم درمان وتجديد البيعة له. رغم كل ذلك سمعت الكثيرين في أم درمان يضحكون ساخرين من دعوة الخليفة لاستعادة كسلا من الإيطاليين، ويؤكدون أنهم لن يقاتلوهم أبدا، بل سيستقبلونهم كمحررين.

كانت هنالك في أم درمان أماكن لبيع القهوة، وكما هو الحال في بقية أنحاء العالم، كانت تلك المقاهي (القهاوي) مكانا للعطالين والكسالى. كان الحديث بين هؤلاء يمتد لقسوة الخليفة وهزيمة الجيش الإيطالي له في عدد من المواقع. وصلت أحاديث الغيبة تلك إلى مسامع الخليفة فأمر بإغلاق تلك المقاهي وهدمها في اليوم التالي. منع كذلك الطواف في المدينة ليلا، بل وحرم استعمال الإضاءة في المنازل. ولخشيته من الإصابة بالعين، فرض الخليفة أقسى العقوبات على من يجرؤ على أن ينظر إليه في عينيه، فقد فعلها جندي مثل أمامه ذات مرة فلقي بسبب ذلك جلدا عنيفا بالكرباج. أضاف الخليفة لتلك العقوبة القاسية أخرى أشد نكالا وكانت تسمى "القاضي الأطرش" وهو عمود طويل يقيد عليه الرجل من رجليه ويديه ويترك تحت هجير الشمس طوال اليوم دون نقطة ماء واحدة، متعرضا للنكز (فقدان السوائل) وضربة الشمس، وغير قادر على هش الذباب والهوام الأخرى التي تتداعى على جسده المثخن بالجروح التي تتركها ضربات السياط.

وفي أحد الأيام استدعى الخليفة كل المسيحيين بالمدينة إلى داره، وخاطبهم وهو جالس فوق عنقريب ضخم. تحدث إليهم بنوع من التهذيب (ورؤوسهم منحنية ينظرون إلى الأرض كما كان يفعل الكل أمامه) محذرا إياهم من التورط في أمور السياسة، والعيش

فى أم درمان فى جماعة وعدم الاختلاط بالأهالى والالتزام بالقوانين. ويعيد هروبى من أم درمان سمعت بأنه كان يريد تجميع كل الأجانب فى مكان قريب من حراسه لمراقبتهم.

من بعض العوامل الكثيرة التى عجلت بسقوط حكم الخليفة عَبد الله فى نظرى هى إهمال الزراعة و"طق" الصمغ العربي، واحتكار الأعمال التجارية مثل التجارة فى ريش النعام والذهب والعاج فى يد قلة قليلة من الموالين للخليفة، وكذلك بسبب التجنيد الإجبارى والحروب المتصلة، وتحويل بيت المال من مركز "اشتراكي" يوزع ثروة البلاد بعدل، ويحصل منه كل مواطن على نصيب معقول من ثروة البلاد، إلى مصدر لإثراء فئة محددة من السكان، هم أقرباء الخليفة وعشيرته الأقربون. وكان تفضيل الخليفة لهؤلاء (من أفراد قبيلتين معينتين ذكرهما المؤلف ووصفهما بسوء الخلق وانعدام الأخلاق والقسوة والغرور. المترجم) على قبيلة محمد أحمد المهدى وبقية القبائل النيلية سببا فى خلق حالة من عدم الرضاء والتمرد. شحت العملة من الأسواق مما دعا الخليفة ليصدر عملة من قماش الدمور لم تجد القبول عند السكان، فسك عملة معدنية عديمة القيمة الحقيقية. اختفت كذلك العملات من الفئات الصغيرة من التداول تماما للحد الذى كان يترك فيه الزبون عندى تالر واحدا ويتناول "على الحساب" طعامه فى محلى لعدة أيام قادمات. أدت الأزمات فى العملة للاختلال فى الميزان التجارى والتجارة الخارجية. ساهم كذلك تزوير العملة الذى كان شائعا فى أيام الخليفة (حتى كانت النساء يقمن به!) فى تفاقم الأزمة المالية الطاحنة. كذلك ارتفعت الضرائب والعوائد والمكوس بصورة أعجزت الكثيرين عن دفعها فلقوا أشد العقاب (ولم تسلم من ذلك حتى بائعات الماء المسكينات فى السوق)، وكانت الضرائب تجبى أحيانا قبل موعدها بشهر أو شهرين، ثم ينسى أو يتناسى المسؤول ذلك ويعود للمطالبة بها من جديد! كان على التاجر الذى يسافر إلى سواكن لجلب بضاعة لأم درمان أن يدفع عليها رسوما باهظة فى كوكريب (قرب حدود الدولة المهدوية) وفى بربر، ثم فى أم درمان حيث يتلقاه الجند ويأخذونه وقافلته لبيت المال حيث يدفع على الختم الذى يوضع على البضائع المستوردة، ثم يفرض على التاجر أن يترك جزءا معلوما مما جلبه من بضاعة عند المسؤول فى بيت المال، والذى سيعوض التاجر عنها قيمتها (حسب ما يراه) بالعاج والصمغ العربى (وهما مما احتكرت الدولة التجارة فيه). كان ذلك التعسف الحكومى من أسباب إضعاف التجارة والمعاملات المالية وأدى فى النهاية لإفقار البلاد وإفلاسها تماما.

من تاريخ الختمية
مقتطفات من كتاب "قاموس السودان التاريخي"
Historical Dictionary of the Sudan

◇◇◇◇◇◇

نشرت بعض سطور مختصرة عن تاريخ الختمية / الميرغنية والسيد على الميرغنى وآخرين من قادة هذه الطائفة الدينية فى كتاب عنوانه "قاموس السودان التاريخي" قام بتأليفه ريتشارد لوبان وروبرت كرامر وكارولين فلور لوبان، وصدر عام ٢٠٠٢م من دار نشر سكير كرو فى الولايات المتحدة. لا ريب أن القاموس موجه فى الأساس للغربيين وغيرهم ممن لهم اهتمام بتاريخ السودان، بيد أنى رأيت أن أنقل هنا بعض ما جاء فى ذلك القاموس الغربى المختصر تعميما للفائدة، وربما للمقارنة بما هو متداول أو معروف أو مسجل فى الأدبيات المكتوبة بأقلام سودانية عربية، وهو بالطبع شديد الاختلاف والتباين لأسباب معلومة.

١. عائلة الميرغنى:

عائلة الميرغنى هى عائلة بارزة ذات نفوذ وتأثير دينى عظيم فى السودان. سكنت تلك العائلة فى القرن الثامن عشر فى مكة وكانت من العائلات التى يعترف بأن نسبها يمتد للرسول محمد، أدخل مؤسس العائلة السيد محمد عثمان الميرغنى (١٧٩٣ – ١٨٥٣م) والذى كان طالبا عند أحمد بن إدريس (والذى ولد فى المغرب وعاش بين عامى ١٧٥٠ – ١٨٣٧م وكان له طلاب ومريدون كثر) الطريقة الختمية ونشرها فى زيارة له للسودان عند قرب نهاية سلطنة الفونج فى حوالى ١٨١٧ – ١٨٢١م واقترن فى تلك السنوات بامرأة سودانية أنجب منها ابنه الحسن (والذى عاش بين ١٨١٩ – ١٨٦٩م). عاد السيد الحسن للسودان حيث استقر هو وعائلته وأسس الطريقة الختمية/ الميرغنية، والتى كان لها فروع فى الجزيرة العربية ومصر وأرتريا. (مما لم يرد ذكره فى القاموس هو أن السيد الحسن معروف عند مريديه بأنه "راجل كسلا" أو "الحسن أبو جلابية"، وتفسير "الجلابية" هنا هو أن بعض الروايات التى تقدس السيد الحسن تذهب إلى أنه ولد بجلابية مضيئة لا

تتسخ ولا تضيق وإنما تنمو مع نموه الجسماني، ولذلك يقولون: "أبو جلابية نور أبو جدًا الرسول". الشكر موصول للصديق الذى أفادنا بهذه المعلومة. الكاتب).

كان مراغنة السودان على صلة وثيقة بالحكم المصرى –التركى فى السودان، ويكنون عداوة شديدة للمهدى والمهدية. لعب محمد عثمان بن الحسن (١٨٤٨ – ١٨٨٦م) دورا مهما فى الوساطات والتنظيم، وتوفى بالقاهرة بعد أن قاد مقاومة لم تكلل بالنجاح ضد الحكم المهدوى فى مناطق وادى النيل وكسلا. عاش ولداه أحمد (١٨٧٧ – ١٩٢٨م) وعلى (١٨٧٨ – ١٩٦٨م) خارج السودان حتى دخلت القوات البريطانية المصرية السودان (وأطاحت بالحكم المهدوي). (مما لم يذكره القاموس أن أحمد محمد عثمان بن الحسن ربما كان يعيش فى السودان إبان حكم المهدية. الكاتب).

شارك عدد من أفراد عائلة الميرغنى بأفرعها الكثيرة فى إدارة شؤون البلاد الدينية والسياسية فى غضون سنوات القرن العشرين، وأجمع كلهم على رفض إعادة "المهدية" وبقاء أى أثر أو تأثير لها بأى صورة من الصور. من أجل ذلك تعاونوا فى البدء مع البريطانيين ، ثم تحولوا عنهم لتأييد مصر، ربما بسبب تخوفهم وتشككهم فى نوايا بريطانيا وتعاونها مع السيد عبد الرحمن المهدي، وخشيتهم من أن يكون ذلك التعاون مقدمة لدولة مهدية جديدة. ساند المراغنة الأحزاب التى تدعو لوحدة وادى النيل. ساعد محمد عثمان بن أحمد (ابن أخ السيد على الميرغني) الجبهة الوطنية (وهى مجموعة سياسية تكونت فى عام ١٩٤٩م من الختمية بمباركة السيد على الميرغني، كان تعارض مواقف حزب الأشقاء المتشددة المنادية باتحاد كامل مع مصر) وعرف بمساندته للحزب الوطني الاتحادى الذى تكون فى عام ١٩٥٦م. كان للمراغنة بعض النفوذ أثناء حكم نظام إبراهيم عبود العسكرى (١٩٥٨ – ١٩٦٤م)، وفى سنوات حكم الأحزاب التى تلته (١٩٦٤ – ١٩٦٩م) أيضا.

عقب وفاة السيد على الميرغنى فى ١٩٦٨م خلفه ولده محمد عثمان (١٩٣٦م –) فى قيادة العائلة ورعاية الطريقة الختمية. تعاونت العائلة والطائفة الختمية مع نظام جعفر نميرى العسكرى الذى أتى مع انقلاب مايو ١٩٦٩م، ثم عادت أيضا لتلعب دورا فى الحياة السياسية فى الفترة الديمقراطية بين ١٩٨٦ – ١٩٨٩م.

٢. على الميرغنى (١٨٧٨–١٩٦٨م) :

السيد على محمد عثمان الميرغنى من أبرز القادة الدينيين والسياسيين فى السودان خلال القرن العشرين، ومن عائلة الميرغنى وراعى طائفة الختمية التى تتسيد السياسة والاقتصاد فى شرق السودان. عاش فى القاهرة إبان الحكم المهدوى للسودان، وكان من أشد المناوئين له. كان كذلك، ولعقود طويلة، منافسا صلدا للسيد عبد الرحمن المهدي، وسبق له أن تعاون مع البريطانيين فى حملة "استعادة" السودان بواسطة الجيش البريطاني–المصرى فى بدايات القرن العشرين، وكان البريطانيون يعدونه "المتحدث الرئيس" باسم السودانيين ولسان حال الرأى العام فى البلاد. ظل منافسا للسيد عبد الرحمن المهدى فى مؤتمر الخريجين فى الثلاثينيات والأربعينيات، ومن خلال صحيفة الختمية "صوت السودان"، وفى الانتخابات، وفى السعى لنيل الاستقلال فى سنوات الأربعينيات والخمسينيات. دفعه كل ذلك للتعاطف مع مصر والوحدة معها، على النقيض من موقف المهدويين الذين كانوا يؤثرون الاستقلال التام. ربما كان السيد على الميرغنى لا يقل وطنية (وحبا فى استقلال السودان عن مصر وبريطانيا) عن السيد عبد الرحمن المهدي، بيد أن خشيته من عودة المهدية من جديد فى السودان ظلت ملازمة له، لذا سعى للتحالف مع مصر، إذ أنها كانت تشاركه ذات المخاوف من احتمال عودة المهدية لحكم السودان.

كان البريطانيون يتخوفون أيضا من احتمال عودة المهدية لحكم السودان من جديد، ويؤيدون موقف الميرغنى فى هذا الصدد، بيد أن خشيتهم من "وحدة وادى النيل" كانت أكبر، لذا صاروا من المؤيدين لرأى السيد عبد الرحمن المهدى فى أمر استقلال السودان عن دولتى الحكم الثنائي. عندما قويت شوكة المهدويين فى مؤتمر الخريجين وأحرزوا نجاحا كبيرا فى انتخاباته عام ١٩٤٣م، أيد الختمية بصورة تكتيكية جناحا صغيرا فى المؤتمر هو "حزب الأشقاء" فى عام ١٩٤٤م لإضعاف أنصار السيد عبد الرحمن المهدى فى المجلس الاستشارى لشمال السودان (الذى أنشأه البريطانيون بين عامى ١٩٤٤ – ١٩٤٨م، ثم تم حله وأتت مكانه "الجمعية التشريعية). لا ريب أن انقسامات مثقفى السودان على أساس طائفى كانت ذات فائدة عظيمة للإدارة البريطانية.

فى سنوات الحرب العالمية الثانية وقف السيد على الميرغنى مساندا وداعما للأحزاب التى بدأت فى الظهور، منادية بوحدة وادى النيل، مثل "الجبهة الوطنية" بين عامى ١٩٤٩

–١٩٥٢م، ثم الحزب الوطنى الاتحادي، والذى نجح فى كسب الانتخابات البرلمانية التى أجريت عام ١٩٥٣م بفضل التنسيق والتحالف السياسى بين المنادين بوحدة وادى النيل مع الختمية وغيرهم. وعلى الرغم من أن من تولى رئاسة الوزراء عقب تلك الانتخابات الأولى كان من حزب الأشقاء، إلا أن "الحزب الوطني الاتحادي" ظل هو المتسيد للمشهد السياسى فى البلاد، وظل للسيد على الميرغنى كبير الأثر فى الحياة السياسية وفى مواقف حزب الأشقاء وزعيمهم إسماعيل الأزهري. فى عام ١٩٥٦م انشق بعض الختمية عن حزب الأشقاء وكونوا حزبا جديدا هو "حزب الشعب الديمقراطي" ونجح التحالف بين ذلك الحزب الجديد وحزب الأمة (المسنود من السيد عبد الرحمن المهدي) فى إسقاط حكومة إسماعيل الأزهري.

بعد انقلاب إبراهيم عبود العسكرى فى ١٧ من نوفمبر ١٩٥٨م حلت الأحزاب السياسية ومنعت من ممارسة أى نشاط، بيد أن السيد على الميرغنى ظل محتفظا ببعض النفوذ السياسى خلال حكم عبود، ربما بسبب اتجاهات وتعاطف بعض قادة ذلك الانقلاب مع طائفة الختمية.

لما قامت ثورة أكتوبر عام ١٩٦٤م كانت صحة السيد على قد أقعدته عن المشاركة المباشرة فى مجريات الأحداث السياسية، بيد أن نفوذه فى ما جرى (أو لم يجر) فى انتخابات عام ١٩٦٥م كان واضحا. فى عام ١٩٦٧م أعلن عن اندماج الحزب الوطنى الاتحادى وحزب الشعب الديمقراطى فى حزب جديد أطلق عليه "الحزب الاتحادى الديمقراطي".

توفى السيد على الميرغنى فى عام ١٩٦٨م، أى بعد تسعة أعوام من وفاة منافسه اللدود السيد عبد الرحمن المهدي.

٣. محمد عثمان بن أحمد الميرغني:

هو أحد أفراد عائلة الميرغنى الذين لعبوا دورا كبيرا فى إدارة شؤون طائفة الختمية فى كسلا (حيث مركز العائلة) بعد وفاة والده أحمد الميرغنى فى عام ١٩٢٨م. لم يقم الرجل بدور سياسى وطنى منفصل، إذ إنه كان من أتباع عمه السيد/ على الميرغني، بيد أنه كان من النشطاء السياسيين فى الأيام الباكرة للحزب الوطني، وكان من المؤسسين للجبهة الوطنية فى عام ١٩٤٩، وأصدر صحيفة مستقلة فيما بعد. تقاعد عن العمل العام فى الخمسينيات لأسباب صحية ولخلافات كثيرة مع بعض الساسة من قادة الختمية.

منهجية المهدى القانونية فى أمور النكاح والطلاق فى السودان (١٨٨١ - ١٨٨٥م)

The legal Methodology of the Mahdi in the Sudan: Issues in Marriage and Divorce

بروفيسور أهارون لاييش Professor Aharon Layish



هذه ترجمة لبعض ما جاء فى مقال للبروفيسور هارون لاييش عن منهجية مهدى السودان فى أمور النكاح والطلاق، نشر فى العدد الثامن من مجلة "Sudanic Africa" فى عام ١٩٩٧م عن دار نشر جامعة بيرجن بالنرويج. يعمل الكاتب البولندى الأصل الإسرائيلى الجنسية أستاذا فخريا للدراسات الإفريقية والآسيوية فى كلية الدراسات الإنسانية بالجامعة العبرية بالقدس، وتخصصه البحثى الرئيس هو فى قوانين الشريعة الإسلامية والأعراف فى المجتمعات القبلية المستقرة. نشر كتبا ومقالات عديدة عن الوقف والمواريث والقوانين والتشريعات الإسلامية فى لبنان (وبخاصة عند الدروز) وفى ليبيا والسودان (فى عهدى المهدى ونميري) وغير ذلك.

المترجم

تزعم محمد أحمد بن عبد الله (المهدي) حركة دينية سياسية لبعث وتجديد (في الأصل إصلاح". المترجم) الإسلام، عرفت بـ "المهدية" وكان هدفها هو إعادة الثيوقراطية الإسلامية على أساس من القرآن والسنة، مثلما كان عليه الحال على أيام النبى محمد وخلفائه الراشدين. وظهرت فكرة الدعوة للمهدية في السودان أول ما ظهرت في القرن السابع عشر، وكان الباعث على حركة مهدية السودان توقعات أخروية يمكن تتبع مصدر إلهامها إلى مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وكانت لتلك الدعوة في مراحلها الباكرة سمات الحركات السياسية والاجتماعية المحتجة على ما هو قائم من أوضاع. ولقيام الحركة المهدوية في السودان أسباب نجملها في الآتي:

- استيلاء مصر – تحت قيادة محمد على باشا – على السودان.
- تدهور الوضع السياسي – الاجتماعى لرجال الدين التقليديين في البلاد، وقيام الحكومة بتعيين "علماء" يناصرونها.
- ضم مصر لدارفور في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.
- محاولة إلغاء تجارة الرقيق بمساعدة المسيحيين الأمريكيين والأوربيين، وكان إلغاء تلك التجارة يتعارض مع مصالح السودانيين (الاقتصادية).

كان القانون العرفي القبلي راسخا في المجتمع السوداني، والذى كان يرتكز على موروثات طرق صوفية عديدة. ويشدد المؤرخ (البريطاني) ب. م هولتهنا على ضرورة التفريق بين القبائل النيلية المستقرة والأكثر رقيا وحضارة، وبين قبائل الرحل في المناطق الداخلية في البلاد خاصة في غرب السودان. وأمدت القبائل النيئية المهدية بغالب أطقم بيروقراطيتها وشؤونها المالية والقضائية، بينما قدمت قبائل الرحل للمهدية غالب أفراد جيشها الثوري، وطبقتها الحاكمة من التعايشة (في عهد الخليفة).

وكان لزاما على المهدى إن أراد النجاح لثورته الهادفة لتأسيس دولة دينية (ثيوقراطية) راديكالية في مجتمع مثل مجتمع السودان الذى ذكرنا، أن يفعل ما في وسعه كي يضعف من قبضة علماء الشريعة التقليديين (الأرثوذوكس)، وأن يتنازل قليلا في أمور الأعراف والتقاليد عدا تلك التى تمس الأخلاق والأخلاقيات، والتى كان يتشدد في تطبيق

أحكامها. وكان عليه أيضا أن يترك لنفسه كقائد صاحب جاذبية "كارزيما" مساحة من الحركة لحل المشاكل السياسية والاجتماعية اليومية التى قد تنشأ فى دولته الثيوقراطية. ولكل ما تقدم تبنى المهدى منهجية قانونية مميزة منحته سلطة غير محدودة لسن قوانين وأحكام وضعية (positive laws) دون أى قيود مؤسسية قد تأتى من علماء الدين التقليديين.

تبدو منهجية المهدى القانونية فى ظاهرها شديدة التبسيط (وربما السذاجة)، بيد أنها كانت شديدة الفعالية فى الوصول به لمبتغاه وفى بلوغ أهدافه. وتجاهل المهدى ومنذ البداية كل التراث القانوني للمدارس القانونية والمذاهب المعروفة، وأزاح عن كاهله عبء التقليد، والقوانين الوضعية المتضمنة فى تلك المدارس.

اعتمد المهدى فى قوانينه وأحكامه وتشريعاته على ثلاثة مصادر، على الرغم من أنه لم يعرضها كمنهجية قانونية موحدة. وكانت تلك المصادر الثلاثة وبحسب ترتيب عرضها هى السنة النبوية والقرآن والإلهام الذى ينقله له النبى محمد. (أثبت هنا ما ذكره لى أحد المؤرخين السودانيين أن المهدى كان يعتمد على الإلهام مصدرا أولا ويخضع له القرآن والسنة وكان يتبع سنة النبى ﷺ فيما اختص به ولذا جمع المهدى فى عصمته تسع نساء! المترجم).

وقد يستنتج من هذا الترتيب أن السنة بالنسبة للمهدى - كمصدر للتشريع - أهم من القرآن. ويعضد هذا الاستنتاج ما عرف عن فهم المهدى لمفهوم النسخ (والذى هو إبدال نص بنص آخر)، ومبعثه هو إظهار إرادة الله فى حالة الشك الناتج عن التناقضات فى مصادر النصوص (معلوم أن النسخ والناسخ والمنسوخ من الأمور الخلافية والتى ألفت عنها الكتب الكثيرة، وقد أنكره بعض المتأخرين، ولكن الثابت عند غالب الفقهاء أن النسخ يقع فى الأحكام وليس فى الإخبار. المترجم). يجب على المرء أن يستنفد الصحيح أولا المصادر الرئيسة للتشريع قبل اللجوء إلى آلية الاجتهاد. وبحسب الطريقة التقليدية والمقبولة عند غالب العلماء فإن حذف أو تعديل نص قرآنى بحديث سنى أمر غير مقبول (والعكس صحيح أيضا). ويبدو أن فهم المهدى لأمر النسخ شابه كثير من التردد، إذ إنه أقر ذات مرة بأن حديثا صحيحا قد يلغى أو يغير من ما ورد فى حديث صحيح آخر، وأن

آية قد تلغى أو تغير ما ورد فى آية أخرى، بيد أنه فى حالة أخرى يقول: بأن القرآن ينسخ القرآن، وأن الحديث ينسخ القرآن (اعتمد الكاتب هنا فى مراجعه على بعض ما جاء فى كتابين بريطانيين عن الناسخ والمنسوخ وعلى بعض مؤلفات بروفسيور أبو سليم عن منشورات المهدية. المترجم).

وكان المهدى من أنصار المدرسة الظاهرية الذين يأخذ رجالهم بالمعنى الحرفى للنصوص متماهيا مع مدرسة ابن حزم ومدرسته القانونية (الفقهية) والتى أسسها داؤود ابن على بن خلف (بحسب ما ورد فى موسوعة الويكيبيديا فإن المدرسة الظاهرية تنادى بالتمسك وفق رؤيتها بالقرآن الذى هو كلام اللهو سنة الرسول وذلك بحسب الدلالة المتيقنة منهما وإجماع الصحابة، وطرح كل ما عدا ذلك من الأمور التى تعتبرها ظنية (كالرأى والقياس واستحسان ومصالح مرسلة وسد الذرائع وشرع من قبلنا. المترجم).

وينفى المهدى عن نفسه تهمة احتكار حق الاجتهاد. ففى ذات مرة طلب منه أن يفتى فى أمر الخلع (الذى هو فراق الزوج لزوجته بحسب طلبها بعوض يأخذه منها مثل المهر وغيره). وكان السؤال هو: هل يعد الخلع طلقة من ضمن الطلقات الثلاث التى تحرم بعدها الزوجة إلا بعد تتزوج من آخر. وأفتى المهدى فى هذه المسألة بأن الزوج إن لم يلفظ بكلمة الطلاق فإن الخلع لا ينبغى أن يعد طلاقا، وأن بمقدور الزوج أن يرجع زوجته دون اللجوء لزواجها من رجل آخر، بعكس ما سيكون عليه الحال لو كان قد تفوه بكلمة "طلاق"، وأكد المهدى هنا أيضا أنه لم يأت بهذه الفتوى كرأى شخصى أو اجتهاد من عنده، بل استند – كما ذكر – إلى مصادر التشريع المعروفة المذكورة آنفا. وفى حالة أخرى أفتى المهدى فى أمر توزيع الغنائم بما يفيد بأن الحديث يمكن أن ينسخ الآية، وكرر أيضا أنه ليس بمجتهد.

لا تتوافق "اجتهادات" المهدى مع النظرية الكلاسيكية للاجتهاد، بيد أن "نسخته الاجتهادية" لا تكاد تختلف كثيرًا عن ما كان يؤكد عليه السلفيون المجددون والإصلاحيون من قبله (مثل السنوسى ومحمد بن عبد الوهاب) من أن القرآن والسنة النبوية هما مصدرا التشريع، مع ملاحظة أن المهدى قد استبدل الإلهام المباشر عن النبى محمد بالقياس (المبنى على مصدرى التشريع من قرآن وسنة نبوية)، إذ كان يعد نفسه هو

"الوارث" للنبى محمد وخليفته من بعده، وكان يزعم أنه على اتصال مباشر به بـ "الحضرة".

ولعل المهدى قد قصد من هذا الزعم أن يخرج نفسه من دائرة النقد من العوام ومن تحكم العلماء أيضا. وبعبارة أخرى كان المهدى ينسب الأحكام الوضعية التى يفتى بها للإلهام الذى يتلقاه من النبى محمد مباشرة، وهى بالطبع أحكام لا تخضع لإجماع الفقهاء كما تقتضى نظرية القانون الإسلامي.

ويذكر هذا الوضع بما حدث من منافسة قديمة يعود تاريخها لسنوات العهد الإسلامى الأول بين "أهل الرأي" والذين اشتهروا بأعمال القياس والمنطق أكثر من غيرهم، وبين "أهل الحديث" والذين تميزوا بالاهتمام بالأحاديث المنسوبة للنبى محمد والتى بها يفرضون آراءهم فى النزعات القانونية بين الفقهاء.

ويبدو كذلك أن "الإلهام" عند المهدى يفوق فى المرتبة الأحاديث النبوية، لأن الإلهام (بعكس ما هو الحال مع الأحاديث) يستحيل أن يتطرق شك فى صدقيته وموثوقيته بما يعرف بعملية "الجرح والتعديل" بالقدح فى رواة الحديث أو القول بعدم مصداقيتهم.

أما فيما يتعلق بمنهجية المهدى القانونية، إن كان لنا أن نعيد تصور تشكيلها هنا بناءً على الأحكام التى أصدرها المهدي، فيلاحظ الغياب الكامل فيها لكلمتى "العرف" و"العادة"، على الرغم من أن عادات وتقاليد المجتمع السودانى القبلى الطابع تتحكم فى كثير من أمور الحياة فى البلاد.

ولكن هذا ليس بمستغرب إذ إنه حتى فى النظرية الكلاسيكية للقوانين الإسلامية لا تكاد تجد للأعراف أو العادات موضعا كمصدر رسمى وأصيل للقوانين على الرغم من أهمية مساهمتها فى التطور المادى للقانون الإسلامي.

وقد يعزى هذا الأمر لحقيقة أن النظرية الكلاسيكية لم تلق بالا للجوانب التاريخية، بل كانت مهتمة فقط بالجوانب المنهجية للقانون الإسلامي.

وكما هو متوقع لم يكن الفقهاء على استعداد لقبول الأعراف والعادات (والتى تتأتى من السلوك الاجتماعى للبشر) ومساواتها بالنصوص الخالدة المتمثلة فى القرآن والسنة النبوية.

وكذلك كان لاعتماد الأعراف والعادات كمصدر للتشريع أن يسلب الفقهاء القدرة على التحكم، وأن يقوض طبيعة القانون الإسلامى كـ "قانون فقهاء". ولكن فى الوقت ذاته يمكن القول بأنه من المحتمل ألا تكون العادات قد اختفت تماما من الشريعة فى نسختها المهدوية كما هو الحال مع الشريعة التقليدية (الأرثوذوكسية) والتى استوعبت العادات والتقاليد بآلية الاجتهاد.

وبعبارة أخرى كان الفقهاء يصوغون أحكامهم القضائية الجديدة بناءً على سوابق قضائية من المصادر النصية آخذين فى الاعتبار الضغوط الاجتماعية الآتية من القاعدة الشعبية. ومن البدهى أن تأثير العادات والتقاليد على القوانين الوضيعة التى صاغها المهدى وفق احتياجاته السياسية والاجتماعية يمكن تمييزه من البيانات والأحكام والاجتهادات والقرارات القضائية التى أصدرها، والأقوال التى نسبت له بعد وفاته. وفى هذا فالمهدى يحاكى السنة النبوية المتمثلة فى أقوال النبى وأفعاله.

ويمكن تلخيص الأمر بالقول أننا بصدد نسخة متفردة من الاجتهاد الشخصى المعتمد على المصادر النصية، وعلى الإلهام، وليس على القياس كما تقضى أصول النظرية الكلاسيكية. ويضفى هذا النوع من الاجتهاد على المهدى قدرا من "حرية التصرف" أوسع مما هو مسموح به فى التفكير القياسي.

بالإضافة إلى ذلك فقد كانت أحكام المهدى (وخلافا لما تقتضيه أصول الاجتهاد) فاصلة ونهائية لا يمكن إلغاؤها، وليست ظنية تنتظر إجماع العلماء، بل لقد وصف أحد أتباع المهدى الرجل بأنه "معصوم من الخطأ" نسبة لتلقيه الوحى مباشرة من النبى (كان مرجع الكاتب لهذه النقطة هو الشاعر (و"العالم الثائر" بحسب وصف أ.د. أبو سليم، والمولود ببربر الحسن بن سعد بن محمد العبادى فى ما كتب فى "الأنوار السنية الماحية لظلام المنكرين على الحضرة المهدية" فى عام ١٨٨٨م).

تأثرت منهجية المهدى القانونية دون شك بالحركات الإصلاحية والتجديدية فى جزيرة العرب (مثل الحركة الوهابية) وشمال أفريقيا (مثل السنوسية) فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، على التوالي، وكذلك بعدد من "العلماء" الذين قابلهم كفاحا، أو من الذين قرأ لهم فى سنوات تكوينه الفكرى الباكر.(لعل الصحيح عند غالب المؤرخين هو

تأثر المهدى بالغزالى وابن عربى وليس بالفكر السلفى التيمى القيمى الوهابي).

وربما كان ذلك الإلهام منقولا عبر وسطاء مثل عبد الله الدافونى والذى لعب دور الوسيط بين المهدى والشيخ الصوفى المغربى أحمد بن إدريس، وعلم المهدى أوراده وأحزابه قبل أن يعلن أنه "المهدى المنتظر".

تأثرت منهجية المهدى القانونية دون شك بالحركات الاصلاحية والتجديدية فى جزيرة العرب (مثل الحركة الوهابية) وشمال أفريقيا (مثل السنوسية) فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، على التوالي، وكذلك بعدد من "العلماء" الذين قابلهم كفاحا، أو من الذين قرأ لهم فى سنوات تكوينه الفكرى الباكر، وربما كان ذلك الإلهام منقولا عبر وسطاء مثل عبد الله الدافوني، والذى لعب دور الوسيط بين المهدى والشيخ الصوفى المغربى أحمد بن إدريس، وعلم المهدى أوراده وأحزابه قبل أن يعلن أنه "المهدى المنتظر".

ولا ريب أن خلفية المهدى الصوفية قد ساهمت فى توجهه القانونى (الفقهي) الإصلاحي، ولا غرو إذ إن ارتبطت غالب الحركات التجديدية فى القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، بطريقة أو بأخرى بتراث "الطريقة" وتقليدها. ويبدو أن ثمة صلة وعلاقة سببية بين حركة المهدى القانونية (الفقهية) الإصلاحية وارتباطه بطريقة السمانية الصوفية. وتشدد الطرق الصوفية الحديثة على التخلق بأخلاق النبي، ويزعم معتنقوها أنهم قابلوا النبى كفاحا (مثلما فعل المهدي)، ولعل فى هذا ما يفسر شدة تعلق أتباع الحركات التجديدية بدراسة الأحاديث النبوية. وهنا يجب أن نشير إلى أن المهدى كان يعد نفسه خليفة للنبي ويتلقى الإلهام عنه مباشرة. ولتفسير ذلك يجب معرفة المنهجية القانونية للحركات التجديدية، ولدور العلماء الذين شكلوا عالم المهدى الروحي.

لم تجمع – مبلغ علمي – تطبيقات المنهجية القانونية/ التشريعية للمهدى فى دراسة واحدة جامعة (أشار الكاتب هنا لورقة من أعمال البروفسيور أحمد إبراهيم أبو شوك عنوانها "منهجية التشريع المهدوى بين الظاهر والباطن" كان قد قدمها لمؤتمر "الدراسات الصوفية" الذى انعقد بجامعة الخرطوم فى ٢٨/١٠/ ١٩٩٥م، وشكره على السماح له بقراءة النص المكتوب لتلك الورقة، وكان قد أثنى عليه أيضا فى مقدمة ورقته لمراجعته لهذا المقال. المترجم". كانت تلك المنهجية قد أتاحت للمهدى حرية التشريع دون أى

عوائق أو قيود، وأتاحت له أيضا ابتداع ما لم يرد فى الشريعة التقليدية (الأرثوذوكسية). فعلى سبيل المثال كفر المهدى فى مرات عديدة الأتراك العثمانيين (والذين أعلن ضدهم الحرب)، وصرح بأنهم خرجوا عن الإسلام. ولهذا السبب لم يتردد المهدى أبدا فى القول بأنه إن وجدت المرأة فى داخل حدود الدولة المهدية بينما ظل زوجها داخل دولة الترك، فإن عقد زواجها منه يصبح باطلا بغض النظر عن ما إذا كانت تلك المرأة قد شرعت فى إجراءات الطلاق أم لا، وتبريره لذلك الحكم هو أن المرأة المسلمة لا يجوز لها الارتباط بغير المسلم، بحسب ما جاء فى القرآن بخصوص "المهاجرات" (لعل الكاتب يشير إلى هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(الممتحنة : ١٠) المترجم)، إذ إن ممتلكات الزوج "الكافر" تعد بالطبع من الغنائم. وكذلك أبطل المهدى صحة الطلاق المعلق (بقولة: على الطلاق أو على الحرام...) ومنع التفوه به لعدم توفر نية الطلاق فيه، وهذا مما يوافق ما جاء فى القرآن والسنة النبوية. ولقد سنت فى القرن العشرين تشريعات قانونية فى بعض البلاد الإسلامية قضت بإبطال الطلاق المعلق رغم صحته عند كل المدارس القانونية /الفقهية (فى الأمر تفصيل، ولكن القاعدة العامة هى أنّ الطلاق إذا عُلّق على شرط يقع إن حصل ما عُلّق عليه لفظ الطلاق، ولا عبرة بنيّة صاحبه أو قصده؛ سواء قصد التّهديد أو غيره،وإليه ذهب جمهور العلماء من الحنفيّة، والمالكيّة، والشافعيّة، والحنابلة. المترجم). وقام المهدى بدور المشرع حسب مقتضيات الأحوال السياسية والاجتماعية والشخصية، وهو بهذا يحاكى آلية ما سنه النبى محمد من تشريعات. وكذلك سن المهدى أحكاما وقوانين تحرم كثيرًا من الأمور التى تتعلق بالسلوك الشخصى والأخلاقيات، خاصة فيما يتعلق بالنساء وعفتهن.

لقد وضع الانحراف عن "القانون الوضعى المعيارى Normative positive law" المهدى فى مواجهة العلماء التقليديين (الأرثودوكس) المناصرين للحكم المصرى التركي، والذين وصفهم بأنهم "علماء السوء".

تشكل آراء المهدى فى قضايا الطلاق وتعدد الزوجات (والتى هى الموضوع الرئيس فى هذا المقال المختصر) مثالا وتوضيحا ملموسا لبعض تطبيقات منهجية المهدى القانونية / التشريعية المتفردة، ومثالا توضيحيا للطريقة التى كيف بها الشريعة لتوافق احتياجاته وأغراضه.

خلفية الفتوى(الرأى القانوني) The Background of the Legal Opinion :

كان القصد من الفتوى التى نحن بصددها حل المشاكل التى نشأت فى غضون المراحل الأولى من توسع الحركة المهدوية وتثبيت أقدامها. وبما أن المهدى كان قد كفر الترك فقد برز سؤال حول الوضع القانونى للعائلات التى كان بعض أفرادها موجودا فى داخل المناطق التى يسيطر عليها المهدي، بينما بقى أفراد آخرون منها فى المناطق التى يحكمها الأتراك. أيعامل من بقى مع الأتراك معاملة المسلمين الذين لهم حقوق معلومة فى الشريعة؟ أجاب المهدى على هذا السؤال بالنفي. كان القصد من تلك الفتوى حل مشاكل المهدى الشخصية فيما يتعلق بالطلاق وتعدد الزوجات.

تفرق المذاهب السنية الأربعة تفريقا واضحا بين الطلاق "الرجعي" والطلاق "البائن"، فالطلاق الرجعى هو الطلاق الذى لا يحتاج فيه لعودة الزوجة إلى زوجها إلى تجديد العقد ولا المهر ولا الإشهاد ولا ترفع أحكام النكاح الزوجية قائمة مادامت المرأة فى العدة، والتى تبلغ مدتها عند المالكية ثلاث حيضات، وتنقطع الرجعة وتملك المرأة عصمتها إذا طهرت من الحيضة الأخيرة (الثالثة) بكل ما يعنيه ذلك من نتائج قانونية ومالية. ويجوز للزوج إرجاع مطلقته، ولكن فقط بعد الحصول على موافقتها وبعقد جديد وصحيح وكامل الأركان وبمهر جديد أيضا. وأما بعد الطلقة الثالثة (فى النوعين من الطلاق) فلا يجوز شرعا إرجاع المطلقة لمطلقها إلا بعد أن ينكحها رجل غيره، ثم يطلقها وتقضى عدتها، وبعد ذلك فقط يجوز أن ترجع لزوجها الأول. لا يجيز المذهب المالكى (والحنبلى أيضا. المترجم) بتاتا زواج المطلقة من رجل ثان بقصد التحليل. وبمعنى آخر يجب أن يكون زواج المطلقة من رجل آخر غير زوجها الذى طلقها ثلاث طلقات زواجا حقيقيا. اشترط الإسلام فترة العدة لضمان خلو الرحم ولإزالة أى شك حول بنوة المولود، واشترط زواج المطلقة من رجل آخر غير زوجها لتنفير الأزواج من مغبة

الاستعجال فى الطلاق. ولكن أفسد الفقهاء هذه القاعدة بقبولهم بأن يكون الطلاق بالثلاث بلفظ واحد وفى ذات الجلسة (فى الأمر تفصيل واختلاف بين العلماء من مختلف المذاهب. المترجم).

ولذا فإن عدد الطلقات ونوعها من الأمور المهمة فى حياة المسلمين اليومية. وبغض النظر عن عدد الطلقات، ووجود زواج شرعى فى الحالات التى يكون فيها أحد الزوجين موجودا فى الأراضى التى يسيطر عليها الأتراك، فقد خلقت حالة من البلبلة القانونية فى أمر "الحالة الاجتماعية" للزوجين، فلجأ بعضهم للمهدى من أجل الحصول على فتوى شافية فى أمر زواجهم والبحث عن مخرج لهم من تلك الورطة. ويبدو من فتوى المهدى (انظر الفتوى فى نهاية المقال) أن الأمر كان يهم المهدى فى خاصة نفسه أيضا، غذ أنه كان قد استنفد حصته من طلقات ثلاث لبعض نسائه. وفى حالة واحدة منهن على الأقل كان المهدى يرغب فى إرجاع زوجته المطلقة ثلاث طلقات وأن يتجنب إحراج أن ينكحها زوج غيره.

أما مسألة تعدد الزوجات فهى مسألة تخص المهدى وحده. تسمح الشريعة الإسلامية للرجل بالزواج من أكثر من واحدة (بحد أقصى أربعة أزواج) شريطة أن يقيم بينهن العدل فى الأمور المادية (العددية) مثل المبيت والمسكن والطعام، ولا يشترط العدل فى أمور عاطفية مثل الميل القلبي، والتى لا نستطيع نحن البشر التحكم فيها. ويتضح جليا من فتوى المهدى أنه كان يسعى للحصول على "رخصة" تسمح له بالاحتفاظ بأكثر من أربعة نساء فى عصمته فى ذات الوقت.

تستند فتوى المهدى (والتى تخالف كثيرًا مما هو مقبول عند علماء الشريعة) إلى آيات وأحاديث يفسرها بوحى من "الإلهام" الذى يقول: إنه يأتيه فى حالتى اليقظة والمنام، والتى كثيرًا ما يصاحبها أحاسيس جسدية حادة تظهر للمهدى بواسطة النبى أو "ملك الإلهام"، والذى فشل المهدى فى الكشف عن هويته (يكتب المؤلف فى مرجعه لهذه النقطة أن "ملك الإلهام" هذا هو جبريل، وأشار إلى قصيدة العبادى المادحة للمهدى والتى ورد ذكرها سالفا. المترجم). وبعبارة أخرى وفيما يخص تفسير النصوص الفقهية لم يلزم المهدى نفسه لا بالنظرية الكلاسيكية لأصول الفقه، ولا بالقوانين الوضعية للشريعة.

وبالإضافة إلى ذلك يبدو أن المهدى سعى للحصول على سند لحل مشاكله الشخصية فى سوابق من أفعال أختص بها النبى فى بعض أمور النكاح والطلاق، مثل الإمساك بأكثر من أربعة أزواج فى وقت واحد، وإرجاع من طلقها ثلاث طلقات دون أن ينكحها زوج غيره.

إن فتوى المهدى ليست مجرد "أداة" لتوضيح ما غمض من الأمور الدينية – القانونية والتى لا يجد الناس لها حلا فى القانون الوضعى الإسلامي، بل هى أداة سياسية – مثلها مثل المنشور أو الأمر أو الحكم أو الإنذار... والقصد منها بالقطع هو فرض قاعدة قانونية على المجتمع بأسره، ومبعثها الرئيس هى اعتبارات سياسية واقتصادية واجتماعية خاصة بالمهدى نفسه. وكانت فتوى (أو حكم) المهدى بالطبع ليس فقط موجها للمستفتى وحده، بل هو أمر واجب التنفيذ لسائر العباد، ورفض القبول به قد يودى بالفرد المهالك والاتهام بالكفر، وليس اختيارا شخصيا للفرد كما هو الحال مع فتاوى العلماء.

ولا يعترف الإسلام بسلم تراتيبي(hierarchy) للمفتين، ولكن المهدى لا يعد نفسه قائدا سياسيا ودينيا أعظم فحسب، ولكنه يعد نفسه أيضا السلطة الدينية والقانونية الأعظم فى البلاد. وإن التكامل بين كل تلك الجوانب والوظائف فى شخصيته يعطينا بعدا قسريا (coercive dimension) لآرائه القانونية وفتاويه.



وهذه هي عينة من الفتاوى ذات الصلة بالمقال كما وردت في مؤلف أ.د. أبو سليم "الآثار الكاملة للمهدي"، وقد أثبتها في نهاية مقالة بلغتها العربية الأصلية، ثم قام بترجمتها للغة الإنجليزية. المترجم)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

وبعد....

فمن عبد ربه محمد المهدي بن السيد عبد الله أنه قد كثر التضرر والتشكي إلي وطلب الغوث من الأنصار الحاصل منهم الطلاق قبل زمن المهدية، ولا يخلى ذلك من الضيق والحرج منهم ومن نسائهم، وقد تابوا وإلى الله أنابوا، وللألفة والاجتماع في دين الله طلبوا، ومرارا أعرض عن ذلك وأقول: أليسوا كانوا مؤمنين؟ وأفتى للبعض إن عدم الحسبة في الطلاق لأهل القيقر والنساء اللاتي لم يكن مؤمنات لأنهن لا عصم لهن فلا يكن لهن حسبة طلاق، حتى كثر التضرر في ذلك والتردد فاهتممت بذلك وتضرعت وابتهلت إلى الله في ذلك ليحصل فرقان من كتاب الله تعالى، لأنه سبحانه قد وعد بالفرقان والمخرج للمتقين.

وفوضت الأمر إلى الله وتركته حتى ورد علي وارد في آخر ورد الراتب. وقد كان هذا الأمر خارجا من بالي، فوردت لي هذه الآية وهي قولة تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾(الحج : ٧٨) مع الإلهام أنها المخرج من ذلك التضرر الحاصل في الطلاق قبل المهدية.

وإن الطلاق قبل المهدية لا يحسب لمن تمت الثلاثة ولو بعد المهدية، وسبق طلاق قبل المهدية. وبعد المهدية لا تكون الفتاوى التي كان العلماء يفتون بها في مطلقة الثلاث وقد وقع في قلبي حينئذ- أعني في ذلك الوقت الوارد لنا من رسول الله ﷺ- إننا لما نخرج

من ابا إلى الغرب فالناس يدخلون فى دين الإسلام جديدا على أو كما قال.

وقد وقع لبعض نسائى تمام عدد الطلاق، وقد وقع بعضها قبل المهدية وقد تضرروا بأنفسهم وبأهلهم بعض الأصحاب وأمرتهم بأن يتزوجوا فلم يرتضوا حتى ورد الخبر بمنع ذلك بالخصوصية التى يأتى ذكرها. ولا زالوا يتضررون فقلت لا سبيل إلى ذلك إلا بشيء يأتى لنا من الله ورسوله ﷺ مع وقوع بعض حضرات فى حسبتها من نسائى ووقوفها معهم فى التصفية، وبعض حضرات حصل فيها الأمر برجوعها مع كثير من راوى صالحة فى حسبتها من نسائي

وبكل ذلك كنت أجد فى نفسى الحرج من الرجوع لها مع تمام حسبة الطلاق حتى ورد لى الوارد فيها مع ذلك الوارد المتقدم ذكره، وهو قولة تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ (الأحزاب : ٥٠) الآية. فلا أدرى غلا وقد انفرج ما بى من ذلك الخوف وانشرح لها صدرى بغير ما أعهده والأمر لله، ولله تعالى فى كل وقت شان. وقد جاء الإخبار من رسول الله ﷺ أن ملك الإلهام من الله يسددنى وعينه. فمن هذا الخبر النبوى علمت ان الذى يلهمنى الله به بواسطة ملك الإلهام لو كان رسول الله ﷺ حاضرا لفعله.

وقد ورد لى مرارا الخصوصية التى كانت له ﷺ فى نسائه مع التوصية من ﷺ أن تنزل نسائى كمنزلة نسائه ﷺ ولما أهديت إلى النساء مع الوارد لى من رسول الله فيهن أخذنى خجل من ربى سبحانه فى أمرهن. وأنا فى ذلك فجاءنى سلام سمعته بجميع جسدى من غير حرف ولا صوت ولا سر ولا جهر ولا قرب ولا بعد. ولا أقدر على تكييف شيء منه، فدلنى على أسرار كثيرة، ولله المثل الأعلى، وتعالى الله عن كل ما يخطر ببال، وأمر ذلك مرض إلى الله تعالى.

ولكن ما حصل لي، مع ذلك الإلهام الذى يحصل لي، فانشرح لى به الصدر وانحل قلبى مما كنت مهتما به، وحصلت لى أسرارًا كثيرة يغمض فهمها. وقد حصل لى مثل واقعة

هذا السلام شيء يشبه ذلك في كيفية بعض النساء بشارة نسبتها مع تسمية الولد والبنت الذين يجعلهما الله تعالى منها، فسمعته بسائر جسمي باطنا وكل ذلك بحول الله وفضله لا لشغف بالنساء ولا أبرئ نفسي إلا أن يزكيني ربي، وأعلم أن ظن المؤمنين بي حسن ولكن الخوف دخول الشيطان على من ضعف قلبه مع العلم أن خلافتي لرسول الله ﷺ لا كخلافة الخلفاء السابقين. وسأبين بعض النصوص المذكورة في بعض التفاسير في قوله تعـــالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ (الأحزاب : ٥٢) لينحل قلب بعض الإخوان الذين تقع في قلوبهم عداوة الشيطان بسبب النساء اللاتي أرادهن لي ربي سبحانه، وإنما الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم. فإذا فقد العبد كثرت أنوار المحبة واليقين بالحقيقة التي نحن عليها أخاف أن يضره الشيطان.

قال عكرمة والضحاك: لا تحل لك النساء من بعد، أي: إلا اللاتي أحللنا لك وهي قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٥٠) . ثم قال: لا تحل لك النساء من بعد، أي اللاتي أحللنا لك بالصفة التي تقدم ذكرها. وقيل لأبي كعب: لو مات نساء رسول الله ﷺ أكان يحل له أن يتزوج؟ قال: وما يمنعه من ذلك؟ قيل قوله تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ (الأحزاب : ٥٢) قال: إنما أحل الله ضربا من النساء فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٥٠) وبين بعضهم في هذا المقام أنه ﷺ تجوز له ثلاثمائة امرأة.

وقال مجاهد ما معناه: لا تحل لك اليهوديات ولا النصرانيات بعد المسلمات. ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ (الأحزاب : ٥٢) ويقول: ولا أن تبدل بالمسلمات غيرهن من اليهود والنصارى. يقول: لا تكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية، ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ (الأحزاب : ٥٢) . أحل الله له ما ملكت يمينه من الكتابيات أن يتسرى بهن، وروى عن الضحاك: ﴿ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ ، يعني: ولا أن تبدل بأزواجك اللاتى هن فى حبالك أزواجا غيرهن بأن تطلقهن فتنكح غيرهن. فحرم عليه طلاق اللواتى كن عنده وحرمهن على غيره حين اخترنه فأما نكاح غيرهن فلم يمنع عنه. وغير ذلك من نحو هذا.

أقول وبعد هذا قد حصلت لى فى هذا المعنى أسرارًا كثيرة يطول ذكرها، والحمد لله على خاصيتنا برسول الله ﷺ وعنايته بنا ودعاءه لنا قديما وحديثا، فإن شرف التابع من شرف المتبوع، والسلام.

١٨ من ربيع الأول سنة ١٣٠٢هجري.

مهدى السودان: رائد أصولي

The Sudanese Mahdi: Frontier Fundamentalist

Professor John Voll بروفيسور جون فول

◇◇◇◇◇◇

هذا عرض وتلخيص لبعض ما جاء فى مقال للبروفيسور جون فول عن مهدى السودان نشر فى العدد العاشر من المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط "International Journal of Middle East Studies" فى عام ١٩٧٩م عن دار نشر جامعة كيمبردج البريطانية. ويعمل بروفيسور فول الأمريكى الجنسية أستاذا للتاريخ الإسلامى فى جامعة جورج تاون بواشنطن ، ونائبا لمدير معهد الأمير طلال بن الوليد للتفاهم المسيحى –الإسلامى بالجامعة نفسها.

تخصص بروفسيور فى التاريخ الإسلامى فى الشرق الأوسط وقضى سنوات من عمره فى بيروت والقاهرة والخرطوم، وكان بحثه لنيل درجة الدكتوراه من جامعة هارفارد عن طائفة الختمية بالسودان، وألف وحرر خلال أكثر من أربعين عاما عددا كبيرا من الكتب والمقالات (منفردا أو بالاشتراك) فى مختلف موضوعات التاريخ الإسلامى والعالم الإسلامى المعاصر، حرر الكاتب المقال إبان عمله بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى منتصف سبعينيات القرن الماضي.

الشكر موصول للمؤلف لتكرمه بمدى بنسخة كاملة من المقال، ولمن تكرم من الأصدقاء بمراجعة هذا التلخيص له.

ملخص المقدمة: فى مقدمة بحثه يشير المؤلف أن الكتاب والمؤرخين، وعلى امتداد عقود طويلة، قد صوروا مهدى السودان على أنه إما رجلًا شريرا، أو بطلا، أو رجعيا أو ثوريا معاديا للإمبريالية أو غير ذلك. وأوحت مهدية القرن التاسع عشر برومانسيتها وإثارتها للكتاب والمؤرخين والعلماء بكثير من الروايات والأفلام والدراسات المعمقة عن أصول ظاهرة "المهدية". وفى السنوات الأخيرة نشر بعض المؤرخين أبحاثا عن المهدى وصفوه فيها بأنه "قائد كاريزمي"، و"زعيم ثورة الألفية" و "الأفريقى الثائر ضد

الغزو الأجنبي" و"مسيح السامية الأفريقي" وأول من أنشأ حزبا سياسيا- دينيا فى "العالم الثالث".

بيد أن كثيرًا مما كان يعد من "الثوابت التاريخية" لم يعد كذلك عند المؤرخين المعاصرين، وإن كثيرًا مما كان يحسب من القضايا المركزية لا يعد الآن إلا قضايا فرعية لا أثر لها ولا خطر، والعكس صحيح أيضا. وتظهر على السطح فى زمننا هذا قضايا مثل "الصحوة الإسلامية" وعودة الثقة للمسلمين فى أنفسهم، وبروز قادة مسلمين ومصلحين ينادون بأشكال مختلفة وصور عديدة بعودة الإسلام للحياة المعاصرة مثل الحكام الوهابيين فى الجزيرة العربية، والقذافى فى ليبيا (لاحظ أن المقال كان قد كتب فى أوائل السبعينيات عند تبنى القذافى للشريعة. المترجم).

ومع تمدد ظهور الأصوليين الإسلاميين فى الحياة الدينية والسياسية فى العالم الإسلامى يبدو جليا أن الحضارة الإسلامية لم يعد ينظر إليها كحضارة محتضرة تلفظ أنفاسها الأخيرة.

ولعل هذا ما يجدد الدعوة لإعادة النظر فى تاريخ مهدى السودان تحت ضوء جديد، وعن مكانه فى أوساط "الأصولية الإسلامية"، وهو الأمر الذى لم يظفر بدراسات أكاديمية جادة إلا فى حالات نادرة جدا.

ولعل عودة نشطاء الإسلام للظهور فى السنوات الأخيرة يؤكد أهمية الجهود المبذولة لفهم الأصولية الإسلامية لمهدى السودان. فبينما يرى كثير من الكتاب مهدى السودان مصلحا تطهريا متزمتا "puritanical reformer"، يبدأ بعض هؤلاء مقالاتهم بالكتابة عنه فى معرض مكانته فى التاريخ الإسلامى كـ "المهدي" (معرفا بالألف واللام). وبهذه الطريقة، وعوضا عن البدء فى مناقشة التقليد التليد للأصولية فى الإسلام فى إطارها الأوسع، تجدهم عادة ما يبدؤون بالكتابة عن مفهوم المهدى عند الشيعة، وهذا ما يحرف النقاش عن "الأصولية الإسلامية" والتى تعادى الشيعة دوما.

التقاليد الأصولية / التراث الأصولى The Fundamentalist Tradition

يشمل تعريف "التقاليد الأصولية "كل الحركات الأصولية، وهذه الحركات ذات أوجه تنظيمية مختلفة لا يجمع بينها غير اشتراكها فى "الأصولية". ولا يكتمل ذكر قائمة

هذه الحركات بغير الإشارة إلى "الوهابية" أو "ابن تيمية"، فالأولى هي حركة محكمة التنظيم لنشطاء مسلحين، والثاني هو عالم مفرد ألهم الكثيرين غيره. ولذا فإن اللقب الذي يخلع على أسلوب القيادة ليس له تلك الأهمية الكبيرة والحاسمة كغيره من العوامل التي يؤخذ بها عند تعريف "الأصولية الإسلامية" إذ إن بعض أساليب القيادة في الإسلام لا ترتبط عادة بالنزعات الإصلاحية –الإحيائية (reformism - revivalism) عند الأصوليين. وبذا فإن لقب "المهدي" يرتبط عادة برموز العودة / المسيحية messianic figures عند الشيعة، ولا ينظر لـ "المهدي" كقائد يدعو لإحياء المجتمع (الإسلامي) القديم. ومن الممكن جدًا أن يخلع على فرد من الناس لقب "المهدي" ويكون أقرب للنسخة الأصولية للإسلام من غيره.

ويعرض هذا التحليل لنوع من التصورات البدهية لمن ادعوا المهدية مثل محمد أحمد في السودان وابن تومرت (*للتعريف بالرجل انظر آخر المقال. المترجم) كقادة أصوليين، ويعرف ويفسر أوجه التشابه بين الأفراد والمجموعات الأصولية المتباينة والتي تشمل أتباع ابن تيمية، ومهدي السودان، والوهابية، والموحدين في شمال أفريقيا، وربما أحمد بن إدريس الفاسي.

ومن الطرق المفيدة في وصف التقاليد (التراث) الأصولية في الإسلام طريق التأمل في علاقة هذا التراث بسلسلة من التوترات الخلاقة التي هي أساسية ضمن التجربة الإسلامية. ولأغراض التحليل، فإن ثمة ثلاثة أزواج من البدائل تقدم لنا النقاط النهائية لثلاثة أطياف من التجربة الإسلامية، كما تقدم لنا المعايير لهذه التوترات الخلاقة، ألا وهي التوترات والبدائل المتعلقة بالجوهر والتسامي، والتنوع والوحدة، والانفتاح والأصالة.

المهدي في السودان The Mahdi in the Sudan:

ينظر المؤلف لمحمد أحمد (مهدي السودان) على أنه جزء من التراث الأصولي في الإسلام. وفي تحليله لفت النظر إلى النقاط التالية:

إن هنالك تصورا بديلا للأساس الذي أقام عليه "المهدي" سلطته، ولا ريب أن البعض يعد الرجل قائدا صاحب كاريزما عانية. بيد أن عبارة "صاحب كاريزما" أضحت تطلق على كل شخص له صفات قيادية دراماتيكية أو رسالة شعبية أو جماهير وأتباع.

إننا إن أردنا استخدام تعريفات "السلطة الكاريزمية" و "القائد صاحب الكاريزما" بحسب ما سكها ماكس فيبير فيجب علينا إعادة تقييم محمد أحمد "المهدي" إن كنا نعده جزءا من التراث الأصولي. ويعرف ماكس فيبير "السلطة الكاريزمية" بأنها "القدرة التى يتمتع بها شخص معين للتأثير على الآخرين إلى الحد الذى يجعله فى مركز قوة بالنسبة لهم، وبحيث يمنحه الواقعون تحت تأثيره حقوقا تتيح له التسلط عليهم كنتيجة لقدرته التأثيرية هذه. فالقدرة على التسلط التى يتمتع بها القائد الكاريزمى (الكاريزما تي) ويارسها على الآخرين تنبع أساسا من خلع الآخرين عليه صفات وقدرات خارقة مثل الإيمان بأنه صاحب مهمة إلهية مقدسة أو بأن لديه قدرات إدراكية غير طبيعية ونفاذ بصيرة لا يبارى، أو بأنه يتحلى بفضائل خلقية تسمو به إلى مرتبة أعلى من مرتبة البشر العاديين".

لا تنطبق كل هذه الصفات المذكورة على محمد أحمد "المهدي" حتى يمكن اعتباره قائدا كاريزما بحسب تعريف ماكس فيبير المذكور إذ إنه لم يدع أن وحيا (جديدا) قد أنزل عليه سيخلف ما أنزل على النبى محمد، وكان الرجل يكرر دوما عبارات من شاكلة "ما جاء فى الكتاب..." و"ما أنزل على النبي..." وكان يدعو لاتباع ما أنزل من الله على النبى محمد. ولم يفرض محمد أحمد (المهدي) أى نوع من الفروض غير تلك التى أتى بها نبى الإسلام فى القرآن والسنة، وبهذا فهو لم يرفض الماضى وإنما حاول إرجاعه أو "إعادة خلقه" بمعارضة الحكم المصري- التركى والذى -بحسب زعمه- كان معارضا لما جاء فى القرآن والسنة النبوية. ولذا فإن سلطة محمد أحمد (المهدي) (رغم صفات الرجل القيادية الدراماتيكية) يمكن أن تعد سلطة "تقليدية" أكثر منها "كاريزمية"، وهذا يتماهى تماما مع كون حركته حركة أصولية الفلسفة والتوجه والممارسة.

٣- إن اعتبرنا حركة محمد أحمد (المهدي) ضمن حركات التراث الأصولى فيجب أن نتوخى الحذر عند تصنيف "مهديته" كحركة عودة messianism. وربما كانت تلك الحركة نوعا خاصا من اليسوعية "التجديدية" مرتبطة بالتراث والتقاليد السنية. وتكتسب هذه النقطة أهمية كبيرة لفائدتها فى فهم محمد أحمد (المهدي)، بل والمجتمع السودانى بأسره فى نهاية القرن التاسع عشر.

وقد كانت الحركة المهدية فى السودان حركة ذات نوع خاص، لزم لقيامها نضج ظروف خاصة، واستلزم قيامها (كحركة أصولية) ما هو أكثر من مجرد " وجود أفراد من الشعب يحسون بالضيم والإذلال ويتوقون للإنعتاق والخلاص " (كما أورد أحد الباحثين الغربيين). وكذلك ينبغي تذكر أنه لا يكفي لقيام مثل تلك الحركة أن "يعانى المجتمع من التفسخ وفساد العلاقات الاجتماعية واضمحلال القيم التقليدية" (كما زعم باحث آخر). لا بد لقيام حركة أصولية يتزعمها "مهدي" من أن يكون لمجتمعها قدر عال من القبول للتراث والتقاليد الإسلامية، ودرجة معينة من "الأسلمة".

ويلاحظ أن الحركات الأصولية التي لا يقودها "مهدي" تظهر عادة فى المناطق التى للإسلام فيها حضور قديم وراكز (وأفضل أمثلة لذلك هى حركة محمد بن عبد الوهاب فى جزيرة العرب، وابن تيمية والذى قام بالتدريس فى القاهرة ودمشق، وحركة "الإخوان المسلمين" وظهورها الأول فى دول المشرق العربي). ومن جهة أخرى، نجد أن الحركات الأصولية التى يقودها "مهدي" (مثل محمد أحمد فى السودان وابن تومرت فى المغرب العربى والمُلَّا محمد عبد الله حسن فى أرض الصومال) قامت عادة فى المناطق الإسلامية الطرفية.

يمثل مهدى السودان طورا معينا فى مراحل أسلمة السودان النيلي. وإن قيل هنا: تصويرنا له كـ "مسيح الأصولية fundamentalist messiah" ، فيمكن اعتبار نهايات القرن التاسع عشر نقطة أساسية فى فترة الانتقال فى الإسلام السودانى (أى فى المرحلة التى تحول فيها الإسلام من مجرد طقس محلى فى مجتمع وثنى لحد كبير، إلى مجتمع تسود فيه قيم ومثل إسلامية عالمية الطابع ومقبولة من الجماهير والقادة على حد سواء). وفى المجتمعات المكتملة الأسلمة لا يستدعى قيام الحركة ظهور "مهدي" كقائد للحركة أو مجدد للدين. ففى المناطق التى دخلت فى الإسلام قديما (مثل جزيرة العرب) يعد المجدد محييا حقيقيا لما هو موجود أصلا من الدين، ولا يلزم أن يكون "مهديا". ويمكننا أن نعد من ظهر فى السودان "مهديا أصوليا".

دخل الإسلام للسودان النيلى منذ زمن طويل، وكان كل السودانيين أو غالبهم فى هذه المنطقة فى فترة حكم الفونج (بين القرن السادس عشر وإلى القرن الثامن عشر) يعدون

أنفسهم مسلمين، لكن تأثير الإسلام وقوته فى تلك الفترة الباكرة كان –بحسب بعض المؤرخين– مبالغا فيه. بل إن بعض أولئك المؤرخين (مثل أوفاهى وأسبودلنق فى كتابهما المعنون "ممالك السودان" الصادر فى عام ١٩٧٤م) يزعمون أن سلطنة الفونج لم تكن فى واقع الأمر سلطنة إسلامية حقة، وأن أحد أسباب تدهورها وزوالها فى نهاية المطاف هو تحول قيادتها للإسلام (والذى أدى وبالتدريج لزوال النظم المتوارثة فى أمور الزواج والتحالفات بين الحكام والتى كانت قائمة قبل أن يلتزم هؤلاء الحكام بنظم الحكم الإسلامية التقليدية، وكان الدين الإسلامى فى ذهنية العامة فى عهد الفونج خليطا من الطقوس والعادات المحلية المتحررة (latitudinarian) لبعض الأنساب، بل ولبعض التجار وبعض أصحاب المهن الأخرى من المتنفذين.

دخل الحكم المصرى –التركى للسودان فى عام ١٨٢١م، ورغم ممارساته العلمانية فيما أقبل من سنوات، إلا أنه يصح القول بأنه أتى بالكثير من الأمور الإسلامية الصحيحة فى التعليم والقضاء ومجالات أخرى. ولهذا السبب أيده –وبدون تحفظ– كثير من الشيوخ الإسلاميين على رأسهم زعماء الختمية، بينما اكتفى آخرون من هؤلاء الشيوخ والزعماء الدينيين بالوقوف تجاهه على الحياد.

وأخيرا وبعد ستين عاما من الحكم المصري– التركى ظهر زعيم أصولى محاولا إنشاء مجتمع إسلامى نقى فى السودان، وبخلاف ما هو حادث مع الأصوليين السودانيين الآخرين توجب على محمد أحمد "المهدي" أن يصارع فى جبهتين مختلفتين فى آن واحد: كان عليه أن يحارب العادات والتقاليد والثقافة المحلية غير الإسلامية، ولكنه (وخلافا للأصوليين السودانيين الآخرين) كان عليه أيضا معارضة الحكومة المصرية –التركية (والتى كانت دون شك إسلامية الاسم والتراث) بل وقتالها. وبالتالى فقد كان محمد أحمد "المهدي" يخوض معارك مسلحة مثل تلك التى خاضها المصلحون الإسلاميون فى غرب أفريقيا، ويخوض أيضا معارك من نوع آخر مثل تلك التى خاضها الأصوليون فى جزيرة العرب. وربما كان هذا هو السبب الذى افترض به أن لقب "المهدي" كان ضروريا لقائد الحركة الأصولية السودانية.

قدم محمد أحمد للسودان فى مراحل أسلمته المتابعة مثالا (أفريقيا) للمصلح

الأصولي، كان يتبع فى منهجه منهج وتراث الرواد من المصلحين المسلمين القدماء، وكان يحمل أيضا الهموم ذاتها التى حملها الأصوليون فى جزيرة العرب.

وبذا يعتبر محمد أحمد مثالا ممتازا لـ "المهدي" وكذلك لـ "الأصولي" فى العالم الإسلامي، وربما يكون الرجل بهذا النهج المزدوج قد سبق نشطاء الحركات الإسلامية المعاصرة والذين يحسبون "راديكاليين" و"أصوليين" فى الوقت عينه.أحمد

***

(*) بحسب ما جاء فى موسوعة الويكيبيديا العربية فإن أبا عبد الله محمد بن تومرت (١٠٨٠- ١١٢٨م) عالم و قائد أمازيغى مسلم من جنوب المغرب الأقصى ادعى المهدوية، ويعد المؤسس والزعيم الروحى لحركة الموحدين، وهى حركة إصلاحية وسياسية قامت فى مواجهة دولة المرابطين، بدأت دعوته بين قبائل مصمودة فى جبال الأطلس ، ثم انتشرت أفكاره بفضل أحد أتباعه وهو عبد المؤمن بن علي الكومى الذى قضى على المرابطين ووطد دعائم الدولة الموحدية لتشمل أجزاء شاسعة من المغرب العربي و الأندلس. المترجم).

القيادة الكاريزمية فى الإسلام: مهدى السودان

Charismatic Leadership in Islam: The Mahdi of the Sudan

بروفيسور ريتشارد ديكجيمان و بروفيسور مارجريت ويزميركسي

Richard H. Dekmejian and Margeert J. Wyszomirski



مقدمة: هذا عرض وتلخيص موجز لمقال طويل عن كاريزمية القيادة عند مهدى السودان نشر فى عام ١٩٧٢م بالعدد الرابع عشر من الدورية العالمية "دراسات مقارنة فى المجتمع والتاريخ Comparative Studies in Society and History "

يعمل بروفيسور ريتشارد ديكيميجيان أستاذًا للعلوم السياسية بجامعة جنوب كاليفورنيا بالولايات المتحدة، وتدور أبحاثه المتنوعة حول دراسات الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، والأمن القومى والإبادة الجماعية المقارنة وغير ذلك. وتعمل بروفيسور مارجريت ويزميركسى أستاذة فى جامعة أوهايو الأمريكية ولها عدد من المؤلفات المتنوعة فى مجالات السياسات الثقافية والفنون.

المترجم

***

يعزى الاهتمام المتزايد والمتجدد لما أتى به المفكر وعالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر (١٨٦٣ - ١٩٢٠م) عن السلطة الكاريزمية إلى قدرة تلك الأفكار على تقويم وتفسير الحركات الثورية التي حدثت في النصف الأول من القرن العشرين. وطبقت في السنوات الأخيرة أفكار فيبر عن السلطة الكاريزمية (الملهمة) على الدول غير الغربية (النامية) في مراحل تاريخية وسياقات ثقافية ودينية وسياسية مختلفة كذلك، مما يؤكد على القدرة التحليلية الفائقة لتلك لأفكار، وعلى التشابه بين تلك الأنظمة المتباينة وقياداتها (الكاريزمية) رغم كل الاختلافات المذكورة.

رسالة المهدي **The Mahdi's Message**: أعلن محمد أحمد عن مهديته صراحة في يونيو من عام ١٨٨١م عندما أرسل لكثير من الأعيان وزعماء القبائل والمريدين داعيا إياهم للانضمام إلى دعوته التي أنزلها عليه المولى، زعم الرجل أن الرسول محمدًا أخبره في رؤية منامية بأنه المهدي وخليفة رسول الله (جاء في رسالة "من المهدي لأحبابه في الله" وردت ضمن ملاحق كتاب دكتور عبد الله علي إبراهيم "الصراع بين المهدي والعلماء" ما نصه: "، كما أراد الله في أزله وقضائه تفضل على عبده الحقير الذليل بالخلافة الكبرى من الله ورسوله وأخبرني سيد الوجود ﷺ بأني المهدي المنتظر وخلفني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مرارا بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام وأيدني الله تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء الأحياء والميتين من لدن آدم إلى زماننا هذا...". المترجم).

سجل بروفسيور ب. م. هولت في كتابة "الدولة المهدية في السودان، ١٨٨١ – ١٨٩٨م" أن إعلان محمد أحمد للمهدية قد سبقته فترة زمنية تميزت بعمل سري قام فيه محمد أحمد بإعلان مهديته لعدد قليل من حواريه المقربين، ثم مضى لاختبار مناخ الرأي العام واستعداده لقبول دعوته في منطقة غرب السودان المعزولة نسبيا. ولم تكن الحكومة – فيما يبدو – على دراية تامة بالموقف على الرغم من تزايد أعداد الذين بايعوا سرا المهدي (قائدهم الثوري الجديد). ولم تبدأ السلطات الحكومية أي جدية في القبض على الرجل إلا بعد مرور ستة أسابيع على إعلانه صراحة عن مهديته (في يونيو ١٨٨١م).

كانت الدعوة العلنية للمهدي واضحة وبسيطة وجاذبة، وكانت أيضا ملائمة وذات

صلة وثيقة بحقائق الأوضاع السودانية فى تلك السنوات. وفى البدء دعت مهدية محمد أحمد إلى الرجوع للإسلام المتزمت / التطهرى (puritanical Islam)، بيد أنها لم تبلغ حد إعلان الجهاد (المسلح) ضد الحكومة.

النخبة المهدية The Mahdist Elite: أبان تحليل للقيادة المهدوية اختير فيه ١٤٠ رجلًا من أهم الشخصيات من القادة العسكريين ورجال الدين وأمراء القبائل والمقربين من المهدى والخليفة عبد الله وتجار الرقيق وغيرهم، الذين ورد ذكرهم فى كتاب بروفيسور ريتشارد هيل "قاموس الشخصيات السودانية" مدى التزام هؤلاء القادة بالمهدية. ففى غضون ١٨ عاما من الحكم المهدوى لم ينشق عنها أو يهجرها إلا ١٤ رجلًا (من جملة ١٤٠ ، أى ما نسبته ١٠٪ فقط)، ولم يفر هؤلاء إلا فى سنوات حكم الخليفة عبد الله الأخيرة، حين بدا شبح سقوط الدولة المهدية فى الظهور، ولم يكن انهيارها فى نظرهم إلا مسألة وقت (جدول رقم ١). ولعل هذا الالتزام الصارم عند أولئك القادة كان يمثل مؤشرا مهما من مؤشرات قوة السلطة المهدية وتماسكها، ووحدة الجبهة الداخلية أمام الأعداء رغم الصراعات الداخلية المستمرة التى حاقت بتلك السلطة، ورغما عن الرحيل المبكر لقائدها محمد أحمد "المهدي"، ورغم قوة نيران الجيش البريطانى / المصرى الغازي. وتشير النسبة العالية للذين قتلوا من هؤلاء القادة فى المعارك (والذين يبلغ عددهم ٥٢ من جملة ١٤٠، أى بنسبة ٣٧,١٪) وكذلك نسبة الذين صمدوا معها حتى النهاية فى معركتى كررى وأم دبيكرات (والذين يبلغ عددهم ٧٠ من جملة ١٤٠، أى بنسبة ٥٠٪) إلى شدة التزامهم بالعقيدة المهدوية وبالتضحية من أجلها.

كذلك يلاحظ أن ما من أحد من رجال "الدائرة الضيقة" المحيطة بقائد السلطة المهدوية (وعددهم ١٨) فر من أى معركة خاضتها، وظلوا كلهم مخلصين للمهدية، حتى بعد هزيمتها فى ١٨٩٩م، وبقوا على موقفهم معارضين صلدين للحاكم الغازي.

يبين جدول رقم (٢) البيانات الأساسية عن الـ ١٤٠ رجلًا من قادة المهدية أن أكثر هؤلاء (٣٠,٧٪) كانوا من سواد الناس، مما يؤكد أن دعوة محمد أحمد "المهدي" قد وجدت لها استجابة كبيرة وشعبية عظيمة عند غمار الشعب. وكانت الفئة الثانية التى أتى منها قادة المهدية هى زعماء القبائل (٢٩,٣٪)، مما يشير إلى عظيم ضيق هؤلاء الزعماء

بالحكم التركى السابق، وتمردهم عليه. ومثل الزعماء الدينيون والزهاد ascetics الفئة الثالثة من قادة المهدية (بنسبة ١٧,١٪) وهذا يشير إلى الاستياء العميق عند هؤلاء من نسخة "الإسلام التقليدي/ الرسمى " الذى فرضته الحكومة. وشكل أقرباء المهدى والخليفة الفئة الرابعة من النخبة المهدوية الحاكمة (بنسبة ١٥٪)، بينما شكل التجار وتجار الرقيق نسبة قليلة من نخبة المهدويين. ويجب ملاحظة أن نسبة تجار الرقيق بين هؤلاء القادة كانت متدنية نسبيا مقارنة بالنسب التى أوردها المؤرخون الأوربيون والعرب على حد سواء، ومن الجائز جدًا أن يكون بعض زعماء القبائل المذكورين تجارا للرقيق أيضا.

جدول لمكونات النخبة المهدية

النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	
		٢٢,١	٣١	العدد الذى قتل قبل ١٨٩٨م
٣٧,١	٥٢	١٥	٢١	العدد الذى قتل فى أم درمان وأم دبيكرات
		٣٥	٤٩	عدد من قاتلوا للنهاية ونجوا (١٨٩٨/٩)
		١١,٤	١٦	عدد من قتل أو سجن بواسطة الخليفة
		٦,٤	٩	عدد من مات موتا طبيعيا
		١٠,٠	١٤	العدد الذى فر من حكم المهدية
		١٠٠	١٤٠	المجموع

جدول البيانات الأساسية عن النخبة المهدوية الحاكمة

التصنيف	العدد	النسبة المئوية
رجال دين	٢٤	١٧,١
زعماء قبائل	٤١	٢٩,٣
العوام (من عامة الشعب)	٤٣	٣٠,٧
أقرباء المهدي	٧	٥,٠
أقرباء الخليفة	١٤	١٠,٠
تجار الرقيق	٥	٣,٦
التجار	٦	٤,٣
المجموع	١٤٠	١٠٠,٠

الخلاصة: لقد أبرز تحليل الثورة المهدية وقائدها وفقا لنظرية فيبر عن "القيادة الكاريزمية" عن جوانب عديدة لم تك لتظهر إن تمت دراسة تلك الثورة تحت ضوء مختلف. ولقد أبان ذلك "التحليل الفيبري" الكثير عن طبيعة العلاقة بين تجارب القائد المهدى التكوينية الباكرة وما تلى ذلك من سلوك ثوري، وكذلك عن التداخل والتفاعل بين دعوة القائد "المهدي" ومناخ/ بيئة الأزمة، وعن خصائص التهميش عند أتباع ذلك القائد "المهدي" فى مرحلة المهدية الباكرة وعند نخبتها أيضا. بيد أنه يجب القول أيضا أن دراسة كاريزمية القيادة المهدوية محفوفة دوما بصعوبة الحصول على المعلومات الموثوقة الكاملة والكافية عن تلك القيادة وتركيب نخبتها المميزة.

كذلك يصعب فى بعض الأحايين تحديد الدوافع الحقيقية لمن أيدوا الثورة المهدية،

وبحسب ما ذهب إليه المؤلفان فإنه من غير المستبعد أن يكون كثيرًا من تجار الرقيق وبعض أفراد القبائل التى ناصرت القائد "المهدي" منذ وقت مبكر كانوا قد انضموا لتلك الثورة طلبا للغنائم وليس سعيا للشهادة. ولكن تبقى حقيقة أن الغالبية الغالبة من أنصار المهدى (١١ ألفا على الأقل) ظلوا على نصرتهم لها، بل وآثروا الموت فى معركتهم (غير المتكافئة) ضد أسلحة الغزاة المتطورة.

توفى "المهدي" بعد شهور قليلة من نجاح ثورته دون أن يكمل مهامها القاصدة لإعادة بناء المجتمع التى بدأت لتوها. وكان من نتائج ذلك الرحيل الباكر لقائد تلك الثورة الكاريزمى الملهم أن لم ير مشروعه الروحى - الاجتماعى المتكامل النور. وبعبارة أخرى لقد فشل المشروع المهدوى المصيرى الهادف لإحداث تكامل اجتماعى وتجانس روحى بين القبائل السودانية بعد تولى الخليفة عبد الله لمقاليد الحكم بالبلاد. وعلى ضوء تحليل ماكس فيبر عن القيادة الكاريزمية فإن الثورة المهدية بعد رحيل "المهدي" لم تتعد المرحلة الثالثة فى "نموذج model " نظرية فيبر، وأحبط الغزو البريطانى / المصرى من بعد ذلك أى تطور فى تلك الثورة.

اختتم الكاتبان مقالها بالتأكيد على أن دراسة الشخصيات القيادية فى التاريخ الإسلامى باستخدام نظرية ماكس فيبر عن القيادة الكاريزمية تتطلب تقليل الاعتماد على المصادر الغربية (النصرانية) والاستعاضة عنها بالمصادر المحلية. وليس بالإمكان تقويم المطلوبات والشروط المسبقة لفهم "السلطة الكاريزمية" إلا بعد الفحص الدقيق لتاريخ تلك الفترة من قبل المؤرخين المحليين.

العقيدة المهدوية وإضفاء الشرعية على الثورة الشعبية في غرب السودان

Mahdist faith and legitimation of popular revolt in Western Sudan

ليدوفين كابتيجز Lidwien Kaptejins

◇◇◇◇◇◇

تقديم: نشر هذا المقال للدكتورة ليدوفين كابتيجز في عام ١٩٨٥م بالعدد الخامس والخمسين من الدورية البريطانية العريقة "أفريقيا Africa" والتي تصدر عن دار نشر جامعة أدنبرا. المؤلفة هولندية الأصل درست في جامعتي أمستردام ولندن، وتخصصت في تاريخ السودان (خاصة تاريخ مساليت دارفور بين عامي ١٨٧٠ – ١٩٣٠م) واتجهت مؤخرا لدراسة تاريخ الصومال. تعمل الآن كبروفيسور في جامعة وليزلي الأمريكية حيث تتولى تدريس مادة تاريخ الشرق الأوسط و أفريقيا .

الشكر موصول لدكتور محمد حسن تاج الدين لتصحيحه لبعض أسماء المدن والقبائل الدارفورية.

يعتمد هذا المقال على دراسات أوسع وأشمل لتاريخ غرب السودان خاصة فى المنطقة الواقعة بين سلطنتى دارفور ووادى بين عامى ١٨٨٢ – ١٩٣٠م، ويبحث فى أمر إيديولوجية مهدى السودان وثورته من واقع وثائق أرشيف المهدية والمعلومات المستقاة من أفواه الناس والوثائق البريطانية والفرنسية. تعتب الكاتبة على كثير من الكتاب المستشرقين إغفالهم للفروقات الهائلة بين الظواهر السياسية والظواهر الاجتماعية – الاقتصادية فى المجتمعات الإسلامية بتركيزهم على التعابير الإسلامية الشائعة والتى عن طريقها تقوم تلك المجتمعات بتفسير ونقد وإضفاء الشرعية على الوضع (الحاكم) القائم. تدور هذه الورقة باختصار حول بعض الحالات التى ثار فيها المسلمون مستخدمين أيديولوجية إسلامية (مهدوية فى الغالب) لإضفاء الشرعية على تحويل السلطة للقادة الجدد – على الرغم من أن تلك الثورات والهبات نشأت فى سياقات سياسية مختلفة، واندلعت أساسا بسبب الضيق والعنت الاقتصادى والاجتماعى الذى كان يرزح الناس تحت غوائله لأسباب مختلفة.

قدمت المؤلفة فى بداية بحثها تلخيصا لجغرافية وتاريخ المنطقة جاء فيه ما يلي:

كانت السَلْطنتان المسيطرتان فى المنطقة قبل غزو الأتراك لها فى عام ١٨٧٤م هما وداى (فى أقصى تشاد الحالية) ودارفور (فى أقصى غرب السودان)، وتفصل بين السلطنتين عدة دويلات صغيرة منها التاما والقمر والسنيجار، ثم قامت سلطنة للمساليت بعد ثمانينيات القرن التاسع عشر، كانت اقتصاديات تلك السلطنات والدويلات تعتمد بشكل رئيس على الزراعة المطرية ورعى الحيوانات، وينقسم السكان (والذين كانوا من أصول عرقية مختلفة) فى المنطقة لطبقتين لا ثالث لهما: طبقة الحكام وطبقة المحكومين (ويطلق عليهم لفظ "المساكين") ويتحدث جميعهم بلغات يطلق عليها الآن عائلة اللغات النيلية – الصحراوية.

كان الإسلام هو دين كل دويلات غرب السودان حيث ارتبط الدين فيه فى البدء بالتقاليد المحلية للفور ووداى بسبب أن هؤلاء هم من أدخلوا الإسلام لكامل المنطقة فى أعوام القرن السابع عشر. رغم ذلك ظل عوام السكان يؤدون فرائض الإسلام (باعتبارهم رعية لحاكم مسلم، أى أن "الناس على دين ملوكهم") ولكنهم يمارسون

عاداتهم وتقاليدهم المعتادة والتى كان بعضها يخالف صحيح الدين مثل شرب مريسة الدخن كغذاء يومي، وتوريث الحكم فى الذكور من عائلة الحاكم. كان الحكام فى تلك السَلْطنات والدويلات يسوغون لشرعية حكمهم بالالتزام بـ (مظاهر) الدين وبأصول عربية (مزعومة)، ويستخدمون اللغة العربية فى كل المكاتبات الدبلوماسية الرسمية.

وخلافا لوادى النيل والذى خضع للحكم التركى المصرى فى ١٨٢١م لم يخضع إقليم غرب السودان لذلك الحكم إلا فى ١٨٧٤م، بيد أن الصراع والنضال ضد ذلك الحكم وفساده بدأ فى وادى النيل حيث قام الفكى / الصوفى محمد أحمد (المهدي) بإعلان الجهاد (والحرب المقدسة) ضد الأتراك. لم يشر المهدى فى ثورته الدينية تلك للحكم الوطنى (سلطنة الفونج) الذى كان قائما قبل الغزو التركى بل كان يشير دوما للجهاد ضد الكفرة الطغاة والواجب على كل مسلم قادر. أضفى محمد أحمد الشرعية على قيادته لتلك الثورة الدينية بتأهيله ووضعه الدينى كـ"مهدي"، فوجدت تلك الدعوة ضد الحكم التركى المصرى قبولا وحماسا منقطع النظير فى غرب السودان، حيث كان يعانى عوام الناس من الضرائب الباهظة والمعاملة المهينة . أقنع المهدى هؤلاء الناس بأن ما يحيق بهم من ظلم وجور وعسف إن هو إلا بسبب ذلك الحكم الأجنبى الكافر، وأيضا بما اقترفته أيديهم من انحراف عن تعاليم الدين القويم. رحب الحكام المحليون فى دويلات وسَلْطنا تغرب السودان بدعوة المهدى لإزاحة الحكم التركى المصرى بسبب سلبه لهم لغالب سلطاتهم، ولما كابدوه فى سنوات حكمهم من ضيق وعنت وعسف وجور. بيد أن هؤلاء الحكام المحليون اكتشفوا فى ثمانينيات القرن التاسع عشر (وخاصة بعد تولى الخليفة عبد الله للحكم خلفا للمهدى فى ١٨٨٥م) أنهم إنما استبدلوا مستبدا بآخر يشابهه، وحكومة مركزية جائرة بأخرى تماثلها لا ترغب إلا فى سلبهم لسلطاتهم المحلية المشروعة. كتب سلطان "وداي" فى أغسطس من عام ١٨٨٥م للأمير المهدوى فى دارفور خطابا يفيد الآتي: "نؤمن ونصدق تماما فى ما ورد فى خطابكم لنا من حجج قوية وأدلة دامغة. صحيح أن هذا الزمن هو زمن المهدية وليس زمن حكم دنيوي، وبحسب ما أمرتونا به فقد أعطينا البيعة لسيدنا محمد يوسف سلطان وداي... نطيع أوامره فالمهدى سلطان زمانه وليس بالضرورة أن يكون السلطان ولدا لسلطان".

كانت مقدم المهدية للمشهد فى دارفور يعنى نهاية نظام الحكم بالتوريث كأساس لشرعية الحكم. وفى الخطاب الذى بعثت به السلطات المهدوية لسلطان وداى خير مثال على ذلك: "ما الفرق بين رجل يؤمن بأن الأرض هى لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، وبين آخر يقول: بأن الأرض هى أرض أبى وأسلافي".

لما ظهر لأول مرة للمساليت سلطان (لم يكن له بالطبع عائلة حاكمة ورث منها الحكم) عدت السلطنات المجاورة كوداى ودارفور ذلك حكم ذلك السلطان الجديد وسلطته فاقدة للشرعية ومرفوضة بالكلية. تبنى سلطان المساليت المفهوم المهدوى لإضفاء الشرعية على حكمه فوصف نفسه بأنه سلطان (مسلم/ مهدوي) ووصف جيرانه بأنهم "سلاطين أتباع الطقوس الوثنية الذين لا يؤمنون بالعقيدة المهدوية".

كان الحكم المهدوى يهدد سلاطين غرب السودان بطرق مادية أكثر وضوحا مثل جمع الضرائب والمكُوس الباهظة والتجنيد الإجبارى والتهجير القسرى للسلاطين وأتباعهم لأم درمان لتلقى "مقررات / كورسات تجديدية/ تنشيطية" فى أصول الفكر المهدوي، وليبقوا فى المدينة كـ "ضيوف على الخليفة" لفترات غير محددة من الزمن. وإضافة لكل ذلك كانت هنالك ممارسات الجيش المهدوى الموجود فى غرب السودان والتى لم تجد القبول من عامة السكان هنالك فأطلقوا – من باب التهكم– على أنصار الجيش المهدوى "كبو كلو" لأنهم كانوا يهاجمون منازل المواطنين بغتة بحجة البحث عن المسكرات ويأمرون أصحاب كل دار بدلق محتويات كل القدور التى لديهم، ويصادرون من مقتنيات السكان ما يعجبهم. وفى ذلك قال: (قالت) شاعرهم (شاعرتهم):

كبو دا هم جو

فى "إيرجي" دامرو (أى عسكروا)

"درب شلال" بقى لينا مدة

مسكين جهجهو

كان السكان المحليين (المساكين) يشعرون بأن الأنصار القادمين لمنطقتهم يتعالون عليهم ولا يكنون لحكامهم غير الاحتقار ويسومون من يجدون عندها مادة مسكرة

(مريسة أو غيرها) أشد صنوف العقاب مما جعل الفرق فى نظرهم بين الحكم التركي-المصرى والحكم المهدوى معدوما.

فى سبتمبر من عام ١٨٨٨م بلغ السخط بين سكان غرب السودان مداه فأدى لهبة قادها فكى لم يكن معروفا لدى الكثيرين اسمه "محمد زين" وعرف أيضا بـ "أبو جميزة". أعلن أبو جميزة صراحة تمرده على الدولة المهدوية وممثليها فى دارفور ووصفهم بأنهم حكام قمعيون و"كفار" أيضا ودعا لحرب مقدسة لطردهم. لم يزعم أبو جميزة أنه "المهدى المنتظر" أو "النبى عيسى" والذى يفترض أن يأتى بعد المهدى فى نهاية الزمان، بيد أنه زعم أن الله قد دعاه لقيادة الأنصار ضد ذلك "الدعىّ الكذاب فى أم درمان". جمع أبو جميزة خلفه خلقا كثيرًا من المساليت والتاما وإيرنجا استطاعوا هزيمة فرق جيش الأنصار فى مناطق عديدة، وأفلح الرجل فى نيل دعم سلاطين المنطقة فبعث إليه سلاطين دار تاما ودار زغاوة ودار مساليت ودار قمر ودار فور (وكان الأخير هاربا من المهدويين) بأعداد كبيرة من الجنود ليحاربوا معه ضد جيش المهدية. وبتأييدهم لهبة أبو جميزة حصل سلاطين المنطقة تلقائيا على تأييد شعوبهم فى هبتهم السياسية وتفادوا مأزق الحسد بينهم الذى كان يمكن أن يحدث نتيجة للمنافسة مع ذلك الفكى الواسع الشعبية. فى نوفمبر من عام ١٨٨٨م أفلح جنود غرب السودان بقيادة أبو جميزة فى هزيمة الجيش المهدوى والذى كان مكونا من ١٥٢٥٣ رجلًا مما هدد سلطة المهدية فى دارفور تهديدا جديا. بيد أن حركة أبو جميزة هزمت فى نهاية المطاف فى يوم ٢٢ /٢/ ١٨٨٩م، فأتباعه (من "الصالحين") لم يكن باستطاعتهم الموازنة بين الأجنحة المتصارعة فى وسطهم وتنازعتهم الولاءات المتعددة لسلاطينهم القبليين ولأبى جميزة قائدهم الشعبى والذى توفى متأثرا بمرض الجدرى قبل أن يشهد المعركة الفاصلة (غير المتكافئة) قرب الفاشر بين جنده ضعيفى التدريب والتجهيز وجنود المهدية المتمرسين والذى بلغ عددهم ٣٦٤١٩ منهم ٧٦٥٦ كانوا مزودين بأسلحة نارية و٣٥٩١ على ظهور الجياد.

وكما فعلت المهدية من قبل (بإغفالها لما سبقها من نظام وطني)، لم تكتسب حركة "أبو جميزة" شرعيتها عند من شاركوا فيها باعتبار "النظام القديم" والذى كان سيعيدونه إن انتصروا، بل بتركيزهم على العسف الاجتماعى والقمع الدينى لحكم خليفة المهدي،

وكذلك على وضعية قائد هبتهم الدينية كفكى صالح واجب الاتباع. لذا فقد كان لدعوة المهدى "أثر مرتد" فى غرب السودان لأن "أبو جميزة" قائد الانتفاضة ضد المهدية أفلح فى استخدام ذات اللغة والمعانى التى كان يستخدمها المهدى وبذات سلاحه الأيديولوجي.

ليس من المعروف إن كانت هنالك أى حركة شعبية حقيقية أو ثورة دينية المنشأ ذات أثر قد اندلعت فى غرب السودان غير حركة "أبو جميزة". بيد أنه فى أخريات أعوام القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين قامت عدة حركات من ذلك النوع، ورغما عن أن المعلومات عن تلك الحركات ظلت شحيحة إلا أنه يمكن القول بأن تلك الحركات –وعلى وجه الإجمال– تؤيد الرأى القائل بأن "الدعوة النبوية" أو "العقيدة المهدوية" صارتا طريقا شائعا لتبرير الثورة وإضفاء الشرعية عليها ضد السلطات القائمة. من الذين ظهروا فى تلك السنوات كدعاة دينيين أحد أفراد المساليت والذى ادعى فى فبراير من ١٨٩٢م النبوة/ المهدية، وسرعان ما حكم عليه سلطان المساليت أبكر إسماعيل بالإعدام. وفى عام ١٨٩٥م تشير وثائق المهدية إلى ظهور من سمته "الشيطان" أو "النبى عيسى" أو "دعى سمى نفسه النبي" فى دار تاما دعا للثورة ضد المهدية ممثلة فى سلطان التاما (الذى كان يعد دمية فى يد النظام المهدوى فى أم درمان). لا يعرف مصير ذلك المتمهدي/ المتنبئ بيد أنه من الثابت أن ذلك السلطان الدمية هرب من البلاد. وفى عام ١٩٠٥م (ذلك العام الذى هزم فيه سلطان الفور سلطان المساليت) ظهر فى دار مساليت رجل آخر زعم أنه "النبى عيسى" وسرعان ما قبض عليه وأعدم فى الفاشر حاضرة دارفور. وتارة أخرى ظهر فى دار مساليت –بحسب ما ورد فى وثائق فرنسية– فكى آخر اسمه "أبو" وعرف بلقب "دقدق" زعم أنه "النبى عيسى". قاد "دقدق" عوام السكان فى شرق دار مساليت واللاجئين فى كبكابية وفقراء العاصمة للثورة على الصفوة الحاكمة من عشيرة السلطان، بيد أنه هزم وقتل.

فى عام ١٩١٣م الذى شهد جفافا وقحطا مروعين تكاثر المتنبئون والفقهاء / الفكيا (جمع كلمة فكي). ففى ذلك العام قام رجل مسلاتى فى "قوران" (تلك المنطقة من دار مساليت التى كانت تحت الحكم الفرنسي) بمهاجمة الحامية الفرنسية فى منطقة تمتمة لاعتقادهم أن التليسكوب الضخم الذى وضعه الفرنسيون فى جبل قوران قد منع عنهم

نزول الغيث من السماء. وفى نوفمبر من ذات العام هاجم ثلاثة من المتنبئين /الفقهاء / الفكيا وأحد السحرة المشعوذين الحامية الفرنسية فى "أبشي" عاصمة سلطنة وداى ولكنهم قتلوا جميعا. بعد ذلك سجل فى بعض الوثائق الفرنسية ظهور اثنين من المتنبئين فى دار مساليت فى ذات الشهر، وسميت المعركة التى خاضاها ضد التسلط السياسى لعشيرة الجيرينغ بـ "معركة الفكيا". أو "هبة المساكين" فى جنوب السلطنة فى مناطق ميسترى وكنوز وكويجنج وحجر جابوك وشاراو. كان سبب تلك الهبة هو أن حكومة وداى استسلمت للفرنسيين ووافقت على دفع جزية لهم وللحصول على مبلغ تلك الجزية تم فرض ضرائب إضافية على سكان المنطقة الجنوبية من دار مساليت مما أثار غضبهم، خاصة وأن ذلك العام كان عام جدب وقحط وجفاف فى سائر مناطق دارفور عدا تلك المنطقة الجنوبية والتى نعمت بقدر معقول من المحاصيل. شعر أهالى تلك المنطقة أن ثروتهم تضيع من بين أيديهم وتمنح كجزية لـ "الكفار". قام شقيق سلطان المساليت بقمع هبة سكان الجنوب ووصف قادتهم بأنهم "أنبياء كذبة". نجا بعض قادة تلك الهبة من القتل والتعذيب المهول الذى مورس على من قبض عليهم، وقاموا بعد سنوات من ذلك التاريخ بالمشاركة فى ثورة أخرى لـ "النبى عيسى".

تغير السياق السياسى الذى حدثت فيه تلك الثورات (الدينية؟) بعد سقوط المهدية فى ١٨٩٨م، وهو ذات العام الذى كان يخطط فيه الخليفة عبد الله لشن حملات جديدة ضد سلاطين غرب السودان. واجه هؤلاء السلاطين تحديا جديدا بإعادة على دينار الحياة لسلطنة دارفور (١٨٩٨ –١٩١٦م) قبل أن يستعدوا لمواجهة الخطر القادم من الشرق وبعد سيطرة الفرنسيين على "وداي" غربا وسعيها لضم بقية الدويلات الصغيرة فى دارفور. وفى عام ١٩١٦م ضمت السلطات البريطانية الحاكمة للسودان سلطنة دارفور للبلاد وبدأت فى التفكير فى الاستيلاء على ما ضمه الفرنسيون إلى مستعمراتهم فى غرب إفريقيا، وامتد الصراع بين فرنسا وبريطانيا حول الحدود السودانية –الشادية حتى عام ١٩٢١م حين تم الاتفاق بين الدولتين على ضم دار مساليت ودار قمر وجزء من دار زغاوة للسيادة البريطانية.

تعرض الحكم البريطانى فى غرب السودان لنصيب غير قليل من ثورات وهبات

الفكيا والمتنبئين (أو "المهديين الجدد" كما كان يسميهم البريطانيون)، وكانت الصفات العامة لتلك الثورات والهبات مشابهة فى الأسباب والنوازع (والنتائج أيضا) لما سبقها فى غضون سنوات الخليفة عبد الله. تتوفر لأسباب معلومة وثائق ومعلومات تاريخية عن ما حدث من ثورات وهبات فى سنوات الحكم البريطانى -المصرى بأكثر مما هو متوفر عن الثورات والهبات التى حدثت فى سنوات عهد الخليفة.

جعل البريطانيون سلطنات دارفور معملا لتجربة "الحكم غير المباشر" فى السودان، فتركوا للسلاطين المحليين مهمة إدارة البلاد، خاصة فى سلطنة دار مساليت، والتى منحت ثروة وسلطة أكثر وأكبر مما كان لديها قبل دخول البريطانيين للسودان، وساهم إجزال البريطانيين العطاء لسلطان المساليت براتب سنوى ضخم فى كسبه لمعسكرهم.

أحدث الحكم الاستعمارى ثورة اقتصادية عميقة الأثر شملت إدخال دفع الضرائب نقدا وجلبت للمنطقة طبقة وسطى من الجنود والتجار للمنطقة قاموا بإنعاش اقتصادها وخلق سوق رائجة للبضائع مثل السكر والشاى والأقمشة فى أوساط عوام الناس. أدخلت تلك التحولات الاقتصادية سكان غرب السودان فى سوق العمل القومي، ولأن فرص العمل فى الوظائف الحكومية وفى الزراعة والتجارة فى غرب السودان كانت جد محدودة فقد اضطر كثير من العاملين للهجرة إلى مناطق وادى النيل للعمل فى الزراعة، خاصة زراعة القطن. وبهذا وضع الأساس لتهميش غرب السودان سياسيا واقتصاديا، وهى العلة التى لا تزال تراوح مكانها فى ذلك الإقليم حتى اليوم.

ظل سلطان المساليت موزع الفكر والبال بين ثورات وهبات المتمهديين والمتنبئين من جهة وبين شكه فى البريطانيين حلفائه الجدد من جهة أخرى. كتب السلطان فى عام ١٩٢٠م للسيد / عبد الرحمن المهدى طالبا النصيحة فيما يمكن له عمله إزاء تلك التحديات. وفى العام التالى لذلك قامت ثورة دينية بقيادة "عبد الله السحيني" زعم فيها أنه "النبى عيسى" وتمرد على سلطة الحكم البريطانى - المصرى فتولى أمره أفراد عائلة سلطان المساليت وقضوا عليه وتم شنقه فى نيالا بجنوب دارفور. وبإيعاز من السلطات الاستعمارية الحاكمة أصدر سلطان المساليت فى عام ١٩٢٢م منشورًا لكافة أتباعه جاء فيه ما يفيد بأن هنالك عددا كبيرا من الأدعياء والأنبياء الكذبة و "الفكيا" الفاسدين... وأن

سلاطين المساليت عبر السنين ظلوا يتعقبون أولئك الكفرة بالعقاب المناسب... وأضاف: "بهذا نذكر كل أمراء وأفراد عشيرتنا بمسؤوليتهم عن أى فوضى أو شغب قد يثره هؤلاء المنحرفون فى مناطقهم. إن أى تحريض من هؤلاء الناس يجب أن يقابل بالحزم اللازم، وأن أى محاولة من هؤلاء "الفكيا" لجمع الناس من حولهم أو وصف أدوية لهم بغرض العلاج يجب أن تبلغ فورا للسلطات الحكومية...".

وفى عام ١٩٢٧م انشغل سكان جنوب شرق دار مساليت بمتنبئ آخر اسمه "الفكى مهاجر" ظهر فى المناطق القريبة من زالنجى وزعم لمن جمعهم حوله من الأتباع أن عنده من التمائم ما يحميهم من الأعيرة النارية، وأن بمقدوره جعل عصيهم تتحول إلى حراب حادة عند رميها ضد "العدو"، وأنهم سيظفرون بمغانم كثيرة عند غزوهم لزالنجي، وأنهم سيعفون من دفع ضرائب ذلك العام. لعل ما منى به "الفكى مهاجر" عوام الناس يعكس مدى عمق مظالمهم وشكواهم من ممارسات حكامهم. كانت هبة "الفكى مهاجر" والتى تم إخمادها بسهولة هى آخر الثورات (الدينية) المسجلة فى تاريخ من ثاروا فى غرب السودان فى عهد الخليفة والحكم الاستعماري.

بعد أن فقد عوام سكان غرب السودان أى أمل فى "منقذ" لهم صوبوا أنظارهم لمنقذ/ "نبى عيسى" آخر فى النيل الأبيض هو السيد/ عبد الرحمن المهدى فتدافعوا للهجرة إليه فى ١٩٢٣م والسنوات التالية. كانت لتلك الهجرة شرقا أبعادا سياسية واقتصادية كبيرة، فكثير من حجوا لمناطق نفوذ السيد/ عبد الرحمن المهدى انتهى بهم الأمر للعمل فى مزارعه بأجور بخسة ويقوا تحت "حمايته". كذلك بعث السيد/ عبد الرحمن المهدى بأتباعه لغرب السودان لتجنيد أكبر عدد من سكان غرب السودان لمهديته الجديدة، وكان من بين هؤلاء بعضا من أتباع "دقدق" الذى سبقت الإشارة إليه. انزعج سلطان المساليت (والبريطانيين كذلك) من هجرة أتباعه من موطنهم للعمل فى مزارع السيد/ عبد الرحمن المهدى مستغلا عواطفهم وميولهم الدينية، بينما كان سبب انزعاج البريطانيين من تلك الهجرة فى حقيقة الأمر هو خشية أن يجمع السيد/ عبد الرحمن المهدى حوله عددا يكفى من المساليت (وغيرهم) للثورة عليهم وإعلان نفسه ملكا للسودان. كان سلطان المساليت هو الأصدق فى تخوفه من تلك الهجرة (بحسب رأى ب/ حسن أحمد إبراهيم)

إذ إن السيد/ عبد الرحمن المهدى كان يعول سياسيا على طبقة الانتلجنسيا والطبقة الوسطى أكثر من تعويله على المهاجرين من غرب السودان رغم إن تبرعاتهم المادية وجهد عملهم جعله واحدا من أثرى أثرياء السودان. لم يزعم السيد/ عبد الرحمن المهدى أبدًا أنه "النبى عيسى" ولم يعط لأنصاره فى أى وقت من الأوقات أى إشارة للقيام بحرب مقدسة ضد الحكم البريطاني.

خلصت الكاتبة فى نهاية مقالها إلى أن هنالك قواسم مشتركة بين كل من زعموا أنهم أنبياء أو مهديين أو "النبى عيسى" وهى أن كل واحد منهم كان يعمل ك "فكي" فى منطقته قبل أن يعلن للناس أنه "النبى عيسى" أو "المهدي". لقى جميعهم – من جمع حوله عددا كبيرا أو صغيرا من الأتباع أو من لم يفعل– مصيرا دمويا فى نهاية المطاف. كانوا جميعا من فقراء الناس (طبقة المساكين) ولم يتبعهم غير الفقراء أيضا. كانت الطريقة التى يبدأ بها كل واحد من هؤلاء "الفكيا" دعوته متشابهة جدا، فعادة ما يبدأ الواحد منهم دعوته فى المناطق الجبلية العالية أو المنعزلة وينصح الناس بترك شرب الخمر (المريسة) وبمقاومة وحرب الكفار، ويعدهم بالحماية من الأذى فى الدنيا (مثل الأعيرة النارية)، وبالنعيم المقيم فى الدار الآخرة. كان كثير من هؤلاء الأدعياء يؤمنون بمحمد أحمد المهدى ويقتفون أثره ويحاولون تقليد أفعاله. كانت هبات كل "الفكيا" فى غرب السودان تختلف فى أمر واحد عن ثورة "أبو جميزة"، فالأخيرة ظفرت بتأييد كل سلاطين المنطقة، بينما عارض أولئك السلاطين كل دعوات ومزاعم الفكيا الدينية اللاحقة.

رسالة السيد/ عبد الرحمن المهدى لمجلة "السودان فى مدونات ومذكرات"

وقعت مصادفة على رسالة أرسلها السيد/ عبد الرحمن المهدي إلى مجلة "السودان فى مدونات ومذكرات" نشرت فى عددها الرابع والعشرين والذى صدر فى عام ١٩٤١م، تعقيبا فيما يبدو على مقال نشر فى ذات المجلة عن والده وغوردون. أرفق السيد/ عبد الرحمن مع رسالته للمجلة تلك نص الخطاب الذى بعث به والده محمد أحمد المهدى إلى الجنرال غوردون فى ١٢/١/ ١٨٨٥م الموافق للخامس والعشرين من ربيع الأول من العام الهجرى ١٣٠٢. قامت المجلة بنشر نص رسالة السيد/ عبد الرحمن المهدى المكتوبة باللغة الإنجليزية، ونشرت أيضا خطاب المهدى لغوردون بلغته الأصلية (العربية) ونشرت أيضا ترجمة إنجليزية مختصرة له.

مما يلفت النظر إلى أن المجلة أضافت إلى ما جاء ذكره وتحت عنوان "تعليق من المحرر" ملحقا صغيرا من خمسة سطور جاء فيه ما ترجمته الآتى: "لقد كانت بحوزة مكتبة سكرتارية التحرير عدة نسخ من هذه الرسائل، ولكنها—ككثير من الأوراق والوثائق القيمة الأخرى– قد اختفت.

لقد قيل: إن هذه الرسالة قد هربت إلى الخرطوم بواسطة رجل تخفى فى زى سيدة، إذ إن كل الذين كانوا قد بعثوا برسائل فى السابق قد تم قتلهم قبل وصولهم لمقصدهم (فى الأصل: قبل وصولهم للأسوار).

وما يلى محاولة لترجمة رسالة السيد/ عبد الرحمن المهدى للمجلة، ثم نص رسالة محمد أحمد المهدى لغوردون (كما وردت تماما).

***

إلى سكرتارية تحرير مجلة "السودان فى مدونات ومذكرات" بالخرطوم

يا سيدي:

قد يهم قراء مجلتكم أن يطلعوا على الرسالة المرفقة والتى بعث بها والدى إلى الجنرال غوردون قبل أيام قليلة من سقوط الخرطوم.

يتضح من الرسائل الثلاثة (السابقة) التى بعث بها المهدى لغوردون أنه كان حريصا على الاتصال به، وعلى سلامته، وعلى أن يعود آمنا إلى بلاده وأهله. بيد أن غوردون رفض كل عرض تقدم به المهدى له، ويؤسفنى أننى هنا لست قادرا الآن على العثور على نسخ من ردود غوردون فى هذا الشأن.

أرفق لكم الآن رسالة بعث بها المهدى لغوردون مستلة من الجزء الثانى لمنشورات المهدية والتى عثر عليها فى مطبعة (مخزن) غوردون، بعد أن تم الاستيلاء عليها. قامت على نشر تلك الإصدارة من مخطوطات الإمام المهدى الأصلية لجنة خاصة من الكتبة فى عهد الخليفة عبد الله. يجدر بالذكر هنا أن بعضا من مراسلات المهدى مع غوردون موجودة فى كتاب (نعوم) شقير عن تاريخ السودان، الجزء الثاني، فى صفحتى ٢٨٩ و ٢٩٠.

مخلصكم

عبد الرحمن المهدي

١٣/ ١١/ ١٩٤١م

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم، وبعد

فمن المفتقر إلى الله محمد أحمد المهدى بن عبدالله إلى غوردون باشا، وقاه الله كل شر لا شاء. فإن أراد الله سعادتك وقبلت نصحنا ودخلت فى أماننا وضماننا فهو المطلوب وإن أردت أن نجتمع على الإنقليز فنوصلك اليهم فإلى متى تكذيبنا وقد رأيت ما رأيت وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بهلاك من فى الخرطوم قريبا إلا من آمن وسلم ينجيه الله. ولذلك أحببت إليك ألا تهلك مع الهالكين، لأنا قد سمعنا مرارا فيك الخير ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ما أجبتنا بكلام يؤدى إلى خيرك كما نسمع من الواردين والمترددين. والآن ما آيسنا من خيرك وسعادتك ولما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة لمن أن ييسر الله هدايتك بها إذ جعلنا من باب الرحمة والدلالة إلى الله ولذلك طال ما كاتبناك لترجع إلى وطنك وتحوز فضالتك الكبرى ولئلا تيأس من الفضل الكبير أقول لك قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾(النساء : ٢٩)

والسلام.

٢٥ من ربيع أول سنة ١٣٠٢هـ

وقد بلغنى فى جوابك الذى أرسلت إلينا أنك قلت :الإنقليز يريدون أن يفدوك وحدك منا ب ٢٠ ألف جنيه، ونحن نعلم أن الناس يتقولون من البطال كلاما كثيرًا ليس فينا وذلك لصدود من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه إلا من اجتمع بنا وأنت إن قبلت نصحنا فيها ونعم وإلا أن فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم.

نبى السودان المزيف

The False Prophet of the Sudan

مقال تاريخى فى مجلة "العلم" الأمريكية

هذه ترجمة لمقال قصير وقعت عليه مصادفة فى المجلة العلمية الأمريكية "العلم Science" وهى كانت ولا تزال وبلا منازع المجلة العلمية الأولى فى أمريكا (وبالتالى فى العالم بأسره).

نشر المقال فى العدد الثالث لتلك المجلة فى يوم ١٥/٢/١٨٨٤م دون أن يذكر اسم كاتبه. ورأيت ترجمته لفائدته التاريخية، ولا يفوت بالطبع على أحد أن المقال قد كتب فى عام ١٨٨٤م (أى قبل عام على اكتمال نجاح الثورة المهدية بسقوط الخرطوم فى يناير من عام ١٨٨٥م) ويعرض لجزء من تاريخ المهدية بصورة تختلف قليلا أو كثيرًا عما هو معلوم الآن، ويحفل ببعض الأخطاء التاريخية وغيرها. **المترجم**

***

تثـير الحركـة الإسـلامية في السـودان اهتمامـا خاصـا عنـد علـماء الأجنـاس (ethnologists) لتماهيها مع الأحداث التي صاحبت انتشار الدين الإسلامي منذ ظهوره. علمت من خطاب وصلني من الخرطوم حديثا بأن قائد تلك الحركة هو محمد أحمد (المهدي) والذي ولد في دنقلا في عام ١٢٦٠ هـ لأبوين فقيرين (هما عبد الله وأمينة)، وكان هو الثالث بعد ولدين آخرين (تضاربت الأقوال في تاريخ مولد المهدي فمنهم من قال: إنه ولد عام ١٢٥٩ هـ، وورد أيضا في موسوعة السودان الرقمية أنه ولد في عام ١٢٥٠ هـ. المترجم). بدأ في حفظ وتعلم القرآن في سن السابعة في مدرسة إسلامية، وأكمل حفظ القرآن كاملا وهو في الثانية عشرة من عمره، وكان ذلك في ذات العام الذي توفي فيه والده. وكفله إخوانه من بعد ذلك ليكمل تعليمه في علوم الشريعة وقوانينها ويحقق بعض ما كان يصبو إليه من علو شأن ورفعة مكانة. بعد وفاة أمه ارتحل إلى "الجزيرة أبا" في النيل الأبيض ليبقى مع أخويه ويعمل معهما في صناعة بناء القوارب. قضيفي تلك الجزيرة نحو خمسة عشر عاما عرف خلالها عند كل من عرفه بأنه رجل دين (مقدس) قبل أن يعلن أنه صار "المهدى المنتظر". قام الرجل بالكتابة لكل شيوخ الدين و"كبار الدراويش" في المنطقة بأن النبي محمدًا قد أتاه في المنام (والهواتف في حالة اليقظة أيضا. المترجم) وأخبره برسالة (من الله) مفادها أنه هو "المهدى المنتظر"، وأن سيطرة الترك قد حان أوان زوالها، وأن عهد "المهدية" قد أقبل زمانه، وطلب منهم في رسائله العون والسند والتأييد والمبايعة، إذ كان يدرك أن الحكام الترك لن يدعوه وشأنه وسيحاربوه. وعبر في إحدى رسائله عن عزمه التوجه لمكة في مستقبل قريب للحصول على مبايعة شريفها. كانت أخبار ذلك المهدى ونواياه قد فشت في الخرطوم قبل نحو عام من معرفة السلطات المحلية بالأمر. وقرر أخيرا (محمد) رؤوف باشا حاكم البلاد العام إرسال وفد برئاسة "محمود أبو السعود" للقاء النبي الجديد في جزيرة أبا. التقى "أبو السعود" الرجل في عشته محاطا بأنصاره، وعرض عليه أن يعود في معيته للخرطوم ليقوم بعمل خارق أمام الناس يثبت فيه صحة دعواه. أبى المهدى قبول ذلك التحدى فهدده "أبو السعود" بأنه سيرغمه بالقوة على العودة للخرطوم. عندها أشهر أنصار المهدى سيوفهم فتراجع "أبو السعود" عن تهديده وآب مع بقية الوفد على ظهر باخرته الصغيرة

للخرطوم. وأمر بعد ذلك اللقاء "أبو السعود" بالعودة إلى الجزيرة أبا فى جيش صغير مؤلف من نحو ٢٠٠ من الجنود لإحضار المهدى قسرا للخرطوم. وقد نزل الجنود على شاطئ الجزيرة ليلة ١٨/٨/١٨٨١م وفى وحل كثيف وقعوا فيه ضحية كمين نصبه لهم الدراويش قضى عليهم جميعا. وحاول الدراويش مهاجمة الباخرة التى أتى بها "أبو السعود" وجنده، فأسرعت بالهرب إلى Cava . فى يوم ٢١/٨/١٨٨١م جمعت الحكومة عددا كبيرا من الجنود لسحق حركة المهدية قبل أن يستفحل أمرها، بينما خرج المهدى من جزيرته متوجها إلى "جبل قدير" تحت سمع وبصر جنود للحكومة لم يجرؤ أحدٌ منهم على منعه أو محاولة القبض عليه. وفى نوفمبر من عام ١٨٨١م هاجمه فى "قدير" راشد بيك ومعه جيش من الشلك مكون من ٥٠٠ من المحاربين. قضى المهدى وجنده فى دقائق معدودة على محاربى ذلك الجيش المتحالف إلا واحدا منهم! وبعد تلك الهزيمة تم تعيين موظف أوروبى هو جقلر باشا للإشراف على حملة عسكرية هدفها الأول هو القضاء على المهدى وأنصاره. رفض جقلر باشا هذا أى عون أو مدد إضافى من الحكومة وزعم أن ما تحته من الجند كاف للقضاء على المهدى وأنصاره، وجمع جنودا بلغ عددهم نحو ٧٠٠٠ من حاميات كردفان وسنار وفشودة (فى الأصل كاشودا. المترجم) والخرطوم، وعين يوسف باشا قائدا لتلك الحملة. كان أولئك الجنود من المستجدين قليلى التدريب، ولا يحملون من الأسلحة الفعالة غير ٦ مدافع فقط.

وبعد ثلاثة أيام من وصول أولئك المجندين لقدير هاجمهم نحو خمسين ألفا من أتباع المهدى المتمردين بقيادة أخوين للمهدي. وقضى المتمردون على جنود الحكومة ولم ينج منهم سوى ٢٤ مجندا، بيد أن المتمردين تعرضوا أيضا لخسائر فادحة فى الأرواح كان أبرزهم أخوى المهدي. شجعت هزيمة جنود الحكومة تلك الحاميات التى جمع منها الجنود على التمرد، فقام تمرد فى سنار قتل فيه عدد من الجنود ونهبت ممتلكات الأوربيين. أرسلت الحكومة "كريم بيك" مع ٣٠٠٠ من الجنود العرب لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، بيد أنه هزم هزيمة نكراء وقتل معظم جنوده وفر من نجا منهم من الموت. وأعقبت ذلك عمليات حرق للقرى وسلب ونهب وفظائع لم تراع سنا ولا نوعا ولا جنسا.

فى غضون تلك الأيام تم تعيين عبد القادر باشا حاكما عاما للسودان، بينما صوب

المهدى رحله نحو الأبيض عاصمة كردفان مهاجما بالسيف كل من يعترض طريقه من سكان القرى فى المنطقة. وقد أسر المهدى قسيسين وراهبتين وعاملين آخرين فى بعثة كاثوليكية فى المنطقة وقام بتعذيبهم لثلاثة أيام متصلة بلا رحمة -وبدون جدوى أيضا- كى يرتدوا عن دينهم ويصبحوا مسلمين. وفى سبتمبر هاجم المهدى الأبيض بجيش بلغ عدد أفراده ١٩٢٠٠٠ من المتمردين بعد أن صمد من كانوا تحت الحصار المهدوى بفضل خندق بنوه حول المدينة. قد أنهك ذلك الحصار المدينة وعرضها للجوع والتلف والموت، واضطر عندئذ كل الأوربيين بالمدنية لإعلان إسلامهم حفظا لأرواحهم وأرواح من معهم، رغم مصادرة كل ما كانوا يملكونه من مال وتجارة وغيرها، وتم أيضا تدمير البعثة الكاثوليكية تماما وحرق كل وثائقها. وبيع كثير من سكان المدينة عبيدا واغتصبت النساء. وقبل سقوط الأبيض وحدوث كل ما ذكرنا كانت الحكومة قد بعثت على بيك بجيش لإنقاذ المدينة. تصدى لذلك الجيش الفكى المنا (سماه الكاتب Mama)كبير وزراء المهدى فهرب من جيش على بيك نحو ١٠٠٠ جندى نحو بارا واستسلموا للمتمردين بعد نحو أسبوعين. لم يكن النصر دوما حليفا لأولئك المتمردين فى كل معاركهم، فعلى سبيل المثال كان المتمردون قد تمكنوا من الاستيلاء على كاركودى / كركوج (سماها الكاتبKarkodi) (والتى هى مركز مهم لتجارة الصمغ العربى والعدس وتقع على النيل الأبيض) وقتلوا نحو ٤٠٠ من جنودها وتجارها. ولكن بعد مرور ٣٠ يومًا على تلك المجازر تمكنت القوات المصرية من طرد أولئك المتمردين وأفلحت فى إعادة القانون والنظام للمدينة. كذلك تمكنت القوات الحكومية من سحق قوات المتمردين فى قريتين كبيرتين على النيل الأبيض تقعان على بعد ١٠ ساعات عن الخرطوم، وقتلت قائد المتمردين وثلاثة من أبنائه.

إلى ذلك التاريخ كان ذلك التمرد قد أفقد السودان نحو مائة ألف من الأنفس، وفى الوقت الذى كتب فيه ذلك الخطاب الذى وصلنى كان هكس باشا قد وصل وكان من المتوقع قيامه بالقضاء على التمرد وإحلال القانون والنظام محل الفوضى والخراب، بيد أنه هو الآخر تعرض لهزيمة ماحقة وأعقبت هزيمة جيشه مجزرة كبيرة.

والآن تتعرض الحكومة المصرية لضغوط كثيرة من إنجلترا للتخلى عن السودان

لجحافل المهدي، وسيترك التعساء ممن كتب عليهم البقاء فى مراكزهم الحدودية البعيدة أن يظلوا فيها وأن يبقوا على أمل أن يتم إنقاذهم فى أوقات لاحقة.

هكذا تبدو قصة هذا المهدى وكأنها نسخة مكررة من قصص العصور الوسطى، ويصعب تخيل حدوثها ونحن فى نهايات القرن التاسع عشر. وما لم تتدخل يد الحبشة القوية ضد قوات هذا النبى الكاذب، فلا يستبعد أبدا أن تلقى مصر على يديه نهايتها.

المنّا إسماعيل: فكي وأمير فى كردفان

El Menna Ismail; Fiki and Emir in Kordofan

أ. ر. بولتون A. R. C. Bolton

تقديم: هذا عرض مختصر لما ورد فى مقال عن أمير المهدية الشيخ المنّا إسماعيل بقلم البريطانى الكساندررولو كولن بولتون (١٩٠٠ –١٩٩٣م) والذى عمل فى مجال الإدارة بشرق كردفان والنيل الأبيض والنيل الأزرق والخرطوم منذ أن كان فى الثالثة والعشرين من عمره وحتى بلوغه الرابعة والخمسين حين بدأت عمليات سودنة الوظائف. للمؤلف أيضا مخطوطات ووثائق وصور محفوظة فى جامعة درام البريطانية تشمل مقالات عن القبائل فى شرق كردفان مثل الهبانية والمسيرية، إضافة لمقالات فى مواضيع متباينة مثل الطب البيطرى والزراعة والإدارة والتعليم والطب والقانون وغير ذلك من الموضوعات.

الشكر موصول لدكتور عبدالله جلاب ودكتور خالد فرح لعونهما فى رسم أسماء بعض المناطق والقبائل.

نشر المقال فى مجلة "السودان فى مذكرات ومدونات" العدد ١٧ الصادر فى عام ١٩٣٧م.

المترجم

ترقد مدافن الفكى الشيخ المنّا إسماعيل وثلة من أقربائه فى قرية "التيارة " فى شرق كردفان على بعد نحو ٣٨ ميلا من الأبيض. دفعنى الاحترام الذى كنت أحس به عند الأهالى عند ذكرهم لخبر ذلك الفكى لتتبع لسيرة عائلة الرجل التى يقال: إنها من الجمع (بكسر الجيم) فى النيل الأبيض، والتى ساقتها الأقدار لتدفن فى تلال كردفان الرملية حيث أرض الجوامعة. يرتبط تاريخ ذلك الفكى بسنوات المهدية الدرامية الباكرة على أرض كردفان.

ينتمى المنّا إسماعيل للمسعاداب (وهم فرع من فروع الجمع)، ويزعم ماكمايكل فى سفره المعنون "تاريخ العرب فى السودان" أنهم بقارة من "دار محارب" فى النيل الأبيض، وهم فرع مختلف عن الجمع، بيد أنهم جميعا من مجموعة الجعليين الكبرى، وجدهم الأكبر هو إبراهيم جعل. يعد "المساعداب" أقرب للجعليين "الأصليين proper" الذين يقنطون على ضفاف النيل وشمال الخرطوم حتى أتبرا، منهم للبقارة فى النيل الأبيض. يحتفظ إبن الشيخ المنّا إسماعيل (الشيخ خالد المنّا) بشجرة عائلتهم والتى تفيد بأن جد العائلة الأكبر هو "سعد أبو دبوس" الذى منه جاء كل السعداب الجعليين. وقد زعم أن رجلًا سعدابيا يدعى "حسن الأحمر ود محمد جبريل" تشاجر مع عائلته وخاصمهم وتخلى عن قبيلته بقوله: "أنا مو سعدابي" ومن هنا أطلقت تسمية "مساعداب" على كل ذرية الرجل.

فى بداية القرن الثامن عشر هاجر الفكى المتبحر فى علوم الشريعة حسن الأحمر لحفرة النحاس بدارفور حيث أستقر مع عائلته هناك مع الفور، بيد أن سلطان الفور—وبعد إقامة ثلاثين عاما– قام بطرد المساعداب من مملكته فانتقل حسن الأحمر وقبيلته لكردفان، وصادف ذلك هجرة الجمع وقبائل بقارة أخرى لها على امتداد سنوات عديدة. كان ذلك فى حوالى منتصف القرن الثامن عشر، حين اشتداد الصراع بين المسبعات والفونج لفرض السيادة على البلاد.

توزع المساعداب الذين انتقلوا مع البقارة إلى كردفان إلى ثلاثة أقسام، فالقسم الأول كانوا من الرعاة الذين انتسبوا لـ "دار محارب" فى شرق النيل الأبيض. رحل القسم الثانى من المساعداب مع الجمع للأراضى التى كانوا قد انتزعوها من سكان المسلمية وتوجد

الآن (فى عام ١٩٣٤م) عشر مشيخات للمساعداب شمال تندلتى تحت إمرة العمدة مالك يس، وهو أحد المنحدرين من صلب حسن الأحمر. أما القسم الثالث فهم أولاد الفكى يس أحد أبناء حسن الأحمر، وهؤلاء كانوا قد استقروا شمال "أم روابة". سمى المكان الذى استقر فيه الفكى يس ودفن فيه باسمه. عرف الفكى يس بالعلم والورع وبذرية بلغ تعدداها ٩٩ ولدا (أشهرهم إسماعيل). يعتقد بأن الفكى يس توفى قبل وصول "الكنجرا" قبل عام ١٧٨٤م.

عندما طعن الفكى إسماعيل يس فى السن، تولى أخوه المنّا إسماعيل شؤون خلوة يس، فقام بتدريس العشرات من "الحيران"، وبلغ عدد هؤلاء فى عام ١٨٨٠م ما يزيد عن ١١٢ حوارا فطبقت شهرته العلمية والدينية الآفاق.

من القصص التى تناقلها الناس أن إدريس الدابى (وهو أخ للفحل بن الملك نصر ملك تقلي) كان قد اتهم الفكى المنّا إسماعيل بخيانة الأمانة، إذ إنه ادعى أن أخاه الفحل كان قد ترك عنده سروجا وذهبا بيد أن الفكى أنكر كل ذلك، استدعت السلطات الفكى المنّا إسماعيل للأبيض حيث قيدت أرجله بالسلاسل الحديدية وألقى به فى السجن. ظهرت "كرامات" الفكى عندما كانت تساقطت السلاسل ثلاث مرات من رجليه، بل وكان حراس السجن يجدونه كل صباح جالسا خارج زنزانته منتظرا الحارس ليفتح له بابها المغلق بإحكام أطلق سراحه بعد حين لعدم ثبوت التهمة المنسوبة إليه فقفل عائدا لقريته يس.

فى عام ١٨٨١م لم يكن هنالك فكى بغرب النيل الأبيض يماثل فى الشهرة وذيوع الاسم الفكى المنّا إسماعيل، بل فاقت شهرته الفكى محمد الخليفة ود دوليب من الدواليب القاطنين فى "خرسي" شرق بارا. كانت قرية "خرسي" هى مركز الناظر عبد الهادى صابر فى سنوات الحكم التركي، وكان الدرديرى محمد خليفة عمدة القبائل الرحل حول بارا حتى مقدم المهدية وإلى الآن (عام ١٩٣٤م).

ينتمى الفكى المنّا إسماعيل إلى الطريقة السمانية التى كان على رأسها محمد شريف نور الدائم. كان أحد طلاب محمد شريف نور الدائم هو محمد أحمد (المهدي) فكى "الجزيرة أبا" الذى ذاعت شهرته فى أرجاء كردفان. كان من المحتم أن يلتقى الفكى المنّا إسماعيل

بمحمد أحمد (المهدي) ، فقد جمعتهما الطريقة السمانية والشهرة العلمية وصحبة شيخهما المشترك محمد شريف نور الدائم. قيل أن صداقة عميقة قد جمعت بينهما، وعند هجرة محمد أحمد (المهدي) من الجزيرة أبا للأبيض فى عام ١٨٨٠م مر فى طريقه ب "يس" قرية صديقه المنّا.

عندما أعلن محمد أحمد (المهدي) عن معارضته وتحديه للحكومة، لم يلق عونا من الفكى المنّا إسماعيل فى بادئ الأمر، إذ إن العلاقة بين محمد أحمد وشيخه محمد شريف نور الدائم كانت قد بلغت حدا من الجفوة للحد الذى دفع محمد أحمد ليتخذ له شيخا آخر هو القرشى شيخ المسلمية، والذى كان بدوره على خصام مع محمد شريف نور الدائم. يبدو أن ارتباط الفكى المنّا إسماعيل بشيخه نور الدائم جعله لا يظهر مساندة لمحمد أحمد فى دعوته. بيد أن محمد أحمد (المهدي) ، وبعد انتصاره على قوات الحكومة التركية بقيادة يوسف بيه الشلالى فى معركة "قدير" فى يونيو من عام ١٨٨٢م أرسل كتابا لصديقه القديم الفكى المنّا إسماعيل طالبا منه قبول منصب الممثل الشرعى له فى منطقته ودعوة الناس من حوله للجهاد باسمه. قبل الفكى المنّا إسماعيل بذلك العرض، فتدافع رجال الجمع والبزعة والجموعية نحو قرية "يس" للانضمام لمحمد أحمد (المهدي).

كانت هنالك دوما هجمات متصلة على قرى كردفان المنعزلة وعلى مراكز القوات التركية تشنها مجموعات صغيرة من رجال القبائل، فعلى سبيل المثال قام هؤلاء فى مايو من عام ١٨٨٢م بمهاجمة قرية "أسحف" قرب بارا وقتلوا أهلها. فر فى تلك الأيام النور بيه عنقرة، والذى كان صديقا لغردون وحاكما لغرب دارفور، ولجأ إلى بارا، وصار فيما بعد أميرا فى المهدية فى عهد الخليفة عبد الله، وبقى فى أم درمان حتى توفى فيها (فى حوالى عام ١٩٢٨ أو نحو ذلك).

هوجمت بارا فى يوم ٢٣ من يونيو، فقامت حامية مكونة من ٢٠٠٠ من الجند بقيادة على بيه شريف بطرد المهاجمين من رجال القبائل العربية من المدينة بعد أن أوقع بهم خسائر جسيمة. ولكن بعد يوليو من ذات العام طوق رجال القبائل مدينة بارا، وفى التيارة، والتى كانت مركزا عسكريا، قام الباشبزوق تحت قيادة اليوزباشى محمد أفندى شافعى بالتحصن فى القرية وبناء خنادق بين تلين رمليين لصد الغزاة من رجال القبائل،

ولا تزال بقايا هذه التحصينات (القيقر) باقية إلى اليوم (١٩٣٤م). وبينما كان محمد أحمد المهدى يمضى بجيشه نحو الأبيض فى أغسطس، كان الفكى المنّا إسماعيل يقود جيشه المتكون حديثا للهجوم على الطيارة "التيارة". كتب إلى قائد الجيش التركى محمد الشافعى من قرية "أم قرينات" يدعوه للاستسلام. رفض ذلك القائد (المعروف بالشجاعة والاقدام) عرض الاستسلام وآثر الثبات وقتال قوات الفكى المنّا إسماعيل المتقدمة نحو جيشه، والمحاصرة لقواته من كل جانب. بعد محاولة فاشلة صدتها قوات محمد الشافعى أفلح جنود الفكى المنّا إسماعيل فى دخول التيارة والقضاء على أفراد الجيش الحكومى فيها، وكان من بين القتلى إدريس ولد عبد الهادى صبر ناظر "خرسي" والتيارة وشرق العقبة.

وصلت قوات محمد أحمد المهدى للأبيض فى الفاتح من سبتمبر من عام ١٨٨٢م وحاصرتها وحاولت، وعلى مدى يومين، دخول المدينة بثلاث موجات من الهجوم على تحصيناتها، محدثة الكثير من الخسائر فى صفوف جندها بقيادة محمد باشا سعيد، بيد أنها لم تتمكن من دخول المدينة. على إثر ذلك أرسل المهدى للفكى المنّا إسماعيل فى التيارة ليحلق به مع جنده فى الأبيض. تزعم عائلة المنّا إسماعيل أن الفكى وجيشه قد وصلوا للأبيض مع بداية حصار المهدى لها، بيد أن الوقائع تثبت أن التيارة قد سقطت فى أيدى رجال الفكى المنّا إسماعيل فى نهاية سبتمبر، مما يعنى أن الفكى وجنده قد وصلوا للأبيض بعد الهجوم الأول الذى شنته قوات المهدى على المدينة وليس قبل ذلك.

هنالك قصة تروى عن ذلك الهجوم على الأبيض مفادها أن رجلًا جعليا يقال له: عبد الله إبراهيم (وهو يمت بصلة القرابة لأحمد بيه دفع الله الضابط بالقوات التركية) كان قد كلف بقتل محمد أحمد المهدي. نجح الرجل فى الوصول إلى المهدى وكان حينها يؤدى الصلاة وصوب مسدسه نحوه. يقول البعض: إن الطلقات الست التى أطلقها عبد الله إبراهيم أخطأت كلها الهدف المقصود، بينما يزعم آخرون أن الطلقات أصابت هدفها بيد أنها لم تترك أى أثر على المهدي. تقدم الخليفة عبد الله شاهرا سيفه ليقتل الرجل، بيد أن المهدى أشار له ألا يفعل وقال له: "لا تقتله. سيكون الرجل مفيدا لنا فى المستقبل، فهو رجل شجاع". رد الرجل بالقول "لقد حاولت قتلك فلم أفلح، لذا فسأنضم لقواتك"

قيل أن الرجل انضم للقوات المهدية وغدا أميرا فى جيش حمدان أبو عنجة، وقتل فى أحد المعارك ضد الأحباش.

كان الفكى المنّا إسماعيل قد غادر التيارة مع ثلة من أهله وأفراد عائلته الممتدة من الرجال والنساء متجها للأبيض للحاق بالمهدى الذى كان يحاصرها. كان من بين هؤلاء غلام مراهق هو "حسن محمد تميم الدار". أوكلت إليه مهمة رعاية خيول المقاتلين. الآن (عام ١٩٣٤م) حسن تميم الدار هو عمدة قرية يس، ومنه علمت الكثير عن قصة صعود نجم الفكى المنّا إسماعيل ، ثم سقوطه من بعد ذلك.

كانت قوات المهدى مقسمة بين الأبيض وبين بارا التى استعصت على الفاتحين وقاومت ببسالة. كان المهدى قد أرسل لبارا عددا من كبار قواده منهم المحارب الشرس حمدان أبو عنجة (وأصله من البازنقر المسترقين) والجعلى عبد الله نور، والجعلى الآخر عبد الرحمن النجومي. لم يوفق هؤلاء القادة العظام فى فتح بارا، إلى أن أتت قوات الفكى المنّا إسماعيل والتى كانت تماثل فى العدد كل جنود المهدى الأخرى. ذكر وينجت باشا فى كتابه الممتع والمعنون "المهدية والسودان المصري" والصادر فى عام ١٨٩١م أن حامية بارا قد ضعفت جدًا بسبب حريق هائل سببه "أحمد ود ملك" قضى على كامل مخزون المدينة من الحبوب. وجاء فى ذات الكتاب أن النور بيه عنقرة كان قد كتب للمهدى عارضا الاستسلام لأى شخص سوى الفكى المنّا إسماعيل، إذ إنه كان يخشى قسوة انتقامه. أمر المهدى عبد الرحمن النجومى بالتوجه لبارا حيث نجح فى "تهريب" النور عنقره والعودة به للأبيض وذلك بعد نجاحه فى يناير من عام ١٨٨٣م فى الاستيلاء على بارا المحاصرة بعد استسلامها.

من قصص عائلة الفكى المنّا إسماعيل أن أحد شيوخ الشنخاب (واسمه شيخ عبد الرحمن سليمان) سأل الفكى وهو يتأهب لأداء صلاة الظهر خارج بارا عن سبب تأخره فى فتح بارا بعد أن أمره المهدى بفتحها. أجاب الفكى المنّا إسماعيل بهدوء "أنا بصلى ركعتين ويعدين بصلى الضهر". قبل أن يكمل الفكى صلاته اندلعت النيران فى معسكر الجيش التركي، وانهارت تحصينات ذلك الجيش ومعنوياته فدخلت قوات الفكى المنّا إسماعيل للمدينة دون إراقة نقطة دم واحدة. عد الناس ذلك تدبيرا ربانيا وكرامة عظيمة

للفكي. أجد أنه من الغريب أن تسقط حامية كحامية بارا بفعل كارثة الحريق تلك، وأن كرامة الفكى المنّا إسماعيل كانت سببا فى الحريق ابتداءً.

بعد سقوط بارا توجه الفكى المنّا إسماعيل بجيشه نحو الأبيض حيث دخلها من جهة الشرق، بينما دخلها المهدى بقواته من الجهة المقابلة بعد استسلام المدينة فى ١٦/١/١٨٨٣م وتم القبض على الضابطين أحمد بيه دفع الله ومحمد باشا سعيد كأسرى حرب. التقى أحمد البقارى (وقريب الفكى المنّا إسماعيل) مع أحمد بيه دفع الله وعرض عليه الدفاع عنه إن أعلن ايمانه بمهدية محمد أحمد. قال له أحمد بيه دفع الله متحديا: "أنا لست جبانا مثل عبد الله إبراهيم، والذى ما إن فشل فى قتل محمد أحمد حتى قبل بالانضمام إليه". حكم محمد أحمد المهدى على أحمد بيه دفع الله ومعه محمد يس ناظر بارا بالقتل ضربا بالعصى، أوكل لناظر الرزيقات مأدبو تنفيذ العملية حيث أخذ الرجلين إلى غابة مجاورة ونفذ فيهما ما أمر به المهدى. دارت الأيام وتم تنفيذ حكم قاس مشابه على مأدبو بيد حمدان أبو عنجة. وبحسب رواية وينجت فقد أمر المهدى الفكى المنّا إسماعيل بقتل قائد الجيش التركى محمد باشا سعيد، وتم تنفيذ الحكم عليه فى "علوية"، بينما ينفى أقرباء الفكى المنّا إسماعيل أن للرجل أى علاقة بمقتل ذلك القائد التركي.

بعد مشاركة الفكى المنّا إسماعيل لمحمد أحمد المهدى فى الاستيلاء على مدينة الأبيض غدا من المقربين له، إما بسبب صداقتهما القديمة على أيام الطلب على يد الشيخ محمد شريف نور الدائم شيخ الطريقة السمانية، أو ربما بسبب القوات الضخمة التى كانت تحت إمرة الفكى المنّا إسماعيل! وكتدليل على تقدير المهدى للفكى المنّا تقدم للزواج من كريمته "حواء الجلالة"، وكان تبلغ من العمر عشرة أعوام، بيد أنها كانت تقرأ القرآن والذى درسته على يد والدها الشيخ، وواصل المهدى فى تعليمها حتى وافته المنية كى تتولى تعليم نسائه ومن معهن من الحريم.

قبل انتقال المهدى من الجزيرة أبا إلى قدير قام بتعيين الخليفة عبد الله محمد التعايشى كخليفة له (مقابلا للخليفة الأول أبو بكر الصديق) وعلى ود حلو (مقابلا للخليفة الثانى عمر بن الخطاب) ومحمد الشريف (مقابلا للخليفة الرابع على بن أبى طالب)، وبعد سقوط الأبيض قرر المهدى تعيين الشيخ محمد السنوسى كخليفة ثالث (كمقابل للخليفة

عثمان بن عفان). فى تلك الفترة كان الخليفة عبد الله محمد التعايشى واحدا من خلفاء المهدى ولم يتم إعلانه "الخليفة" إلا فى نهاية عام ١٨٨٣م حين أعطت له مزيدًا من السلطات كخليفة للمهدى كانت تفوق ما هو ممنوح للخلفاء الآخرين.

كانت للفكى المنّا إسماعيل دون ريب طموحات (سياسية؟) باعتبار ما لديه من سمعة وشهرة كشيخ دينى ومعلم، وأيضا كقائد شعبى يحظى بتأييد رجال الجمع والجوامعة، والذين كان يحلو لهم مناداته ب "منّا أبو البتول خليفة الرسول". لا ريب فى أن المنّا إسماعيل كان يساوره شعور بأن الخليفة عبد الله المسنود من أهله التعايشة قد "خطف منه الأضواء" واستحوذ على قلب وعقل المهدى وسلطاته أيضا، ولم يكن الأمر يحتاج لأكثر من شرارة لتشعل نار العداوة والبغضاء بين القائدين الكبيرين، وخلف كل منهما قبيلته وسنده الشعبي.

يروى أنه وبعد سقوط الأبيض غشى الفكى المنّا مسجد المهدى ذات جمعة لأداء صلاة الجمعة، وبعد انتهاء الصلاة أخذ المهدى بيد الفكى المنّا حتى أدخله معه بيته. علق أحد التعايشة (واسمه عثمان آدم) على ذلك المشهد بالقول: " المنّا مسكو المهدى من أيدو عمل نفسو الخليفة الفاروق". رد ابن للفكى المنّا اسمه محمد على على الرجل التعايشى بالقول: "لو المنّا ما الخليفة الفاروق، الخليفة عبد الله ذاتو ما الخليفة الصديق". أجاب الرجل التعايشى على تلك المقارنة بعصاه، فأوسع ابن الفكى المنّا ضربا، وتبعه فى ذلك رجال آخرون من التعايشة، ولم يتوقف الضرب حتى تدخل أحمد البقارى (الذى سبقت الإشارة إليه لتوسطه لفك أسر أحمد بيه دفع الله الضابط السودانى فى الجيش التركى بالأبيض إن أعلن إيمانه بمهدية محمد أحمد). سعى محمد على بن الفكى المنّا لمقابلة المهدى عند صلاة العشاء فمثل أمامه وملابسه ملطخة بالدماء واشتكى من الرجل التعايشي. أمر المهدى من هاجموا الرجل بالوقوف فقام نحو ثلاثين رجلًا من التعايشة، فسالت دموع المهدى –كما هى عادته– وأمر بحبسهم جميعا. حينها بدأ محمد على فى خطبة طويلة هاجم فيها الخليفة ورهطه وكال لهم السباب. رد المهدى بهدوء أن قوموا لصلاة العشاء يرحمكم الله.

بعد مرور يومين على تلك الحادثة استدعى المهدى محمد أحمد الفكى المنّا إسماعيل

لداره. في ذلك اللقاء طلب الرجل من المهدى السماح له بالأوبة مع جنده إلى دياره، فسمح له بالسفر بعد سبعة أيام. في اليوم الثامن زار المهدى معسكر المنّا لوداع الفكى ورجاله والذين كانوا ينوون الرحيل للتيارة حيث موطنهم. من بعد ذلك تفرق الجنود، ورجع الفكى إلى قريته الأصلية يس. هنالك قام الفكى بتعليق سلسلة حديدية مربوطة بإحكام في السقف حول عنقه، ووضع في ماء شرابه بعض جذور الأشجار حتى يغدو مر الطعم، ولم يكن يتناول غير الدخن والذى كان يضيف إليه بعض القطران عوضا عن الملح. ظل على تلك الحالة لشهر كامل من الزهد والتعبد وطلب التوبة والغفران. وبينا هو على تلك الحالة هاجم جنود جيش المهدى بقيادة حمدان أبو عنجة وعبد الرحمن النجومي قرية يس دون سابق إنذار فقتلوا ٤٢ من رجال المساعداب وألقوا القبض على الفكى المنّا و٢٢ من أقربائه. بعد يومين من ذلك حوكم "أحمد البقاري" بمئتى جلدة، وضرب على باطن قدميه مائة سوطا كى يسلم الجيش المهدوى ما عنده من ثروة. قبل تلقى العقوبة سخر الرجل البقارى من حمدان أبو عنجة ، وقال له متهكما: "أأحضرت حزمة سياطك لتخيفني؟". كانت عادة أمراء المهدية أن يطوفوا بين الناس وفي رفقة كلهم منهم حارس مهمته حمل حزمة ضخمة من سياط العنج يبلغ تعدداها خمسين سوطا. ظل البقارى يصيح في وجه حمدان أبو عنجة بالسباب حتى وهو يتلقى ضربات السياط، وأبى أن يفصح عن مخبأ ثروته. نال والد الفكى المنّا (الشيخ الكبير إسماعيل حسين) نصيبه من العذاب فضرب مائة جلدة، بينما كان نصيب "فاطمة محمد" زوجة الفكى المنا من السياط نصف نصيب والده المسن.

نقل المعتقلون جميعا للتيارة حيث بقوا يومين في انتظار البديرى أحمد التلية (El Teleia) المختص بعمليات الشنق. عندما وصل ذلك الشانق استعد الفكى المنّا للقاء ربه وأمر خادمه الصغير حسن محمد تميم الدار بأن يخبر بقية البقارة المعتقلين بأن يحلقوا شعورهم ويغسلوا ثيابهم لأن الرجل البديرى قد أحضر "عامود الشنق"، وغدا سيلقون المهدي. ذهب الخادم الصغير ونقل لأحمد البقارى ما قاله الفكى فأمره أحمد بعدم إخبار البقارة المعتقلين الآخرين بما قاله الشيخ وقال له: "نحن نظيفون ولا نهاب الموت".

في صباح اليوم التالى نفخ في الأبواق وتحلق الجمع في مربع كبير وأحيط المعتقلون

بسياج من حملة البنادق أمامهم، وبحملة الحراب من خلفهم. أحضر أربعة من المعتقلين هم الفكي المنّا (وعمره ٦٥ عاما) ووالده الشيخ الكبير (٩٥ عاما) وولده محمد علي وابن عمه أحمد البقاري لوسط ذلك الحشد وأمروا بالجلوس أرضا. نادى حمدان أبو عنجة على الكاتب (وهو رجل دنقلاوي يقال له: شيخ إدريس) ليقرأ ما أمر به المهدي. قرأ الرجل ما نصه: " فلما أتى أحمد التلية لقتله هو ومعه والده وابنه والبقاري، أدبرت عنكم وأقبلت إليكم". بعد ذلك مباشرة حز الرجل بالسيف عنق الفكي المنّا ومن معه. بعد ذلك أمر حمدان أبو عنجة بإحضار أخ للفكي المنّا اسمه عبد الباري فتقدم أحد إخوة الفكي المنّا وجلس ينتظر السياف، ولكن حمدان قال له : "ليس أنت. اذهب. أريد عبد الباري...الأسود". رفض الرجل المغادرة وقال لحمدان: "لن أذهب. كلنا واحد". أمر حمدان عبدين من عبيده بإبعاد الرجل فجراه من قيوده الحديدية خارج الساحة، وأحضرا عبد الباري. ضربه السياف ثلاث مرات دون أن تترك أدنى أثر فيه، فأمر حمدان جنديا بضربه بطلقة نارية في صدغه فأرداه قتيلا.

تركت الجثث في مكانها ليوم كامل إلى أن أتى رسول المهدي يحمل أكفانا غطيت بها الجثامين، ودفنوا جميعا قرب جذع شجرة هجليج ذابلة في أرض زراعية، بعد أن استخلصت القيود الحديدية من أقدام الرجال المقتولين بربطها بحبل مربوط في جذع تلك الشجرة. أرسل رأس الفكي المنّا للأبيض حيث أمر المهدي بتعليقه بمسمار ضخم على بوابة المدينة الرئيسة. قيل أن جذع شجرة الهجليل تلك التي دفن بقربها الرجال الأربعة أخضرت وأينعت في خلال عشرة أيام، ونبتت كذلك قرب القبر أشجار هجليل أخرى ظللت كل تلك القبور.

أخذ جنود المهدي المعتقلين من أقرباء الفكي المنّا للأبيض، حيث مثلوا بعد ثلاثة أيام أمام المهدي والذي بادرهم بالسؤال ودموعه تسيل: ""راضين بما فعل الله؟" ردت عليه في شجاعة بشيرة بنت البدوي (عمة / خالة حسن محمد تميم الدار) قائلة: "راضين بحكم الله، مش (ما) راضين بحكم الناس". أخذ المهدي وهو ينتحب سيفا ووضعه على المصحف وقال للمعتقلين: " احلفوا إنكم تابعين للمهدي وخليفته". رددوا ما قاله لهم المهدي، ثم أخذوا للخليفة عبد الله والخليفة علي الحلو والخليفة شريف، على التوالي،

حيث أعادوا نص ما أمروا بقوله. بعد ذلك أطلق المهدى سراحهم وطلب منهم البحث عن عبيدهم وبهائمهم وممتلكاتهم الأخرى فى الأبيض، ثم العودة لقريتهم يس ففعلوا بقدر ما تيسر لهم.

عين المهدى الشيخ موسى ود الأحمر (من المشيخاب) كأمير عليهم، كان هو ذات الشخص الذى أمر بجلد يس يوسف (والذى صار ناظرا للجوامعة فى ظل الحكومة الحالية) ألف جلدة لأنه كان من أتباع الفكى المنّا إسماعيل. بقيت حواء الجلالة (ابنة الفكى المنّا إسماعيل) زوجة للمهدى رغم حزنها الشديد على فقد والدها وأهلها، ورغم كل ما قدمه لها المهدى من ترضيات لم تعد سعيدة بالبقاء تحته.

أورد وينجت باشا فى كتابه "المهدية والسودان المصري" نص رسالة كان المهدى قد بعث بها للفكى المنّا إسماعيل (مع مجموعة من الوثائق الأخرى كان الجيش البريطانى قد عثر عليها إثر معركة حربية مع جيش الدراويش) جاء فيها أن المهدى أمر الفكى المنّا إسماعيل بعدم الأسف على عدم توليه منصبا قياديا فى المهدية، وأن الأمارة قد تخطته وأعطيت لأخ له. بررت الرسالة ذلك الفعل بأن الفكى قد استحوذ –دون وجه حق– على بعض الغنائم، لذا سحبت منه الإمارة وأعطيت لأخيه. بيد أن الحقائق تقول بأنه ما من أخ للفكى المنّا كان قد عين كأمير فى تلك الأيام، بل كان كل من يمت بصلة قرابة للفكى المنّا ينظر إليه بعين الشك والريبة، حتى بعد إعدامه. قد تفسر كلمة "أخ" هنا بمعنى آخر، ولعل المقصود بها هو الخليفة عبد الله التعايشي. كان ذلك الخليفة هو العقبة الكأداء التى تحطمت عليها كل آمال الفكى المنّا فى نيل حظوة القرب من المهدي، ولا يشك كثيرون فى أن الخليفة هو من كان وراء سقوط الفكى المنّا ونهايته الدموية. ذكر المهدى فى رسالته للفكى المنّا بأنه له من الناصحين فقط لأنه يرغب فى ما فيه "مصلحته وسعادته الأبدية"، ونصحه أيضا فى خطابه بعدم الندم على فقدان المنصب، وبهجر الدنيا فهى "عرض زائل وظل مؤقت سيزول سريعا" والالتفات للعلم والدين، وترك المنصب "لأخيك" فإن الله لا يحب المرء الذى يؤثر نفسه على أخيه. ذكره المهدى أيضا بأنه يعرف مصلحته بأكثر مما يفعل هو، وأن عليه شكر الله لإعفائه من مسؤوليات الإمارة فهو رجل متدين ومخلص فى العمل من أجل الله.

جل ما ذكرته من خبر الفكى المنّا أخذته من أفواه أقربائه مثل عمدة يس حسن محمد تميم الدار وشيخ خالد (أحد أبناء المنّا) وهو شيخ خلوة بالقرب من تندلتي، ومن "حواء الجلالة" والتى مات عنها زوجها المهدى وترملت وهى صغيرة السن وتعيش الآن (١٩٣٤م) بالقرب من تندلتي. لم يكن أحد من هؤلاء الناس يعلم شيئا عن رسالة المهدى للفكى المنّا، والتى كانت بمثابة "أمر بالإعدام" للفكي. ولعله من سخرية القدر أن يكشف لأبناء وبنات الفكى المنّا عن مضمون ذلك الخطاب (من النص الإنجليزى له) الذى تحصلت عليه القوات البريطانية وهى ذات القوات التى قدر لها أن تزيح عن سدة الحكم الخليفة عبد الله ، وهو ذات الرجل الذى آثره المهدى على الفكى المنّا عندما اضطر للمفاضلة بينهما.

إمبراطورية النيل البريطانية والقصة المجهولة للاحتلال البريطاني المصري للسودان

مقدمة تاريخية : إمبريالية بلا دافع

The British River Empire & the Unknown Story of the Anglo-Egyptian Occupation of the Sudan

A historiographical Introduction: An Imperialism without impetus

تيرجي تيفدت Terje Tvedt

◇◇◇◇◇◇

هذا عرض مختصر لمقال لتيرجي تيفدت بروفسيور مادة الجغرافيا بجامعة بيرجن ومادة تاريخ العالم في أوسلو بالنرويج والمنشور بدورية "الدراسات السودانية Sudan Studies" العدد ٣٦ والصادر في نوفمبر من عام ٢٠٠٧م . للرجل عدة مقالات وكتب عن موضوعات متنوعة تشمل علاقات المجتمع بأنظمة المياه، وبتاريخها خاصة في حوض النيل و"إمبراطوزية النيل البريطانية"، وتشمل أيضا دائرة اهتماماته البحثية تاريخ نمو أنظمة العون الدولي والتاريخ المعاصر للذهنية وأفكار وآراء النرويجيين المتعلقة بـ"العالم الثالث/ النامي". كذلك أنجز بروفيسور تيفدين كتابا وشريطا (فيلما) وثائقيا عن نهر النيل وتاريخه.

بدأ بروفيسور تيفدين مقاله بالسؤال التالي: لماذا قام البريطانيون والمصريون بإعادة احتلال السودان؟ ويجيب على سؤاله بالقول أن ذلك له علاقة مباشرة وصلة وثيقة بروايات ونظريات الإمبريالية على وجه العموم، وبتقسيم القارة الإفريقية في القرن التاسع عشر على وجه الخصوص، ويفهمنا كذلك لتاريخ السودان الحديث وللعلاقة بينه وبين السودان ومصر. يقدم البروفسيور النرويجي تفسيرا لتصورات وأهداف بريطانيا ومصر في تسعينيات القرن التاسع عشر (خاصة فيما يتعلق بمسألة المياه) تختلف جذريا عن

التفسيرات التقليدية السائدة التى تدور حول "تقسيم أفريقيا" وعن "السياسات البريطانية" فى وادى النيل. يعتمد الرجل فى تفسيره -ذلك المختلف- على تقارير ورسائل لم يلتفت لها كثير من الدارسين، ويعيد تفسير التقارير التقليدية التى عكف عليها الباحثون منذ عقود بصورة مختلفة. تتميز تفسيرات بروفيسور تيفدين أيضا عن ما سبقها من تفسيرات "التاريخ الدبلوماسي" المعتادة فى أنها تركز وتحلل وتكامل العوامل الجغرافية والخواص الهيدرولوجية للنيل، والتى كثيرًا ما كانت هى التى أملت على متخذى القرار البريطانيين طرائق تفكيرهم وقراراتهم وأفعالهم. يستند الكاتب فى مقاله إلى عدد من أعماله المنشورة وكتاب "عُمْدَة" فى موضوعه هو كتاب "أفريقيا والفيكتوريين" لرونالد روبنسون وجون جالاهار والصادر فى ١٩٨١م، والذى يشرح النظرية العامة للإمبريالية، خاصة فى أفريقيا، ويضرب مثلا لها بحادثة فشودة المشهورة فى تسعينيات القرن التاسع عشر. فى ذلك الكتاب يقول المؤلفان: إن ما دعا بريطانيا لغزو واحتلال أفريقيا هو سعيها لتقوية وتحصين أمن إمبراطوريتها والسيطرة على قناة السويس، والتى تعد "شريان الحياة" الاقتصادى والإستراتيجى الأساس وعماد الإمبراطورية والهند، وكذلك تأمين حدود الإمبراطورية جنوب مصر لمنع القوى الأوربية الأخرى من الزحف على دلتا مصر والسيطرة عليها، ومن ثم طرد بريطانيا من مصر بكاملها وحرمانها من السيطرة على قناة السويس. بهذا الفهم يعد المؤلفان احتلال السودان مجرد "خطوة استباقية" فرضت على الإمبراطورية البريطانية فرضا، وقد كانت تلك الإمبراطورية فى لندن والقاهرة غير راغبة فى الأصل فى الدخول فى معارك حربية لولا أنها كانت "تدافع" عن وجودها ضد "الأطماع التوسعية" للدول الأوربية الأخرى! وبعبارة أخرى كان البريطانيون -بحسب نظرية المؤلفان رونالد روبنسون وجون جالاهار- يعدون السودان مجرد منطقة عازلة buffer zone لحماية المصالح البريطانية فى مصر، ويشبهونه تاريخيا بـ "أفغانستان أخري". يزعم المؤلفان أيضا أن قيام دولة مهدوية / إسلامية فى السودان بين عامى ١٨٨٤ - ١٨٩٨م (حتى وإن أظهرت العداء لبريطانيا) لم يكن يشكل فى حد ذاته خطورة أو حتى إزعاجا للبريطانيين، بل ربما كانوا راضين عن قيامها، فوجودها كان مفيدا لهم من طرق عديدة. كانوا يدركون جيدا بأن

هؤلاء "الدراويش" لا علم لهم بأمور الهندسة والمياه ولم يكن بوسعهم قطع إمدادات مياه النيل عنهم فى مصر. كان البريطانيون يؤمنون أيضا بأن ضعف الحكم المهدوى سيغرى القوى الأوربية الأخرى بغزو السودان، ولم يقوموا هم بإعادة احتلال السودان (رغم عدم الفائدة الاقتصادية من حكم ما كانوا يطلقون عليه "تلك الصحراء الممتدة") إلا بعد أن تيقنوا من ضعف وتآكل سلطة النظام المهدوى الحاكم فى السودان، ولو أن ذلك النظام حافظ على قوته وقدرته على صد الأعداء من القوى الأوربية لظل السودان محتفظا باستقلاله التام. هكذا لخص بروفيسور تيفدين نظرية رونالد روبنسون وجون جالاهار فى نوازع وأسباب إعادة البريطانيين (ومن خلفهم المصريون) لاحتلال السودان. وكما ذكرنا آنفا فإن لبروفيسور تيفدين نظرية تخالف ما يطرحه رونالد روبنسون وجون جالاهارمن آراء فى كتابهما "العمْدَة" المذكور مخالفة تامة والتى تخلص إلى أن أهداف إعادة احتلال السودان لم تكن من أجل "أطماع توسعية" أى أنها كانت فى واقع الأمر إمبريالية بلا دافع An Imperialism without impetus

يؤكد بروفيسور تيفدين فى نظريته فى هذا المقال أن للإمبريالية البريطانية فى احتلالها للسودان دافع وأى دافع! وكيف لا وهو يصفها بأنها "إمبراطورية المياه" ويصف استعمارها بأنه "إمبريالية المياه". لا يستبعد بروفيسور تيفدين بالكلية الرأى الذى يقول: بأن تخوف البريطانيين من أطماع الدول الأوربية الأخرى فى التوسع فى أفريقيا والاتجاه شمالا فيها هو ما قد دعاهم لإعادة احتلال السودان، بيد أنه يعد ذلك عاملا واحدا فقط من عدة عوامل لعلها أكثر أهمية منه بما لا يقاس. يعتقد بروفيسور تيفدين أن السبب الرئيس فى إعادة احتلال السودان هو طبيعة الزراعة المصرية وطرق ريها وحاجتها لمصدر مستمر وآمن للمياه، وتحسب مصر (وبريطانيا) من أزمة مياه مستفحلة فى نهايات القرن التاسع عشر، وتوفر هذه المياه فى المناطق جنوب مصر.

كانت تقارير البريطانيين تزعم دوما أن جنوب السودان منطقة عديمة القيمة ويصفونها حرفيا بأنها حثالة تقع فى "قاع البرميل"، بينما يعتقد بروفيسور تيفدين أن خبراء الإستراتيجية البريطانية يؤمنون بعكس ذلك تماما ويعدون جنوب السودان "برميلا يطفح بالمياه"، وأنه منطقة غنية بمياه وفيرة غير مستغلة تحتاجها للزراعة مصر (وبريطانيا التى

تستعمرها) وتعد "أغلى من الذهب". لذا فإن اعتبار السودان مجرد " منطقة عازلة buffer zone " بين القوى الأوربية التوسعية المتصارعة ليس من المنطق فى شيء. إن مرد اهتمام بريطانيا بإعادة احتلال السودان فى حقيقة الأمر هو أن هذا البلد بالغ الأهمية للتخطيط الزراعى فى مصر خاصة فيما يتعلق بزراعة وصناعة القطن، وليس فى الأمر "سيكولوجية دفاعية" كالتى مارسها المستعمرون البريطانيون فى شمال الهند مثلا. يزعم بروفيسور تيفدين فى نظريته أن خطط البريطانيين لوضع أيديهم (أى الاستيلاء) على أطول وأشهر أنهار العالم واستغلال التقنية العصرية المتوفرة لديهم نابعة من شعورهم بالتفوق والقوة الإمبريالية والرغبة (والقدرة) على التحديث واستخدام أدوات واختراعات علمية قاموا بها. لذا أطلق بروفيسور تيفدين على تلك الإمبريالية البريطانية وصفا جديدا هو "الإمبريالية السياسية -المائية ذات الطابع العملى الحضارى (promethean)" والتى تتعدى حالة كونها فقط اقتصادا توسعيا وتسعى لخدمة ونمو الاقتصاديات الزراعية المصرية (وبالتالى البريطانية). بين بروفيسور تيفدين أن الاستعمار البريطانى للسودان لم يكن خطوة فى الظلام أو خبطة عشوائية بل كان عملا مدروسا يمتاز بنظرة إستراتيجية إمبريالية بعيدة المدى خاصة فى نواحٍ جيولوجية وهيدرولوجية تأخذ فى الاعتبار عوامل اقتصادية وسياسية عديدة وبالغة التعقيد.

يعزو بروفيسور تيفدين أسباب احتلال بريطانيا لمصر فى ١٨٨٢م بحسب تفسيره لكثير مما جاء فى الوثائق البريطانية والمصرية إلى رغبتها فى التحكم فى قناة السويس، ذلك الشريان الحيوى الأشد أهمية بالنسبة لبريطانيا ومستعمراتها، وخوفها من احتمال قيام حكومة مصرية معادية بإغلاق ذلك الشريان. أدرك قادة المستعمرون البريطانيون فى مصر ومنذ زمن بعيد أهمية التحكم فى مصادر النيل وذلك لارتباط مياه النيل بالزراعة فى مصر وباستقرارها السياسى ونموها الاقتصادي، خاصة وأن مصر غدت موردا رئيسا للقطن الرخيص الممتاز النوعية لمصانع النسيج فى لانكشير بعد أن قللت تلك المصانع من اعتمادها على القطن الأمريكي. لخص نوبار باشا رئيس الوزراء المصرى ما ظل البريطانيون يؤمنون به فى جملة قصيرة معبرة شهيرة جاء فيها أن "المسألة المصرية هى مسألة ري".

اهتمت الإدارة البريطانية فى مصر بقيادة اللورد كرومر (١٨٨٣–١٩٠٧م) أول ما اهتمت بشؤون الاقتصاد وكان على رأس تلك الاهتمامات هو تطوير المشاريع المائية بالبلاد. لم تكن تلك السياسة – بحسب نظرية بروفيسور تيفدين – من بنات أفكار تلك الحكومة بل كانت سياسة عليا مفروضة عليهم من المتنفذين من كبار ملاك الأراضى فى مصر ومن شركات تجارية وصناعية فى مصر وبريطانيا. كانت للمصارف البريطانية مصلحة عظيمة فى أن يزدهر الاقتصاد المصرى فقد كانت مصر مدينة لبريطانيا بأكثر من ١٠٠ مليون من الجنيهات وتبلغ قيمة الفائدة السنوية عليها أكثر من ٥ ملايين جنيه. لم يكن هنالك من مورد أمام مصر لدفع أصول وفوائد تلك القروض غير تصدير أكبر كمية من القطن، وذلك يتطلب بالضرورة امدادات مائية كافية. بلغ من اهتمام بريطانيا بمناسيب النيل حدا كانت تقوم فيه صحيفة التايمز اللندنية بنشر تلك المناسيب بصورة دورية على صفحاتها! علق الساسة البريطانيون آمالا عراضا على مهندسى الرى كى يقوموا بتنفيذ خطط ومشاريع من شأنها توفير أكبر قدر من المياه لزراعة القطن فى مصر ولتحسين طرق الزراعة والرى وبناء منشآت جديدة لتوفير أكبر قدر ممكن لزراعة القطن بها. ولهذا قام مهندسو الرى البريطانيون فى عام ١٨٩١م بتشييد سد فى منطقة الدلتا بشمال القاهرة ساهم فى زيادة الأراضى المزروعة قطنا. ولضمان توفر مياه كافية لرى المحاصيل (خاصة القطن) فى فترة الصيف فكر البريطانيون فى تشييد سد آخر فى منطقة أسوان، واستغرق إنجاز ذلك العمل أربعة أعوام كاملة (١٨٩٨إلى ١٩٠٢م). رغم كل تلك الإنجازات المائية فى مصر لم تعد المياه التى يوفرها ذلك السد وغيره كافية لسد حاجات مصر الزراعية فتواصل التفكير فى التوجه جنوبا ووضع اليد على منابع النيل. جاء فى تقرير حكومى عام ١٨٩٤م أن صفات وخواص النيل الهيدرولوجية وزيادة احتياجات البلاد (أى مصر) من المياه خاصة فى فصل الصيف تتطلب التحكم فى النيل جنوب الحدود المصرية وتحديدا عند بحيرة البرت وبحيرة فيكتوريا (والبحيرة الأخيرة هذه يعادل حجمها مساحة أسكوتلندا). وفى هذا الصدد كتب أحد البريطانيين فى عام ١٨٩٤م ما نصه: "البحيرات الإيطالية هى لسهول لومباردي، بينما بحيرة ألبرت هى لأرض مصر". وبإقامة سدود تحجز مياه تلك البحيرات كان البريطانيون يؤملون الحفاظ

على إمداد مائى وفير خلال شهور فصل الصيف، فقدر أحد الخبراء أن رفع مياه بحيرة فيكتوريا لمتر واحد فقط كفيل بانسياب المياه بنحو ٣٠ مرة أكثر مما تحتاجه مصر. بالطبع لم تكن تلك الأفكار والطموحات لتجد طريقها للتنفيذ لو ظل السودان تحت سيطرة الحكم المهدوي، لذا كان لا بد من احتلال السودان.

خلص بروفيسور تيفدين إلى أن الاستعمار البريطانى ظل يخطط ومنذ أعوام تسعينيات القرن التاسع عشر لإقامة "إمبراطورية النهر" على النيل. وفى هذا المسعى حصل الاحتلال البريطانى –المصرى للسودان على تأييد ومساندة الصفوة المصرية، وتم تمويله بالكامل من أموال الخزانة المصرية، وفى هذا دلالة أكيدة على الفكرة السائدة فى مصر من أن النيل هو "نهر مصري" خالص. كانت الإستراتيجية البريطانية تركز فى جانب منها على قيام وتطوير منشآت للرى من مياه النيل فى مصر لتزيد من إنتاج القطن ولتنعش من الاقتصاد المصري، وفى جانب آخر وفى ذات الوقت تقوم تلك الإستراتيجية البريطانية على قيام السودان كدولة مستقلة عن مصر واستغلال المياه فيه للزراعة (خاصة فى مشروع الجزيرة). كان ذلك موافقا تماما لمصالح لوبى القطن فى بريطانيا، ولكن كانت الإستراتيجية البريطانية تهدف أيضا لخلق طبقة من الصفوة من متعلمى السودان يعيشون من خير استغلال مياه الأنهار فيه للزراعة والعمران. أدت تلك السياسة وفى أكثر من مرة لصدام وتناقض وتضارب فى المصالح بين مصر والسودان. ساند البريطانيون فى نهاية الأمر السودانيين فى نضالهم (الابتدائي) من أجل حكم مستقل عن مصر، وحققوا إستراتيجيتهم التى كانت تهدف خلال سنوات حكمهم لحوض النيل "لجعل القوة التى تحكم السودان تحكم مصر أيضا وتجعلها تحت رحمتها، وعن طريق حكمها لمصر تتحكم (بالطبع) فى قناة السويس".

من بعض ما ورد عن آراء الجنرال غوردون عن الإسلام

ن. أ. دانيال N.A. Daniel

◇◇◇◇◇◇

هذا تلخيص موجز لبعض ما أورده ن. أ. دانيال عن بعض آراء الجنرال غوردون (والذى حكم السودان فى عهد التركية السابقة بين فبراير من عام ١٨٨٤ إلى يناير من عام ١٨٨٥م) عن الإسلام والمسلمين، وأيضا عن آراء بعض المسيحيين فى السودان وبريطانيا، وذلك فى مقال نشر فى مجلة "السودان فى مذكرات ومدونات" العدد لعام ١٩٦٦م. قارن الكاتب بين آراء الجنرال غوردون وآراء الأسقف قوين أول رئيس للكنيسة الإنجليزية فى السودان، وعلق على الاختلافات الفكرية بين الرجلين فى النظرة للإسلام والمسلمين. ولد الأسقف لويلن قوين فى ويلز ببريطانيا عام ١٨٦٣م وتوفى بها فى ١٩٥٧م. وبحسب ما هو مبذول فى الشبكة العنكبوتية فهنالك الآن كلية جامعية مسيحية فى مدينة جوبا بجنوب السودان اسمها "كلية الأسقف قوين".

اعتمد الكاتب فى مقاله على المقال الصغير (والرائع كما وصفه) للبروفيسور ر. ل. هيل والذى نشر فى مجلة جامعة درم فى عام ١٩٥٥م بعنوان "أدبيات غوردون The Gordon Literature".

ذكر الكاتب أن أهم ما يجب ذكره عن الجنرال غوردون هو أنه كان يشجع المسلمين فى السودان على ممارسة شعائر دينهم، بل وكان يقبل – من ناحية عقدية مسيحية بحتة – الإسلام كدين مخلص (يمكن أن ينقذ روح المرء). فى ذلك كتب الجنرال غوردون الآتى عن المسلمين فى ١٢/ ١٠/ ١٨٧٤م: "لقد شجعتهم على تشييد مسجد لهم، وعلى الصيام فى رمضانهم، وهو أمر لم يكن يلقون إليه بالا قبل مجيء للحكم". وكتب أيضا فى ١٧/ ٧/ ١٨٧٧م: "عندما استولى المصريون على هذه البلاد قاموا بمصادرة مبنى المسجد وتحويله إلى مخزن للذخيرة. قمت أنا بتنظيف المبنى وإعادته لسابق عهده كمكان للعبادة وأمرت برواتب للقساوسة (هكذا وردت فى النص الأصلي) والمؤذنين (سمى فى الأصل المؤذنين

بـ"الصياح"). كتب أيضا في يوم ١٨٨٤/٢/٢٢م : "اليوم هو يوم أحد المسلمين (لعله يقصد يوم الجمعة)... سآمر الجنود (السودانيين) بالصلاة بانتظام صباحا ومساء كما يفعل الجنود الأتراك. عندما يتعلق الأمر بالتضحية بالجسد فإن المسلمين يفوقون حتى الروم الكاثوليك (وبالطبع البروتستانت)". وكتب في مرة أخرى في يوم ١٨٨٤/١٢/١٢م يقول : "إنه لأمر مزعج جدًا أن تنادى خادمك لأمر ما فيخبروك دوما بأنه مشغول بتأدية الصلاة، فهذا ليس بعذر ولا يمكن قبوله طوال الوقت (إلا إذا كنت طبعا من المؤمنين بتلك الصلوات!)".

كان غوردون وهو محاصر في قصره يشاهد من بعيد جموع أعدائه الأنصار وهم يؤدون الصلاة فيهمهم ساخرا : "استعراض الكنيسة".

منذ نهاية القرن السابع عشر لم تكن هنالك أى قلة في أعداد الأوربيين الذين كانوا يكيلون الثناء على الإسلام، ولكن هؤلاء الناس كانوا في الغالب من المعادين للمسيحية أو على الأقل من المتشككين فيها من ضمن هؤلاء يمكن أن نعد كارلايل و استوبى وون وود ريد. وفي القرن الثالث عشر أعتبر وليام طرابلس وشارلس فوستر في القرن التاسع عشر أن اعتناق الإسلام هو "نصف الطريق إلى المسيحية". بيد أن غوردون (وهو المسيحى الشديد الإيمان) كان يؤمن أيضا بأن المسلم يمكنه أن يجد "الخلاص" في دينه. لا بد أن رأيه ذلك كان أكبر تنازل يمكن أن يقدمه أى مؤمن يدين بدين منزل. كتب غوردون في ١٧/ ٧/ ١٨٨٧م يقول: "يبدو لى أن الرجل المسلم يعبد الله مثلى تماما، وبطريقة مقبولة مثل طريقتى بالتأكيد، إن كان مخلصا مثل أى مسيحي". وفي ١١ من سبتمبر من عام ١٨٧٧م كتب يقول: "تتحدث عن الرجل المحمدى وكأنه على خطر عظيم. لا أعتقد ذلك. أؤمن بأن الرجل المسلم مسيحى جيد مثله مثل الكثير من المسيحيين وليس على أى خطر. كلنا نحن وثنيون بدرجات مختلفة ... أنا أحب الرجل المسلم. إنه لا يخجل من ربه.، وحياته بريئة نقية. بالتأكيد يسمح الرجل المسلم لنفسه بهامش واسع في مجال الزوجات، بيد أنه لا يحاول أبدا اصطياد نساء غيرهن. هل بمقدور رجالنا المسيحيين ادعاء ذلك؟: يصر غوردون على أن "رب المسلمين هو ربنا أيضا. أنهم يعبدون إلها واحدا (هو جاهوفا)". هنا يعلق الكاتب ن. أ. دانيال على مقولة غوردون

بأن هذا التحديد بالذات هو عادة ما يحذره المسيحيون. يضيف الكاتب أيضا أن غوردون كان يحكم على المسلمين بالمقاييس والمعايير الإسلامية، وليس بغيرها. لعل سبب كره غوردون للمهدى (والذى تنامى فى الخرطوم) هو شعوره بالتعاطف مع علماء الخرطوم (المعادين للمهدى وللمهدية). كان كثيرًا ما يردد أنه لا يمكن أن يعتمد فى الخرطوم إلا على العلماء. يزعم كاتب المقال أن غوردون كان يقصد بمقولته تلك أنه سيعتمد على مساندة "الإسلام التقليدي" ضد المهدية. كان الجنرال غوردون يؤمن بأن قبول المهدى هو بمثابة "إلحاد" بالتأكيد بالنسبة للمسلمين كما هو الحال بالنسبة للمسيحيين، وكانت قناعته تلك نابعة من "عقيدة" مشتركة، وكان يأسى كثيرًا على "التدهور" الذى حاق بالديانتين الإسلامية والمسيحية عند معتنقيها، ويأسف لأن المهدية لم تكن "متعصبة" فى الواقع.

أما بالنسبة إلى تجارة الرقيق، وعلى الرغم من معارضة غوردون لها وشكوكه القوية بشأن نوايا المصريين حيالها، فإنه لم يكن يلوم الإسلام كدين (Islam qua religion) بشأنها.

رغم ذلك فقد كان غوردون يحكم فى أمور الرقيق بالشرع الإسلامي. كتب فى ١٨٧٧/٧/٢٨م الآتي: "إن كانوا مسلمين فيجب إطلاق سراحهم، وإن كانوا رقيقا استعبدتهم القبائل المهزومة، فلا يلزم إعادتهم." كان غوردون يرفض – كغيره من كثير من الرجال "العصريين" – القيام بغزوات للحصول على رقيق أكثر من رفضه لمؤسسة الرق والتى سببته فى الأساس. يقول غوردون فى ذلك: " أفهمنى الآن. سأشترى عبيدا إن كان ذلك يلائمني. سأسمح للعبيد المقبوض عليهم بالعبور إلى مصر ولن أزعجهم، بل سأفعل ما يحلو لى وما يقدر الله برحمته لى أن أفعله بخصوص خدم منزلي. بيد أنى سأكسر عنق كل من يقوم بغارة لجلب العبيد ولو كلفنى ذلك حياتي. سأشترى عبيدا لأجندهم فى جيشي. ومن أجل هذه الغاية سأقوم بتجنيد هؤلاء رغما عنهم من أجل منع غزوات تجار الرقيق".

كان غوردون يؤيد المقارنة المألوفة بين مالكى الرقيق المسلمين ومالكى الرقيق من أصحاب المزارع فى غرب الهند، وكان يقر بأن معاملة المسلمين للرقيق كانت أرق من

الآخرين. لم يكن غوردون يلوم بوجه خاص العرب على قيامهم بغزوات لجلب الرقيق. كتب للمبشرين فى الخرطوم بتاريخ ١١/ ٨/ ١٨٧٨م: "هل تعلمون أن كل تجار الرقيق هؤلاء قد تعلموا على يد الرحالة والمغامرين الإنجليز والفرنسيين وغيرهم؟ العرب هنا فقط استغلوا هؤلاء القادة الأوربيين." يقول دانيال فى مقاله هذا: إن لغوردون عدة رسائل عميقة المعانى يبرئ فيها الإسلام من تلك التجارة، ويصف موقفه هذا بـ "المتسامح".

وفى مجال المقارنة بين آراء غوردون وآراء الأسقف قوين أول رئيس للكنيسة الإنجليزية فى مصر والسودان يقول الكاتب: إن الأخير أتى للسودان دون أى معرفة أو خبرة سابقة بالبلاد ودينها أو بالعالم الإسلامى عموما. أتى ذلك الأسقف للسودان حاملا أفكارا وآراءً وافتراضات أى رجل مسيحى بريطانى عادى فى تلك الأعوام، وكان كل ما يتوقعه من العمل فى البلاد هو تدريس الإنجيل للسودانيين. إن المفارقة والتناقض بين آراء الرجلين حيال الممارسات الإسلامية واضحة تماما. قال الأسقف قوين فى إحدى خطبه ذات يوم أحد من عام ١٩٠٥م: "إن الحديث عن أن حرمان المرء لنفسه يرفع قدره عند خالقه هو حديث خرافة. هذه هى روح رمضان ... شهر الصيام الإسلامي. رأينا نحن الذين عشنا ونعيش فى البلاد المحمدية كيف يقاسى الأطفال المسلمون من وطأة الجوع والعطش فى الأيام البالغة الحرارة أملا فى إرضاء الله... ونحن نعلم أن تلك ليست هى روح الصيام الحقيقي". ظلت تلك الفكرة تعشعش فى عقله، وبعد ست سنوات من ذلك قال الأسقف فى يوم ٢٦/ ٢/ ١٩١١م: "إذا حدث رجل نفسه وقال لها: "أنا بخير. لقد صمت كثيرًا وعذبت نفسى من أجل الجنة" فإنه سيكون فى مرتبة من التطور تماثل حالة مسلم يحرص على الصيام فى رمضان، أو رجل يرتدى قميصا من الشعر. ولكن إن قال الرجل لنفسه: "إن أكلى وشربى أمر ممتع (ولكنه) يسرع بمرور الدم فى جسدى حتى يتراكم فى دماغى ويجعله أكثر بطأ، وتضعف صلاتى وتفتقد الخشوع والحرارة اللازمة، وتنتابنى الأفكار الشيطانية... ولذا فسأقلل من المطعم والمشرب". حينئذ أقول لك: إن مثل ذلك الرجل يعمل من أجل إرضاء ربه فعلا".

قال الأسقف فى إحدى خطبه فى كاتدرائية الخرطوم فى ذات العام: "ماذا يمكن

للإسلام قوله فى فكرته عن الرب كعقل لا يمكن تغييره وعن كونه "عقالا حديديا" وعن أن الإنسان غير حر ... وعن ملذات الجنة الحسية التى تهوى بتطلعات المرء الروحية إلى درك سحيق؟" قال الأسقف فى القصر ذات مرة مؤكدا التفوق المسيحى على غيره من الديانات الإبراهيمية : "لا يتوقع من المحمدى (أو اليهودي) أن يرتقى روحيا لمستوى المسيحي".

كان الأسقف قوين، وخلافا للجنرال غوردون، شديد الإحساس والحساسية تجاه عداوة المسلمين. فقد قال فى إحدى خطبه: "إن التعصب والكراهية غير المسببة التى يكنها (المسلمون) ضد المسيحيين كبيرة جدًا – مثل عائق ضخم لا يمكن تجاوزه. إننى مندهش جدًا من أنه حتى عند رجل الشارع العادى تحس وترى المرارة والكراهية والاحتقار للمسيحيين". ومن ناحية أخرى كان الأسقف قوين يعارض وبشدة منع التبشير المسيحى فى أوساط المسلمين السودانيين. فقد كتب فى مذكراته ذات مرة فى عام ١٩٠٢م أنه كان عليه أن يحسم أمر خلاف نشب بين ثلاثة من صبيته الذين يخدمون فى منزله كان أحدهم (واسمه جوزيف) من الأحباش المسيحيين، وكان الآخران سودانيين مسلمين. قال: "أفهمت الصبيين المسلمين إننى أحبهما مثلما أحب جوزيف المسيحى تماما، بيد أنه إن لم يتوقفا عن اللجاج والشجار ويتعايشا سلميا معه فإننى سأضطر لطردهما من خدمتى إذ إن الحكومة لا تسمح لى بتدريسهما تعاليم المسيحية كما تسمح لى بتدريس ذلك الصبى الحبشي". وكتب فى اليوم الثانى لذلك: "لقد ضربت اليوم الصبى عزيز لمضايقته للحبشى جوزيف. لماذا يصعب على هؤلاء الأولاد فهمنا؟ إن طريقة عيشنا وتربيتنا ومفهومنا للصحيح والخطأ مختلفة جدًا مما يستلزم التحلى بالصبر. لكم كنت أتمنى أن أعلم هذين الولدين مبادئ التعاليم المسيحية وأن أبذر فى روحيهما بعض الحب والخير. كانت تلك ستكون هى الطريقة الوحيدة لإنقاذ روحى أولئك السودانيين التعساء. فليساعدهم الرب. إن الحكومة قصيرة النظر فعلا".

أما فيما يتعلق بتجارة الرقيق، فقد كان الأسقف قوين (خلافا للجنرال غوردون) يلقى باللوم كاملا على الإسلام. كتب الأسقف يقول: " ليس من المستغرب أن هذه القبائل الزنجية فى غرب– شرق أفريقيا (وفى أعالى النيل) لم تدخل فى الإسلام على الرغم

من عيش المسلمين بجوارها لأكثر من ٦٠٠ عام. إن السبب فى ذلك هو أن هذه القبائل ظلت تتعرض لغزوات متكررة من العرب. إن الكثيرين (مثل بيكر وغوردون واشفاينفورث وغيرهم) يشهدون بفظائع تجارة الرقيق. لقد كانت الخرطوم أكبر سوق للرقيق. إن النظرة الإسلامية القديمة من أن الله قد خلق الأسود ليصير عبده، وأن العربى أفضل من الزنجى قد بدأت فى الاضمحلال ببطء". فى الواقع كانت تلك الآراء أقل حدة من آراء بعض القساوسة المعاصرين للأسقف قوين. قال ذلك الأسقف ذات مرة: "إن قلاع الإسلام قوية وعميقة الجذور فى نفوس معتنقيه...." وقال أيضا: "لقد قال لى صديق من أصدقائى من الشيوخ المسلمين خلال دردشة ودية: " ولكنكم تريدون سلبنا ديننا". نفيت ذلك قطعيا فسارع بسؤالي: "إذن ماذا تريد؟" رددت عليه: "أريد فقط أن أمنحكم حياة روحية أكثر"... هذا ما تحتاجه كل الأديان". ليس من المعروف ما هو المقصود عمليا من مقولة الأسقف قوين تلك، بيد أنه من الواضح الآن أنه كان يقصد التسامح الثقافي. لقد كانت أفكار ذلك القسيس محدودة بحالة كونه من "المتصرين" ومحدودة أيضا بثقافته وتربيته وعمله وكذلك بما ورثه من تعصب وعدم تسامح مسيحى بقى من ضمن ما بقى من مخلفات الماضي.

خلص الكاتب إلى أن التناقض بين آراء الجنرال غوردون والأسقف قوين بين جلي. كانت آراء الأسقف قوين متسقة مع آراء معاصريه وزملائه وتتفق بالتأكيد مع التقاليد والأفكار المسيحية الراسخة (حينها) عن الإسلام، والمتأثرة بالعزلة الثقافية والتبرير الذاتى لغازى أجنبى قوى ومتصر. بيد أن أفكار الجنرال غوردون المتفهمة والمتسامحة عن الإسلام لم تكن مؤسسة على تقاليد سابقة وليس فيها أثر لشعور بتفوق ثقافى أو تعصب ديني، وكانت مصادمة ومتناقضة مع آراء القساوسة (والذين "قدسوه" فيما بعدا). ربما كان لذاتية غوردون المفرطة وشخصيته المتفردة أو لأسفاره المتعددة فى كثير من البلدان، أو لتمثيله لدولة مسلمة أثر فى بعض أفكاره وآرائه عن الإسلام، بيد أنه لا يصح أن نقول: إن ذلك كان هو سبب تبنيه لتلك الأفكار، فقد كان معارضا دوما لكثير من سياسات الحكومة (المسلمة) التى كان يمثلها.

إدارة السـودان فى عـام ١٩٣٧م

The Administration of the Sudan in 1937

أى إن كـوربن E. N. Corbyn

◇◇◇◇◇◇

هذه ترجمة موجزة لمقال نشر فى مجلة الجمعية الإفريقية الملكية (التى تصدرها دار نشر جامعة أكسفورد) فى عددها رقم ٣٨ الصادر فى عام ١٩٣٩م، وهو يستعرض أهم ملامح التقرير السنوى الخامس للسير / ستيوارت سايمس الحاكم العام للسودان فى تلكم السنوات (١٩٣٦ – ١٩٣٧م).

كان أهم حدثين وقعا فى السودان عام ١٩٣٦م هما التوقيع على الاتفاقية بين بريطانيا ومصر (والمسماة رسميا بـ "الاتفاقية البريطانية - المصرية للصداقة والتحالف)، وكذلك الشكل الذى اتخذته العلاقة بين السودان ومصر وبريطانيا من جهة، وإيطاليا من جهة أخرى. ولقد توج ذلك كله فى إبريل من عام ١٩٣٨م بتوقيع اتفاقية بين بريطانيا وإيطاليا، حول ما سمى وقتها "الأجزاء التى تهم مصر".

ففى ما يتعلق بالاتفاقية بين بريطانيا ومصر فقد جاء تقرير الحاكم العام فى عام ١٩٣٦م مرحبا بها باعتبار أنها "ضمنت مصالح السودان، ومهدت لتعاون اقتصادى أوثق بين دولتى وادى النيل وبريطانيا لما فيه مصلحة الدولتين أى مصر والسودان"، إلا أن الكاتب لم يغفل ذكر أن كثيرًا من المحافظين والذين تختزن ذاكرتهم الخرافات المتأصلة لم يعجبهم كثيرًا مما جاء فى تلك الاتفاقية المبتكرة، إلا بعد أن يروا رأى العين ثمارها أمامهم حاضرة وملموسة.

وحول تنفيذ الاتفاقية يقول تقرير الحاكم العام: "وفى ديسمبر وصل للخرطوم عدد من الجنود المصريين والذين وضعوا تحت تصرفى للدفاع عن السودان بموجب اتفاقية الصداقة والتحالف البريطانية – المصرية. وكان أولئك الجنود يمثلون الكتيبة السابعة فى الجيش المصري، وقمت بتوزيعهم على مدينتى الخرطوم وبورتسودان".

جاء إنشاء خزان جبل الأولياء على النيل الأبيض فى نهاية عام ١٩٣٧م، وعلى بعد أميال قليلة من الخرطوم، كدليل عملى على الفائدة المادية التى جنتها مصر من علاقتها الحسنة بالسودان.

لقد شهد كاتب هذا المقال عندما كان مديرا للمديرية التى يقع فيها هذا الخزان يوم الاحتفال ببدء العمل فى إنشائه فى عام ١٩١٩م. إلا أن العمل فى إنشاء الخزان توقف أحيانا بسبب عدم الثقة والشك بين الطرفين. وتجنى الآن مصر ثمار تعاونها مع بريطانيا بزيادة ثروتها ورفاهيتها وضمان أمنها (المائي) بهذا الخزان الذى يقيها شر نزوات النيل.

ولعله من حسن الطالع أن صادف عام ١٩٣٧م عيد جلوس ملكى الدولتين البريطانية والمصرية. فقد أعقب تتويج الملك جورج السادس والملكة إليزابيث الاحتفال بتولى الملك فاروق لعرش مصر فى يوليو من عام ١٩٣٧م.

وعلى الرغم من أن حدود السودان تمتد مئات الأميال إلا أن الغزو الإيطالى للحبشة لم يترك أثرا ضارا على السودان. وفى أواخر عام ١٩٣٥م وبدايات عام ١٩٣٦م قمنا بزيادة القوات المرابطة فى المناطق الإستراتيجية التى قد يهاجمها الأعداء، إلا أنه وبنهاية عام ١٩٣٦م لم يعد ذلك ضروريا. وأعقب تقهقر المقاومة الإثيوبية أمام تقدم القوات الإيطالية نجاح الإيطاليين فى احتلال نقطة بعد أخرى على الحدود، بل وأفلحوا فى الاستيلاء على نقطة مقابلة لمديرية كسلا فى مارس وإبريل. ونتج عن سقوط نقطة أمام منطقة الفونج عقب هزيمة الحكومة الإثيوبية قيام نزاعات متعددة بين زعماء القبائل فى مناطق الحدود تلك. وما أن انصرم عام ١٩٣٦م حتى كانت كل مناطق الحدود فى قبضة الجيش الإيطالي، والتى وصلت منطقة "قامبيلا" المقابلة لمديرية أعالى النيل وذلك فى السابع عشر من ديسمبر. وساد الغموض الموقف (العسكري) فى مناطق جنوب غرب الحبشة مما استلزم إرسال فرقتين من جنود قوة دفاع السودان فى الاستوائية إلى هضبة بوما وذلك فى شهر يوليو، وبقيت تلك القوات هنالك حتى ديسمبر من ذات العام وبعدها سحبت إحداها.

لم يشر تقرير الحاكم العام فى ١٩٣٧م للحدود إلا فى فقرة واحدة من ثلاثة سطور فقط، مما يدلل على أن الأحوال عند حدود البلاد مع إيطاليا (مثلها مثل الحدود مع بلجيكا

وفرنسا) كانت هادئة مستقرة.

لقد أدت عملية إعادة تنظيم السودان إداريا ودخول السيارات والطائرات للبلاد إلى تقسيم السودان إلى ثماني مديريات، وهى المديرية الشمالية وتمتد من الحدود مع مصر إلى قرب مدينة الخرطوم، ومديرية كسلا، وهى تشمل كل مناطق شرق السودان حتى البحر الأحمر، ومديرية الخرطوم، وهى المديرية الصغرى حجما ولكن بها العاصمة والحكومة المركزية، ومديرية النيل الأزرق فى قلب البلاد بين النيلين الأبيض والأزرق، وتضم الآن أيضا ما كان يعرف بمديرية النيل الأبيض ومديرية كردفان فى منطقة الغرب الأوسط، ومديرية دارفور فى أقصى الغرب. هنالك أيضا مديريتين تسكنها القبائل الزنجية هما أعالى النيل فى وسط الجنوب والاستوائية فى أقصى الجنوب.

و ظل الناس يتحدثون عن إعادة تنظيم المديريات منذ زمن طويل، وفى النهاية ترك الأمر لهذا الحاكم العام ليحسمه.

وفى شأن العلاقات مع الدول الأخرى جاء فى التقرير أن دخول الطيران قد جعل الوصول لكل مناطق السودان ممكنا، على الأقل بمجرد النظر من عل، إن لم يكن بالزيارة الفعلية على الأرض. وبلغت عدد المرات التى حطت فيها طائرات فى وادى حلفا فى عام ١٩٣٧م ما يفوق الألف مرة، وكانت عدد تلك المرات فى ١٩٣٦م ٨٢٥ مرة.

وأنشئت فى يوليو من عام ١٩٣٧م شركة الخطوط الملكية لتوزيع البريد كانت تصل بخدماتها حتى جوبا (والتى حولت لملكال عاصمة مديرية أعالى النيل فيما بعد لخطورة الهبوط فى جوبا). وقامت الخطوط الإيطالية المعروفة باسم ليتوريا Littoria بزيادة عدد رحلاتها الأسبوعية بين روما وأديس ابابا (عن طريق السودان) إلى أربع رحلات.

للسودانيين عادة "سعيدة" هى نسبة الرفاه الذى ينعمون به إلى ما حباه الله سبحانه وتعالى لحكومتهم من خير وبركة، فتراهم يرددون أمام حكامهم أن "الله را ضى عليكم". ولا غرو، فقد عادت الأمطار للهطول فى السودان فى عام ١٩٣٤م (بعد طول جفاف)، وفاض النيل كذلك، ولازم "الحظ السعيد" الحكومة! وكان تأثير ذلك الحظ السعيد تراكميا. فقد جاء فى تقرير الحاكم العام سنة ١٩٣٦م أن ذلك العام كان عاما للرفاة والنماء، ثم تلى ذلك فى تقريره لعام ١٩٣٧م أن حالة السودان الاقتصادية جيدة

جدا. لم يكن هنالك جانب من جوانب الحياة فى القطاعين العام والخاص لم يحدث فيه تقدم ملحوظ، وفى بعض الحالات تقدم باهر.

جاء فى ذلك التقرير: "لقد ظهر الرخاء فى البلاد وكثر النقد المتداول فى أيدى الناس، وازداد معدل استهلاك السكر، وكثرت البنايات فى الخرطوم وأم درمان والمدن الكبيرة الأخرى، وارتفعت معدلات الادخار فى المصارف وازدادت كذلك أعداد المسافرين فى مناطق البلاد المختلفة مما شكل عبئا ثقيلا على طاقة النقل بالسكة الحديد..."

وارتفعت قيمة تجارة البلاد الخارجية من ١٠,٥ مليون جنيه سودانى فى عام ١٩٣٥م إلى ١١,٧٥ مليونا فى العام الذى تلاه، وارتفعت كثيرًا فى عام ١٩٣٧م إلى ما يقارب ١٥ مليون جنيه سوداني. وبلغت الزيادة فى قيمة الصادرات مليونا من الجنيهات فى ١٩٣٦م، و ٢,٥ مليون فى ١٩٣٧م .

وقد كان نصيب بريطانيا من صادرات السودان يعادل ٤٣,١٪، ونصيبها من وارداتها ٢٤,٢٪.، بينما كانت صادرات السودان لمصر واليابان تعادل ١٩,٣٪ و١٨,٩٪ على التوالى من جملة صادراته، ومثلت وارداته منهما ٨,٥٪ و٣,٦٪ على التوالى من جملة وارداته.

وكانت تلك الأعوام أعوام رخاء غير مسبوق، ولا عجب، إذ إن دخل البلاد قد فاق ما كان متوقعا بنحو ١٣٦٠٩٧٥ جنيها سودانيا نتيجة لزيادة مبيعات قطن الجزيرة. وبما أن أسعار القطن فى الأسواق العالمية كانت تأرجح بين صعود وهبوط، فقد قامت الحكومة وبحكمة كبيرة بتخصيص حساب خاص سمته حساب تسوية القطن Cotton equalization accountوتوضع فى هذا الحساب الأموال الفائضة من بيع القطن فى السنوات السمان، ويستفاد من تلك الأموال فى السنوات العجاف، عندما يكسد سوق القطن. وبهذا فإن حساب تسوية القطن قد يعد مؤشرا لحال الوضع الاقتصادى بالبلاد، والذى يعتمد بصورة شبه كاملة على إنتاج مشروع الجزيرة من القطن.

وقد كان لاستخدام نتائج الأبحاث الزراعية أثر كبير فى زيادة إنتاج الفدان الواحد من القطن. إذ بلغ إنتاج الفدان الواحد ١,٩٢ قنطارا من القطن فى موسم ١٩٣٢–١٩٣٣م، وبفضل اكتشاف نوع بذرة قطن محسنة (سموها ١٥٣٠ X) فى الأبحاث الزراعية

بمشروع الجزيرة ارتفع إنتاج القنطار إلى ٤,٦ قنطارات فى موسم ١٩٣٥ – ١٩٣٦م، ووصل فى بعض المناطق إلى ٥,٤ قنطارا للفدان الواحد (لمزيد من المعلومات يمكن الاطلاع على مقال للدكتور سليمان محمد أحمد سليمان بعنوان "أضواء على مشروع الجزيرة" مبذول فى الشبكة العنكبوتية. المترجم).

وصاحب استغلال العلم فى خدمة المشاريع الزراعية التنموية فى تلك السنوات جهود من الحكومة للنهوض بالتعليم التقنى والفنى بالبلاد.

ففى عام ١٩٣٧م صادف أن كان هنالك وفد بريطانى من خبراء فى التعليم مشهود لهم بالعلم والخبرة والكفاءة فى زيارة لأوغندا لتقييم التعليم فى شرق أفريقيا . فطلبت حكومة السودان من أعضاء ذلك الوفد أن يعرجوا على السودان لدراسة أوضاع التعليم فى السودان ومستقبله. فاقترح أولئك الخبراء رفع كلية غردون التذكارية إلى "جامعة السودان" تقام فيها كليات علمية مثل كلية الطب والطب البيطرى والزراعة. واختير – ولأول مرة بالسودان – فى عام ١٩٣٨م ستة طلاب لدراسة الطب وثلاثة طلاب للدراسة فى كليتى الزراعة والطب البيطري. وتقرر أيضا فتح كلية للهندسة فى عام ١٩٣٩م، وبدأت منذ عام ١٩٣٧م كلية القانون فى قبول الطلاب.

وأنشئت كذلك مدرسة للشرطة تخرج فيها أربعة من بين ستة كانوا قد التحقوا بها، وتم تعيينهم كمساعدى مآمير. وتم تعيين عدد من السودانيين للعمل ضباطا الجيش فى قوة دفاع السودان. وبهذا فقد ساد الارتياح أوساط السودانيين بأن لهم فرصا فى التوظيف والعمل فى الوظائف العسكرية والمدنية بالبلاد.

وفى عام ١٩٣٧م تم تعيين ٤١٤ سودانيا فى وظائف كتابية.، وبذا ارتفع عدد الكتبة السودانيين إلى نحو ٦٣٪ ممن يعملون فى الخدمة المدنية بالبلاد، وكانت تلك النسبة تبلغ نحو ٣٧٪ فى عام ١٩٢٠م.

وقد ذيل الحاكم العام تقريره بسرد تاريخى (ومن زاوية شخصية) لما مر بالسودان من أحداث منذ حرب أم درمان فى يوم ٢/ ٩/ ١٨٩٨م، والتى دخل السودان بعدها فى "مدار الحضارة". وحتى يوم كتابة التقرير فى مايو من عام ١٩٣٨م (أى بعد مرور أربعين عاما من بدء الحكم الثنائي).

يقول الحاكم العام: إن ما تم إنجازه فى تلك السنوات يبعث على الفخر "المشروع" بأهل البلاد من السودانيين، وكذلك بالذين قدموا لمساعدتهم، والذين قاموا أولا بإحلال النظام محل الفوضى، ثم من بعد ذلك قاموا بإرشاد المواطنين ومساعدتهم فى التقدم والتطور بخطوات متئدة ومحسوبة.

ويقف الآن فى صفوف بناة السودان الحديث ثلة من أبنائه من القادة الدينيين (هكذا! المترجم) وزعماء القبائل، والجنود الشجعان ورجال الشرطة، و آخرين كثر.

التنمية الاجتماعية فى مشروع الجزيرة فى العهد الاستعماري

سي. دبليو. بير

◇◇◇◇◇◇

هذا عرض وتلخيص لمقال كتبه السيد/ سى دبليو بير المفتش البريطانى للتنمية الاجتماعية بمشروع الجزيرة فى خمسينيات القرن الماضي، ونشر بالمجلة البريطانية "الشؤون الإفريقية" فى عددها رقم ٥٤ الصادر فى عام ١٩٥٥م. وكان هذا المقال فى الأصل خطابا ألقاه السيد / بير فى اجتماع مشترك للجمعية الإفريقية الملكية مع جمعية المستعمرات الملكية بلندن فى ٢٢/ ٧/ ١٩٥٥م.

فى بداية خطابه شكر المتحدث أعضاء الجمعيتين وذكر – ربما من باب التواضع – أنه يشعر بقلة الثقة فى قدرته على الحديث عن مشروع الجزيرة إذ إن من بين الحضور السيد/ آرثر قيتستاسكل وهو مدير سابق للمشروع، وخبير بتاريخه، وهو من أسس برنامج الخدمات الاجتماعية فيه فى ١٩٥١م (وفى عام ١٩٥٩م نشر السيد / قيتستاسكل كتابا كاملا عن مشروع الجزيرة وتاريخه. المترجم).

وقبل الدخول فى تفاصيل برنامج التنمية الاجتماعية فى مشروع الجزيرة، وعن المشاكل الاجتماعية التى نشأت بسبب تأثير التغيرات الاقتصادية التى أحدثها المشروع فى تلك البقعة الصغيرة من أفريقيا ، قدم المتحدث وصفا مبسطا عن المشروع فقال: إنه مشروع زراعى أقيم فى شبه جزيرة تقع جنوب الخرطوم بين النيلين الأبيض والأزرق، يروى بمياه النيل الأزرق التى يحجزها سد سنار. ويزرع فى هذا المشروع القطن محصولا رئيسيا، وتزرع فيه بالتناوب فى أربع دورات متعاقبة محاصيل الدخن واللوبيا، والتى تستخدم فى طعام البشر والحيوانات المزرعية أيضا.

وتغطى قنوات الرى الممتدة مساحة يبلغ طولها ١٢٠ ميلا وعرضها ٣٠ ميلا، ويقطنها نحو نصف مليون فردا موزعين على قرى متفرقة يتراوح عدد سكانها بين عشرات الأشخاص إلى نحو ٥٠٠٠ فرد ، وعلى طرفها الشرقى تقع مدينة واد مدنى والتى يبلغ عدد سكانها نحو ٦٥٠٠٠ نسمة، وبها رئاسة المديرية، وتعد النقطة المحورية

للمشروع، رغم أن رئاسته تقع فى منطقة صغيرة تبعد نحو ٨ أميال عن واد مدني. وتقع مساحة مشروع الجزيرة ضمن المسؤولية الإدارية والمالية لخمس مجالس بلدية، وتقسم المنطقة المروية إداريا إلى منطقتين ضمن مديرية النيل الأزرق.

يفخر السودان بمشروع الجزيرة، والذى أكسبه اهتماما عالميا مقدرا. ولا غرو، فهو المشروع الاقتصادى الأول الذى يعتمد عليه السودان اعتمادا شبه كامل كمصدر للدخل. ففى عامه الأول (١٩٢٥ - ١٩٢٦م) جلب تصدير القطن للسودان دخلا صافيا تجاوز ٢,٣ مليون جنيه (وبلغت مساحة الأرض المزروعة فى ذلك العام ٨٠ ألف فدان)، وتصاعدت أرباح الإنتاج من بعد ذلك حتى بلغت فى موسم ١٩٥٠ - ١٩٥١م نحو ٥٠ مليون جنيها (من زراعة ٢٠٧ ألف فدان)، وكان نصيب المزارعين (وعددهم ٢٤٧٩٤) من تلك الأرباح مبلغا تجاوز ١٨ مليون جنيه. وهنا يجب ذكر سنوات الثلاثينيات الباكرة التى مرت بالمشروع (وبالعالم بأسره)، فقد بلغ نصيب المزارعين (وكان عددهم ١٩٦٠٢ مزارع) فى تلك السنوات نحو ١٥٧٠٠٠ جنيه فقط. ولقد ظل المزارعون من بعد تلك السنوات العجاف يتقاضون مبالغ مالية ضئيلة نسبيا، إلا أن معيشتهم (خارج إطار المشروع) كانت مؤمنة، فللمشروع كان يضمن لهم (ولبقية المواطنين فى أرجاء السودان المختلفة) فى أعوام ربع القرن الماضى الصحة والتعليم ومشاريع حكومية صغيرة تدر عليهم دخلا معقولا.

كان لنشوء الظروف الملائمة لتطور الخدمات الاجتماعية فى مجتمع مشروع الجزيرة المستقر سببان يتعلق الأول منهما بملكية الأرض والتحكم فيها. فقد نظم قانون تسوية الأراضى وتسجليها أمر ملكية أرض مشروع الجزيرة، وقامت الحكومة بإصدار قانون فى بدايات القرن العشرين ينظم ويحسم عملية تأجير الأرض بغرض الصالح العام لأربعين عاما، وظلت الحكومة تدفع سنويا لملاك الأرض الأصليين عشر (١/ ١٠) ثمن الأرض (بسعر السوق السائد) إيجارا. وبذا أزيلت - وبضربة واحدة- أول عقبة اعترضت سبيل قيام المشروع كان من الممكن أن تعرقل قيامه بسبب الجشع وما أسماه الكاتب بحب التملك العقارى (Land lordism)، ثم قامت الحكومة وعن طريق شركات امتياز (concessionaire companies) بتخصيص وتقسيم الأراضى على المزارعين،

وأعطيت الأولوية لملاك الأراضى وأقربائهم، وذلك تحفيزا وتشجيعا لهم على العمل فى "أرضهم"، ولإزالة أو تخفيف مشاعر الضيم عندهم لقسرهم على تأجيرها للحكومة. ومع مرور السنوات ابتاعت الحكومة بسعر السوق الكثير من الأراضى من المزارعين حتى غدت تمتلك الآن (أى عام ١٩٥٥م) نحو ثلث مساحة المشروع. وقامت الحكومة كذلك بإصدار تشريعات لمنع تفتيت مساحات الأراضى بتوزيعها للوراث، وضمان شراء الحكومة للأرض عند وفاة مالكها الأصلي.

كان ذلك هو السبب الأول فى نشوء الظروف الملائمة لتطور الخدمات الاجتماعية فى مجتمع مشروع الجزيرة. أما السبب الثانى فقد كان يتمثل فى أن الأرباح التى كانت تجنى من زراعة القطن كانت تقسم مناصفة بين الحكومة (والتى كانت تنال ٤٠ ٪ من تلك الأرباح لأنها قامت بتشييد البنيات الأساس للمشروع من قنوات رى وغير ذلك) والمزارعين (والذين كانوا يحصلون على ٤٠ ٪ أيضا)، بينما تحصل إدارة المشروع على ٢٠٪ من الأرباح. وكانت إدارة المشروع فى الماضى (والتى كانت تسمى "مزرعة السودان التعاونية Sudan Plantation Syndicate " و"شركة أقطان كسلا") مسؤولة عن التخطيط الزراعى والإشراف، وعمليات حلج القطن وتسويقه لمدة ٢٥ عاما خلت. وتم من بعد ذلك نقل مسؤولية إدارة المشروع لمجلس إدارة مشروع الجزيرة فى عام ١٩٥٠م.

من العسير جدًا على من لم ير أرضا قفرا كالجزيرة تغدو مخضرة بفعل علوم الرى والهندسة والزراعة أن يتصور المدى الذى تغيرت به الحياة الاجتماعية لآلاف من سكان تلك الأرض بسبب قيام مشروع كمشروع الجزيرة. ولفهم المشاكل الاجتماعية التى نجمت عن قيام المشروع يجب أن نرسم صورة ذهنية لما كان عليه الحال قبل وبعد قيام المشروع.

لقد أتى سكان تلك المنطقة من قديم مهاجرين من شبه الجزيرة العربية، وظلوا شبه بدو (رحل) وعاشوا مستقرين فى قرى صغيرة فى الأراضى التى أقيم عليها الآن مشروع الجزيرة، وظل بعضهم يزرع الدخن (الطعام الأساس للسكان) فى سهولها ويسقون محصولهم الوحيد بمياه سدود أرضية تحجز الأمطار الموسمية وغير المنتظمة والتى تهطل

بين شهرى يوليو وأكتوبر وتتراوح معدلاتها بين ١٠ إلى ٢٦ بوصة سنويا. وكان السكان يضمنون محصولا معقولا من الدخن ٣ مرات فقط من بين كل ٥ مواسم للأمطار. وفى الشتاء يرحل الرجال جنوبا بحثا عن الماء والكلأ، بينما يعيش من يبقى من السكان فى بؤس وسغب بين شهرى نوفمبر إلى يونيو، ويحصلون على الماء بعد جهد جهيد من آبار يبلغ عمقها ١٢٠ قدما تكفى بالكاد لرى السكان ومعزهم القليلة، والتى لا تجد لها من مرعى غير أوراق أشجار شوكية صغيرة هزيلة تبقيها على قيد الحياة.

وكانت مساكن الذين يقطنون تلك القفار عبارة عن "قطاطي" من الطين معروشة بالقش، وكان معظم الرجال يتجولون فى المنطقة على ظهور الحمير أو على أرجلهم، عدا القليل من ذوى الحيثية منهم، والذين كانوا يركبون الخيول. ولم تكن تشاهد السيارات فى المنطقة إلا لماما. وكان الناس هنالك لا يقدمون لضيوفهم سوى الماء المحلى بالسكر فى "قرع"، إذ إن الشاى والقهوة كانت من المواد الكمالية العزيزة المنال، وكان تناول اللحم أمرا نادر الحدوث، وقد يتناوله القادرون مرة أو مرتين كل شهر إن وجدوا لذلك سبيلا.

وبعد مرور ربع قرن من زراعة القطن فى المشروع تبدل الحال بصورة كاملة، فصارت سبعة أقدام من المياه تتدفق على الأرض فترويها على مدى تسعة أشهر متصلة كل عام، تجرى خلال ٣٥٠٠ ميل من الأنابيب، مع عشرات الآلاف من القنوات الفرعية التى توفر المياه مجانا ودون عناء للإنسان والحيوان.

وزرعت حوالى ١٢٥٠٠٠ فدان بالحبوب، و٥٠٠٠٠ فدان أخرى بالأعلاف الحيوانية والمحاصيل النباتية.

ويعيش من / على خير هذا المشروع نحو ٢٩٠٠٠ مزارع يعول كل منهم فى المتوسط ٧ إلى ١٠ أشخاص (ويزعم بعضهم أنهم يعولون حتى عشرين فردا!)، ويحصلون على دخل نقدى يعادل ما يناله أى فلاح فى أى منطقة أخرى فى العالم.فعلى سبيل المثال حصل مزارع مشروع الجزيرة فى موسم ١٩٥٠ – ١٩٥١م (بعد خصم كل ما عليه من التزامات وديون) على حوالى ٨٠٠ جنيه نقدا.

ولكن تناقص هذا المبلغ فى السنوات الأخيرة، إلا أن متوسط ما كان يناله المزارع ظل يعد بمئات الجنيهات، بالإضافة بالطبع إلى ما يناله من دخل إضافى من نشاطه الاقتصادى

فى غير أرض المشروع. وصار كثير من المزارعين يركبون الحافلات وعربات الأجرة (عوضا عن الدواب)، ويرتدون مفتخر الثياب القطنية، ويأكلون اللحم بصورة شبه يومية، ويشربون الشاى والقهوة والعصير فى أكواب من الصينى الملون والقوارير الزجاجية، والتى تقدم على صوانٍ معدنية. وتبدلت كذلك البيوت وحلت الدور ذات الغرف المربعة والأبواب والنوافذ المبنية بالطوب والأسمنت محل العشش والقطاطى المسقوفة باليابس من النباتات. وشيدت فى القرى كذلك المدارس الصغرى والمساجد والأندية. وعلى وجه العموم ارتفع مستوى المعيشة فى المنطقة بفعل قيام المشروع ارتفاعا كبيرا.

ولكن لا يجب إغفال أن ذلك التغير الاقتصادى قد جلب معه أيضا الكثير من المشاكل الاجتماعية. فبسبب إنشاء المشروع قلت قسوة الحياة وخشونتها وبؤسها، واختفى تقريبا القلق والخوف من هم الحصول على الطعام، وكثر النقد فى الجيوب، فصار كل فرد تقريبا قادرا على شراء احتياجاته العادية، بل واقتنى بعضهم المبردات (الثلاجات) والسيارات، وانتشرت الخدمات التعليمية والصحية فى مناطق الجزيرة. غير أن هذا التطور السريع أجبر السكان من المزارعين على التكيف مع نظم طرق الزراعة الجديدة ومواقيتها المحددة بدقة شديدة، فبعض العمليات الزراعية كانت تتطلب الأداء فى ساعات وأيام محددة وفق تقويم بشرى دقيق يخالف ما ألفه السكان قبل إنشاء المشروع من اعتماد على متغيرات الطبيعة والمواسم من أمطار ورياح.

وكذلك تعين على المزارعين التعود على السيطرة على حيواناتهم وحركتها فى داخل أراضى المشروع المزروعة قطنا ومحاصيل أخرى. وتغيرت حياة المزارع فصارت تنظم بعوامل كثيرة لا سيطرة له عليها. وبالطبع كان كل مزارع يرى بأم عينيه الفوائد والمزايا التى يجنيها من اتباعه لتلك القيود والنظم والقوانين. ولم يلحظ أى أثر لإجهاد أو ضغوط نفسية عند المزارعين فى سنوات المشروع الباكرة. ولكن مع مرور السنوات تبين أنه من الضرورى القيام بخطوات إيجابية لمساعدة المجتمع كله على التأقلم على حياة جديدة بالكلية.

وقد تشابهت المشاكل الاجتماعية التى حدثت فى مشروع الجزيرة مع تلك التى وقعت

فى مناطق كثيرة فى أفريقيا حيثما أنشأت مشروعات تنموية اقتصادية، حيث صاحب قيام تلك المشروعات تفتيت البنية الاقتصادية والاجتماعية التقليدية بسرعة تفوق القدرة على التأقلم والاستيعاب. وصار من اللازم إعادة تنظيم نشاطات أعداد كبيرة من الناس، وتأهيلهم للتأقلم على نمط عمل وحياة مختلفة، وكذلك مساعدة مجتمعات العالم النامى على التأقلم بالسرعة المعقولة على التغيرات العميقة والمتسارعة وذلك بكل الطرق الممكنة.

إن محاولة المساعدة فى التأقلم وإعادة التأهيل هى أساس تخطيط التنمية الاجتماعية، وهى تتخذ أشكالًا وصورًا مختلفة، إذ ليس هنالك من حلول جاهزة أو وصفات سحرية، وقد تكون تلك الحلول مكلفة جدًا كما عبر عنها بروفيسور فرانكل بقوله: "ليس هناك وقت للتطور البطيء المطلوب من أجل حصول التكامل المستقر فى بنية اقتصادية واجتماعية متكاملة".

إن طبيعة العملية الزراعية فى مشروع الجزيرة لا تتيح للمزارع حرية واسعة فى عمله، ولا تسمح له الإدارة بابتداع طرق ووسائل جديدة أو اختيار مواد ومعينات زراعته، فهو ملزم بالسقيا ونثر البذور وإزالة الحشائش والحرث وجنى المحصول فى أوقات محددة ووفق ما يقرره المفتشون الزراعيون دون نقاش أو مشورة ... أى أن كل شيء معد سلفا له، وما عليه إلا أن ينتج القطن كما يراد له أن يفعل. وفى الوقت ذاته فهو مواطن تجوس فى صدره مشاعر الوطنية، فهو –كغيره من السودانيين– له تطلعات قومية، ويأمل فى أن يرى تحقيق تغيرات دستورية وتطورات فى الحكم المحلى وفى خِدمات الإذاعة والصحافة وفى توسيع دائرة التعليم لأبنائه وأقربائه، فكل هذا له بالغ الأثر فى حياته. ويزعجه أن يظل حبيس النظم والقوانين والإجراءات الزراعية الصارمة التى تفرضها عليه إدارة المشروع، فهو لا يفهم فى أمور التقلبات العالمية فى أسعار القطن وقوانين العرض والطلب، ولكنه يرغب فى معرفة لماذا يحدث ما يحدث أمام ناظريه وكيف تسير الأمور فى عالم اقتصاديات المحصول الذى ينتجه.

وعندما تم تأميم المشروع فى عام ١٩٥٠م جرى تعديل قانون مشروع الجزيرة للتعامل مع تلك المشاكل الاجتماعية، وقامت إدارة المشروع بمحاولة لتوسيع مشاركة

المزارعين فى أعمال المشروع المختلفة وبتعليمهم عادات عملية وحياتية جديدة، وبشرح أوليات تنظيم الأعمال الاقتصادية والتجارية المعقدة. وأنشأ المشروع مجالس محلية فى القرى لإدارة شؤون المزارعين فى مختلف نواحى الحياة.

وقد كانت إحدى أهم أعمال الإدارة الجديدة للمشروع بعد عام ١٩٥٠م تخصيص ٢٪ من أرباح المشروع لبرنامج التنمية الاجتماعية (وكانت ميزانية هذا البرنامج تتراوح بين ٦٠ - ٢٥٠ ألف جنيه فى السنوات اللاحقة). وتم تعيين مجلس محلى من ٢٦ فردا (على رأسه حاكم المديرية، الذى هو - وبحكم وظيفته - رئيس مجلس إدارة مشروع الجزيرة، وبه ١٠ من ممثلى المزارعين) للصرف من هذه الميزانية على التنمية الاجتماعية بحسب ما توصى به لجنة التنمية الاجتماعية بالمشروع، والتى يترأسها رجل سودانى مؤهل.

وقد قسمت الأعمال الاجتماعية بالمشروع إلى أربع أنواع تتعلق بالتعليم والصحة والزراعة والبحوث والتجارب. ففى موسم ١٩٥٣ - ١٩٥٤م مثلا خصص لهذه الأعمال الاجتماعية مبلغ ٢٧٢٤٢١ جنيهًا صرفت على المبانى والإسكان والمناشط الرياضية والنقليات والمدارس وبرامج محو الأمية وإنشاء مشتل ومزارع تعليمية للشباب وغير ذلك.

وكان طلب إنشاء وصيانة المدارس كبيرا جدا، وبمنطقة الجزيرة اليوم، والتى يبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة نحو ١٢٠ مدرسة مختلفة يدرس بها ١٦٦٠٢ طالب. وهذا يعنى أن بالجزيرة نحو ٧٪ من مدارس السودان كافة، و١٠٪ من أعداد كافة طلاب البلاد. وكثيرا ما يتكفل الأهالى فى بعض القرى ببناء مدرسة صغرى بقريتهم ، ثم يطالبون بترقيتها لمدرسة أولية كاملة.

ومما يجب ذكره أن برنامج التنمية الاجتماعى قد ساهم فى ابتعاث بعض المزارعين فى زيارات تعليمية وتثقيفية لمصر وبريطانيا والهند والباكستان للوقوف على ممارسات وتجارب المزارعين فى تلك البلدان ولتبادل الخبرات معهم (لو حدث هذا فى زماننا هذا ربما سافر المدير ونوابه وتركوا المزارعين من خلفهم! المترجم). وأصدر البرنامج أيضا صحيفة عربية (غير سياسية) يرأس تحريرها صحفى مستقل تُعنى أساسا بأخبار المشروع والأعمال الاجتماعية به، ويكتب فيها أحيانا بعض المزارعين منتقدين لإدارة المشروع

ولإدارة البرنامج الاجتماعى به!

ولبرنامج التنمية الاجتماعية خطة عشرية لزراعة أشجار الأخشاب للحصول على الوقود ولأغراض البناء، وأقيمت لهذا الغرض مزرعة مساحتها ٥٠٠٠ آلاف من الفدادين على أرض قليلة الخصوبة لم تعد تستخدم لزراعة القطن.

ويقوم برنامج التنمية الاجتماعية بأبحاث (ليس لها علاقة بالأمور الزراعية الفنية التى تتولاها الأبحاث الزراعية) مثل البحث الميدانى الذى يتناول أمور التنمية الريفية والزراعة فى القرى، وتدريب الشباب، و بحث آخر عن المواد المحلية المستخدمة فى البناء، وبحث عن التعليم غير النظامى عند المزارعين وغير ذلك.

وقد خلص السيد بير إلى أن مشكلتى التنمية الاجتماعية فى المشروع تتلخص فى كلمتين: التأقلم والتسويات، وتسعى خطة التنمية الاجتماعية فى المشروع إلى حل المشكلتين عن طريق تفهم ومساندة المزارعين أنفسهم، وأخذ مشورتهم فى الأمور كلها.

إنشاء خزان سنار فى السودان

The Construction of the Sennar Dam, Sudan

◇◇◇◇◇◇

هذه ترجمة موجزة لمقال وقعت عليه مصادفة فى المجلة الطبية البريطانية BMJ (والتى تعدمن أقدم المجلات الطبية فى بريطانيا والعالم، إذ ظلت تصدر وبلا انقطاع كدورية أسبوعية منذ عام ١٨٤٠م). نشر المقال فى العدد رقم ١ - ٣٣٩٤ من تلك المجلة فى يوم ١٩٢٦/١/١٦م دون أن يذكر اسم الكاتب، ويبدو أن الدافع لنشر هذا المقال (التاريخي) فى مجلة طبية صرفة هو الحديث عن الإجراءات الصحية والطبية المتخذة لدرء خطر مرض الملاريا فى الفترات التى سبقت وصحبت وأعقبت إنشاء خزان سنار، ويمكن أن تؤخذ تلك التجربة الناجحة كمثال لطرق الوقاية من الأمراض المعدية فى العالم النامي. **المترجم**

***

منظمة مكافحة مرض الملاريا:

اكتمل فى الصيف الماضى العمل فى مشروع خزان سنار ومد القنوات لمشروع الجزيرة، وفتحت فى الخامس عشر من يوليو بوابات ذلك الخزان لتتدفق منها المياه عبر تلك القنوات لرى أرض الجزيرة. يبلغ طول الخزان ميلين وارتفاعه ١٠٧ أقدام فى أعمق نقطة للنهر. وتكون فوق ذلك السد مخزون من المياه يبلغ طوله خمسين ميلا، حجمه يبلغ ١٤٤٣٧٥ مليونا من جالونات المياه. ويرتفع مستوى النيل بمقدار خمسين قدما عند امتلاء النهر، وتكفى مياه الخزان لرى نحو ٣٠٠٠٠٠ فدان.

استغرق العمل فى بناء الخزان خمسة أعوام، وقد أقيم فى منطقة بالبلاد مشهورة بتفشى مرض الملاريا فيها فى فصل الأمطار. ولم تكن تلك الحقيقة غائبة عن المسؤولين عن قيام الخزان فقاموا باتخاذ إجراءات صحية عديدة لدرء أخطار تفشى ذلك المرض.

إنشاء الخزان ومدينة العاملين فى مكوار:

اختيرت "مكوار" كموقع للمدينة الجديدة لسكن العاملين فى إنشاء الخزان، فأقيمت بها مبانى سكنية للأوربيين ومعسكر لسكن العمال المحليين ومحطة للسكة الحديد ومستشفى وورش ومصنع للأسمنت، وكل ذلك على أرض مرتفعة على الشاطئ الغربى للنيل تقع على بعد ميل واحد من النهر.

يوجد بين مكوار والنيل خور طوله خمسة كيلومترات وعرضه نصف كيلومتر، يمتلئ بالماء فى فصل الأمطار، ويغدو مستنقعا ممتلئا بالحشائش الطويلة والشجيرات وبرك الماء الآسن. يتوالد البعوض فى تلك البيئة بكثرة ويعم مناطق المستنقعات هذه والأراضى المرتفعة أيضا. وكانت الأحوال فى المنطقة الواقعة شرق النيل تشابه منطقة المستنقعات ولكنها أقل سوءا.

وبالإضافة إلى مكوار، كانت هنالك ثلاث محطات ثانوية، أولاها تقع فى غابة على بعد عشرين ميلا جنوب المدينة، وهى مخصصة لقطع الأخشاب وصناعة المراكب، والثانية والثالثة أقيمتا فى مناجم تستخرج منها الأحجار، وتقعا على بعد ثلاثين ميلا غرب مكوار وتفصل بينهما مسافة عشرة أميال. وكانت تدار من مكوار كل الإجراءات الطبية والصحية لهذه المناطق.

العمال:

جلب للعمل بالخزان عمال مصريون أتوا فى الغالب من جنوب مصر لفترات قد تمتد لستة أشهر، وكان هنالك أيضا عمال سودانيون تم تعيينهم محليا. بلغت جملة أعداد العمال فى ذروة موسم ١٩٢٣ – ١٩٢٤م نحو ١٩٠٠٠ عامل.

للسودانيين قدر محدود من المناعة ضد مرض الملاريا، بيد أنه ليس كافيا لمنع تعرضهم لهذا المرض الذى يقعدهم عن العمل تماما، إلا إذا تمت حمايتهم من الإصابة بالمرض. فى المقابل نجد أن المصريين أقل مناعة وأكثرا تعرضا للإصابة للمرض، وتتطلب حمايتهم منه جهدا أكبر.

عمل فى إنشاء الخزان ٧٠ من البريطانيين من مهندسين وفنيين وكتبة وسائقى مرفاع (كرين)، ويعمل تحت هؤلاء عدد من الإيطاليين الذين تخصصوا فى قطع الأحجار، والأغاريق الفنيين الميكانيكيين، والكتبة المصريين، وسائقى القطارات المالطيين والعمال المهرة المصريين.

الصحة العامة:

كانت خطة العمل فى مكافحة الملاريا فى منطقة الخزان تتلخص فى ثلاث نقاط:

القضاء على الملاريا بمكافحة البعوض وذلك بتزويد أماكن السكن بـ "نمليات" تمنع دخول البعوض، ومنع اختلاط العمال السودانيين (الذين يتمتعون بقدر معقول من المناعة) مع العمال المصريين (ضعيفى المناعة) فى معسكر السكن، وصرف دواء "كونين" للوقاية من المرض فى حالات خاصة.

القضاء على الزحار (الدوسنطاريا) بتجفيف مياه البرك والمستنقعات التى يتوالد فيها الذباب، ومضاعفة أعداد المراحيض و"الجرادل" التى يقضى فيها العمال حاجتهم، وإن لم يكن ذلك ممكنا القيام بتطهير المراحيض بدخان الحريق لمنع تطاير بقايا البراز فى الغبار أو نقلها عن طريق الحشرات، ومد أنابيب (مواسير) المياه لتوفير المياه النقية.

منع انتشار طفيل الأنكلستوما بفحص العمال المصريين المجلوبين للعمل فى الخزان فى المحجر الصحى بوادى حلفا.

تم تعيين مفتش طبى بريطانى متخصص للعمل فى مجال الصحة العامة، ويساعده فى العمل مفتش للصحة العامة، وكانت مهمتها الرئيسة هى مكافحة الملاريا فى مكوار وما حولها من القرى والدساكر، وقيادة فريق من العاملين السودانيين. بنيت فى مكوار مستشفى به ١٢٠ سريرا يعمل فيه بالإضافة للبريطانيين طبيبان سوريان يقومان بالإشراف على بقية العاملين بالمستشفى. وكذلك أنشأت عدد من نقاط الغيار والشفخانات فى عدد من المحطات الخارجية.

مكافحة الملاريا:

كانت أولى خطوات أعمال مكافحة الملاريا هى تصريف المياه فى الأراضى المرتفعة وهى المناطق التى أقيمت فيها مساكن الذين يعملون فى الخزان ، وكذلك الورش. وتم أيضا تنظيف البيوت من الحشائش والشجيرات. وتم بعد ذلك تصريف المياه من المستنقعات وتنظيفها وعمل العديد من الإجراءات الأخرى، والتى عملت بتدرج ، وعلى مدى سنوات، لإيقاف توالد البعوض الناقل للملاريا.

الحجر الصحى بوادى حلفا:

افتحت فى وادى حلفا فى شمال السودان محطة حجر صحى خصصت لحجز العمال المصريين القادمين للعمل فى السودان لمدة تتراوح بين ٣٦ و٤٨ ساعة. كان المصابون منهم بفقر دم حاد أو حمى مرتفعة أو مرض معدى كالزهرى (السفلس/ الأفرنجي) أو أى مرض معدى آخر يمنعون من دخول البلاد. وشمل ذلك الحظر أيضا العمال صغار السن والمتقدمين فى العمر. كانت ترش على بقية العمال الصالحين للعمل مضادات الهوام لتطهيرهم من القمل وغيره من الهوام، وتغمس ملابسهم فى مواد مطهرة، ثم يتم الفحص عليهم بعد ذلك لأمراض طفيلية متعددة مثل البلهارسيا والإصابة بالديدان المعوية خاصة دودة الأنكلستوما، ومعالجة من تكتشف عنده الإصابة. بتلك الدودة. وبعد اكتمال تلك الإجراءات الصحية يفتح لكل عامل مصرى قادم للبلاد ملف به تفاصيل وضعه الصحى ويعطى للعامل كى يحمله لمكان عمله. عند وصول العامل لمقر عمله يعطى جرعة ثانية من دواء يعالج المرض المعوى الذى تسببه دودة الأنكلستوما.

يمر عبر محطة الحجر الصحى بحلفا نحو ٥٠٠ من العمال المصريين كل يومين، وقد

يرتفع أحيانا ذلك الرقم إلى ٦٠٠. كان أكبر عدد من هؤلاء العمال يمر على حلفا في عام واحد هو ١٤٣٣٦، وكان مجموع من مروا على حلفا بين عامى ١٩١٩ و١٩٢٥م هو ٤٥٠٢٩. ولم تسجل أي حالة تيفويد أو "حمى راجعة" عند أي من العمال المصريين القادمين للسودان.

وجد أن أكثر الطرق نجاعة وأقلها تكلفة لتطهير البرك والمياه الراكدة هي وضع زيت المحركات الخام الثقيل في تلك المسطحات المائية. ويتم ذلك بغرس أوتاد ملفوفة بقطع جوالات / أكياس مغموسة في ذلك الزيت الثقيل، والذى ينضح ببطء لمدة أربعة أو خمسة أيام مكونا طبقة زيتية تغطى سطح المياه الراكدة (يجب تذكر أن ما كان مقبولا بيئيا في عشرينيات القرن الماضي قد يعد "كارثة بيئية" بمقاييس اليوم. المترجم).

النتائج العامة:

ثبت أن هنالك تناقصا تدريجيا ومستمرا في معدلات حدوث الملاريا مع تواصل اتخاذ الإجراءات الصحية والطبية السالف ذكرها. بيد أن خطر حدوث وباء بهذا المرض يظل قائما في أي وقت، إذ ثبت أن أعداد عينات المياه الملوثة بالبعوض والمأخوذة من مختلف المناطق في وحول المنطقة كانت تزداد مع التقدم في عملية إنشاء الخزان.

الكوينين كدواء وقائى ضد الملاريا:

لم يكن دواء الكونين (لعله دواء "الكينا" المعروف عند المخضرمين من السودانيين. المترجم) يعطى لكل الناس من أجل الوقاية من مرض الملاريا، بل كان صرفه يقتصر على حالات خاصة مثل من سيذهبون لفترات قصيرة فقط لمنطقة موبوءة بالمرض. وكمثال على ذلك نضرب مثلا بمائة وسبعين من العمال المصريين الذين كانوا يعملون في محطة "سقدي" في موسم الأمطار. وأثبت الفحص الطبى لهؤلاء قبل بدء موسم الأمطار أن ٣٪ فقط منهم كانوا مصابين بتضخم الطحال، مما استلزم إعطائهم ٦٥٠ ميلى جراما من دواء الكونين يوميا. لم يصب من هؤلاء غير عاملين اثنين بالملاريا (ينبغى ملاحظة أن ٣٪ من ١٧٠ عاملا تعنى أن العدد الذى يتحدث عنه كاتب المقال هو خمسة عمال فقط، وأن الكاتب يذكر هنا أن هنالك عمالا مصريين يعملون في فصل الأمطار ولكنه يذكر في موضع آخر في المقال أن جميع العمال المصريين يغادرون السودان مع بداية فصل الأمطار! المترجم)، بينما أصيب بالملاريا اثنان من البريطانيين في "سقدي" وهما بالقطع كانا يعيشان

فى ظروف أفضل من العمال المصريين، ربما لأنهما لم يكونا يتناولان دواء الكونيين الواقى من الملاريا.

إنشاء القنوات فى الأراضى المروية:

استلزم إنشاء قنوات للرى حفر القناة الرئيسية من الخزان إلى نقطة تبعد ٣٥ ميلا إلى الشمال، والتى منها يخرج أول فرع للقناة الرئيسة، ثم تتفرع لتروى ٣٠٠٠٠٠ فدان من الأراضى الزراعية. وبلغت مساحة المنطقة التى تتوزع منها القناة الرئيسة ٦٢٤ ميلا مربعا (٥٢ ميلا طولا و ١٢ ميلا عرضا)، بينما بلغ طول القناة الرئيسة ٧١ ميلا. وتمتد القنوات الفرعية لمسافة طولها ٧١١ ميلا، ويمتد طول القنوات المتفرعة منها إلى طول ٨٧٥٠ ميلا.

كان الحفاظ على مستوى معقول من الصحة العامة فى هذه المناطق أشد عسرا منها فى المناطق المحيطة بمنطقة السد فى مكوار وذلك لأن الناس فى مكوار وما حولها – بعكس المناطق المروية فى الجزيرة بمياه الخزان – كانوا يعيشون فى مركز صغير ومحدد المساحة تسهل السيطرة على الصحة العامة فيه. بدأت عمليات شق القنوات فى عام ١٩٢٠م بيد أن عملية شق القنوات الفرعية لم تبدأ إلا فى يناير من عام ١٩٢٣م، وتحت ظروف قاسية وشح فى العمالة، إذ إن كل العمال المصريين كانوا يرجعون لبلادهم عند بدء موسم الأمطار، وكان اشتداد الأمطار يعيق عمليات حفر القنوات الفرعية والقنوات المتفرعة منها.

التنظيم الصحى والطبي:

جعلت مدينة واد مدنى الواقعة فى شرق المنطقة المروية بمياه خزان سنار مركزا لإدارة العمل الصحى والطبى فى المنطقة.، وتم توسيع مستشفاها ليقابل الزيادة الكبيرة على الخدمات الطبية. واستدعت تلك الزيادة فتح مراكز صحية مساعدة فى "الحاج عبد الله" (فى جنوب المنطقة المروية) وفى "كيلو ١٤" إلى الشمال الشرقى من واد مدني. واستجلبت للمنطقة أيضا ست عيادات متحركة كانت تجرها الحمير، كانت مهمتها الطواف على القرى لعلاج الحالات البسيطة وتوزيع المواد الصحية والطبية.

خصصت لمشروع الخزان عربتا إسعاف كان مركزهما فى شمال وجنوب مكوار، وكان

منوطا بها إحضار حالات الطوارئ للشفخانات والعيادات، ونقل المرضى الذين هم فى حالة حرجة أو خطيرة مباشرة إلى مستشفى واد مدني، وإرجاع من شفى من المرضى لقراهم، وكذلك إحضار الأدوية والغيارات ومبيدات الحشرات.

كانت كل الشؤون الطبية والصحية فى كل المنطقة تدار بواسطة مفتش طبى بريطانى يتخذ من واد مدنى مركزا له، وكانت له سيارة يطوف بها على المرافق الصحية والطبية فى منطقته مرة واحدة على الأقل كل عشرة أيام، ويطمئن على سلامة صحة سكان المنطقة وفعالية مكافحة الأوبئة فيها، وخاصة صحة العاملين بمشروع إنشاء خزان سنار. كان ذلك المفتش يحرص أيضا على مداومة زيارة فريق العمال والسائقين البريطانيين والمهندسين الأوربيين والأجانب.

ويساعد المفتش الطبى فى عمله مفتش بريطانى آخر موكل بالاهتمام بشؤون الصحة العامة، وكان لذلك المفتش "لوري" يجلب به المواد اللازمة لمكافحة الملاريا ويجوب به مختلف المناطق ومعه ثلة من "رجال البعوض" للعمل المستمر فى مكافحة الملاريا عن طريق رش مبيدات الهوام أو غير ذلك من الأعمال الهادفة لتقليل توالد البعوض مثل ردم برك المياه الآسنة. وكان مناطا بـ "رجال البعوض" أن يطوفوا مرة كل عشرة أيام على كل المناطق وأن يضمنوا خلوها من البعوض.

أثمرت كل الإجراءات السالفة الذكر عن تحسن تدريجى فى صحة العاملين بالمشروع، خاصة فيما يتعلق بالملاريا. بيد أنه فى الشهور الأولى لعام ١٩٢٤م كادت السلطات تعجز عن مكافحة الملاريا بسبب زيادة تسرب المياه وركودها مما خلق بيئة صالحة لتوالد البعوض الناقل للمرض. تفشى مرض الملاريا فى ذلك العام بصورة وبائية كادت أن توقف العمل فى إنشاء الخزان، وبلغ معدل الإصابة عامئذٍ نحو ٦٪ . تمت محاصرة المرض باتخاذ إجراءات طبية وصحية صارمة أدت لانحساره ومن ثم القضاء عليه.

تقوم السلطات الصحية بالمراقبة الدقيقة لموقف كل الأمراض فى المنطقة، خاصة مرض البلهارسيا وذلك خشية أن تنتشر فى البلاد مع دخول العمال المصريين للبلاد. ولم يثبت إلى الآن حدوث حالات من ذلك المرض فى البلاد.

مدرسة كتشنر الطبية بالخرطوم- السودان
The Kitchener School of Medicine at Khartoum, Sudan

E. N. Corbyn أي إن كوربن

◇◇◇◇◇◇

هذه ترجمة مختصرة لما حرره السيد/ إي. أن. كوربن مدير مديرية الخرطوم فى عشرينيات القرن الماضى عن تاريخ إنشاء مدرسة كتشنر الطبية، وذلك فى مجلة التاريخ الأفريقى الملكية، والتى تصدرها "الجمعية الإفريقية الملكية" عن دار نشر جامعة أكسفورد، فى عددها رقم ٤٣ الصادر فى أبريل من عام ١٩٤٤م.

ويشير المقال أيضا إلى تطور التعليم فى السودان بصورة عامة فى تلك السنوات.

وهو هنا يقدم بالطبع صورة أحادية (وزاهية) لتاريخ ذلك التعليم تختلف كليا أو جزئيا عن آراء من يرون للاستعمار مآرب (وأى مآرب!) فى إنشائه وتطويره للتعليم الغربى بالبلاد.

وهنالك مصادر عديدة لآراء تختلف جذريا عن آراء ومرامى هذا الكاتب الإنجليزى مثل كتاب How Colonialism Preempted Modernity in Africa لمؤلفه أوليفمى تايوو Olufemi Taiwo

وكتاب How Europe Underdeveloped Africa لمؤلفه دبليو رودنى W. Rodney وغيرها كثير. **المترجم**

***

عندما آب اللورد كتشنر الحاكم العام الجديد للسودان لموطنه فى إنجلترا فى عام ١٨٩٨م ظافرا بعد معركة أم درمان، كانت أول مهمة يضعها على كاهله هى مناشدة جمهور لشعب البريطانى للتبرع لإنشاء كلية غردون التذكارية فى الخرطوم وذلك من أجل تعليم السودانيين.

كانت فلسفته تقوم على أنه لا يجب أن يغلق أمام السودانيين باب أى مصدر من مصادر المعرفة يمكن لحكومتهم المتمدنة الحديثة أن تقدمه لهم، بل إنه من واجب هذه الحكومة أن تعمل على تدريب السودانيين فى مختلف ضروب المهن والحرف عن طريق التوسع فى التعليم.

غادر اللورد كتشنر السودان متوجها إلى جنوب أفريقيا فى نهاية عام ١٨٩٩م وخلفه السير ريجنالد وينجت كحاكم عام جديد للسودان، والذى ظل وفيا لتلك الفلسفة، ووضعها نصب عينيه هدفا ساميا وسياسية ثابتة مستقرة.

والآن، وبعد مرور ستة وأربعين عاما نجد أن السودان قد اجتاز تلك المراحل الأولى من التعليم، وأقيمت عدد من المدارس فوق- الثانوية تقوم بتدريب أعداد من السودانيين فى مختلف المهن، ومن ذلك مثلا مدرسة الآداب (والتى تشمل مدرسة الإدارة) وكلية القانون، ومدرسة لمن سيتخرجون ويعملون فى مصلحة التعليم، ومدرسة للعلوم (والتى تدرب الطلاب للعمل مدرسين لمادة العلوم) ومدرسة المهندسين ومدرسة الزراعة، ومدرسة الخرطوم البيطرية ومدرسة كتشنر الطبية.

ويقف نجاح تلك المدارس العليا شاهدا ودليلا أمام العالم كله على أن السودانيين قد نالوا حقهم فى التعليم كاملا غير منقوص على يد البريطانيين، والذين وهبوا زهرة شبابهم من أجل خدمة مصالح السودان وتطويره. وفى عام ١٩٤٤م ستجمع تلك المدارس تحت اسم مكرم واحد هو كلية غردون التذكارية، تحت نظام أساس توطئة لقيام أول جامعة فى السودان.

كانت إحدى أنجح مدارس السودان المهنية العليا هى مدرسة كتشنر الطبية، والتى سميت بهذا الاسم تكريما لذكرى لورد كتشنر. وكما ذكرنا فإن إنشاء كلية غردون التذكارية قد تم بفضل مناشدة كتشنر للبريطانيين بالتبرع، بينما قام السودانيون أنفسهم فى

عام ١٩٢٤م بالتبرع لإنشاء مدرسة كتشنر الطبية لتعليم أبنائهم، وكان تمويل تسيير تلك المدرسة يأتي من الأموال التي وقفها بعض المحسنين (منهم الرجل العراقي أحمد محمد هاشم بغدادي. المترجم) إضافة لمبلغ ألف جنيه من "صندوق لورد كتشنر التذكاري الوطني" في لندن، ومبالغ إضافية من الإيرادات العامة للحكومة.

وظل اللورد كتشنر حتى وفاته في عام ١٩١٦م يؤكد للناس على أهمية تلك المؤسسة للبلاد، وكانت أهداف المدرسة شاهدة على حكمته وبعد نظره.

وقد تلخصت تلك الأهداف في التالي:

بناء كادر طبي سوداني مؤهل للعمل على مكافحة الأمراض الوبائية والمتوطنة بالبلاد، والتي أضرت بصحة ورفاه المواطنين وأضعفت النمو السكاني وأقعدت البلاد عن التقدم والنماء.

منح المتعلمين من الأهالي في السودان الفرصة كاملة ليلعبوا أدوارا مهمة في تنمية وتطوير بلادهم.

تقديم منح لمن أكمل الدراسة والتدريب في السودان لعمل دراسات عليا وأبحاث.

تكونت الدفعة الأولى التي بدأت الدراسة في عام ١٩٢٤م من سبعة طلاب، وتخرجوا بنجاح في عام ١٩٢٨م. ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام ١٩٤٣م التحق بالمدرسة ١٣٨ طالبا نجح منهم ٨٢ طالبا، وهم الآن يمارسون مهنة الطب في بلادهم كأطباء عاملين في مصلحة الخدمات الصحية.

وقد تألف منهاج الدراسة من مقررات عام ونصف يقضيها الطالب في مدرسة العلوم، ويقضي بعد نجاحه في الامتحان النهائي أربعة أعوام ونصف في مدرسة كتشنر الطبية، مما يعني أن الطالب يقضي على الأقل ستة أعوام في الدراسة الجامعية.

وكان من حسن حظ مدرسة كتشنر الطبية أن وجدت الرعاية اللصيقة والمساندة الدائمة من كليتي الطب والجراحة الملكيتين في إنجلترا، واللتان كانتا تبعثان سنويا بممتحنين خارجيين للمدرسة في الخرطوم من أجل التثبت من مستويات الطلاب وملائمة الامتحانات وغير ذلك. وقامت الكليتان بمنح اعتماد/ اعتراف جزئي

بالدبلومات التي كانت المدرسة تمنحها لطلابها.

وجاء في شروط منح ذلك الاعتماد/ الاعتراف ما نصه:

"لقد وافقت الكليات الملكية على اعتماد كامل الفترة التي يقضيها الطالب في كلية الطب، والتي تؤدي عند نجاحه إلى منحه دبلوما مشتركا (conjoined Diploma) في إنجلترا شريطة أن يكون الطالب قد حصل على معدلات عالية في الامتحانات التي تسبق دخول كلية الطب مباشرة، وأن تجرى تلك الامتحانات تحت إشراف أستاذ زائر من قبلهم. ويغدو الطالب الذي يصل إلى المعيار الأكاديمي المطلوب ويتحصل على دبلوم مدرسة كتشنر الطبية مؤهلا للجلوس للامتحان النهائي الذي يضعه مجلس مشترك بعد أن يقوم الطالب بالدراسة لمدة عام إضافي في مستشفى جامعي معترف به في بريطانيا العظمى حتى تتوافق المدة التي يقضيها الطالب في دراسة الطب مع المتطلبات البريطانية في ما يتعلق بطول مدة دراسة منهاج الطب، والذي يزيد على ما يدرس في مدرسة كتشنر الطبية بعام كامل".

لقد أتاحت تلك الدرجة من الاعتماد / الاعتراف، وعلى الفور، ضمانا لمستوى مهني عال للدبلوما السودانية، وسمحت للأطباء السودانيين بالحصول على تأهيل بريطاني إضافة لما حصلوا عليه من مدرسة كتشنر الطبية وذلك بعد قضاء فترة دراسية وتدريبية قصيرة في بريطانيا العظمى.

ويلاحظ المرء مبنيين بارزين ومتشابهين أمام محطة السكة حديد بالخرطوم، ويقعان على الجانبين الأيسر والأيمن على الشارع المؤدي للقصر وضفة النيل الأزرق. وهذان المبنيان هما لمدرسة كتشنر الطبية ومعامل إستاك التذكارية لأبحاث علم الأمراض. ويتم تدريب طلاب المدرسة الطبية في مستشفيين كبيرين بالعاصمة أحدهما في الخرطوم والآخر في أم درمان.

ترقى للمناصب العليا من خريجي تلك المدرسة حتى عام ١٩٤٤م خمسة عشر طبيبا من جملة اثنين وثمانين طبيبا يعملون في مصلحة الخدمات الصحية.

ولولا وجود تلك المدرسة لشغل تلك الوظائف أطباء أوربيون، ولما انتشر في أرجاء المليون ميل مربع أطباء سودانيون في درجات صغرى وعليا يعملون على الحفاظ على صحة مواطنيهم.

زيارة إلى الخرطوم

A Visit to Khartoum

بروفيسور ف ر استامرز Prof. F. R. Stammers



مقدمة: هذه ترجمة لبعض ما جاء في تقرير لممتحن خارجي بريطاني قدم لكلية الطب بجامعة الخرطوم موفدا من الكلية الملكية للأطباء لامتحان طلاب تلك الكلية في صيف عام ١٩٦١م. ونشر هذا التقرير في العدد رقم ٢٩ من مجلة كلية الجراحين الملكية بإنجلترا لعام ١٩٦١م.

سيلمس القارئ أن ذلك الممتحن الخارجي سر بما رأى من مستويات أكاديمية عالية للطلاب، ولعل غيره من الممتحنين الخارجيين لكليات الجامعة الأخرى في تلكم السنوات كانوا أيضا من المشيدين بمستويات طلاب جامعة الخرطوم. وهذا لم يتأت بالصدفة بالطبع، فلكل شيء سبب، فكان لا بد أن يتميز أولئك الطلاب بسبب عملية المنافسة الحادة و"الاختيار/ الانتقاء الطبيعي"، وقلة عدد الطلاب المقبولين، وجودة الكادر التعليمي، وظروف وبيئة العيش الممتازة في جامعة الخرطوم والبلاد عموما آنذاك. وهذا بالطبع ليس من باب البكاء أو التباكي "على الأطلال" أو "النوستالجيا الحادة" على "زمن جميل" غابر، فمن يدري فقد كان يمكن لطلاب اليوم أن ينالوا من الثناء من الممتحنين الخارجيين (إن كان هذا النظام لا يزال معمولا به) مثل ما ناله من سبقوهم من "المحظوظين" لو توفرت لهم ذات الظروف الموضوعية والذاتية!؟ المترجم

***

كان النظام المتبع للممتحنين الخارجيين –ومنذ سنوات– هو أن يقوم هؤلاء في غضون الأيام الأولى لزيارتهم بمقابلة رؤساء الأقسام بالجامعة وقادة الوحدات بوزارة الصحة، ومدير المستشفى المدني ورئيس معمل إستاك. وكان من فوائد تلك المقابلات

إعطاء الممتحن الخارجى فكرة عامة عن خلفية ومنطلقات سياسات الدولة فيما يخص الرعاية الصحية للمواطنين، وعن مقدار الحماس والرغبة عند المسؤولين لتقديم أفضل الخدمات الطبية والصحية. ويقوم الممتحنون الخارجيون بعد ذلك بزيارة لبعض أقاليم البلاد (كان نصيبى هذه المرة الجزيرة والاستوائية) ليروا بأعينهم الأحوال والظروف التى يعمل فيها الأطباء وغيرهم من مسؤولى الصحة. وأخيرا يعود الممتحنون الخارجيون ليشهدوا امتحانات الطلاب، وليناقشوا الأساتذة ورؤساء الأقسام عن عمليات التدريس فى الأقسام والمستشفيات، ويراقبوا الطلاب وهم تحت التدريب.

أود أن أشكر البروفيسور هابتلر عميد كلية الطب ورئيس قسم التشريح فيها، والمسؤولين فى وزارة الصحة لتكرمهم بتنظيم هذه الزيارة لي، وفى وقت وجيز نسبيا، للعمل كممتحن خارجى لطلاب الطب، وللتعرف على الخدمات الطبية المقدمة وتقييم عمل الأطباء والعاملين فى وزارة الصحة فى بلد كبير كالسودان به نحو ١١٥٠٠٠٠٠ نسمة.

وعلى الرغم من الوصف الدقيق لأقاليم السودان الذى تجده مفصلا فى الكتب والمجلات والخرائط، فإنه من المستحيل أن يتخيل المرء الظروف والأحوال الحقيقة للسودان إلا بعد أن يراها رأى العين. ولقد كنت مهيأ ومستعدًا تماما لما أنا مقبل على زيارته، خاصة وقد سبق أن تعرفت على بيئة أفريقيا وخبرتها فى غضون ستتين قضيتهما فى خدمة دولة أفريقية مدارية فى الأربعينيات (أثناء الحرب العالمية الثانية)، وكابدت طقسها الحار ورأيت – على الطبيعة – تأثيرات الأمراض المدارية الشائعة وسوء التغذية وسوء الاتصالات و فشو الأمية على مجمل الأوضاع الصحية والطبية فى تلك الدولة الإفريقية الفقيرة. وإذا أضفنا لقائمة مصاعب الدول الإفريقية الفقيرة نجد أيضا الوضع المتخلف لبعض القبائل فى جنوب السودان، وعادات الترحال المستمر عند بعض القبائل فى مناطق أخرى، وسيول المهاجرين من دول أخرى فى غرب أفريقيا وهم يعبرون السودان فى سفرهم البطيء للحج فى مكة (ويحملون أحيانا من الأمراض ما الله وحده بها عليم)، إذن لأدركنا صعوبة بل وحرج الوضع الصحى والطبى فى السودان. وعند حدوث وباء كالتهاب السحايا أو مرض النوم أو الحمى الصفراء ينتشر المرض سريعا ويصيب أعدادا

كبيرة من السكان فى وقت وجيز. وتنتشر الملاريا فى الجنوب والمادورا (النبت) والبلهارسيا فى الشمال، والسل بأنواعه فى سائر أنحاء البلاد، والجزام (فى مناطق محدودة وبأعداد قليلة من المرضى). وعلى الرغم من كل تلك الأعداد من الأمراض الفتاكة فإنه ليس بالبلاد حاليا سوى ٢٥٠ طبيبا فقط (بمعدل طبيب واحد لكل ٧٠ إلى ٨٠ ألف نسمة)، يقبع معظمهم فى العاصمة بمدنها الثلاث (بحسب سجلات المجلس الطبى حتى أبريل ٢٠١٢م يوجد بالسودان الآن ٤١٨١٢ طبيبا. المترجم). ولعل هذه الأرقام تؤكد أن الإستراتيجية الأمثل للدفاع ضد هذه الأمراض الفتاكة هى الوقاية بالحفاظ على مستوى معقول من الصحة العامة والنظافة واتخاذ كل الإجراءات المعروفة للحد من انتشار الأمراض المعدية. ويبدو لى أنه من البداهة القول بأنه فى هذه المرحلة من تطور البلاد فإن الاهتمام بالطب الوقائى سينقذ أرواحا من الموت والأمراض الفتاكة بأكثر مما تفعل آخر صيحات الطب العلاجى والجراحة المتقدمة، وأنه من الواجب زيادة أعداد الأطباء المؤهلين حتى يمكن الاستجابة لكل احتياجات المواطنين فى العلاج والوقاية من الأمراض، خاصة وأنه توجد أيضا بالبلاد كثير من الأمراض الأخرى (غير الأمراض المدارية). وهنا لا بد لى من أن أشدد على دور مساعدى الأطباء فى عمليات العلاج والوقاية ضد كثير من الأمراض. وعادة ما يتم اختيار هؤلاء من بين أفضل الممرضين المجيدين، ويتم تأهيلهم لمدة عامين كاملين. وتعانى البلاد كذلك من شح خطير فى الاختصاصين فى مختلف فروع الطب. ولهذا تعمل الدولة على نقل من يحتاجون لجراحات خاصة إلى الخرطوم بالطائرات، لأن معظم المستشفيات الإقليمية لا يوجد بها ما يكفى من التجهيزات أو الأخصائيين للقيام بتلك الأنواع من الجراحات. فعلى سبيل المثال لا يوجد (ولعدد من السنين) جراح واحد بمستشفى مدينة جوبا، ولم يصلها ومنذ ستة أعوام اختصاصى أمراض نساء وتوليد إلا هذا العام رغم أن بالمدينة مستشفى يسع ٤٠٠ سرير.

الخرطوم:

تتكون الخرطوم –بحسب ما تقول كتيبات السياحة الرسمية– من ثلاث مدن يربطها جسران (لم يكن كبرى شمبات قد شيد بعد. المترجم) هى الخرطوم وأم درمان والخرطوم

بحري. وتعد أم درمان أكبر مدينة فى السودان، وبها أكبر سوق شعبى كذلك، وغالب مبانيها من بيوت بنيت بالطين، خلا عدد قليل من المبانى الحكومية. والخرطوم على العكس من أم درمان لها طابع عالمي، وهى المقر الرئيس للوزارات والمؤسسات المالية والتجارية والحكومية الأخرى، وبها عدد من المدارس الجيدة ومستشفى ممتاز ومنازل جميلة، بل ومسرح مكشوف (open -air). وتزايد العمران فى المدينة فى السنوات الأخيرة فكثرت فيها العمارات ذات الطوابق الخمس أو الست. وتوسعت جامعة الخرطوم منذ أن رأيتها لآخر مرة منذ تسعة أعوام (١٩٥٢م)، فزادت المبانى فى كلية الطب وبنى مستشفى مدنى تدريسى جديد مثير للإعجاب ويشير لروح تقدم لا تعرف التراخى أو الجمود. أعجبنى فى هذا المستشفى الحديث حسن تخطيطه وجودة تأثيثه وارتباطه الوثيق بالعملية التدريسية والتدريبية بكلية الطب. وكما هو الحال فى بلادنا، فيساعد فى التدريس للمواد السريرية (الإكلينيكية) مثل الطب والجراحة والتوليد بعض الاختصاصيين فى وزارة الصحة. ولا تزال عمليات التطوير والتجديد فى هذا المستشفيات تم حثيثا، فقد أنشئ قبل عام بنك للدم وأضيفت عدة أجهزة لقسم الأشعة به (بما فى ذلك جهاز متقدم لتصوير القلب والأوعية الدموية angiocardiography). واستمرارا لعملية التطوير والتحديث بدأت الفتاة السودانية تقتحم وبقوة مجال دراسة التمريض. وكانت آخر التطورات التى تعرفت عليها خلال زيارتى هى تعيين اختصاصين اثنين فى مجال التخدير، أحدهما فى كلية الطب والآخر فى وزارة الصحة.

كان أكثر شيء أعجبنى فى كل ما رأيت من أعمال مجيدة ومفيدة للمواطنين هى البيئة المحفزة للعمل التى لمستها عند كل من قابلتهم من العاملين فى الحقل الطبى والصحي، وجلهم من المتميزين فى تعليمهم وتدريبهم وتخصصهم. بيد أنه ما إن تغادر العاصمة لأميال قليلة فقط حتى تصدمك الصحراء الواسعة وقراها التى تعيش عيشة بدائية وبالغة البساطة. ولا يخفى على أى مراقب ملاحظة مدى التفاوت المريع فى كم ونوع الخدمات الطبية والصحية المقدمة للمواطن الذى يقيم خارج حدود العاصمة المثلثة. ففى خارج العاصمة يعمل الطبيب العمومى فى مختلف التخصصات (Jack of all trade).

سرنى أن علمت أن كلية الطب بصدد زيادة عدد المقبولين بها إلى أربعين طالبا، وإلى

خمسين فى الأعوام المقبلة، وهى تعمل أيضا على تأهيل أعداد أخرى من الأطباء للتخصص فى فروع الطب الأخرى. وفى هذا الأثناء يمكن العمل على استجلاب من يرغب من الأخصائيين الشباب من بريطانيا العظمى للعمل فى مساعدة السودانيين فى المجالات الطبية المختلفة، ولا شك عندى أن هنالك رغبة كبيرة عند هؤلاء للمجيء للسودان لعامين أو ثلاثة للعمل فى مناطقه المختلفة.

بعيدا عن الخرطوم:
الجزيرة

تملكنى الإعجاب لما لمسته من روح التقدم فى هذه المنطقة، فمشروع الجزيرة توسع بما يزيد عن ضعف مساحته القديمة، وسيزرع فيه قريبا مليون من الأفدنة بالقطن، ذلك المصدر الوحيد للدخل فى البلاد. ويقطن فى الجزيرة نحو نصف مليون من الأنفس، منهم ٣٠ ألفا من المزارعين، و٢٠٠ ألف من العمال الموسميين. ولمجابهة هذه الزيادة السكانية تفكر إدارة المشروع فى إنشاء قرى جديدة بها كل ما يلزم لحياة معقولة من إضاءة فى الشوارع وآبار ومدارس.

فى الطريق إلى واد مدنى عرجنا على مركز صحى متميز بالحصاحيصا يقوم بتدريب القابلات والعاملات فى مجال رعاية الطفولة والأمومة.

يقطن بمدينة وادى مدنى حوالى ٣٥ ألفا من السكان، وبها مستشفى ممتاز يسع لنحو ٦٧٠ سريرا، ويتوقع زيادة سعته بـ ٤٠٠ سرير . وبذلك المستشفى اختصاصى للطب وللجراحة وللتوليد كذلك، وبها مركز يتبع لمنظمة الصحة العالمية لمكافحة مرض السل، ومختبر مجهز تجهيزا طبيا، وقسم متقدم للأشعة.

وإلى الجنوب توجد مدينة سنار (وهى تحتضن الخزان الشهير الذى يغذى مشروع الجزيرة بالماء اللازم لرى القطن). وبتلك المدينة مستشفى أصغر وأبسط مما هو موجود بمدنى وبه ٤٠٠ سرير، وبه أيضا جراح مختص وطبيب أمراض نساء وولادة. وملحق بالمستشفى قسم مختص بمكافحة الملاريا يتبع لمنظمة الصحة العالمية.

ومن الآثار الضارة لمشاريع الرى هى انتشار مرض البلهارسيا، وترى فى كل مكان لوحات إرشادية تحث الناس على عدم الاغتسال أو الاستحمام فى قنوات الري، وتشاهد

كذلك وسائل المكافحة المعتادة من أكياس كبريتات النحاس وغيرها. لقد رأيت فى زيارة خاطفة لمستشفى سنار حالات متنوعة شملت على سبيل المثال لا الحصر حالات فتاق وكسور وحروق (من حرائق الغابات) وسل وبلهارسيا ومادورا (النبتة) وسوء تغذية وجزام وحالة نادرة من جحوظ عين واحدة.

الاستوائية:

تختلف الاستوائية جدًا عن ما شاهدته فى الخرطوم والجزيرة. فطبيعتها الجغرافية ليست صحراوية، ولكن بها تلال وأشجار كثيفة ومجارى نيلية تمتلىء بعد هطول الأمطار فتغدو سيولا عارمة. وتتعدد اللغات والأعراق فى الاستوائية، وتختلف عن ما هو متداول فى الشمال، فبالجنوب قبائل أكثر بدائية مما فى الشمال، وتعانى من مشاكل تواصل فيما بينها بسبب اختلاف اللغات واللهجات. وتمثل اختلافات اللغات حاجزا قويا لدى المساعدين الطبيين (الذين هم عماد الخدمة الطبية فى الجنوب) مما يجعل توزيعهم فى مناطق الجنوب المختلفة معضلة كبيرة.

لقد كان دكتور عثمان إبراهيم نعم الدليل والمرشد لى فى أيامى فى الجنوب، وقد أتى حديثا للجنوب وسيحل محل دكتور عباس حامد نصر حكيمباشى مستشفى جوبا (ذو الـ ٤٠٠ سرير)، والذى سينقل إلى كسلا قريبا.

(سجل الكاتب بعد ذلك وببعض التوسع ما رآه من تطور وتوسع فى مبانى كلية الطب، خاصة قسم الجراحة. المترجم).

اجتماع الممتحنين:

شكرنا مدير الجامعة فى اجتماعه بالممتحنين الخارجيين للجامعة، وقمت بالرد عليه شاكرا إنابة عن بقية الممتحنين.

قلت له: إن الامتحانات قد مرت كلها بيسر وسلاسة، ووجدنا أن الطلاب يتمتعون بمقدرات ومهارات جيدة، وفى قليل من الحالات برز بعضهم بصورة لافتة تنتزع الإعجاب. وذكرت له أن هذا انعكاس لنوعية المدرسين والتدريس بالجامعة ولحسن اختيار الطلاب بها.

كان من ثمار امتحاناتنا تلك أن زادت ثروة السودان باثنين وعشرين طبيبا مؤهلا!

العودة إلى السودان: يناير ٢٠٠٦م- ملاحظات شخصية

A personal View :Sudan Revisited: January 2006

فيليب بو كوكPhilip Bowcock



مقدمة: هذا مقال صغير بقلم أحد الموظفين البريطانيين الذين عملوا في خدمة حكومة السودان (الإنجليزي -المصري) عن زيارته مع بعض زملائه السابقين للسودان بعد مرور نصف قرن على مغادرتهم له. نشر المقال في المجلة البريطانية "الدراسات السودانية" التي صدرت في عام ٢٠٠٧م. المترجم

***

احتفل السودان باستقلاله عن بريطانيا فى الأول من يناير عام ١٩٥٦م، لكن أحدًا من العائلة المالكة البريطانية لم يشهد احتفالات السودانيين بذلك اليوم بسبب الوضع القانونى المعقد للحكم الثنائى (الإنجليزى – المصري) للبلاد آنذاك. بيد أن حضور فرد من أفراد العائلة المالكة لاحتفالات استقلال كل مستعمرات ومحميات بريطانيا غدا لاحقا تقليدا ملكيا ثابتا. كان غالب المسؤولين البريطانيين قد غادروا السودان قبل حلول تلك المناسبة، وبدا ذلك اليوم وكأنه يوم احتفال السودان بطلاقه (من بريطانيا) وليس يومًا للاحتفال ببلوغه سن النضج! كان التمرد المسلح قد بدأ قبل عام فى المديرية الاستوائية تلته خمسون عاما من التناحر والمصائب والمحن.

حمدت للأقدار أنها أتاحت لى (مع ثلة من الموظفين البريطانيين الذين خدموا فى السودان الإنجليزى المصري) زيارة تلك البلاد فى عيد استقلالها الخمسين. أتت دعوة الزيارة من "الجمعية السودانية لتوثيق المعرفة" وهى جمعية لها من الأهداف والطموحات الثقافية ما يتعدى – ويكثير – مجرد أرشفة الوثائق كما قد يتوهم البعض عند قراءتهم لاسم تلك الجمعية والتى يترأسها السيد/ إبراهيم عبد المنعم منصور الوزير السابق للمالية والتخطيط الاقتصادي، وهو يشغل حاليا منصب رئيس لجنة المخصصات المالية والحسابية والتى كونت بموجب البند ١٩٨ من الدستور الانتقالى الذى أجيز عقب التوقيع على اتفاقية السلام الشامل. عمل ابنه محمد كمضيف كريم ومرشد خبير لوفدنا فى غضون أيام تلك الزيارة.

شملت الدعوة الكريمة أيضا أبناء وبنات أولئك الموظفين البريطانيين إذ إن غالب هؤلاء كانوا قد بلغوا أو تخطوا الثمانين من العمر. وفى نهاية المطاف تمكن واحد فقط من هؤلاء الموظفين المعاشيين (الحقيقيين) من السفر للسودان ألا وهو السير / دونالد هاولى (١٩٢١م – ٢٠٠٨م) والذى عين كرئيس لما أطلق عليه السودانيون "الوفد البريطانى الزائر" (السير دونالد هاولى عمل بعد تخرجه من الجامعة كضابط فى الجيش فى سنوات الحرب العالمية الثانية ، ثم التحق بخدمة حكومة السودان كإدارى ، ثم قاضيا بالمحكمة العليا إلى مطلع عام ١٩٥٦م. المترجم). ضم الوفد أيضا أربعة موظفين سابقين عملوا فى سلك الإدارة والسياسة تم تعيينهم بعد إيقاف العمل بتعيين موظفين ينالون معاشا بعد

انتهاء خدماتهم. من بينهم كان هنالك البروفسيور بيتر وودورد وبيتر إيفرينقتن (اللذان عملا كمدرسين فى المدارس الثانوية بعد استقلال السودان) وعقليتهما بالإضافة للسيدة جين هوقان.

جاء فى خطاب الدعوة الذى تلقاه البروفسيور بيتر وودورد رئيس رابطة الموظفين المعاشيين البريطانيين أن "الجمعية السودانية لتوثيق المعرفة ولفيف من السودانيين المنتشرين فى مختلف بقاع البلاد يكنون أعلى آيات التقدير والامتنان للموظفين البريطانيين الذين عملوا فى السلكين الإدارى والسياسى فى السودان وساهموا فى تشكيل تاريخه المعاصر وفى تطوره وازدهاره. لقد حظيت هذه الدعوة لكم بمباركة وتعضيد نائب الرئيس السيد/ على عثمان طه، والذى وافق مشكورا على رعاية الزيارة."

وضح لنا حتى قبل مغادرتنا للندن أن المعلم الأبرز لهذه الزيارة هو الكرم السودانى الفياض ، وذلك عندما ودعنا فى المطار سفير السودان ببريطانيا بنفسه، وعندما منحنا تذاكر السفر على درجة الأعمال فى الطائرة المتوجهة للخرطوم. كان أمرا بديعا أن يؤوب المرء للبلاد التى عاش فيها ردحا من الزمن قبل خمسين عاما. استقبلتنا الخرطوم فى منتصف الليل بطقس معتدل لطيف، وسعدنا بلقاء مضيفينا من أعضاء "الجمعية السودانية لتوثيق المعرفة" بابتساماتهم العريضة وجلابيبهم الواسعة وعمائمهم الناصعة البياض. أدخلنا لصالة كبار الزوار حيث قدمت لنا المشروبات المرطبة ريثما تكتمل إجراءات الدخول الروتينية. ركبنا سيارات الضيافة يتقدمها عدد من رجال الشرطة فى موكب من الدراجات البخارية حتى وصولنا لمقر إقامتنا (والتى ستمتد لأسبوع كامل) فى فندق الهيلتون على ضفاف النيل الأزرق.

كان منظرا مؤثرا جدًا ذلك الذى رأيته وأنا أزيح ستارة النافذة وأمامى النيل الأبيض يعانق النيل الأزرق وجزيرة توتى ترقد فى سكون بمزارعها الصغيرة الأنيقة البالغة الجمال. لا أزال أذكر حفل العشاء الذى أقامه لى كتبة مديرية الخرطوم فى حدائق المقرن عندما تقرر نقلى من العاصمة إلى أعالى النيل. كنت فى تلك السنوات البعيدة أرافق الفتاة التى تزوجتها لاحقا فى جولة باكرة قبل بدء العمل فى غابة السنط إلى الغرب من الهيلتون الحالي. لاحظت أن قاعات الفندق قد زينت بديكورات عيد الميلاد (الكريسماس) وكان

ذلك بمثابة البشارة لى للأجواء المتسامحة التى شهدناها فيما أقبل من أيام.

حللنا بالخرطوم دون أن نكون على دراية بما يمكن لنا أن نتوقعه، بيد أننا وجدنا أن هنالك برنامجا حافلا قد وضع لنا. كانت أولى زياراتنا هى للكاتدرائية الأنغليكانية وهى بناء ضخم من الطوب الرملى الأحمر اللون، ومن تصميم مهندس معمارى إيطالي. كان حال تلك الكاتدرائية الممتاز مصدر راحة لى فليس هنالك بها أثر لما كنت أخشاه من التدنيس أو حتى مجرد الإهمال.

كان واضحا أن المبنى ظل -ولسنوات- محاطا بالرعاية والعناية، وأنه يستخدم الآن كمتحف إذ إن فيه من التماثيل والنصب التذكارية الشيء الكثير. شهدنا فيه معرضا عن اجتماع الاتحاد الأفريقى الذى كان مقررا له أن ينعقد فى الأسبوع التالى لزيارتنا. رغم ذلك فقد أسفت جدًا لإزالة برج الساعة الأنيق من مبنى الكاتدرائية. خبرت لاحقا بأن ذلك البرج كان مخبأ لجنود قناصة استخدموه لمهاجمة القصر الجمهورى فى سنوات الرئيس السابق جعفر نميرى ورأت الحكومة ضرورة إزالته. بعد زيارتنا للكاتدرائية دلفنا على القصر الجمهورى (مقر الحاكم العام البريطانى سابقا) ووقعنا فى سجل تشريفات الرئيس فيه. بعدها قمنا بزيارة المتحف القومى وتمتعنا برؤية ما استنقذ من آثار مناطق النوبة التى غمرتها مياه السد العالي. ولاحقا قمنا بزيارة المبنى البديل للكاتدرائية الأسقفية، والتى علمنا أن الصلوات تقام فيها سبع مرات متتالية بلغات مختلفة بسبب ازدحام اللاجئين الجنوبيين الراغبين فى أداء الصلوات بها.

قمنا كذلك بزيارة ثلاث جامعات هى الأحفاد والأهلية والخرطوم. فى جامعة الأحفاد أخبرنى أحد الأساتذة السودانيين كم هو مدين لدكتور أودال (الملقب بدوجي) عميد كلية غوردون فى سنوات ماضية. أفلحت لاحقا فى أن أجمع بين ذلك الأستاذ السوداني وابن أودال جون وحفيدته جوانا ... وهم - للغرابة- يمثلون ثلاثة أجيال بريطانية متعاقبة عملت -ويجد وتجرد- فى خدمة السودان وأهله. تعمل جوانا أودال الآن كمساعدة لمطران للكاتدرائية الأسقفية. رافقتنا جوانا فى جولاتنا المتعددة فى الخرطوم وكانت محل ترحيب وتقدير أينما ذهبنا. جامعة الأحفاد مخصصة للنساء وهى استمرار لنهج شيخ بابكر بدرى فى تعليم البنات. وجدنا فى تلك الجامعة طالبات من كل

أنحاء السودان المختلفة، بل ومن مناطق بعيدة كتنزانيا يتعايشن فى ود وألفة ومرح. إن مشروع الجامعة الأهلية هو مشروع جريء وطموح، فهى "جامعة الشعب" ولا علاقة لها بالحكومة. أما جامعة الخرطوم فهى بالطبع الجامعة الرائدة والقائدة إذ إنها تطورت عبر سنوات طويلة لجامعة من كلية غوردون التذكارية. زرناها وحظينا فيها بسماع محاضرة قيمة من د/ محاسن عبد القادر الصافى عن "السودان والكومنولث" مستخلصة من بحث قامت به فى بريطانيا والسودان. ساد بين المستمعين للمحاضرة شعور عام بأن السودان كان سيكون فى حال أفضل لو انضم إلى مجموعة الكومنولث... إن كان بإمكان دولة موزمبيق أن تنضم للكومنولث فلم لا يمكن للسودان فعل ذلك؟ بيد أن تقرير أمر كهذا هذا لا بد من ينتظر بالطبع ما تسفر عنه اتفاقية السلام الشامل بعد انتهاء الفترة الانتقالية.

أخذنا لزيارة معالم ومواقع خارج الخرطوم فذهبنا جنوبا إلى مصنع مثير للإعجاب هو مصنع سكر كنانة قرب كوستي، وشمالا إلى البجراوية حيث الأهرامات. فيها شاهدنا آثارا وكتابات ونقوشا مروية يرجع تاريخها ما بين عامى ٢٠٠ ق.م. و ٣٠٠ ق. م. من المحير فعلا أن تلك الكتابات والرموز لم تحل شفرتها بعد رغم أنه قد شاع بين كثير من الناس أن أحد الأكاديميين كان قريبا من تحقيق ذلك قبل أن يلقى حتفه (لعل الرجل يقصد الدكتور بريال هيكوك أستاذ علم الآثار البريطانى الذى كان يعمل فى كلية الآداب بجامعة الخرطوم فى الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الماضى والذى لقى مصرعه ليلا فى حادث سير فى شارع النيل وهو على دراجته الهوائية، وأشيع حينها أن الحادث كان مدبرا من جهة ما بسبب "خطورة" الأبحاث التاريخية التى كان يقوم بها الرجل. المترجم).

استمتعت على وجه خاص بنزهتين، إحداهما على ظهر باخرة فى النيل الأزرق والأخرى حفل غداء بديع تحت أشجار حديقة كمال والتاج محمد عثمان صالح. لقد أدى التوسع العمرانى للخرطوم والرغبة فى نيل مستوى حياة راقٍ إلى زيادة الطلب على الحدائق والأشجار والزهور.

كنا ندعى فى الأمسيات لحفلات استقبال أقامتها "الجمعية السودانية لتوثيق المعرفة" و"جمعية الصداقة السودانية –البريطانية"، وحفلات استقبال أخرى أقامها لنا أيضا

السفير البريطاني والسيد/ أنيس حجار. كانت تلك فرص مواتية لوفدنا للقاء عدد كبير من الناس من مختلف الجنسيات والاتجاهات والمذاهب. شهدنا أيضا ذات ليلة عرضا ثقافيا فى أم درمان، وشهد بعضنا – خارج نطاق البرنامج الرسمي – فى عصر يوم جمعة حلقة ذكر الطريقة القادرية فى أم درمان. استقبل رجال الصوفية أعضاء الوفد البريطانى بسماحة وترحيب كبيرين مما يؤكد أن الكرم والانفتاح الإسلامى ما زال موجودا فى السودان.

قمنا كذلك بزيارة غير مضمنة فى برنامج الزيارة الرسمى إلى معسكر لاجئين فى غرب أم درمان، وشهدنا المصاعب والحياة القاسية التى يعانى منها اللاجئون (الجنوبيون) الذين لم يفقد بعضهم فى الأمل فى الأوبة لديارهم، بينما وطن البعض الآخر أنفسهم على العمل فى وظائف هامشية كخفراء وحمالين وغسالين وغيرها من الأعمال اليدوية التى يقوم بها هؤلاء الناس عادة الآن. أسعفتنى ذاكرتى ببعض كلمات من لغة النوير (والتى تعادل أو تفوق بقليل لغتى العربية فى الضعف) فنطقتها فى حضرة بعض اللاجئين الجنوبيين فأشاعت فى أوساطهم بعض الحبور.

قمنا أيضا بزيارة بيتين لهاري فى الخرطوم، أحدها للصبية اليتامى، والآخر للبنات. وجدناهما بيتين عاديين بسيطين. تقوم على كل بيت امرأة (تسمى الأم) ولجنة من الأخصائيين الاجتماعية. يذهب الأطفال إلى المدرسة ثم إما إلى الكنيسة أو المسجد، ويزور أولئك الأطفال بصورة منتظمة أفراد من عوائلهم الممتدة الموجودين فى المنطقة. لقد وجدناهم أطفالا مرحين فى غاية التهذيب والأدب والطاعة، فقد لاحظنا أنهم أغلقوا التلفاز الذى كانوا يشاهدون فيه برنامج رسوم متحركة بمجرد أن طلبت منهم "الأم" ذلك! يرجع سبب تسمية المنزلين باسم "هاري" إلى أن عائلة هندريسون البريطانية كانت قد فقدت ابنها "هاري" فى حادث سير فخلدت ذكرى فقيدها بإقامة ذلك البيت للأيتام. كان من ضمن أعضاء وفدنا أحد أفراد عائلة هندريسون.

لاحظت أن أشجار المهوقنى الضخمة ما زالت واقفة على ضفاف النيل الأزرق (أهى أشجار لبخ أم مهوقني؟ المترجم) وأن وزارة الطاقة والتعدين قد تمددت إلى ما وراء تلك الأشجار وفوق مياه النهر. فى ذلك المكان سعدنا بليلة أخيرة لا تنسى. عرضت لنا ليلتها

بعضا من الأبحاث العلمية والأدبية المنشورة فى عهد الحكم الثنائي، وشهدنا أيضا عرضا عن التغيرات الكثيرة التى حدثت فى حياة السكان فى المناطق التى تم اكتشاف النفط بها. بدا جليا لنا أن ذلك الاكتشاف أتى بالكثير من الصينيين والماليزيين للبلاد. وضح لنا أيضا التمدد المهول لمدينة الخرطوم، وبناء الكثيرين لقصور وفلل فى مناطق بعيدة منعزلة عن المدينة. لا ريب أن أصحاب تلك القصور والفلل يؤملون فى أن تمتد إليهم المدينة وتضمهم إليها فى غد قريب! لاحظنا أيضا تجمعات لقطعان من الضأن فى أماكن كثيرة متفرقة فى المدينة فى انتظار صبور للمشاركة فى عيد يوم النحر.

ما هى الخلاصة التى خرجت بها من تلك الزيارة؟

خلصت إلى أن البلاد يسودها الآن (المقصود هو عام ٢٠٠٦م. المترجم) جو من الانفتاح والسلام وعدم التضييق. لم نلحظ أن هنالك ازدحاما مفرطا يطبع من حركة السيارات ولا أثر لوجود قوات أمن تنتشر فى الطرقات. لا تزال "حكومة الوحدة الوطنية" قائمة تؤدى عملها وكذلك الحال بالنسبة لحكومة جنوب السودان فى جوبا. سافر فردان من وفدنا لتلك المدينة ليشهدا احتفالات الحكومة هنالك بتوقيع اتفاقية السلام الشامل. لا تزال مشكلة دارفور هى المعضلة الكبرى التى تواجه البلاد ويبدو أن سبب بقاء تلك المشكلة المزمنة دون حل هو تفرق الحركات المتمردة والفشل فى جمع تلك فصائل تلك الحركات فى جبهة واحدة. مما لم يفت على أى فرد من وفدنا ملاحظته هو تغير وضع المرأة فى المجتمع، فما من حفل أو لقاء شهدناه إلا ورأينا المرأة تشارك فيه وتصول وتجول بحرية وثقة وظرف ، لاحظنا أيضا أن النساء قد هجرن لبس ثوب "الزراق" والأسود من الثياب وتحولن عن ذلك إلى أزياء ذات ألوان بهيجة، رافقتنا فى كل زياراتنا المتعددة الصحفية السودانية الأستاذة فوزية يوسف جلال الدين، وهى أيضا من أعضاء "الجمعية السودانية لتوثيق المعرفة".

لا أجد من تشبيه لائق لعودتى للسودان بعد خمسين عاما من الغياب إلا بالقول بأن تلك العودة تماثل قصة عشق قديم تم طمره فى غياهب النسيان، ثم تم بعثه من جديد.

مناخ السودان المصري

The Climate of the Egyptian Sudan

سي بي إستون C. P. Stone

◇◇◇◇◇◇

مقدمة: هذه ترجمة لمقال تاريخي قصير للبريطاني سي بي إستون نشر في العدد الخامس من الدورية العلمية الأمريكية الشهيرة "العلم Science" والصادرة في الثالث من أبريل عام ١٨٨٥م، وهي تستعرض في إيجاز مناخ مديريات السودان المختلفة قبيل الغزو المصري البريطاني لـ "استعادة" السودان من الحكم المهدوي. المترجم

***

لا عجب أن كان مناخ بلد شاسع مترامي الأطراف مثل السودان المصرى يتسم بالتنوع الشديد، فهو يمتد إلى نحو ١٧ إلى ١٨ درجة من خطوط العرض، ومثلها فى خطوط الطول، وتتفاوت فى مختلف أرجائه الارتفاعات بأكثر من ٦٠٠٠ قدم فى خط عرض واحد. ولا يمكن بالطبع مناقشة كل هذه الأنواع من المناخات فى مقال صغير كهذا، بيد أن الجزء من السودان المصرى الذى يشغل بال العالم هذه الأيام بسبب وجود جنود أوربيين فيه، والعمليات العسكرية التى يبدو أنهم سيقومون بها جدير بالدراسة فى جوانبه المناخية المتنوعة.

ويحتل الجنود البريطانيون موقعين فى السودان المصرى الآن هما مديرية دنقلا الواقعة على النيل، ومدينة وميناء سواكن على ساحل البحر الأحمر.

وتحتل القوات الإيطالية ميناء مصوع على ساحل البحر الأحمر وما حوله، وخليج عصب والمناطق من حوله على نفس الساحل بالقرب من باب المندب.

ومهما يكن من نوايا لدى الإيطاليين من احتلالهم لهذه المناطق على ساحل البحر الأحمر، فإن نوايا الاحتلال البريطانى هى وبوضوح شديد تتلخص فى إعلان الحرب على المهدي، ولذا فإن دراسة مناخات مناطق السودان المصرى التى تحتلها قوات المهدى تكتسب أهمية عظيمة.

ويحتل المهدى الآن ويتحكم فى المناطق التالية: مديريات الخرطوم ودارفور وكردفان وسنار وبربر والقلابات والتاكا (عدا عاصمتها كسلا) والمناطق الصحراوية الشاسعة الواقعة بين النيل قرب بربر وساحل البحر الأحمر قرب سواكن وعقيق. ولهذا يجب معرفة مناخ هذه المديريات والمناطق المذكورة آنفا.

ويوجد الآن فى المديرية الأولى التى تحتلها القوات البريطانية المستكشفة (مديرية دنقلا) نحو ٩٠٠٠ من الجنود البريطانيين بقيادة اللواء (لورد) ويلزيلي، ومعلوم أن هذه المديرية هى من أغنى مديريات السودان المصرى إنتاجا، وهى تمتد من وادى حلفا شمالا إلى حدود مديرية بربر على ضفاف النيل جنوبا. ولقد جعلت الرسائل التى بعث بها أفراد من جيش اللورد ويلزيلى خلال الشهور الماضية أسماء غالب قرى ودساكر هذا الجزء من البلاد معروفة للعالم حيثما وجدت صحف تقرأ.

١. مديرية دنقلا: إن المناخ فى فى هذه المديرية (والتى تقع الآن تحت سيطرة القوات البريطانية) ليس محتملا فحسب، بل هو فى الواقع لطيف جدًا فى أربعة شهور من السنة هى نوفمبر وديسمبر ويناير وفبراير، رغم أن رياح الخماسين تهب أحيانا فى فبراير فتضايق البريطانيين، وحتى السكان المحليين كذلك. ولا يكون الطقس عادة فى شهور مارس وأبريل ومايو والنصف الأول من يونيو بالغ السوء وغير صحى (كما هو الحال فى مناطق أخرى) ولكنه يضايق الجميع خلا السكان المحليين! وعادة ما تكون الحرارة فى تلك الشهور عالية خلال النهار إذ تصل درجتها فى الظل بين ٩٥ – ١١٠ فهرنهايت، وتهبط فى الليل إلى ٦٥ إلى ٧٠ درجة مئوية. إن هذا الفرق الكبير بين درجات الحرارة ليلا ونهارا يوجب على المرء أن يجهد فى المحافظة على صحته، ورغم الأخذ بكل الاحتياطات الواجبة فإن الإصابة بأمراض الحمى المتقطعة كثيرًا ما تصيب سكان تلك المديرية، وإن أهمل علاجها قد تغدو حمى تيفويد. وتهب فى تلك الشهور رياح مترية شديدة العنف وكثيرة الحدوث، وعلى الرغم من كونها مثيرة للضيق والمعاناة إلا أننى أعتقد أن لها دورا قاتلا للبكتريا التى تسبب الحمى، وهى بهذا تحمى إلى حد ما الأوربيين الموجودين فى تلك المنطقة فى تلك الشهور الحارة من الموت. (يجب تذكر أن هذا الزعم غير المسنود بدليل علمى قد كتب فى عام ١٨٨٥م. المترجم). تهب من شهر يونيو إلى سبتمبر رياح جنوبية وجنوبية غربية مشبعة بالرطوبة قليلا ما تتسبب فى هطول الأمطار، وتريح الأوربيين من الهبوب المترية، ولكنها فى ذات الوقت قد تصيبهم بالحمى.

هذا هو المناخ المعادى الذى سيكابده الجنود البريطانيون فى الشهور الخمسة القادمة قبل التقدم للقاء أعدائهم من الآدميين. ولا ريب أن بقاء هؤلاء الجنود البريطانيين تحت رحمة ذلك العدو الخفي، حتى فى ظل توفر عناية طبية ممتازة، سيهلك عددا كبيرا منهم، وسيكون قائدهم محظوظا إن بقى ٩٠٪ من جنوده على قيد الحياة عندما يحل شهر أكتوبر، وسيكون عدد آخر منهم (يبلغ نحو ١٠٪) فى حالة من الوهن الشديد بسبب الحمى المتكررة، وسيحتاجون لشهر إضافى من الراحة حتى يعتدل الجو قليلا ويستعيدوا بعضا من صحتهم استعداد لما سيخوضونه من معارك شرسة.

٢. مديرية سواكن: لا يمكن للمرء أن يعتبر أن المناخ غير صحيفى سواكن رغم أنه

مفرط الحرارة فى غالب شهور العام عدا شهور ديسمبر وينابر وفبراير. وتمتد الصحراء فى هذه المنطقة إلى شاطئ البحر الأحمر، وهوائها حارق لا يمكن للأوروبى الذى لم يزر المنطقة من قبل أن يتخيل مقدار حرارته، لكنه ليس ضارا بالصحة. ومن المؤكد أن تعرض الأوروبى لمثل تلك الحرارة العالية دون أخذ الاحتياطات الواجبة سيعرضه دون ريب لضربة شمس واحتقان دموي. وتبلغ درجة الحرارة فى شهر إبريل فى الظل ١٠٠ إلى ١٠٥ فهرنهايت، وبمثل هذه الحرارة يتأثر الجنود المشاة بحرارة أشعة الشمس المباشرة، والصهد والحرارة المنعكسة على الصخور أكثر من الجنود الذين يمتطون الخيول أو الإبل.

لا يختلف المناخ فى سواكن عنه فى المنطقة بين سواكن وبربر، وهذا يؤكد استحالة أن يسير البريطانيون جنودا مشاة على أقدامهم فى الطريق من سواكن لبربر خلال شهور الربيع والصيف، إلا إذا اقتصر سيرهم على ساعات الليل والفجر الباكر.

٣. مديرية بربر: لا يختلف المناخ فى بربر عنه فى دنقلا، ولكن ونسبة لتأثير مياه نهر أتبرا، فقد نجد أن الحمى أكثر انتشارا فى بعض المناطق فى شهور الصيف بأكثر مما هو موجود فى دنقلا.

٤. مديرية التاكا: عادة ما يكون المناخ فى التاكا ومناطق القلابات من يونيو إلى أكتوبر قاتلا للأوربيين. وفى تلك الشهور تهطل الأمطار بغزارة، ويختلط مائها بماء الفيضانات القادمة من مرتفعات الحبشة فتغدو التربة الغنية مثل الإسفنجة المشبعة بالماء، وتنمو الحشائش عاليا، ويغدو الهواء الصادر من بين ذرات تلك التربة مسموما. ويهجر كثير عائلات السكان المحليين قراهم فى موسم الأمطار مصطحبين معهم بهائمهم هربا من وباء الحمى التى تنتشر فى ذلك الفصل، ومن لسعات الحشرات التى تضر بصحتهم وبصحة بهائمهم كذلك، ويصوبون وجهتهم شمالا نحو الصحراء، ويبقون بها حتى أواخر شهر أكتوبر. وبعد ذلك يعودون لقراهم حيث يجدونها خضراء زاهية، والجو فيها صحي لطيف. وتظل الأحوال الجوية هكذا خلال فترة الشتاء وحتى شهر إبريل.

٥. مديرية الخرطوم: الطقس فى الخرطوم فى شهور إبريل إلى أكتوبر حار ورطب وغير صحي. وأما فصل الشتاء فالمناخ فيه ليس سيئا جدا، رغم أنه لا يعتبر صحيا. ولعل السبب فى سوء مناخ الخرطوم هو وقوعها فى مقرن النيلين الأبيض والأزرق، وعدم

مراعاة الشروط الصحية عند إنشاء الطرق والمباني. لقد شهدت العشرون عاما الماضية بعض التحسن والعناية بالمبانى السكنية فى الخرطوم، وأدى ذلك لتحسن الأحوال فيها.

٦. مديرية كردفان: تقل الأمطار فى كردفان عنها فى الخرطوم أو التاكا. وفى فصل الشتاء (من أواخر أكتوبر وحتى بداية مارس) يغدو الجو لطيفا وصحيا، وتهب الرياح على المنطقة من الشمال. ولا ترتفع الحرارة كثيرًا عن ٨٠–٨٨ درجة فهرنهايت، ويكون الهواء منعشا ومنشطا، والليالى باردة لطيفة. وفى المقابل تكون شهور مارس وأبريل ومايو شديدة الحرارة ويصعب احتمالها. وفى يونيو يبدأ فصل الأمطار ويستمر حتى نهايات سبتمبر وبدايات أكتوبر. وتتحول فى تلك الشهور الرياح إلى رياح جنوبية وجنوبية غربية. وتصب الأمطار بشكل يومى وتهطل أحيانا كل يومين أو ثلاثة. ويكون الجو فى ذلك الفصل وخيما يسبب الحمى المتقطعة التى تصيب الأجانب خاصة، بيد أن السكان المحليين قلما يتأثرون بها.

وعلى الرغم من أخذ كل الاحتياطات الممكنة، فإن الأمراض المفضية للموت فى أوساط الجنود فى ذلك الفصل المطير أمر يستحيل تحاشيه. وقد علمت من تجربة شخصية بعثت فيها بحملة استكشافية لتلك المنطقة وهى مزودة بكل ما يلزم من أدوية ومعدات طبية أن نحو ٦ ٪ من الجنود لقوا حتفهم فى الشهور الأربعة الأولى لهطول الأمطار، بينما لم نفقد إلا عددا يسيرا جدًا منهم فى بقية شهور العام.

٧. مديرية دارفور: يشابه مناخ دارفور المناخ فى كردفان إذ تهطل الأمطار فى المديريتين فى ذات الشهور، وتتشابه الظروف الصحية فيهما فى موسم الأمطار. ولكن –وبحسب ما جاء فى تقارير المفتشين الطبيين فى دارفور– فإن الحمى فى دارفور أشد تأثيرا مما هو مشاهد فى كردفان.

أول رشفة من ماء النيل
من مذكرات باتريك كولنسون أستاذ التاريخ بجامعة الخرطوم في الخمسينات والستينات

◇◇◇◇◇◇

تقديم: هذه ترجمة لشذرات متفرقة ومختصرة من فصلين عن السودان وردت في مذكرات البروفسيور الإنجليزي باتريك كولنسون (١٩٢٩ – ٢٠١١م) والتي أعطاها عنوانا طويلا هو: "تاريخ رجل التاريخ أو نظرة إلى القرن العشرين من مسافة آمنة". عمل البروفسيور لبضع سنوات في جامعة الخرطوم في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، حيث كان يكمل أطروحته لنيل درجة الدكتوراه، ثم عمل من بعد ذلك في جامعات لندن وسيدني وكمبردج وشفيلد. يعد بروفسيور كولنسون حجة في التاريخ المسيحي في العصر الإليزابيثي.

صدرت المذكرات في عام ٢٠٠٧م، وهي مبذولة في الشبكة العنكبوتية، وضمنها المؤلف كثيرًا من الصور النادرة والفريدة عن السودان، مثل حفل تخريج طلاب جامعة الخرطوم في عام ١٩٥٩م في حضور أعضاء من المجلس الأعلى للقوات المسلحة، وصورة تضم عددا من طلاب الجامعة وكتب عليها تفسيرا ساخرا هو "تقسيم بالغ الدقة لمجموعة من طلاب جامعة الخرطوم: ثلاثة طلاب من شمال السودان وطالب جنوبي واحد وطالبة شمالية واحدة وطالب أغريقي وحيد". تسود غالب ما سطره المؤلف عن أيامه بالسودان روح الدعابة والسخرية السوداء وبعض العنصرية والتعصب الديني، بيد أنه يزعم في أكثر من موضع اهتمامه وحبه للسودان وأهله، وينتقد بمرارة عشيرته الإنجليز على ابتعادهم عن حياة سكان البلاد الأصليين وعزلتهم المجيدة في "نادي السودان" الذي تقتصر عضويته عليهم. المترجم

***

بدأت فى سبتمبر من عام ١٩٥٦م فى جمع ما سأحتاجه من ضرورات الحياة فى الخرطوم... حقيبة صفيح سوداء، وسراويل (أردية) قصيرة وجوارب طويلة تصل للركبة. وفى السابع والعشرين من ذات الشهر كنت وللمرة الأولى فى حياتى على متن طائرة الخطوط البريطانية المتجهة لأستراليا وغالب ركابها من المهاجرين البريطانيين مع عدد من الرياضيين المشاركين فى أولمبياد مليبورن بستراتهم المميزة. توقفت بنا الطائرة فى روما ثم فى القاهرة حيث كان بإمكاننا أن نرمق الأهرامات من عل، فى القاهرة تحولنا لطائرة داكوتا تابعة للخطوط الجوية السودانية توقفت بنا فى مطار حلفا. لن أنسى ما حييت تلك السموم التى لفحتنى عند نزولنا فى مطار حلفا... لا شيء يشبه ذلك الهواء الملتهب غير ما يلفح وجهك عندما تفتح باب فرن مشتعل.

وصلنا للخرطوم واستقبلنى فى المطار الآن ثيوبولود وهو زميل قديم متخصص فى تاريخ السودان. عند خروجنا من المطار لاحظت لافتة كبيرة مكتوب عليها: "مرحبا فى السودان: جنة الصيادين"... قال لى زميلى: إنهم كانوا يتندرون على ما هو مكتوب فى اللافتة بالقول أن ذلك يعتمد على ما تود صيده! أخذنى زميلى للفندق الكبير على ضفاف النيل. فى الفندق كان بائعو التحف والتذكارات يصيحون فى من يشكون أنه ألماني: "بسمارك عظيم... هتلر شديد"!

كنت أقضى أمسياتى فى فرندا الفندق أكمل كتابة أطروحتى للدكتوراه، والتى كانت زوجتى "إيثر" تحث والدتى كى تحضنى على إكمالها، وكأننى كنت فى حاجة لذلك. كنت فى الواقع مصمما على تقديم الأطروحة عند عودتى فى العطلة السنوية فى صيف ١٩٥٧م، وقد نجحت فى ذلك المسعى بالفعل رغم كل شيء ، فكم كنت أقضى الساعات الطوال فى الكتابة والقراءة فى جم الظهيرة والناس نيام. كنت أحيانا أعجب مما أفعل ، وأنا أكتب عن تاريخ العصر اليزابيثى وأنا محاط بكل ما هو فى غاية الغرابة والبعد ما ألفته... القطط الضالة فوق سطح الغرفة، والعناكب تعدو على أرضيتها، والوزغات (السحالي) تتخير طعامها المفضل من ما هو أمامها من عشرات الحشرات، والنموس تجوس فى مسطح الحديقة الأخضر، بينما مروحة السقف تدور بطنينها المزعج وتجبر المرء على وضع أثقال من الحجارة على الأوراق كى لا تتطاير فى كل مكان. الجلبة فى الخارج لا تطاق، والرجال

بعمائمهم وجلابيبهم البيضاء الطويلة يجيؤون ويذهبون أو يركضون صعودا وهبوطا على ظهور الحمير.

منحتنى الجامعة بيتا صغيرا كان فى السابق أحد مساكن الجنود ، ويجاور بناية تسمى "السراية الصفراء" كان قد بناها زعيم دينى من أصل هندى على ضفاف النيل الأزرق (لعله يقصد "الشريف الهندي" وهو ليس بهندي. المترجم) تقع بالقرب من محطة توليد الكهرباء فى بري، وكانت مقرا للإمبراطور هيلاسيلاسى فى أعقاب غزو إيطاليا لإثيوبيا عام ١٩٤١م. كان بذلك المبنى ملعب للإسكواش وكنا نمارس تلك اللعبة ليلا تحت الأضواء الكاشفة حتى قبيل منتصف الليل. قضيت أياما أشد الرحال لأم درمان لشراء أثاثات خشبية من النجارين، وللحصول على خادم يقوم على شؤوني. طلبت من أحد النجارين أن يصنع لى سريرا وكرسيين وثيرين وأريكة وطاولة قهوة وطاولات صغيرة وكراسى متحركة لأضعها فى الفرندا. طلب ذلك النجار إمهاله عشرة أيام لصنع ما أردت وبتكلفة إجمالية قدرها خمسون جنيها. كذلك عثرت على خادم لى هو شاب نوبى من جهة دنقلا اسمه محيى الدين، سيتولى خدمتى فى كل شيء من غسيل وطبخ وذلك للسنوات الخمس القادمة. كلما تذكرت المرتب الذى كنت أمنحه لمحيى الدين تصيبنى عقدة الذنب، فقد كنت لا أمنحه أكثر من جنيهين أسبوعيا. لم أكن أعلم شيئا عن كيفية معيشة ذلك الشاب وعائلته الصغيرة التى كانت تتكون من زوجته وطفله الصغير.

كان السودان قد نال استقلاله للتو من بريطانيا ومصر فى يناير ١٩٥٦م، وكان من بقى من البريطانيين يداومون على قراءة صحيفة "الجارديان" ربما لإقناع أنفسهم بأنهم لا يعيشون ولا يعملون فى بلد مستعمر! حرصت على ألا أقرب "نادى السودان" والذى تقتصر عضويته على البريطانيين. غير أن طابع حياتنا كان ما زال —حتى بعد استقلال السودان- استعماريا بحتا. كتبت لزوجتى أقول لها ذات مرة: "الغالبية العظمى من الإنجليز هنا ، ويشمل ذلك الأساتذة فى الجامعة، لا يعنيهم من أمر هذه البلاد أو سكانها شيء، فهم يعيشون فى عزلتهم المجيدة فى وسط مجتمعهم الضيق." أقول هذا رغم أن أكثر من نصف الأساتذة كانوا من السودانيين. كان البعض يتهم من يحاول منا كسر الحاجز الجليدى بين الطرفين بأنهم "سودانيون بيض"، وأننا نحاول تملق الوطنيين للحفاظ على

وظائفنا. يجب القول بأنه كان لنا بعض الامتيازات فمثلا لم نكن نقف فى طابور المصرف أو مكتب البريد، ولم نكن نحتاج كذلك لمعرفة اللغة المحلية، فمعرفة القليل منها يكفى للتبضع فى السوق، بينما كان التدريس يتم باللغة الانجليزية. كنا نستمتع بالزيارات المتبادلة مع الزملاء البريطانيين وغيرهم من الأجانب وبالسباحة فى مسبح نادى طلاب الجامعة والذى خصص لنا فيه مساء يوم واحد فى الأسبوع. أقمنا فيه ذات مساء حفلا للشواء (باربيكيو) واحتساء البيرة، فأتانا جمع غاضب من المتظاهرين من الطلاب المحافظين المسلمين يحتجون على ما كنا نفعله. عندما أخبرناهم بأننا قد تحصلنا على إذن رسمى لإقامة حفل ردوا بالقول بأنهم لم يكونوا يعلمون بأن الإذن قد منح لإقامة "حفل غير أخلاقى فيه خمر ونساء". فهمت بعد ذلك أن الحفلات على ثلاثة أنواع: رسمية وغير رسمية وأخيرا "غير أخلاقية"!

كان عدد طلاب جامعة الخرطوم (والتى ولدت مع ميلاد جمهورية السودان المستقل فى ١٩٥٦م) لا يتجاوز ١٢٠٠ طالب كلهم عدا ٤٠ – ٥٠ من طلاب شمال السودان العرب المسلمين. كان أفضل طلابنا القادرين على استيعاب ما نقوم بتدريسه هم من الجنوبيين المسيحيين الذين كانت معرفتهم باللغة الإنجليزية أفضل من غيرهم نسبة لتلقيهم دراستهم على يد المبشرين المسيحيين (علمت من طالب سابق لهذا البروفسيور أنه كان يدرس مادة "تاريخ العصور الوسطى"، وكانت من أصعب المواد وأكثرها جفافا، ويزيد صعوبة النجاح فيها هو بخل البروفسيور الشديد فى إعطاء الدرجات. المترجم). ذات مرة أتانى طالب فى إحدى الدفع التى كنت أقوم بتدريسها (وعدد الطلاب فى تلك الدفعة كان خمسة فقط) وكان يرغب فى استعارة كتاب معين. أخبرته أنى قد أعرت قبل أيام ذلك الكتاب لطالب اسمه "هيلارى نايقولو بول" (والذى صار وزيرا فى إحدى الوزارات فى عهد من عهود الديمقراطية قصيرة الأجل)، فرد قائلا: "هيلارى بول... هل تقصد ذلك العبد؟"... من مثل هذه العقلية بدأ الطور الجنينى للتاريخ السودان التراجيدى الطويل. قال لى زميل يحمل درجة الدكتوراه وهو ينظر إلى صورة رجل جنوبى ينشر شبكة صيده فى النهر: "انظر ما فعلت الإمبريالية ببلادنا! هذا الرجل يسير عريانا بين الناس ويصيد السمك."

ذات عام وفى احتفال اليوم المفتوح لاتحاد الطلاب كان من المقرر أن يتحدث ضمن المتحدثين الآخرين طالب قانون جنوبى اسمه أبيل ألير كيواي. انسحب أبيل فى اللحظات الأخيرة إذ إن لغته العربية كانت فى غاية الضعف، وكان هذا مصدرا للسخرية من جمهرة الطلاب. عند المساء رأيته فى النادى فعرض أن يأتينى بمشروب. عاد وبيده زجاجة كوكاكولا فرآنى أتجاذب أطراف الحديث مع مجموعة من الطلاب الشماليين فآثر الانسحاب بهدوء. معلوم بالطبع أن الرجل صار فى ما أقبل من أعوام وزيرا ثم نائبا للرئيس بين أعوام ١٩٧١ – ١٩٨٢م، وصار شخصية عامة يشار إليها بالبنان، وشارك فى عام ٢٠٠٥م فى محادثات السلام بين الشمال والجنوب. كان بالفعل من أفضل أبناء جيله.

كان كل الطلاب فى الجامعة من الذكور خلا ٣٠ من الإناث، حيث كن يسكن فى داخلية منفصلة تقوم عليها سيدة إنجليزية صارمة فى منتصف العمر اسمها نانسى مولر، كنت ضمن مشيعى جثمانها بعد سنوات من عملها فى السودان إثر إصابتها بداء التهاب الكبد. الطالبات يرتدين الثوب السودانى الأبيض فى غالب الأوقات عدا فى ساعات الدراسة العملية فى المختبرات حيث كن يخلعن ثيابهن ويرتدين المعاطف البيضاء، وكان ذلك مما يثير اهتمام الطلاب! كنا نقوم بالتدريس من السابعة حتى التاسعة، وبعد ذلك يذهب الطلاب لتناول الإفطار ويعودون عند العاشرة لمواصلة المحاضرات حتى الثانية ظهرا. تعود الحياة للجامعة بعد ذلك عند الخامسة مساء حين نبدأ محاضرات أخرى. كنت أحاضر الطلاب دوما بنوع من البطء، ولكن رغم ذلك كانوا يكثرون من الاحتجاج على أننى أتحدث بسرعة فائقة! كان الطلاب يصرون على كتابة كل كلمة أتفوه بها ليقوموا بإعادتها لى فى ورقة الامتحان كما هى دون زيادة أو نقصان! كان تعليما يعتمد على الحفظ دون غيره من الأساليب الأخرى مثل الفهم والمناقشة والاختيار والأخذ والرد. قلت لهم ذات مرة أننا يجب أن نأخذ ماركس (Marx) على محمل الجد، فسجلها الطلاب فى كراساتهم خطأ على أنها (Marks) بمعنى درجات، وكانت الدرجات فعلا هى ما كان يشغل بالهم!

كان الطلاب يرتدون فى الجامعة قمصانا بيضاء وسراويل (بناطيل) رمادية اللون، وعندما يخرجون منها فى الأمسيات أو العطلات يرتدون ما هو أكثر راحة: جلابيب

بيضاء واسعة. كان الدخول للجامعة بعد تصفيات عسيرة من المدرسة الأولية فالوسطى فالثانوى هو غاية مطمح كل طالب، فقد كانت أشبه بعملية تجارية شديدة الطموح، إذ إن الخريج الجامعى كان لا يهتم أو يبالى بالتفكير فى المستقبل، فهو يعلم سلفا بأنه سيحصل على وظيفة ما فى إدارة بلاده عند التخرج.

كان العام الدراسى يبدأ من يوليو وينتهى فى مارس، وفى النصف الثانى من العام الأكاديمى عادة ما يضرب الطلاب قرب نهاية العام الدراسي. فى العام الذى أتيت فيه للجامعة (١٩٥٦ - ١٩٥٧م) كان سبب الإضراب هو الدعوة لطرد من تبقى من الإداريين البريطانيين (الإمبرياليين) وكانوا ثلاثة: مدير الجامعة مايكل جرانت، والمراقب المالى والمسجل. كان نحو ٩٧٪ من الطلاب يؤيدون ذلك النوع من الإضرابات عدا غالب طلاب كلية الطب، والذين كانوا يعدون "صفوة" الحرم الجامعي.

دعوت طلابى لتناول الشاى فى منزلى ذات مساء، بيد أنهم غادروا المنزل على عجل بعد أن شكرونى على الدعوة حتى يتمكنوا من حضور اجتماع عاجل فى دار اتحاد الطلاب، ورفضوا فى تكتم شديد إخبارى بسبب ذلك الاجتماع. فى الصباح أتيت بدراجتى الهوائية -كما هى عادتي- مبكرا للمحاضرة الأولى ففوجئت بالقاعة خالية من الطلاب. علمت من أحد الموظفين أن الطلاب قد دخلوا فى إضراب عن الدراسة. كان أقصى ما يمكن للجامعة أن تفعله بهم هو أن تصرف لهم بالمجان تصاريح السفر بالقطار إلى مناطقهم التى أتوا منها. بيد أنه بعد عام أو عامين حقق الطلاب انتصارا باهرا ومجيدا عندما اقتحمت قوات الجيش (الصحيح الشرطة بالطبع. المترجم) الحرم الجامعى وقتلت منهم طالبا، وتسارعت الأحداث من بعد ذلك لتؤدى لسقوط حكومة عبود العسكرية. كان تلك أول مرة فى التاريخ الأفريقى تقوم فيها حكومة عسكرية بالإذعان لمطالب الجماهير وتعود بالجيش إلى ثكناته.

لقد عينت فى جامعة الخرطوم لتدريس مادة "تاريخ الاقتصاد الانجليزي" والتى كان يقوم بتدريسها السيد/ ويلشر عميد كلية الخرطوم الجامعية قبل أن يعود لبريطانيا للعمل مسجلا فى إحدى الجامعات. لم يكن ذلك تخصصى فذهبت إلى مدرسة لندن للاقتصاد لمقابلة بروفسيور جاك فيشر طلبا للنصح والعون. أوصانى الرجل بأن أحصل على كتاب

كلافام المعنون "تاريخ إنجلترا الاقتصادي" بمجلداته الثلاثة. حاولت فى محاضراتى بث الحياة فى تلك المادة الجافة بتدعيمها بوثائق أصلية وصور متفرقة عن الثورة الصناعية والقنوات والسكة حديد والمطاحن وغيرها. ذات مرة كنت أحاضر الطلاب عن بعض النظم الزراعية فى العصور الوسطى حين فاجأنى طالب اسمه عبد الرحمن بسؤال عما إذا كنت أتحدث عن النظام الذى لا زال متبعا فى لاكسيتون فى مقاطعة نوتنجهامشير. أخذت على حين غرة وأجبت بالإيجاب. تبين لى أن والد عبد الرحمن واحد من الأثرياء الذين يعملون فى مجال الأصداف التى تصنع منها أزرار القمصان، وقد استضافنى ذات مرة فى بورتسودان. كان الرجل قد بعث بولده عبد الرحمن لقضاء عام كامل فى كلية ريجنت إستريت، والتى أرسلته مع آخرين فى رحلة علمية إلى لاكسيتون. يجب القول بأن مثل تلك المفاجآت كانت نادرة الحدوث فى قاعة المحاضرات!

فى عامى الأول لم يكن الطلاب يلقون بالا لمحاضراتى ولم أدر ما السبب حتى ذهبت ذات يوم لمخزن الجامعة من أجل الحصول على شيء ما فوجدت أعدادا من مذكرات السيد ويلشر (من خلفته فى تدريس مادة "تاريخ الاقتصاد الانجليزي")، وفيها من الخزعبلات ما كنت أجاهد فى محاضراتى لإزالته من عقول الطلاب. كانت تلك المذكرات ما زالت توزع على الطلاب الراغبين. لا بد أنهم كانوا يرون أن مذكرات عميد كلية الخرطوم الجامعة أغزر علما وأشد نفعا من محاضرات شاب غرير متعين لتوه فى الجامعة. بعد ذلك عهد إلى بتدريس تاريخ العصور الوسطى فى أوروبا وتاريخ بريطانيا الدستورى المعاصر وحتى تاريخ أفريقيا . كان حظى من التوفيق فى تلك المواد أفضل قليلا من حظى مع ما كان السيد/ ويلشر هيدرسه!

من أغرب التجارب التى مررت بها فى السودان هى زيارتى ذات مساء مع زميل لى لساحة المولد بأم درمان (ومساحتها تعادل عشرة أضعاف مساحة ميدان الطرف الأغر بلندن) حيث ذهلت من الأعداد الهائلة من رجال الطرق الصوفية وهم يضربون النوبات ويرجحنون وكأنهم فى غيبوبة ونشوة صوفية عميقة ويرددون بلا انقطاع وعيونهم مغمضة كلمة "الله الله الله". فى السودان طريقتان رئيستان هما الختمية (وزعيمها السيد/ على الميرغني) والأنصار (وزعيمها السيد/ عبد الرحمن المهدي). يطلق على كل طريقة من

الطريقتين كلمة "طائفة sect"، وهذه الكلمة لا تعبر تعبيرا دقيقا عن معنى الكلمة الحقيقي، فمعناها أعمق من ذلك بكثير. دلفت وصاحبي نحو سرادق الأنصار حيث وجدناه بالغ الفخامة والبهاء وتكسو أرضيته عشرات من فرش السجاد الناعم. كنا الأوروبيين الوحيدين في المكان فأحسن راعي السرادق استقبالنا وأخبرنا بأن السيد/ عبد الرحمن المهدي كان قد غادر المكان لتوه، وأجلسني على الكرسي الذي كان يجلس عليه سيده كنوع من التكريم، وأمر لكلينا بالمرطبات. قال لنا في حماس: "نحن نشرف بزيارتكم لنا. سأخبر السيد / عبد الرحمن بأن اثنين من بروفسورات الجامعة – الذين يعلمون طلابنا – قد زارا سرادقنا وجلس أحدهما على كرسيه." في الخارج كانت هنالك ملايين الثريات الكهربائية الصغيرة، والبالونات الملونة وسحابة كثيفة من الغبار الناعم، ومئات الأطفال وهم يحملون في جزل "عرائس المولد" السكرية الوردية اللون. كانت بالحق ليلة تشبه ليلة من ليالي "ألف ليلة وليلة".

في ما أقبل من شهور صرت مدرسا خصوصيا للابن الأكبر لراعي الطائفة الأخرى...طائفة الختمية واسمه محمد عثمان الميرغني. الآن محمد عثمان الميرغني هو راعي الطريقة الختمية وزعيم جناحها السياسي "الحزب الاتحادي الديمقراطي". يتمتع الرجل بعلاقة "غير مريحة" بعض الشيء مع النظام العسكري القائم الآن، إذ إنه كان قد سجن ونفي لمصر، ثم غدا رئيسا للتحالف الوطني الديمقراطي، بيد أن الحكومة الحالية أفلحت في جعله يعبر للضفة الأخرى. كتبت لزوجتي عند تعييني معلما خصوصيا لمحمد عثمان قائلا: إن ذلك يعادل تعييني مدرسا خصوصيا لابن البابا... هذا بالطبع إن كان هنالك بابين وأحدهما قد رزق بولد! خصصت العائلة منزلا فخيما في أحد ضواحي العاصمة لتكون مقرا للحصص التي طلب مني أن أقدمها لمحمد عثمان الميرغني والتي كانت عن "التاريخ الأوروبي المعاصر" تحضيرا لامتحان الشهادة الثانوية العليا. أثثت غرفة التدريس على طراز "الإمبراطورية الثانية" ولكن بصورة متقشفة، وكانت – كما ذكرت لزوجتي في أحد الخطابات – أقرب لغرفة تبديل الملابس في كنيسة صغيرة غنية، ولا ينقصها غير صور القساوسة السابقين معلقة على الجدران. كانت تقلني لدار السيد الميرغني سيارة من طراز كاديلاك ثلاثة مرات في الأسبوع، وكانت كتبه المدرسية

(القديمة الطبع) تأتينا فى الغرفة بطريقة احتفالية يحملها خادم صموت. كنت أشعر بالأسى على طالبى محمد عثمان وهو فى زيه التقليدى الثقيل، فهو لم يذهب لأى مكان فى العالم، بينما كان أبناء عائلة المهدى يتعلمون فى الجامعات البريطانية ويرتدون الملابس الأوربية.

كلنا يعلم ما جرى فى نوفمبر من عام ١٩٥٦م فى السويس. صادف اليوم الذى قصفنا فيه السويس يوم الافتتاح الرسمى لاتحاد طلاب جامعة الخرطوم، وكان ذلك يومًا مشهودا حضر فيه للجامعة عدد من الوزراء. كان الطلاب يستمتعون بتعداد الأخطاء اللغوية التى يقع فيها من قاموا بمخاطبة الحفل؛ ويبدو أن أحدًا لم يسلم من تلك الأخطاء! كان على بروفسيور قرانت (وهو يجهل العربية) أن يستمع فى صبر لعشرات الخطب الحماسية التى تدين إسرائيل وبريطانيا، وكان عليه أن يرد على كل ذلك! كان الطلاب قبل ذلك المساء يسألوننى عما إذا كان "إيدن" (رئيس الوزراء البريطانى حينها) سيفعلها، وكنت أجيب بالنفي. لاحقا فى ذلك المساء فى "السراية الصفراء" علمت من نشرة الأخبار فى البى بى سى أنه فعلها، وكنت أتخيل سماع أصوات تلك القنابل وكأنها ستصيبنى فى بري.

بقينا فى أمان، خلافا لما حدث لكثير من البريطانيين فى أرجاء العالم العربي. ظل الطلاب على ذات تهذيبهم الشديد نحونا (حتى وهم فى ملابس التدريب العسكرى تطوعا للقتال فى السويس)، بيد أن معاملتهم لنا غدت باردة نوعا ما. ولكن حدث فى مرة واحدة أن ترجل واحد عن سرج دراجته الهوائية وهتف فى وجهى بسقوط إيدن. عمت المظاهرات المعادية لبريطانيا وسط العاصمة وأمام سفارتنا، وكنت أرى وأنا فى طريقى لمنزلى الجنود فى حالة استعداد وهم يحرسون محطة برى الحرارية. انقسم الأساتذة الأجانب فى الجامعة ما بين مؤيد ومعارض للحرب، مثلما انقسم مجلس الوزراء البريطانى فى ١٠ شارع داوننق. كنت أتشارك فى المكتب مع أستاذ للغة الإنجليزية أصله من ويلز، وكان مؤيدا متعصبا للحرب، بينما قمت أنا وآخرين بكتابة خطاب إلى صحيفة الجاردين فى مانشستر ندين الحرب ونصفها بأننا نراها مخطئة من حيث نقف. بعد أيام وجدنا أسماءنا فى قائمة بيضاء فى السفارة المصرية بالخرطوم، وتم منحنا تأشيرات دخول لمصر...يا

للحظ السعيد! كانت أيام الحرب تلك مقلقة لأمى لأن أختى هيلدا كان تعمل فى مدينة الناصرة كمبشرة، وكان أخى بيرنارد وزوجه يعملان كمبشرين فى جبال بلاد القبائل بالجزائر.

فى عطلة عيد الميلاد (الكريسماس) طفنا من بيت لبيت ونحن نؤدى التراتيل المعتادة، ودعانا السير إيدون شابمان إندروز سفيرنا فى الخرطوم لتناول المشروبات فى حفل أقامه فى دار السفارة. وقفت بجانبه وقلت له إنه لا بد أن يكون قد مر بأيام عصيبة، فرد بالقول : "نعم، ولكن الحمد لله لدينا رئيس وزراء من الطراز الأول". لم يكن السفير يعنى إيدن بل كان يقصد عبد الله خليل رئيس وزراء السودان، عرضت دور السينما فى الخرطوم أفلاما تدعى أنها تقدم دلائل أكيدة على إسقاط المصريين لمئات الطائرات البريطانية. قال لى زميل سودانى يحمل درجة الدكتوراه متسائلا: "لماذا تصرون على موقفكم ، وقد خسرتم ٧٠٠ طائرة حربية وثلاثين ألفا من الجنود؟"! كان ما عرض فى دور السينما يومها هو من أفلام الحرب العالمية الثانية، ونجح سفيرنا فى الخرطوم فى سحب تلك الأفلام بعد أن هدد بعرض أفلام بريطانية تظهر ما حدث فعلا. نجحت حكومة عبد الله خليل فى مقاومة دعوة المعارضة (المدعومة من قبل المصريين) لطرد كل العاملين فى السودان من البريطانيين (وكان هذا سيشملنا بالطبع). رغم ذلك بقينا على أهبة الاستعداد للرحيل فى أى وقت!

مع بداية العام التالى (١٩٥٧م) زار الخرطوم نائبنا فى مجلس العموم عن دائرة ابشيوتش السيد ديك استوك، وهو رجل اشتراكى التوجه وكاثوليكى الديانة، وكان صديقا للعرب وله معهم مصالح تجارية. قدم النائب محاضرة فى "دار الثقافة" أوضح فيها أن مصر قد خسرت حرب السويس وفقدت فيها الكثير، وإنه من الأفضل لها مواجهة تلك الحقيقة. أعجبت بالرجل وهو يصرخ بصوته الجهورى فى وجه شاب غرير من أحد طلابنا الثوريين قدم له سؤالا مطولا جدًا ويقول: "صَهْ!Shut up. لقد استمعت إليك بما فيه الكفاية. دعنى أرد عليك الآن." بعد شهور قليلة توفى السيد/ استوك وأدلت والدتى بالإنابة عنى مصوتة للنائب العمالى د. فوت، والذى نجح فى الانتخابات.

قبل حلول أول عيد للميلاد أشهده فى السودان قمت بعدة رحلات لا تنسى فى

مناطق مختلفة ووعرة من البلاد لا يمكن الوصول إليها إلا بسيارة من نوع خاص. انضممت مع ثلاثة زملاء آخرين لبعثة طبية كانت متوجهة لجبال الأنقسنا فى أقصى مناطق مديرية النيل الأزرق على الحدود مع أثيوبيا. كان غرض البعثة هو البحث فى ذلك المرض القاتل: الكلازار. كان البعثة تضم طلابا من كلية الطب، وفى تلك الرحلة تبين لى أن طلاب الطب هؤلاء أكثر ثقافة واطلاعا وتمرسا فى ضروب الحياة المختلفة من طلابنا فى كلية الآداب. ومع مرور الوقت فى رحلة الذهاب لتلك المنطقة البعيدة والغبار يغطى أجسادنا وكل شيءآخر حولنا كنت أناقش مع طلاب كلية الطب روايات أندريا جيدا! بيد أن كل ما كان خارج تلك السيارة كان يؤكد أننا فى السودان الحقيقي: قرى مبانيها عبارة عن قطاطى متناثرة من القش، وسكانها من النساء يجلبن الماء وهن غير متحجبات، ورعاة إبل أكرمونا بلبن طازج حار من ضروع النياق مباشرة. مررنا فى مسيرتنا تلك بقوم رحل يقوم اقتصادهم على جمع الصمغ من شجر الأكاسيا. لا يمكنك بالقطع أن تجد مثل هذه الأشياء فى بيرمنجهام! رأينا آلافا من "اللقلق"، ذلك الطائر الأوروبى الذى يهاجر لهذه المناطق هربا من صقيع الشتاء القارس. كم من مرة غرزت إطارات سيارتنا فى الرمال! كنت مغرما بصيد الفراشات مستخدما شبكة، وكان معنا فى تلك البعثة –لسبب ما– طبيب أسنان سودانى أعجب بقدراتى فى صيد الفراشات فطفق ينادينى بـ "الصياد الأبيض العظيم"!

لم يطلق السكان "الأنقسنا" على أنفسهم هذا الاسم، ولكن يقال: إن كلمة "الأنقسنا" تحريف لكلمة عربية تفيد معنى "complete bastards" (لم أجد لما ذكره المؤلف أصلا، وللمزيد عن الأنقسنا يمكن قراءة كتاب "أثنوجرافيا الأنقسنا" للدكتور فاروق مصطفى إسماعيل الصادر عام ١٩٨٠م. المترجم). لا عجب أنهم يعتقدون الأخير يرجى فى جيرانهم الفونج المتحدثين بالعربية. يطلق الأنقسنا على أنفسهم اسم "جوك جام" أو "رجال الجبال"، وكان اسما المستوطنتين اللتين كانت تدار منهما المنطقة (وهما "ويسكو" و"سودا") مثار تندر الحكام البريطانيين (لعل المؤلف يشير هنا إلى قرب نطق الكلمتين من الويسكى والصودا. المترجم). علمنا أن سكان "ويسكو" (الواقعة فى منطقة باو جنوب غرب الدمازين. المترجم) و"سودا" مختلفون جدا، ولا يتصاهرون أبدا ولكل

منهم لهجته وإلهه الخاص. وذات مرة وأنا أبحث عن فراشاتي البيضاء عند قاع نهر جاف لقيت شابا مع حبيبة له، وأثار منظري وأنا أحاول اصطياد الفراشات عندهما عاصفة من الضحك. كان الأنقسنا يعاملوننا بتسامح وطيبة كبيرة، وبما أننا لم نكن نحمل أي سلاح فقد كنا في نظرهم مجرد عبيد! تعرفنا في زيارتنا تلك على بعض ممارسات الشباب قبل الزواج عند الأنقسنا، وكيف أنه يجب على الشاب الذي يود التقدم للزواج من فتاة أن يخدم والدها لمدة عامين أو أكثر قبل أن يسمح له بالزواج منها (تماما كما فعل يعقوب بحسب رواية الإنجيل!). لا يتم الزواج إلا بعد طقوس معقدة (توسع المؤلف في أكثر من صفحة في وصف تقاليد الزواج عند الأنقسنا وما يسبقه من طقوس وسلوك، وعن حفلات غنائهم ورقصهم وآلاتهم الموسيقية، وخصص صفحة أخرى للحديث عن اضطهاد المسلمين للأنقسنا ومحاولة أسلمتهم قهرا. المترجم).

كانت إحدى مزايا العمل في جامعة الخرطوم هي العطلة الصيفية الطويلة والتي تمتد لثلاثة شهور متصلة مدفوعة الراتب، مع تذاكر سفر بالطائرة مجانا لموطن المتعاقد. وبإمكان المرء أن يدفع من جيبه قليلا لتغيير التذكرة ومسار سيرها لأي مكان في منطقة البحر الأبيض المتوسط. كنت دوما أقضي شهرين من عطلتي في بريطانيا لعمل بعض الأبحاث وممارسة هوايتي المفضلة في تسلق الجبال قبل العودة للجامعة في يوليو، حيث أكون قد نسيت أسماء طلابي والذين كانت غالب أسمائهم هي أحمد أو محمد أحمد ومحمود أو أحمد أحمد محمود.

أكملت في عطلتي الصيفية كتابة أطروحة الدكتوراه والتي عنونتها عنوانا لم يعجبني فيما بعد وهو

The puritan classical movement in the reign of Elizabeth I

ولم يعجبني أيضا عنوان الكتاب الذي نشرته في عام ١٩٦٧م نقلا مما أوردته في تلك الأطروحة. لقد أرهقت أطروحة الدكتوراه تلك أمي أكثر مني، إذ أنها تولت طباعة كامل صفحاتها (وربما كان عدد كلماتها يصل إلى نحو ٨٠٠٠٠ كلمة)، ولما لم تجد تلك الأم الحانية شيئا أفضل تفعله قامت بعمل فهرس مجود لها! بعد نجاحي في امتحان الدكتوراه الشفهي قمت مع زوجتي وزميل بولندي يعمل معي في جامعة الخرطوم وزوجته الجميلة

برحلة فى منطقة البحيرات البديعة، وسعدت برفقة أمى لعدة مناطق قبل أن أعود للخرطوم بطائرة الخطوط الجوية السودانية والتى توقفت فى مالطا لساعتين. قلت لزميل سودانى كان معى فى الطائرة وفى الفندق بمالطا إننى سوف أقوم بجولة فى المدينة فى هاتين الساعتين. رد فى يسر وهو جالس على أريكة الفندق بأنه ما من شيء فى مالطا يستحق المشاهدة!!!

بعد يومين من وصولى للخرطوم شهدت المدينة أكبر غزو للجراد عرفته البلاد. رأيت بلايين الجراد يغطى السماء بسحابة سوداء. خاف الناس ومضوا فى دق الصحون والقدور وهم عاجزون عن فعل شيء أمام ذلك الغزو!

كانت للحياة فى الخرطوم أبعادا ومستويات مختلفة. كان هنالك المستوى السياسى والعام، والذى كان ينعكس على الحياة فى الجامعة (عدا فى عام ١٩٦٨م) على نحو لا يعرف فى الديمقراطيات الغربية، على الأقل فى بريطانيا (لم يوضح المؤلف لماذا استثنى عام ١٩٦٨م من تعميمه الكاسح. المترجم). كانت هنالك أيضا الحياة الأكاديمية الرتيبة من محاضرات وبرامج دراسية أخرى وامتحانات فى قسم التاريخ، وإشراف على امتحانات الشهادة السودانية فى مادة التاريخ، إضافة للدروس الخاصة التى كنت أعطيها لأميرى السيد/ محمد عثمان الميرغني، وتدريس مادتى التاريخ والموسيقى فى المدرسة الكنسية الاتحاد العليا، ومناقشة عدد من قضايا العمل العام مع عدد محدود من الفتيات لإقناعهن بالتدريب فى كلية للتمريض كانت منظمة الصحة العالمية تسعى لإنشائها بالخرطوم تحت إشراف راهبات كنديات، فالتمريض كان فى تلك السنوات مهنة محتقرة تكاد تعد بابا من أبواب الدعارة.

كان لى نشاط مجتمعى آخر فى الجامعة فقد أقمت جمعية أسميتها "جمعية الثقافة المسيحية" كانت اهتمامها اجتماعية أكثر منها مسيحية أو ثقافية، وكان أعضاؤها من فئات وأجناس متباينة ففيهم أقباط وجنوبيون وأغاريق (ولكن ليس بينهم بالطبع كاثوليك، فأولئك كان لهم عرضهم الخاص!). قدمت فى مدرسة وادى سيدنا الثانوية ذات مرة محاضرة عامة تحت ضوء بدر مكتمل أمها ألف طالب من المسلمين وكان موضوعها "وجود الله". أثارت تلك المحاضرة جدلا كبيرا ونقاشا مستفيضا بين الحضور. قال لى

ناظر المدرسة: "لو كنت قد درست القرآن لوجدت فيه الإجابات عن كل الأسئلة التى طرحتها". من الصعب تصور أن ذلك يحدث مثل هذا فى القرن الحادى والعشرين. وأكثر من هذا فلا يتصور مقدار "الثقة بالعقول" على مستوى العلاقات الشخصية الذى شهدته فى ذلك اليوم، فقد كان المتحدثون هم من "الخبراء" من الأوربيين العاملين بالسودان (وكنت واحدا منهم)، وكان المستمعون هم من الطلاب السودانيين المسلمين. تلقيت من أحد الطلاب المستمعين سؤالا عجيبا جاء فيه: "ما هو الدافع للزواج من أجل الحب إن كان الوقت الذى تقضيه فى الحب يقل عن الزمن الذى تقضيه فى الحلاقة؟". آن للسودان أن يفيق على حقيقة أنه لم يعد مستعمرة.

كنت فى سنواتى فى جامعة الخرطوم أحاول قدر طاقتى مواصلة البحث والنشر فى التاريخ الإليزابيثي، بيد أن عدم الاستقرار الوظيفى كان هو هاجسى الأكبر. كنت أعلم أن عقدى –كغيرى من الأجانب– لن يجدد إلى ما لا نهاية، إذ لم يكن الأساتذة الأجانب محبوبين أو حتى مرحبا بهم. وعلى كل حال أعترف بأننى لم أكن شديد الثقة فى أننى سأغدو فى يوم من الأيام مؤرخا أكاديميا عظيما أو أستاذا جامعيا مشهورا، فقد تعلقت روحى ومنذ أمد طويل بالعمل فى "كنسية إنجلترا" أو –كما كنت أحلم فى رومانسية بالغة– فى "كهنوت الأبرشية" فى أطراف لندن أو مدينة فقيرة فى شمال إنجلترا.

كانت الحياة فى الخرطوم، والتى تنعدم فيها الطرق ووسائل النقل (المريح)، ويعطى العاملون فيها يومًا واحدا فقط (الجمعة) كعطلة أسبوعية سجنا لطيفا نوعا ما. بيد أن هنالك دوما عطلة قصيرة فى ديسمبر كان يزيد من طولها إضرابات الطلاب وقفل الجامعة لأبوابها، وكنت أستغل تلك العطلة فى القيام برحلات بعيدة وغريبة. من تلك المناطق كانت أثيوبيا هى البلد الذى وقعت فى شباك عشقه. صرت مهيما بتاريخ ذلك البلد وحضارته المسيحية القديمة وبجمال طبيعته الخلاب. وكانت هنالك أيضا مصر بآثارها العتيقة فى أسوان والأقصر والكرنك ووادى الملوك. كنت فى كل إبريل وأنا بين الخرطوم ولندن أزور الناصرة (حيث يعمل شقيقى كمبشر) ودمشق وبيروت وأسطنبول وأثينا، وأسافر بقطار الشرق السريع إلى فينيسيا وإلى الجزائر (حيث تعمل شقيقتى كمبشرة) وتلك البلاد كانت حينها تخوض فى أتون حرب متوحشة استمرت لسبعة أعوام. كل

تلك المناطق البعيدة وكل تلك الأحداث لا تراها عن قرب وأنت تدرس في بيرمنجهام!

وبالعودة للسودان في تلك الفترة فقد حكم البلاد منذ الاستقلال (في ١/١/ ١٩٥٦م) بنظام يفترض أنه برلماني ديمقراطي، بيد أنه مر بعواصف جارفة وصراعات حزبية عنيفة، وربما كان فاسدا، لكنه كان فسادا أقل - وبدرجة كبيرة - من الفساد الذى عرفته أفريقيا لاحقا. السودان لم يكن كالكنغو مثلا. كل من يعرف شيئا عن السودان يعلم أنه دولة اصطناعية (أو مصنوعة) بها شمال يسكنه قوم يتحدثون العربية ويدينون -في الغالب - بالإسلام ، وبه عالم مختلف آخر هو الجنوب بسكانه الأفارقة السود من الدينكا والشلك والنوير وقبائل أخرى أصغر من البانتيو (وكان هؤلاء قد تنصروا منذ سنوات على يد المبشرين الكاثوليك والبروتستانت). لم يكن الشلك على وفاق مع الدينكا أبدا، ولا حتى مع بعضهم البعض. كانت هنالك في الخمسينات الكثير من الإشارات المحذرة والنذر الواضحة للحرب بين الشمال والجنوب التي اشتعلت مجددا في الثمانينيات.

تقوم السياسة في السودان على طائفتين، ويصح القول أيضا أنها تعتمد على رجلين لا ثالث لهما: زعيم الأنصار وزعيم الختمية. مما أذكره من عالم السياسة ورجالها في شمال السودان تلك الليلة التي توفي فيها السيد/ عبد الرحمن المهدي، وهي ليلة انخسف فيها القمر خسوفا كليا، وعمت البلاد موجة حزن خيمت طويلا. شاهدت كيف أنه بمقدور أي من الطائفتين حشد عدد مهول من التابعين والمريدين بإشارة صغيرة من الزعيم. فقد دعيت لحضور حفل زواج أميري (محمد عثمان الميرغني) كان بحق "أم الحفلات" فقد أمه ما لا يقل عن ٤٠٠٠ فرد يرتدون الملابس التقليدية للختمية ذات اللونين الأخضر والأبيض. كنت مدعوا كذلك (مع الختمية!) لحفل استقبال جمال عبد الناصر عند زيارته للسودان في عام ١٩٦٠م. ذبحت الثيران في الطريق عند دخول عبد الناصر لمكان الاحتفال. بيد أن ما قدمه الختمية من عرض مبهر عند استقبال عبد الناصر لم يكن شيئا يذكر بالمقارنة ما قدمه الأنصار عند مقدم ذلك الزعيم لقبة المهدي في أم درمان. ملأ الأنصار جانبي الطريق من جسر النيل الأبيض حتى قبة المهدي وصنعوا جدارًا حول الشارع بعصيهم الطويلة. لما هتف الصادق المهدي (أم لعله يقصد الصديق؟ المترجم) وهو بجانب عبد الناصر بـ "الله أكبر " ردد الآلاف من خلفه وبأعلى أصواتهم "ولله

الحمد"، ولعل ذلك كان كافيا ليوضح لعبد الناصر من هو صاحب الأغلبية في البلاد!

تميز العامان اللذان أعقبا الاستقلال بعدم الاستقرار السياسي والصراع المحتدم بين الحزبين السياسيين المسنودين (والمصنوعين) من الطائفتين الدينيتين: الختمية والأنصار وهما "الوطني الاتحادي" و"الأمة"، على التوالي. صنع البريطانيون الحزب الأول في بداية الخمسينيات للوقوف ضد المد الوطني المهدوي، بيد أن ذلك الحزب سعى بعد ذلك (لأكثر من سبب) لتلقي العون من مصر وتبني شعار "وحدة وادي النيل". لعل ذلك هو مصدر حب البريطانيين لعبد الله خليل، حيث وصفه سفيرنا في الخرطوم في غضون أزمة السويس عام ١٩٥٦م بأنه "رئيس وزراء من الطراز الأول"! أبدى عبد الله خليل إصرارًا وعزمًا كبيرين للتصدي لمصر إبان أزمة حلايب الحدودية وذلك عندما أرسل جيشا لتلك المنطقة في فبراير من عام ١٩٥٨م. في تلك الأيام تظاهر الطلاب ضد مصر ومزقوا صور ناصر وهم يهتفون "أرض السودان لشعب السودان". تمخض الجمل فولد فأرًا في نهاية المطاف، وعاد الوضع بين البلدين إلى حالة السلم بعد أيام قليلة. كان في الساحة السياسية لاعبون آخرون (أقل تأثيرًا من الحزبين الطائفيين) أشهرهم هو الحزب الشيوعي ومن خلفه الحركة النقابية العمالية ذات القوة والنفوذ.

كنا في الجامعة نقسم الطلاب بحسب ولاءاتهم السياسية إلى ثلاثة أحزاب متساوية القوة تقريبا: الإخوان المسلمون، والشيوعيون، وأنصار حزب "الكوكاكولا"، ولم يكن يجمع بين هذه المجموعات المتنافرة غير شيء واحد هو بغضهم وإدانتهم للإمبريالية. وعلى ذكر "الإمبريالية" كنت قد طلبت ذات يوم من طالباتي في مدرسة الاتحاد العليا أن يعرفوا لي كلمة "إمبريالية" فقامت ابنة وزير الخارجية السوداني محمد أحمد المحجوب وعرفتها بأنها "حالة أن تقوم دولة ما بتحطيم دولة أخرى". في سنوات خمسينيات القرن الماضي كان الطلاب – مع غيرهم من السودانيين- مهمومين بحرب السويس وأيضًا بما كان يجري في الجزائر، واعتاد السفراء العرب أن يقاطعوا حفلات السفارة الفرنسية بالخرطوم احتجاجا على ما كانت تفعله في الجزائر، بيد أن هذا كان من حسن حظنا، إذ إن تلك المقاطعة قد وفرت لنا قدرا أكبر من الشمبانيا الفاخرة في تلك الحفلات! وفي عام ١٩٥٨م وفي حفل يقيمه الطلاب سنويا في اتحاد الطلاب ويطلقون عليه "Bean feast"

قام رئيس الاتحاد بإلقاء خطبة روتينية هاجم فيها إدارة الجامعة البريطانية (أهم أركان الإمبريالية بالبلاد!) وعلى رأسها البروفسيور قرانت (والذى كان قد استبدل فى ذلك العام برجل سودانى هو نصر الحاج علي. المترجم) وغيره من الأساتذة الأجانب، وصرح بأن الامتحانات فى كلية القانون فى ذلك العام قد وضعت بحيث يرسب فيها أكبر عدد من الطلاب (كان لذلك الأمر أبعاد لها علاقة بالعداء للسامية). كرد فعل تلقائى لما قاله رئيس الاتحاد نهضت سريعا من مقعدى وانصرفت من الحفل مغاضبا، وأتبعت ذلك فى اليوم التالى بخطاب نارى لرئيس الاتحاد (وكان أحد طلابي) وحذرته من أننى لو سمعت منه تكرارا لمقولاته الفارغة فى ذلك الحفل فسوف يكون له الشرف فى توديع ركن آخر من أركان التسلط الإمبريالي! قلت هذا رغم أننى كنت من القلائل الذين كانوا يؤمنون بضرورة مشاركتنا فى النشاط الطلابي، وفى حضور ذلك الاحتفال بالذات.

فى صبيحة يوم ١٧ /١١/١٩٥٨م توجهت من بيتى الذى استأجرته مع زميل لى فى "حى المطار" للجامعة على دراجتى الهوائية ، وفى الطريق أحسست على الفور أن شيئا ما قد حدث، فالدبابات العتيقة تجوب الطرقات وهنالك حاملة لمدفع برين تعطلت عند تقاطع خط السكة حديد. علمنا بعد ساعات أن انقلابا عسكريا قد وقع. لم يكن ذلك الانقلاب يشبه الانقلابات التى وقعت فيما أقبل من سنوات فى السودان وفى غيره من الدول. فقادة الانقلاب كانوا من كبار الضباط المتقدمين فى السن على رأسهم إبراهيم عبود بوجهه الحزين الطويل، والذى خلدته صحيفة "ديلى ميل" بنشره فى الصفحة الأولى مع مانشيت كبير يقول: "سر الجنرال الأصلع". عاش عبود فى المنزل رقم ١ فى شارع البرلمان، وفيه كانت معزة ترعى فى عشب حديقته الأمامية. كان قادة الانقلاب أقرب لحزب الأمة، والذى يقال: إنه صنع ذلك الانقلاب (لعل المؤلف قد ذكر فى بداية هذا الفصل أن قادة الانقلاب أقرب للختمية! المترجم). شكر قادة الانقلاب وزراء الحكومة السابقة (التى انقلبوا عليها) على ما قدموه من خدمات جليلة إبان توليهم الوزارة، ولم يتكرر مثل ذلك الفعل فى ليبيريا وغيرها من الدول الإفريقية.

الآن صار لدينا رئيس دولة واحد عوضا عن "مجلس السيادة" المكون من خمسة أفراد يتبادلون الرئاسة، وواحد من هؤلاء كان رجلًا جنوبيا كاثوليكيا له خمس زوجات! (لعل

المقصود هوالسيد / سرسيو إيرو. المترجم). كنت أمر يوميا بدار ذلك الرجل الجنوبي المرموق وأراه جالسا وحيدا في شرفة بيته وحريمه في الخلف ينشطن في القيام بأعمالهن المنزلية التقليدية. كان رأس الدولة هو -بحكم المنصب- رئيس الجامعة، وقد تصادف أن كان ذلك الرجل الجنوبي هو رئيس الجامعة عندما خرجنا أول دفعة. في العام التالي كان رئيس الجامعة بالطبع هو عبود، والذى آثر أن يأتى للجامعة فى حفل التخريج مرتديا زيه العسكرى تحت ما كان يلتفعه من روب جامعى وواضعا قبعة التخرج المخملية فوق قبعته العسكرية العالية!

تملق النظام الجديد عواطف الجماهير وسعى لتحقيق شعبية فى أوساطه فأزال تمثالى غردون وكتشنر من شارعين رئيسين فى الخرطوم. لا أعتقد أن كثيرين قد أسفوا على إزالة تمثال كتشنر الذى كان يمتطى جواده ويرنو نحو "كرري" التى قتل فيها آلاف السودانيين. بيد أن لغردون قصة أخرى. فتمثاله كان على ظهر جمل وموضوع قرب القصر الجمهورى الحالي. يا ترى ما هو الضرر الذى سببه غردون للبلاد وسكانها؟ قمت بتصوير التمثالين وهما يزالان من مكانهما، وأيضا فى محطة سكة حديد الخرطوم بحرى عند وضع التمثالين فى صناديق تمهيدا لنقلهما لبريطانيا. لم تنجح حيلة عبود وجنده فى كسب شعبية رخيصة لدى الجماهير فقد أظهر له طلاب جامعة الخرطوم شديد العداء منذ أول يوم، حتى إن الجامعة كانت تعدل فى تقويم العام الدراسى لتفادى وجود الطلاب يوم ١٧ من نوفمبر يوم "عيد الثورة المباركة". كنت أنا قد كسبت أيضا بعض الشعبية الرخيصة بين الطلاب وأنا أحاضرهم عن يوم تنصيب الملكة إليزابث الأولى فى يوم ١٧ من نوفمبر ١٥٥٨م!

لم تنعم حكومة عبود العسكرية بالاستقرار الذى زعمت أنها قد أتت من أجله فتعرضت لمحاولات انقلابية عديدة، أعدم فى أحدها (تحديدا فى عام ١٩٥٩م) عدد من الضباط. كان ذلك بداية العنف السياسى فى البلاد. كذلك تدهور الوضع السياسى والأمنى فى جنوب السودان، وثار الطلاب والعمال (خاصة فى السكة حديد) ودخلوا فى موجة من الإضرابات، وسقط النظام أخيرا فى أكتوبر ١٩٦٤م إثر ثورة شعبية.

بالعودة إلى جامعة الخرطوم، أستطيع القول أنها لم تصب نجاحا كبيرا... لا للطلاب ولا للأساتذة. لم تستطع الجامعة أن تتوصل لمعادلة تتيح للسودانيين من جهة وللأساتذة

الأجانب (وغالبهم من البريطانيين والمصريين) من جهة أخرى العيش والعمل معا فى سلام (استطرد المؤلف هنا فى قصص صغيرة لا رابط بينها ولا صلة تصب كلها فى مدح زملائه الأوربيين وانتقاد الأساتذة السودانيين وسوء تعاملهم مع الوقت وغير ذلك، فحكى مطولا عن عراكه اللفظى مع أستاذ سودانى قام بإخراج يده من نافذة سيارته الروسية ولمس ظهره وهو يقود دراجته الهوائية مما كان سيسبب له فى إصابة خطيرة لولا أن الله سلم! ثم عرج على يوسف فضل دون مناسبة وكيف أنه كان أحد طلابه. المترجم).

كان لى زميل مصرى (قبطي) لطيف هو فوزى جاد الله كان يدرس مادة تاريخ العرب، بينما كنت أقوم أنا بتدريس تاريخ العصور الوسطى فى أوروبا، وكان فوزى كريما فى منح الدرجات لا يعطى أقل من ٦٥٪ لأضعف طالب، بينما كنت لا أمنح أكثر من ٦٠٪ لأفضل طالب عندي! وكان الطلاب ينجحون غالبا بسبب أخذ متوسط ما كنا نعطيه من درجات فى المادتين! وفشلت فى مجلس الكلية فشلا ذريعًا فى أن أجعل النجاح فى المادتين معا إلزاميا.

سيدات هولنديات فى السودان- مغامرات القرن التاسع عشر
آنا ماريا أبو شامة - ريد مايكر

◇◇◇◇◇◇

هذا عرض وتلخيص مختصر لكتاب صدر فى عام ٢٠١٠م عن دار نشر ترافورد فى فيكتوريا بكندا للمؤلفة آنا ماريا أبو شامة –ريد مايكر عن قصة سيدات هولنديات (من طبقة النبيلات من ذوات الصلة الوثيقة بالبلاط الملكى فى لاهاي) قمن بمغامرة الترحال فى غالب بلاد السودان ولمدة عامين كاملين فى القرن التاسع عشر. كتبت المؤلفة فى مقدمة كتابها إنها بقيت بالسودان عدة سنوات قبل أن تسمع لأول مرة بقصص هؤلاء النسوة الهولنديات النبيلات المغامرات، ومضت تقارن بين حال السودان –الحالي- وحاله وأحواله فيما سجلته هؤلاء النساء فى القرن التاسع عشر، فوجدت أن كثيرًا مما سجلته النسوة الهولنديات عن الريف السودانى فى تلك السنوات –خلافا لما هو حادث فى المدن الكبيرة- لم يصبه كبير تغيير.

كان الفريق الهولندى فى تلك الرحلة يتكون من: هينريتى ماريا لويس فان ستينقراتش كاملين وابنتها الوحيدة وأختها أدريانا فان ستينقراتش، وألكسندرنا بيترونيلا فرانسينا، وخادمين وخادمتين هولنديتين. حل الفريق بالخرطوم فى الرابع من أبريل عام ١٨٦٢م، وغادرها فى الرحلة الأولى - بكامل أفراده- متجها لجنوب البلاد فى الأول من مايو من ذات العام. وفى الرحلة الثانية التى قام بها ذلك الفريق تخلفت السيدة / أدريانا عن السفر مع الفريق إذ بقيت بمفردها فى الخرطوم لمدة عام وشهرين ونصف إلى أن توفيت. غادرت الكسندرنا الخرطوم نهائيا متجهة إلى القاهرة فى يوليو من عام ١٨٦٤م حيث بقيت هنالك لعدة شهور للتحضير لرحلة أخرى.

سجلت المؤلفة فقرات مطولة عن الحياة فى "لاهاي" فى تلك السنوات، وعن التاريخ الشخصي-لبعض النساء اللواتى قمن بتلك المغامرة، وعن البلاد الأجنبية التى زرنها، وتبين أن معظمهن كن قد زرن عواصم كل الدول الأوربية تقريبا، خاصة دول غرب

أوروبا والدول الإسكندنافية.

وصلت هينريتى وجماعتها إلى الإسكندرية فى يوم ١٧/ ١٢/ ١٨٥٥م حيث سجلت فى كتاب مذكراتها اليومى ما رأته من "زفة الألوان" التى شاهدتها فكتبت تقول: "تخيلوا... قرابة الخمسين مركبا صغيرا تئن بحمولتها من المخلوقات السوداء التى ترتدى كل ما قد يخطر ببالك من الأزياء الملونة، وبعضهم لا يرتدى شيئا يذكر. يا للتنوع! الكل يتكلم أو يصيح محاولا فتح الطريق أمام القادمين من السفينة التى رست لتوها على الميناء. قابلهن فى الميناء القنصل العام لهولندا بمصر (وزوجه التى تجيد اللغة العربية) معبرا بذلك عن احترامه للملك وملكة بلاده. لبث هينريتى وجماعتها دعوة نقلها لها ذلك القنصل من الأميرة زوجة سعيد باشا خديوى مصر لزيارتها فى قصر المعمورة. فى تلك الزيارة رحبت بهم الأميرة وأبدت إعجابها بشجاعتهن فى زيارتهن السابقة للسويد. قامت أيضا بالطواف معهن على أجنحة القصر وأرضيته التى صنعت من خشب المهوقنى والعاج المجلوبين من جنوب السودان.

سافرت جماعة السيدات الهولنديات من الإسكندرية للقاهرة فى يناير من عام ١٨٥٦م بقطار السكة حديد، والذى كان قد افتتح فى العام السابق وأقاموا فى الفندق الأشهر فى ذلك الوقت "فندق شبرد" فى حى الأوزبكية بوسط البلد. من القاهرة سافرت تلك المجموعة مع رجلين هولنديين آخرين تصادف أن كانوا من نزلاء فندق شبرد إلى القدس للحج أثناء إتمام الإجراءات للرحلة إلى السودان.

بدأت رحلة السيدات الهولنديات على ظهر باخرة نيلية "دهبية" فى يوم رائع الجو من أيام يناير من عام ١٨٥٦م. كن يرتدين شالات صوفية أحضرهن من هولندا اتقاء لبرد الصباح إلى أن وصلت الباخرة إلى أسوان فى السادس عشر من فبراير. شاهدن وبشديد الانبهار كثيرًا من الآثار والمعابد الفرعونية وشواطئ النيل الخضراء التى تقف شاهدا على حضارة تليدة كان الناس فيها يؤمنون بأن ملوكهم آلهة، وزاروا معبد "أنس الوجود" الرائع. فى أسوان شاهدوا مقياس ارتفاع منسوب النيل الرائع فى جزيرة فيلا. كانت تلك هى رحلتهن الأولى، والتى بعدها سافرن للحج فى القدس.

بدأن بعد ذلك فى التحضير لرحلتهن الكبرى ... إلى أرض السودان، وتشاورن مع

عدد من "الخبراء" الذين زاروا السودان من قبل. رشح لهم القنصل العام لهولندا مهندسا إنجليزيا كان يعمل في خدمة محمد علي باشا اسمه لينانت باشا ديلفوند (١٨٠٠ – ١٨٨٣م) كان قد زار سنار بين عامي ١٨٢١ – ١٨٢٢م، ثم زار السودان مرة أخرى في عام ١٨٢٧م لاستكشاف حدود الشلك، وعمل بين عامي ١٨٣١ – ١٨٣٢م في التنقيب عن الذهب في منطقة أبيي، وقام بمسح للمنطقة الواقعة بين وادى العلاقي وشندي. اقترن الرجل أثناء وجوده في السودان بسيدة حبشية،وفي السنوات التي تلت عام ١٨٣٢م عمل كموظف خدمة مدنية في الحكومة المصرية والتي منحته لقب "بيه" في عام ١٨٤٧م. قدم ذلك المهندس خبرته الطويلة للنساء الهولنديات فيما يتعلق بالمراكب وطاقمها وما يجب عليهن أخذه من زاد ومؤونة في تلك الرحلة الطويلة.

في رحلتهن النيلية جنوبا توقفت النساء الهولنديات في "الأقصر" حيث قضين فترة للاستراحة والاستجمام، ومررن بأسوان حيث شاهدن سبع بواخر نيلية بالغة الفخامة تتبع للخديوى محمد سعيد (والذى تولى مقاليد الحكم بعيد اغتيال ابن عمه عباس الأول في عام ١٨٥٤م). كانت السيدات الهولنديات يرغبن في عبور الصحراء من أسوان إلى داخل السودان بيد أنهن أصبن بخيبة أمل كبيرة في "كورسكو" على الحدود السودانية عندما رغبن في شراء إبل تقلهن عبر الصحراء ولكنهن أخبرن أن الخديوى قد اشترى كل ما هو معروض من تلك الإبل، وأخبرن أيضا بأنهن قد يجدن ضالتهن من الإبل في وادى حلفا. استأجرن قوارب صغيرة لعبور الشلال الأول والوصول لوادى حلفا، وأصبن بخيبة أمل جديدة إذ لم يجدن في تلك البلدة أى حيوانات للنقل، ولم يكن أمامهن من بد غير الرجوع لمصر إذ إن مواصلة السفر جنوبا والوصول للشلال الثاني كان أمرا يشبه المستحيل. استغرقت رحلتهن لوادى حلفا قرابة الشهرين، بينما استغرقت رحلة عودتهن من وادى حلفا للقاهرة أربعة عشر يومًا فقط! حللن بالقاهرة في يوم ٢٧ من مارس ١٨٥٧م. كان هذا يعني أنهن كن قد قضين بعيدا عن وطنهن ما يزيد على تسعة عشر شهرا (إذ كن قد بدأن رحلتهن في ١٩ سبتمبر ١٨٥٥م وسبق أن وعدن أسرهن والأسرة المالكة بإتمام الرحلة والعودة في عامين فقط)، لم يفت ذلك من عضدهن للوصول لمدينة الخرطوم فجددن العزم على السفر إليها في وقت آخر في المستقبل القريب.

بعد ثلاثة أسابيع من عودة النساء الهولنديات من رحلتهن النيلية الثانية قررن السفر إلى بيروت فى طريق عودتهن للاهاي. غادرن بيروت فى سبتمبر ١٨٥٧م على ظهر سفينة صغيرة إلى قبرص ومنها إلى "نيقوسيا - رودوس - سمرانا" (تسمى الآن أزمير)، ومنها إلى "كونستانتابول" (تسمى الآن إسطنبول) للسفر بسفينة أخرى إلى براغ ودريسدن ومنها وصلن إلى موطنهن لاهاى بعد غيبة استمرت لعامين كاملين. بدأن على الفور فى التحضير لرحلتهن النيلية الثالثة ولكنهن فى ذات الوقت قمن برحلة سريعة إلى ألمانيا وبولندا وموسكو. فى عام ١٨٥٩م قمن بزيارة سريعة أخرى إلى عائلتهن فى إنجلترا، وفى العام الذى أعقبه بدأن فى التحضير جديا للرحلة النيلية الثالثة.

من كتب الرحلات التى كانت شائعة فى تلك السنوات كتاب البريطانى جيمس بروس المعنون : "رحلات لاستكشاف منبع النيل فى الأعوام ١٧٦٨ - ١٧٧٣م". كان ذلك من أهم الكتب التى قرأنها بتمعن أولئك النسوة الهولنديات. قبل ذلك كان الأوربيون قد بدؤوا فى محاولة الدخول ل أفريقيا فقامت مجموعة من القساوسة البرتغاليين بالسفر لإثيوبيا حيث نجحوا فى تنصير العائلة المالكة هناك فى بداية القرن السادس عشر الميلادي. وبعد مائة عام من ذلك قام دكتور فرنسى فى رفقة قسيس بزيارة غوندار فى أثيوبيا وسنار فى السودان. كتب هؤلاء الرحالة عن ما شاهدوه فى رحلاتهم، وكانت تلك الكتب مما أثار شهية أولئك المغامرات الهولنديات للقيام برحلتهن النيلية المزمعة.

بدأ التحضير للرحلة الثالثة للسيدات الهولنديات بقيام قنصل عام هولندا فى مصر بالحصول على تصريح من خديوى مصر محمد سعيد شخصيا يطلب فيه من الجميع تسهيل مهمتهن فى الرحلة التى كان من المقرر أن تبدأ فى يناير من عام ١٨٦٢م.

جرت أحداث كثيرة بمصر أثناء وجود السيدات الهولنديات بها كان من أهمها تولى خديوى جديد لحكم مصر هو سعيد باشا محمد على (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) والذى حل محل عباس باشا والذى اغتيل اغتيالًا بشعًا فى ١٨٥٤م. وصلت السيدات الهولنديات للإسكندرية فى ١٢/١٧/ ١٨٥٥م حين كان عهد سعيد باشا (الغربى التوجه) قد بدأ لتوه، وكان عهد ازدهارونمو ظل يستمع فيه الخديوى لنصائح أصدقائه الغربيين، ومنهم

فريدناند — ماريا ليسبى والذى نصحه بشق قناة السويس ومنحه حق امتياز إدارتها لتسع وتسعين عاما بعد إكمال إنشائها.

فى فصلين صغيرين سجلت المؤلفة زيارة السيدات الهولنديات لجامعة الأزهر (والتى وصفتها بأنها أقدم جامعة فى العالم) وتاريخا مختصرا لتاريخ فندق شبرد والذى شيده رجل إنجليزى يحمل ذات الاسم على أرض كان مقاما عليها قصر الألفي، وأقامت فيه السيدات الهولنديات لفترة قصيرة انتقلن بعدها (مع ٣٦ صندوقا من الأمتعة) إلى فيلا على النيل.

بدأت رحلة النسوة الهولنديات من القاهرة للسودان فى ١٨٦٢/١/١٤ على ظهر ثلاثة قوارب: الأوربيون والطاهى المصرى وخادمان عربيان وخمسة كلاب وصندوقان لأدوات المائدة وزاد يكفى لعام كامل فى المركب الأول، وصناديق الأمتعة الثقيلة مع الحراس فى المركب الثاني، وحصان وحمار وخيمة كبيرة وبقية الأمتعة فى المركب الثالث. كانت أقسى مراحل الرحلة النيلية هى المرور عبر الشلال الأول حيث استلزم عبور المراكب أن تفرغ من محتوياتها تماما وأن تحمل حملا عبر الشلال بمساعدة ما لا يقل عن ٢٠٠ من الرجال الأقوياء يشدون المراكب بالحبال من على الشاطئ. سجلت واحدة من النساء الهولنديات إعجابا ظاهرا بالرجال العرب الأقوياء وبمزاحهم وروحهم المرحة وهم يقذفون بأجسادهم الرياضية فى المياه المندفعة بقوة ويقودون المراكب عبر الصخور الخطرة بيسر مدهش ومهارة فائقة (تمت إزالة هذا الشلال الأول بقيام سد أسوان الذى شيد بين عامى ١٩٠٢ — ١٩٣٣م).

وصل النسوة الهولنديات إلى كورسيكو وأقمن معسكرهن تحت رعاية شيخ من العبدلاب اسمه شيخ أحمد. كانت كورسيكو هى نقطة البدء لكل من يرغب فى السفر جنوبا للسودان، وهى عبارة عن فضاء واسع مزدحم ببشر من مختلف الأثنيات والأشكال والألوان واللهجات، وبحيوانات من كل نوع. كانت هنالك بعض الخيام المنصوبة لمن يرغب فى انتظار القوافل المتجهة نحو السودان. شملت أصناف المنتظرين فى كورسيكو تجار إبل ومستعبدين آبقين يمنون أنفسهم بالأوبة لمواطنهم الأصلية، وعمال زراعيون يعملون فى مزارع مصرية ويرغبون فى العودة لقراهم فى السودان. هنالك أيضا

تجار حبوب وأغذية أخرى وبائعي بروش وقرب مياه وسروج وأدوات ترحال مختلفة. كانت هنالك أيضا مجموعات نساء محليات في أطراف السوق يبعن الشاي والقهوة، ويتجمع حولهن الزبائن وهم يجلسون القرفصاء. بدأت قافلة النسوة الهولنديات رحلتهن يوم ٢٥/ ٢/ ١٨٦٢م (بقيادة شيخ أحمد العبدلابي) عبر الصحراء من كورسيكو إلى "أبو حمد" والتي تبعد نحو ٣٧٠ كيلومترًا، ولا توجد في كل تلك المسافة غير نقطة واحدة يمكن فيها التزود بالمياه وإرواء عطش الناس والحيوانات (هي آبار مراد). كان من المقرر الوصول إلى "أبو حمد" في نحو ١٦ -١٨ يوما. كانت تلك الرحلة –دون ريب– أقسى رحلة تكابدها أولئك النسوة الهولنديات وأكثرها إجهادا، فالحر بالغ الشدة، والهواء سموم مغبرة لا تكاد تحتمل، وما من مجال للاستحمام أو نيل أي قدر من الخصوصية. كانت القافلة مكونة من ١٠٢ جمل و٦ خيم كبيرة مع ستة من المرشدين و٣٠ رجلًا مسؤولين عن الإبل، وكلهم مسلحين بالبنادق للحماية من قطاع الطرق. كان شيخ أحمد يرسل أمام القافلة عددا من العيون لاستكشاف الطريق وأمنه خشية هجوم غير متوقع من لصوص الصحراء وهم كثر. رغم المشقة البينة فقد سجلت أحد النساء الهولنديات في مذكراتها أنها وجدت الصحراء "جميلة" و"رومانسية" وأعجبت –كفنانة– بألوان الصحراء المختلفة فصخور جبالها سوداء، وألوان حصاها فيها الأحمر والأصفر والغامق والفاتح، ورمالها الصفراء الناعمة تمتد عبر الأفق. في بعض أجزاء من الصحراء النوبية كانت توجد بعض الخضرة والأشجار الكثيفة التي تذكر المرء بالحدائق العامة في إنجلترا. لا ريب أن تلك المنطقة كانت تنعم بقدر من الأمطار غير يسير. كان روتين الرحلة واحد لا يتغير: من الفجر يسيرون دون انقطاع حتى منتصف النهار (حين تشتد الحرارة) فيريحون جمالهم وينصبون خيامهم ويطبخون طعامهم ويشربون الشاي إلى أن يحل المساء ويبرد الجو فيعاودون السير مرة أخرى إلى منتصف الليل حين ينصبون خيامهم تارة أخرى ويأكلون وجبتهم الثانية والأخيرة.

من الأشياء التي بحثوا عنها في طريقهم ووجدوها أخيرا هي قبر الأوروبي أندرو ميلي والذي مات في الصحراء وهو يحاول الوصول للسودان في ١٨٥١م. وصلت القافلة إلى "أبو حمد" بعد مسيرة ١٨ يومًا حيث استقبلتهم المدينة بهبوب عظيمة

أعقبتها أمطار غزيرة ذات برق ورعد. بعد أيام قليلة مضت القافلة نحو مدينة "بربر" أهم مدينة فى ذلك العهد فى المنطقة، فحلوا بها فى يوم ٢٣ من مارس ١٨٦٢م حيث كان فى استقبالهم الحاكم (التركي) وكان رجلًا فى حوالى الستين من العمر. حلوا ضيوفا عليه فى بيته ذى الحديقة الواسعة ولكنهن لم يقبلن مضايقته فى بيته فآثرن الإقامة فى خيام نصبوها فى حديقة داره. ومن باب المجاملة زرن حريمه واللواتى قدمن لهن المشروبات المحلاة والشاي، وأتين بأطفالهم الكثيرين (والشديدى الأدب) للسلام عليهن. احتفلت السيدات الهولنديات مع أفراد عائلة الحاكم بعيد الأضحى (ذكرت الكاتبة خطأ أنه العيد الذى يعقب نهاية شهر رمضان)، واحتفلن بعد ذلك فى يوم ١/٤/ ١٨٦٢م سرا بعيد ميلاد هينريتى الرابع والستين بكؤوس من الخمر.

غادرن "بربر" بعد أن ودعن حاكمها وشكرنه على كرمه وتركن لأطفاله بعض الهدايا. استأجرن خمسة مراكب نيلية لحمل متاعهن عبر نهر أتبرا. مروا بالمدينة المقدسة "الدامر" حيث شاهدوا من بعيد مسجدها الضخم وطلبوا من شيخ أحمد أن يروى لهن كل ما يعرفه عن ذلك المسجد. ذكر لهم أن المسجد يتبع الطريقة الشاذلية وهى من الطرق الصوفية المعروفة وتقودها فى الدامر عائلة المجاذيب، وغالب أتباعها من الجعليين. بعد ذلك وصلت القافلة إلى "شندي" وكانت تتكون من ٢٥ بيتا فقط. كان بها سوق كبير وفيها أيضا "زريبة" كبيرة تستخدم كسوق للرقيق. ذكر شيخ أحمد للنسوة الهولنديات أن تلك "الزريبة" هى واحدة من أربعة زرائب فى السودان توجد فى كاكا فى بلاد الشلك، وغندوكورو فى أقصى الجنوب، وفى ميناء سواكن فى الشرق. كان الرحالة والمستكشف البريطانى جيمس بروس قد وصل إلى شندى فى عام ١٧٧٢م وكتب يقول : إنها المكان الذى كانت تنطلق منه كل القوافل المتجهة لمصر، وأن البضائع فيها أرخص ثمنا من تلك التى تباع فى سنار إلى الجنوب.

فى رحلة الوصول للخرطوم لاحظت النسوة الهولنديات أن التجمعات السكانية على ضفاف النيل كانت تزداد مع مرور الوقت، وكن يمرن بقرى سمعوا بها وهم فى مصر، وكان حراسهم السودانيون يصيحون محيين كلما مروا بمزارعين يعملون فى مناطق يعرفونها. بعد مرورهم من شندى وصلوا لشلال السبلوقة ثم جبل شيخ الطيب (جبل أم

مرحي) ثم تلال كررى وجزيرة توتي وأخيرا فى الخرطوم. كانت القبائل التى تقطن تلك المنطقة غرب النيل هم الجعليون (حتى شلال السبلوقة) والشهيناب (حتى جبل شيخ الطيب) والسروراب (حتى الخرطوم)، أما شرق النيل فقد مررن بجبال صغيرة جرداء سوداء ثم بـ "قري" عاصمة قبيلة العبدلاب (على سفح جبل يسمونه جبل الرويان) ثم بحلفاية الملوك، ثم وصلن لجزيرة توتى (والتى يفصلها عن الخرطوم النيل الأزرق). فى الحدود الغربية يلتقى النيلان الأبيض والأزرق ليكونا نهر النيل.

أخيرا تحقق حلم السيدات الهولنديات الثلاث فى يوم ١١/٤/ ١٨٦٢م حين حططن رحالهن فى الخرطوم. كان منظر المدينة بحدائقها الخضراء الكثيفة وبيوتها الطينية الملونة مصدر دهشة وعجب أولئك النسوة. عندما قربن من مكان رسو مركبهن شاهدن عددا من المراكب القادمة من الشمال والجنوب تفرغ حمولتها من البضائع المختلفة، وأعجبن أيما إعجاب بمنظر الباعة المتجولين والنساء اللواتى يحملن قدور المياه وحراس القصر فى زيهم الأحمر الفاقع. ترجلن عن مركبهن على ضفة النيل الأزرق حيث نصبت لهن خيمة كبيرة، إذ لم يكن بالخرطوم أى فندق رغم وجود استراحة حكومية. كان الجو لطيفا فى النهار بيد أنه بالليل كان مشبعا بالرطوبة والحرارة (والتى كانت تتراوح بين ٣٥—٤٥ درجة مئوية). كذلك كانت العقارب والثعابين تجوس فى المكان، وتعذر على الطباخين والخدم الحفاظ على الطعام والماء بعيدا عن هجوم النمل والحشرات الأخرى. كان على الحراس "تنظيف" ما حول خيمة السيدات لتفادى هجوم أى ورل أو تمساح جائع. لاحظت السيدات الهولنديات أن الحياة تتوقف تماما بين الساعة الثانية والرابعة عصرا حين يخلد الجميع لأخذ فترة راحة طويلة. كان مما أفرح النساء الهولنديات إمكانية أخذ حمام (فهن قرب النيل) وكانت الخيمة مزودة بحوض ماء تملؤه خادمتان، أوكل إليهما أيضا مهمة التحريك المستمر لمروحة مصنوعة من قطعة صغيرة من السجاد وغلى الماء ووضعه فى "برم" أو "أزيار" تضمن برودته. تمتعت السيدات الهولنديات بتناول الشاى عند مغيب الشمس مع الكيك الذى أحضرنه من هولندا قبل شهور، واحتفالا بمرور أسبوع على وصولهن للخرطوم قامت السيدات الهولنديات بارتداء مفتخر ثيابهن وتناولن عشاءهن على أطباق الصينى الفاخر الذى أحضرنها معهن، واستخدمن أدوات مائدة

فضية على طاولة غطيت بدمقس (قماش حريرى مشجر) وفوقها شموع مضيئة منصوبة على شمعدانات حديدية. كان ذلك عشاء رومانسيا لا ينسى.

تقرر مؤلفة الكتاب - بناءً على ما ورد فى مذكرات أولئك السيدات الهولنديات اليومية- أن الخرطوم التى شاهدنها فى عام ١٨٦٢م كانت تشابه إلى حد كبير بعض أحياء أم درمان اليوم، فبيوتها مصنوعة من الطين اللبن وشوارعها غير مرصوفة. كثيرًا ما كانت بعض الشوارع فى الخرطوم فى تلك السنوات لا تقود إلى شيء سوى باب أحد السكان، وهو أمر محير جدًا لمن يرغب من زوار المدينة فى الذهاب إلى السوق مثلا فيجد نفسه أمام باب أحدهم!

كانت الخرطوم حينها تتكون من عدة أحياء تبدأ من "مقرن النيلين" الأبيض والأزرق التى توجد فيها "المنجرة" حيث تصنع المراكب، وتنتهى على شاطئ النيل الأزرق عند "العرضي" حيث يقع الحى العسكري، وفى ما بين المنطقتين كانت تقع بيوت التجار والحدائق. لم يكن هنالك شارع يحاذى النيل الأزرق بيد أنه كان هنالك طريق مشاة أمام تلك الحدائق، وكان الشارع الرئيس (والذى تقع عليه قنصليات الدول الأجنبية) يقع خلف صف المبانى التى بنيت على شاطئ النيل.

قدم المستكشف البريطاني جرانت فى عام ١٨٦٣م وصفا وافيا للكنيسة القبطية بالخرطوم بقبابها الثلاث وسورها العظيم ومدفنتها التى كانت تضم ٢٠ – ٣٠ قبرا.

طافت هينريتى واليكسين والعمة أيدى بأحياء الخرطوم كلها وشاهدن كل ما يمكن رؤيته (ولم يكن هنالك الكثير ليشاهدنه!). كان قناصل الدول الأجنبية يعيشون مع زوجاتهم أو عشيقاتهم (من السراري) ويتبادلون إقامة حفلات العشاء والاستقبال لزملائهم وإقامة العروض المسرحية، وبحكم قربهن من البلاط الملكى الهولندى فى لاهاى كانت السيدات الهولنديات يدعين لتلك العروض والحفلات الدبلوماسية. كانت هنالك فى الخرطوم قنصليات لعدد من الدول الأجنبية مثل دول بريطانيا وفرنسا وإيطاليا (ساردنيا) والنمسا و ألمانيا واليونان وبروسيا وأمريكا. كان أول قناصل الدول الأجنبية الذين زاروا خيمة السيدات الهولنديات هو السيد/ جورج ثالبوت نائب قنصل فرنسا (والذى كان يشتغل بالتجارة أيضا ويرتدى الزى التركي) فى رفقة زوجه وبنته صوفى

ورجل إغريقى اسمه ديمتري. من الذين زاروا أولئك النسوة تاجر فرنسى اسمه ديلفين بارثاميلي وزوجه، وإيطالى يعمل فى صناعة الطوب اسمه بيترو أغاتى أتى للسودان كعضو فى بعثة الكاثوليك الروم، والسيد تايرنت كبير الصيادلة الحكوميين. وللترحيب "الرسمي" بالسيدات الهولنديات أحضر نائب القنصل الفرنسى معهاالحاكم الإقليمى محمد رشيق(راسخ) بيه (المولود فى "حلة يونس" قرب بربر فى حوالى ١٨٣٤م والمتوفى بحسب رواية د/ أبو سليم غرقا فى النيل وهو فى طريقه للقاهرة فى ١٨٨٣م).دعاهن الرجل لزيارته فى المديرية بعد نحو أسبوع من زيارته لهن حيث أتت قوة عسكرية لمرافقتهن للمديرية حيث استقبلن بموكب عسكرى ، وقمن بتفتيش حرس الشرف الذى اصطف لاستقبالهن. كتبت هينريتى فى مذكراتها يوم ١٧/٤/ ١٨٦٢م أنهن أدخلن فى غرفة جميلة لطيفة الهواء ، ثم أتى محمد رشيق (راسخ) بيه وخاطبهن فى ود بالألمانية (إذ لم يكن يجيد الفرنسية) ولم ينس أن يذكر لهن أنه بصدد بناء بيت آخر لحريمه أمام منزله الحالي!

ذكرت الكاتبة أن مجتمع الخرطوم التجارى فى تلك السنوات كان يتكون من ثلاثة مجتمعات: التركى والمصرى والسوداني، ولكل منهم –بحسب التقاليد التركية– قائد ومندوب عند السلطات يسمى "سر التجار". احتكرت الدولة التجارة منذ عام ١٨٢٤م ولم يفض ذلك الاحتكار إلا فى عام ١٨٤٠م. شملت البضائع فى الخرطوم الصمغ العربى وريش النعام والذرو والخضروات المجففة والتوابل. كان التجار السودانيون فى الخرطوم من المديرية الشمالية ويعملون فى تجارة الجملة، وهم ينتقلون من مكان لآخر ويتمتعون بسمعة طيبة لنشاطهم وأمانتهم.

بنى أحمد باشاأبو ودان سوق الخرطوم وكان عبارة عن عدة شوارع ضيقة على جانب كل منها بنيت عدة "دكك" (جمع "دكة") وهو بناء طينى صغير يرتفع عن الأرض لمسافة قدمين، تعرض عليه البضائع للشارين. يفتتح السوق مع بزوغ الشمس ويغلق عند الغروب، وتباع فيه مختلف أنواع البضائع مثل الجبنات الفخارية (المصنوعة فى "ود الفادني") والشيشة وأدوات المطبخ المجلوبة من غرب السودان والخضروات الطازجة والحبوب. أدخل الحكم المصرى –التركى (وبعض قناصل الدول الأجنبية)فى السودان

غالب ما هو معروف الآن فيه من الخضروات والفواكه.

من بعض طريف ما ورد فى الكتاب أن اثنين من خدم السيدات الهولنديات (ساكار وهندريك) قررا الاستقالة من خدمتهن بعد أن عادا من رحلة للنيل الأبيض وهما فى غاية السقم. قبلت هينريتى الاستقالة على مضض وكتمت غضبها عليهما، بل وأعطتهما سكنا وطعاما ومكافأة بلغت ٨٠ جنيها لكل واحد منهما. اكتشفت السيدة الهولندية هينريتى فيما بعد عدم أمانة الخادمين عندما صار كثير من الزوار يشكرونها على "الهدايا" التى يفترض أنها أمرت الخادمين بتقديمها لهم. كان الخادمان يتصرفان فى المواد الغذائية التى جلبنها معهن السيدات الهولنديات دون استئذان.

أوردت المؤلفة رأى السيدات الهولنديات فى الحكم التركى – المصرى للسودان والذى كان لا يخفى الإعجاب بسياسات ذلك الحكم خاصة فى عهد الخديوى محمد سعيد باشا والذى زار السودان فى ١٨٦٥م برفقة مستشاريه الأوربيين، وكان يأمل فى تحريم الرق وتخفيف عبء الضرائب الثقيل على المواطنين السودانيين وإشراكهم فى جبايتها. كان ذلك الخديوى يؤمن بلامركزية الحكم فقام بتقسيم البلاد إداريا إلى أربع مديريات هى مديرية التاكا (شرق السودان) ومديرية كردفان (غرب السودان) ومديرية دنقلا (والتى تشمل بربر) ومديرية الخرطوم (والتى تشمل سنار ومناطق النيل الأبيض). حكم المديرية الأخيرة بين عامى ١٨٦١ – ١٨٦٢م رجل سودانى قابلنه السيدات الهولنديات وتم تقديمه لهن على أنه "محمد أفندى المدير".

فى فصل صغير حكت المؤلفة قصة إنشاء أول كنيسة كاثوليكية بالخرطوم فى يوليو من عام ١٨٤٣م بواسطة بلونديل فان كيولينبروك قنصل بلجيكا فى الإسكندرية مع قسيس اسمه ليوجى مونتيورى طرده ملك الحبشة من مملكته. كان بالخرطوم عدد كبير من المسيحيين ولم تكن لديهم كنيسة يقيمون فيها الصلاة أو مراسم الزواج، وعند الوفاة كانوا يدفنون فى مقابر المسلمين. لكل ذلك قرر مونتيورى الاستقرار فى الخرطوم وبناء كنيسة ومدرسة ومقبرة مسيحية فيها. اتصل القسيس بأحمد باشا أبو ودان حكمدار السودان وطلب منه التصديق له بأرض لبناء المؤسسات المذكورة. وافق الحكمدار على ما طلبه القسيس نظير رشوة صغيرة. من الطريف أن القسيس مونتيورى جهز مدرسة الكنيسة

لافتتاحها فى أكتوبر من عام ١٨٤٣م بيد أنه فوجئ بأن أحدًا من السكان لم يسجل أى تلميذ فى المدرسة. ولحل المشكلة حفر القسيس مكانا معينا فى حديقته لاستخراج خزانة أمواله، ثم توجه من فوره لسوق الرقيق واشترى ٢٠ طفلا مستعبدا وابتاع لهم ملابس وأغذية وأدخلهم من فوره كأول دفعة لمدرسته الكاثوليكية فى السودان.

فى بقية فصول الكتاب تحكى المؤلفة عن رحلة النساء الهولنديات إلى جنوب السودان خاصة مناطق كاكا وغوندوكورو وبحر الغزال.

أخيرا عادت السيدات إلى الخرطوم فى طريقهن لموطنهن عن طريق بربر وسواكن فى أغسطس من عام ١٨٦٤م ومنها إلى السويس وإلى بلادهن.

مسيحيون في أوساط المسلمين: الجمعية الكنيسة التبشيرية في السودان الشمالي

Christians among Muslims: The church missionary society in the northern Sudan

هيزر شاركي Heather Sharkey

◇◇◇◇◇◇

تقديم: هذا عرض وتلخيص موجز لمقال للدكتورة الأميريكية هيزر شاركي (الأستاذة المتخصصة في تاريخ ولغات وحضارات الشرق الأوسط والأدنى في جامعة بنسلفانيا) نشر في العدد رقم ٤٣ من "مجلة التاريخ الأفريقي" التى تصدرها دار نشر كمبردج في عام ٢٠٠٢م..للكاتبة عدة كتب ومقالات عن السودان ومصر منها كتاب "العيش مع الاستعمار: الوطنية والثقافة في السودان الإنجليزى المصري"، وكتاب "الإنجيليون الأمريكيون في مصر" و"الهوية والمجتمع في الشرق الأوسط المعاصر" و"تاريخ الصحافة العربية في السودان". كنت قد عرضت لعدد من كتابات الدكتورة شاركى في مقالات سابقة.

أتقدم بالشكر للدكتورة شاركى لإرسالها لى المقال.

***

تعرض الكاتبة فى مقالها تاريخا يتسم بالحياد لجمعية الكنسية التبشيرية (CMS) والتى حلت بالخرطوم بعد عام واحد فقط من دخول الاستعمار البريطانى – المصرى للسودان (أى فى عام ١٨٩٩م)، بيد أنها لم تفلح إلا فى تنصير فرد مسلم واحد بعد ستين عاما من العمل التبشيرى النشط. وقف وراء تلك النتيجة المخيبة لآمال رجال التبشير المسيحى موقف الحكومة الاستعمارية التى لم تشأ أن تثير متاعب مع مجتمع إسلامى متحفظ كانت فى غنى عنها، فمنعت التبشير فى أوساط المسلمين إيثارًا للسلامة. كان لفشل عمليات التنصير تلك سبب مهم آخر إلا وهو شدة معارضة المسلمين لأى محاولة لردهم عن دينهم، وحرمة تبديل المعتقد الدينى عندهم وعقابها بالقتل (مع ترحيبهم الشديد بمن يصبأ عن دينه ويسلم). تأكد ذلك ليس فى السودان الشمالى فقط بل فى مناطق إسلامية أخرى مثل إيران وأفغانستان وشمال نيجيريا، بينما نجحت عمليات التنصير تلك فى مناطق أخرى مثل جنوب آسيا.

حاولت الجهات الكنسية التبشيرية المختلفة كسر الحظر الذى فرضه الحكم الاستعمارى على عمليات التنصير (المباشر) عن طريق القيام بأعمال خيرية إنسانية كفتح المدارس والمستشفيات تضمن جذب قلوب وأفئدة المستفيدين من تلك الخدمات وتنشر العقيدة المسيحية بطريق غير مباشر. بالطبع لم تفلح تلك المحاولات التنصيرية بيد أنه من الواجب القول أن تلك المدارس والمستشفيات كانت هى السابقة فى تقديم خدمات تعليمية وطبية لكثير من السكان خاصة فيما يخص تعليم البنات.

لم تفلح مدارس الكنيسة التبشيرية بالسودان فى خلق طبقة صفوية مميزة كما حدث فى مناطق أخرى من العالم (كجنوب آسيا) إذ إن غالب طلاب تلك المدارس كن من بنات فقراء المدن المهمشين اجتماعيا ومن ذوات الأصول الاجتماعية المتواضعة. كان تعليم هؤلاء يركز فى الأساس على التدبير المنزلى أكثر منه على القراءة والكتابة. شمل ذلك لاحقا تعليم الصبية (الوثنيين) فى جبال النوبة من الناطقين بغير العربية أيضا، حيث كانت تلك المدارس تصر إصرارا غريبا على تعليم التلاميذ بلغة عربية دارجة (من تأليفهم) مرسومة بالحروف اللاتينية، وهو أمر عديم الفائدة العملية، ويزيد طين خريجى هؤلاء المدارس بلة، ففرصهم فى التوظيف والتقدم الاجتماعى محدودة أصلا بسبب عوامل

الإثنية أو الجندر أو المكانة الاجتماعية.

تكونت جمعية التبشير المسيحية فى ١٧٩٩م كواحدة من عديد المؤسسات التبشيرية التى صوبت نحو أفريقيا وآسيا فى القرنين التاسع عشر والعشرين مع توسع الإمبراطوريات الأوربية، وهى موقنة بأن لها دورا "رساليا" لنشر المسيحية فى أوساط المجتمعات الإفريقية والآسيوية وغيرها بمن فيها من مسلمين ويهود وهندوس وبوذيين وأقباط وأرمن. ولضمان وصول رسالتهم لتلك الشعوب كان عليهم تعلم اللغات والديانات المحلية، بل وقاموا بترجمة الإنجيل والكتب المسيحية الأخرى إلى اللغات المحلية. كانت تلك الكتب تحمل عناوين موحية من قبل "المسيح من أجل الهند" و"المآخذ على الإسلام". كان نجاح الجمعية فى عمليات تنصير غير المتعلمين من ممارسى الديانات المحلية أكبر مما عند سواهم، وأتاحت لهم الجمعية لغة أجنبية ولغة محلية (هجينة) وفرصا للصعود والترقى فى السلم الاجتماعي. وفى المقابل تعذر على مبشرى الجمعية تنصير من لهم كتب سماوية يقرؤونها مثل يهود المغرب والشيوخ المسلمين فى جنوب غرب نيجيريا وساحل كينيا ومصر، وهؤلاء كان بمقدورهم أيضا أن يضايقوا أو يهددوا أو يحاكموا من يتنصر من جماعتهم، وبل وكان بمقدورهم فتح مدارس خاصة بهم تغنيهم عن المدارس الكنسية البريطانية.

مع نهاية القرن التاسع عشر ازداد نشاط الجمعية التبشيرى بفعل تمدد سطوة الإمبراطورية البريطانية، وتوهم أفراد الجمعية أن بمقدورهم العمل بسهولة فى تنصير المسلمين، خاصة وأنهم تحت "حماية" المستعمر القوي. بل إن بعض غلاة المتحمسين فى بريطانيا كانوا يؤمنون أن سيطرة المستعمر الأوروبى العسكرية على بلدان مثل شرق أفريقيا والجزائر وشمال نيجيريا وسينقامبيا (دولة تجمع السنغال وقامبيا أنشأتها بريطانيا وفرنسا) كفيلة بالقضاء على الإسلام فيها. ولكن على العكس ازداد مبشرو الجمعية على أرض الواقع الأفريقى قلقًا وهم يرون الإسلام يزداد انتشارًا فى هذه المناطق وغيرها. فشهدت تلك الفترة منافسة وصراعًا محمومًا بين أنصار الكنيسة والمسلمين امتد للصحف، والتى كتب بعضها ينادى بأن تختار أفريقيا بين الإسلام أو المسيحية فليس ثمة خيار آخر، ووصفت صحيفة أخرى فى عام ١٨٨٥م المحمدية (الإسلام) بأنه "ليس

حليفًا مشكوكًا فى أمره، بل خصم معلن".

كانت لدى الجمعية الكنيسة التبشيرية الرغبة فى الدخول للسودان منذ أن قتل فى عاصمتها غردون (الحاكم المبشر والشهيد عند مسيحى وصحافة بريطانيا) فى عام ١٨٨٥م، وكان ذلك الاستشهاد دافعًا لتأييد الرأى العام البريطانى لفكرة استعادة (أو غزو) السودان، فقام أفراد الطبقات الدنيا والمتوسطة بجمع التبرعات لحملة استعادة السودان "إحياء لذكرى غردون الشهيد المسيحي". وكإجراء مؤقت سعت الجمعية لاستخدام وجودها فى مصر (التى احتلتها بريطانيا فى ١٨٨٢م) من أجل التنصير، فقد كانت فى منتصف القرن التاسع عشر تؤمل أن يقوم أقباط مصر-بعد "تأهيلهم"- وعوضًا عنها بتنصير المسلمين، بيد أنها فى آخر ذلك القرن غدت تهدف لتنصير المسلمين والأقباط معا خدمة لمصالح الإمبراطورية البريطانية، أو كما كانت تزعم. فى أعقاب استعادة السودان حانت الفرصة للجمعية كى تبدأ نشاطها فى السودان فأعلنت عن فتح الباب لتعيين مبشرين جدد.

ساهم المبشرون فى إعطاء الاستعمار واجهة أخلاقية وذريعة للقيام باحتلال البلدان "غير المتمدنة / المتحضرة" بإنشائهم- ودون عون حكومي- للمدارس والعيادات والمستشفيات خدمة للمتنصرين المحتملين. بيد أن العون الذى كان يتوقعه المبشرون من السلطات الحكومية لم يأت، فقد كان المستعمرون سعداء بأن يعمل المبشرون فقط فى أوساط معتنقى الديانات المحلية ويساهموا فى توطيد أركان السلم السياسى فى مناطقهم النائية، ويعملوا من أجل مصلحة الحكومة من على البعد. بيد أن الأمر مختلف جدًا فى مناطق المسلمين، إذ أنها لها تقاليد دولة قديمة ذات تنظيم عسكري، وكان المستعمرون - وعلى رأسهم اللورد كرومر وكتشنر- يخشون - إن سمح للمبشرين بتنصير المسلمين أو حتى مجرد مناقشة الأمور الدينية معهم - من إثارة مشاعرهم الدينية والثورة عليهم، وربما إعادة إحياء روح الجهاد ضد الامبريالية التى دعت لها المهدية فى نهايات القرن التاسع عشر. زاد المستعمرون البريطانيون على ذلك بتطمينهم للقيادات الدينية فى السودان الشمالى بأنهم يحترمون الإسلام وشعائره ومؤسساته، وأتبعت القول بالعمل فقامت بتدريس اللغة العربية والدين الإسلامى فى المدارس الحكومية، ودربت بعض خريجيها

للعمل فى سلك القضاء الشرعي، وسهلت أداء فريضة الحج لمكة. ومن جانب آخر، ولكسب ود المبشرين أيضا سمح كرومر وكتشنر لهم بالعمل فى الجنوب (تحت خط العرض ١٠) حيث لم يكن الإسلام منتشرا، وخصوا بالذكر فشودة، والتى كانت محل صراع بين بريطانيا وفرنسا قبيل تلك السنوات. رضيت الجمعية الكنيسة التبشيرية بتلك القسمة فافتتحت أول إرسالية لها فى ملكال فى أواخر عام ١٩٠٥م. سمح كرومر وكتشنر أيضا للجمعية بفتح مدارس ومستشفيات فى شمال السودان لخدمة المسيحيين الأجانب كالأقباط واللبنانيين والإغريق الذين تقاطروا على السودان من أجل العمل فى خدمة الحكومة الجديدة أو لبدء أعمال تجارية فيه. ولتقليل فرص التنافس الحاد بين المذاهب المسيحية المختلفة ولضمان توزيعها توزيعا عادلا تولت الحكومة أمر تفريق المبشرين من مذاهب مختلفة على سائر الأجزاء الجنوبية من البلاد، ومنحتهم الحق فى إنشاء المدارس والمستشفيات، فتخلصت بذلك من عبء مالى ثقيل، وجسدت وعضدت أيضا كيان السودان الجنوبى ككيان منفصل عن السودان الشمالي، وفصلت بين شعبيه.

أنتج النشاط التبشيرى الطويل المدى فى أوساط القبائل الجنوبية "الوثني" نظاما تعليميا أثمرعن طبقة صفوية مؤثرة من المتعلمين المسيحيين خرج من بين صفوفهم فيما بعد متحدثون وسياسيون وقادة للحرب الأهلية بين أعوام ١٩٥٥ – ١٩٧٢م و١٩٨٣ – ٢٠٠٥م، وكما ذكرنا فقد منع البريطانيون النشاط التبشيرى فى البدء ، ثم سمحوا ببعضه بصورة متواضعة، لم يسمح فيها بغير نشاط متواضع للكنائس فى أمور التعليم والصحة والحياة السياسية أو الاجتماعية، وظلت المدارس التى أنشأها المبشرون فى الشمال تخدم أبناء وبنات الجاليات الأجنبية المسلمة والمسيحية واليهودية، وتخدم أيضا السودانيين المسلمين من ذوى الأصول المسترقة (والذين بلغ تعدادهم بحسب أحد الإحصائيات ثلث سكان السودان الشمالى فى نهاية القرن التاسع عشر)، وساهمت مساهمة كبيرة فى تعليم البنات (خاصة أولئك اللواتى كن من طبقات فقيرة وأصول متواضعة) فى وقت لم يكن فيه تعليم البنات أمرا مقبولا. بدأت الجمعية الكنيسة التبشيرية عملها فى السودان الشمالى بفتح عيادة طبية فى أم درمان فى عام ١٩٠٠م، بينما قام النمساويون الكاثوليك وكذلك المشيخية الأميركية بافتتاح مدرستين للبنين لها فى الخرطوم أثارت غيرة الجمعية

الكنيسة التبشيرية فلحقت بهم وافتتحت مدرسة لها فى الخرطوم فى عام ١٩٠٢م. ولما كانت تلك المدرسة التى أنشأتها المشيخية الأميركية مخصصة للبنين، كان لزاما على الجمعية الكنيسة التبشيرية أن تقيم مدرستها تلك للبنات. صادفت سنوات إنشاء تلك المدرسة اقتحام النساء البريطانيات للعمل فى مجال التبشير فى المناطق المدارية، وكان هذا أمرا مشجعا للطالبات فى تلك المناطق للالتحاق بمدارس منفصلة للبنات تقوم بالتدريس فيها نساء راهبات. لم تعمر المدرسة التى أنشأتها على عجل الجمعية الكنيسة التبشيرية طويلا بعد أن بدأت بـ١٣ طالبة من بنات الحبوش من ذوات الأصول المسترقة اللواتى ولدن مسيحيات، ثم أجبرن على اعتناق الإسلام خلال فترة المهدية، وكانت المعلمة فى تلك المدرسة امرأة أثيوبية ملونة اسمها ست نور دستا كانت قد بيعت فى سوق الإسكندرية المفتوح للنخاسة، ثم قيض لها أن يشتريها قسيس أمريكى ويلحقها بالعمل فى الكنيسة كطاهية أولا ثم كمعلمة. افتتحت من بعد ذلك مدرسة قبطية لتدريس بنات الموظفين المصريين. كان البريطانيون آنذاك يرون أن الوقت لم يحن بعد لاستقدام راهبات بريطانيات (عَزْباوات بالطبع) للعمل فى السودان ، فقاموا بتعيين سيدة سورية تدعى ست سعدة حداد للعمل كمدرسة فى تلك المدرسة للقيام بمفردها بتدريس البنات من عمر ٥ إلى ١٥ سنة.

بعد سنوات من افتتاح تلك المدارس أنشأ القائد المهدوى السابق الشيخ بابكر بدرى أول مدرسة سودانية لتعليم البنات، وازداد إقبال الآباء السودانيين على تعليم بناتهم خاصة عند معرفتهم أن المدارس تقوم بتعليم البنات شؤون التدبير المنزلى وأعمال الإبرة والرعاية الحديثة للمنزل والطفل، وهذا مما يزيد فرص تزويجهن! كانت النتيجة هى تقاطر البنات المسلمات السودانيات للالتحاق بمدارس البنات المسيحية .ذكرت المؤلفة أن ناظرة مدرسة الجمعية الكنيسة التبشيرية بين عامى ١٩٠٤–١٩٣٠م أوردت فى كتاب مدرسة الاتحاد العليا المعنون "واحد وعشرون عاما من التقدم" مقالا بعنوان "اجعلوا من بنتى سيدة إنجليزية

Make my daughter like an English sitt

سمحت الحكومة –بعد تمنع– لمدرسة الجمعية الكنسية التبشيرية بتدريس التلاميذ

المسلمين مادة "الدين" شريطة أن يحصل ناظر المدرسة منذ البداية على تصريح كامل وصريح من ولى أمر التلميذ، بغض النظر عن جنسيته وعرقه ودينه. وكان ذلك الشرط عائقا للجمعية ومصدر إحباط شديد لها، فتدريس مادة "الدين" ظل يشكل لتلك المدرسة منذ إنشائها معضلة محيرة. فى البدء تقبل أولياء أمور التلاميذ السودانيون قيام أبنائهم بصلوات عامة وحصص عن "الدين"، بيد أنهم رفضوا أن تقدم لهم دروسا عن المسيحية –تحديدا– فى حصص الدين تلك، خاصة فى أمور مثل ألوهية يسوع. وكحل وسط قامت المدرسة بتدريس "العهد القديم" للتلاميذ ولكنها جعلت حضور الحصص التى يدرس فيها "العهد الجديد" اختياريا للطلاب ["العهد القديم Old Testament" هو الجزء الأكبر من الكتاب المقدس ويحتوى على جميع كتب اليهود بما فيها التوراة (الكتب الخمسة الأول) و"العهد الجديد New Testament" هو الجزء الثانى من الكتاب المقدس لدى المسيحيين، ويحتوى على ٢٧ سفرًا وهى الأناجيل الأربعة: إنجيل، وإنجيل مرقص، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، بالإضافة إلى أعمال الرسل وأربعة عشر رسالة لبولص وسبع رسائل لرسل وتلاميذ آخرين وسفر الرؤيا]. رغم ذلك لم تستطع بعض المعلمات من الراهبات مقاومة لإغراء دس بعض ما هو متعلق بـ "العهد الجديد" من تراتيل وصلوات فى مقرر "الدين". بل لقد حدث فى عام ١٩١٢م أن تم تدريس التلميذات المسلمات فى المدرسة الجمعية بأتبرا – وبصورة سرية– التعاليم المسيحية ومن ضمنها ألوهية يسوع. قامت الجمعية بعمل تحقيق فى المسألة، وأمرت بعدم تكرارها، رغم أنها أشارت إلى أن أحدًا من الآباء لم يحتج (أو يلحظ) ذلك! كان الآباء فى حالات نادرة يكتشفون أن بناتهم يدرسن المسيحية فى حصص "الدين"، ويقومون عندئذ بسحب بناتهم، وقد حدث هذا فى عامى ١٩٠٣م و١٩١٦م.

فى عام ١٩٢٦م قام المسلمون باحتجاجات ضخمة ضد كل المدارس التبشيرية المختلفة بالسودان (دون تفريق بينها) لما يسمعونه من قصص عن تدريس التلاميذ المسلمين لتعاليم المسيحية فى حصص "الدين"، فقلت أعداد التلاميذ المسجلون بتلك المدارس، خاصة فى أم درمان، وقام الوطنيون من قادة المتعلمين والأثرياء بحملة مظاهرات أيدتها بعض الصحف السودانية لإنشاء مدارس "أهلية" تلبى رغبات

وطموحات آباء التلاميذ السودانيين لنيل تعليم عصرى يراعى معتقدهم الديني. كان من بعض قادة تلك المظاهرات بحسب رواية محمود أبو العزائم فى كتابه "كنت قريبا منهم" الضابط عبد الله خليل (ورئيس الوزراء فيما بعد بين يوليو ١٩٥٦م - نوفمبر١٩٥٨م).

كان هدف الجمعية الكنسية التبشيرية من إنشاء المدارس والعيادات والمستشفيات هو أن تغدو تلك المنشآت مركزا للتبشير بالمسيحية، بيد أنه وكما ذكرنا آنفا فإن القيود التى وضعتها الحكومة على تنصير المسلمين، وأهم من ذلك، نفور المواطنين المسلمين من الارتداد عن دينهم حالتا بين تلك الجمعية وما تشتهي، وجعلت من مهمة التنصير مهمة شبه مستحيلة. رغم ذلك لم تخل تلك الكنائس والمدارس أبدا من بعض المسلمين الذين كانوا يشهدون تلك الدروس المسيحية بدافع الفضول أو الرغبة فى المعرفة أو الاستفسار عن بعض الأمور. لم تثن عزائم القائمين على أمر الجمعية الكنسية التبشيرية فشلها الذريع فى تنصير السكان فى شمال السودان، فواصلت جهودها فى فتح المدارس والعيادات، فافتتحت (تحت شعار: تدريب "أمهات وزوجات أفضل") مدرسة ثانية للبنات فى أم درمان عام ١٩٠٥م ومدرستين أخريين فى أتبرا وودمدنى فى عامى ١٩٠٨م و١٩١٢م، على التوالي. تم قفل نشاط مدرسة الخرطوم وقررت الجمعية أن تجعل أم درمان (عاصمة دولة المهدية الدينية) مركزا لنشاطها فأقامت فيها مستشفى فى عام ١٩١٢م، توسع فى عشرينيات القرن الماضى ليضم أقساما لرعاية المجذومين والعمى والمعدمين. افتتحت الجمعية كذلك مدرستين فى الموردة وأب روف، وأقامت كذلك عيادة للطفولة والأمومة فى أب روف فى عام ١٩٢٦م، وأسست أيضا داخلية لسكن البنات اللواتى ليس لهن عائل فى أم درمان، استقبلت عشرين من المسترقات اللواتى تم تحريرهن فى راجا بجنوب السودان. وفى الثلاثينيات من القرن الماضى أنشأت الجمعية كذلك مدرسة للتمريض كانت تستقبل خريجات مدارسها، وبذا تكاملت خدمات الجمعية التعليمية والطبية.

لا شك فى أن مجهودات وإنجازات تلك الجمعية - بغض النظر عن الهدف النهائى منها - قد عبدت الطريق لجعل تعليم البنات مقبول اجتماعيا، ووضعت اللبنات الأولى لكل تقدم فى هذا المجال. بيد أن الجمعية لم تكن تتوقع - بالطبع - أن تثمر مجهوداتها فى أوساط البنات والنساء عن تنصرهن، وكما كتب أحد القساوسة فإن "البنت المسلمة كى

تتنصر ينبغي عليها أولا استئذان والدها، وهو لن يوافق بالطبع!" لا عجب إذن إن علمنا إن كل من نجحت الجمعية في تنصيرهم في أفريقيا وآسيا كانوا في الغالب الأعم من الذكور (تطرق حسن نجيلة في "معالم من المجتمع السوداني" لقصة تنصير ست فيث Sitt Faith وهي فتاة إثيوبية كانت مسيحية ثم استرقت، ولوصول الأمر للقضاء حيث حكم قاضيان سودانيان بجواز أن تتنصر تلك الفتاة إن أرادت).

تطرقت الكاتبة لاستخدام القساوسة في الجمعية الكنسية التبشيرية الحروف اللاتينية لكتابة اللغة العربية الدارجة، وكيف أنه لا توجد دراسات أو أبحاث توثق لتاريخ ذلك الضرب من الكتابة في السودان، رغم أن هنالك الكثير مما كتب عنها في أدبيات المبشرين المسيحيين مثل الأبحاث التي أجريت على لغة الهوسا المكتوبة بالحروف اللاتينية. بيد أن الكاتبة تناولت وثائق تثبت أن تلك اللغة العربية الدارجة المرسومة بحروف لاتينية كانت قد استخدمت فعلا في السودان، فأوردت تلك الرسائل التي كتبتها القابلة السودانية المسلمة "كتيرة عبد الله" في عام ١٩٣٥م إلى أستاذتها في بريطانيا ميبل وولف مديرة مدرسة تدريب القابلات بأم درمان عن أخبار "عيادة ما قبل الولادة" والعاملين بها. كان المبشرون البريطانيون يستخدمون تلك اللغة العربية الدارجة المرسومة بحروف لاتينية لسببين اثنين: السبب الأول (والأهم) هو أنهم لم يكونوا يعرفون غيرها، فهم لم يدرسوا العربية الفصيحة، بل كان على دراية (متوسطة) فقط بما يسمعونه من عربية دارجة من أفواه المتحدثين بها. والسبب الثاني هو إيمانهم بأن قراءة الإنجيل بلغة المرء الدارجة أيسر له /لها من أي لغة فصيحة. يجب تذكر أنه لم تتوفر لتلميذات الجمعية الكنسية التبشيرية في السودان الشمالي أي كتب مدرسية باللغة الدارجة مكتوبة بالحروف اللاتينية، بيد أن هذا لم يكن بالأمر المستغرب، ففي تلك السنوات كان هذا هو الحال في كل مدارس السودان الحكومية لعدم وجود مطابع ودور نشر عربية، ولم يلق أمر استخدام اللغة الدارجة بالحروف اللاتينية أي دعم رسمي من الحكومة بعكس ما حدث في شمال نيجيريا مثلا حيث وجد مشروع كتابة لغة الهوسا بالحروف اللاتينية الذي تبنته الكنيسة دعم السلطات البريطانية الرسمية.

انتبه أحد القساوسة في الجمعية التبشيرية الكنسية (واسمه س. موريسون) لعدم

جدوى كتابة العربية الدارجة بالحروف اللاتينية فكتب فى عام ١٩٣١م حاضا الجمعية على طباعة كتب الأدب العربى باللغة الدارجة بحروف عربية وليس لاتينية لمقابلة احتياجات الأطفال السودانيين والكبار أيضا، والذين كانوا بالكاد يقرؤون العربية، ودعا لتوفير كتب أدبية عربية بلغة مبسطة لهم. لم يجد ذلك الاقتراح أذنا صاغية، ربما بسبب قلة التمويل عند الجمعية والتى كانت تجاهد كى توفر ما يكفى لمقابلة مرتبات المدرسين.

كان غالب الأساتذة فى مدارس الجمعية الكنسية التبشيرية من المصريين والعرب الآخرين، بيد أنه بعد حركة ١٩٢٤م فصلت الإدارة البريطانية جل هؤلاء "الأفندية"، ومع زيادة عدد الطالبات المتقدمين للتسجيل فى تلك المدارس كان لزاما على الجمعية الاهتمام بتخريج طالبات يجدن القراءة والكتابة باللغة العربية الفصيحة. كذلك كانت من نتائج أحداث حركة ١٩٢٤م أن زاد الاهتمام بمناهج الدراسة وإصلاحها لجعلها أقرب للمحلية السودانية منها إلى ما كان يدرس من مناهج بريطانية أو مصرية، خاصة بعد أن ضعفت ثقة الحكم الإنجليزى فى المتعلمين المصريين (والسودانيين كذلك)، وتحول اهتمامهم إلى وجهاء القبائل والشخصيات التقليدية.

شغل التعليم فى مناطق جبال النوبة حيزا كبيرا من اهتمامات الجمعية الكنسية التبشيرية منذ أن دعت الحكومة فى عام ١٩٣٣م الكنائس لدخول مجالات التعليم هناك، خاصة لتدريس أبناء رؤساء القبائل (المكوك) وتدريبهم لاحقا للعمل كموظفين وكتبة فى خدمة الحكومة. كانت المعضلة هى فى اختيار النمط التعليمى المناسب لجبال النوبة: أهو ذات النمط التعليمى المستخدم فى الشمال حيث تدرس اللغة العربية الفصيحة، أم من الأفضل استخدام ما هو سائد فى الجنوب حيث تدرس اللغة الدارجة المحلية إضافة للغة الإنجليزية.وبما أن اللغة العربية كانت هى اللغة الرسمية فى أعمال الإدارة ، وجبال النوبة تقع فى جنوب كردفان (وهى مديرية من مديريات شمال السودان) كان من رأى فريق من الإداريين البريطانيين أن يتم التدريس فى مدارس جبال النوبة باللغة العربية، بينما كان من رأى فريق آخر أن جبال النوبة (وهى منطقة غالب سكانها من غير المسلمين) كانت هدفا لتجار الرقيق الشماليين فى القرن التاسع عشر، وتشابه فى كثير من النواحى التاريخية والثقافية جنوب السودان لذا ينبغى إعطائها "سياسة الحماية" المطبقة فى الجنوب التى

تشجع على استخدام اللغات المحلية والإنجليزية كلغات تعليم.

قبل وصول الجمعية الكنسية التبشيرية إلى جبال النوبة كانت الحكومة قد استقرت على أن تكون اللغة العربية (وليس اللغات المحلية ولا الإنجليزية) هى لغة التعليم فيها لتسهيل التجارة والإدارة والتواصل مع مناطق كردفان، بيد أنها سمحت أيضا لتلك للجمعية بإنشاء مدارس لتطوير الثقافة النوبية المحلية دون تدخل أو تداخل من/مع الثقافة العربية الإسلامية، وأن يقتصر دخول تلك المدارس الكنسية على التلاميذ غير المسلمين. نشأ خلاف جديد بين خبراء التعليم والإدارة فى أى أنواع العربية ستستخدم تلك المدارس الكنسية: أهي اللغة العربية الفصيحة (الكلاسيكية) أم الدارجة؟ وكان لكل فريق حججه وأسبابه. وافقت الحكومة أخيرا على أن يتم التدريس فى مدرسة الجمعية الكنسية التبشيرية باللغة العربية الدارجة المكتوبة بالحروف اللاتينية، ووفرت الأموال والعون الفنى لطباعة كتيبات بلغة النوبة لاستخدامها فقط فى تلك المنطقة. كان هذا بالطبع مما أسعد تلك الجمعية ورجالها، وأغضب المسلمين الذين عدوا تلك السياسة عائقا ثقافيا ووسيلة من وسائل إيقاف انتشار المد الإسلامي. وكان هذا هو ما قاله ج. ماثيو مدير التعليم فى الجمعية فى رسالة (خاصة) له إلى السير إيدوارد ميدونتر فى السادس من أكتوبر عام ١٩٣٤م بأن الغرض من استخدام اللغة العربية بالحروف اللاتينية هو "قطع صلة التلاميذ بالقرآن". لخصت امرأة فرنسية اسمها OdetteKeun زارت المنطقة (فى عام ١٩٣٠م أو نحو ذلك) تلك السياسة التعليمية فى كتاب لها بعنوان "السودان البريطانى بعيون أجنبية" Foreigner looks at the British SudanA بقولها إنها سياسة تحاول إبعاد النوبة عن "البنطال والإسلام"! لم يستمر سماح الحكومة لمدرسة الجمعية الكنسية التبشيرية بالتدريس باللغة العربية بحروف لاتينية إلا لمدة خمسة أعوام (١٩٣٠-١٩٣٥م) عندما أتى لحكم كردفان دوقلاس نيوبولد (وهو رجل مثقف ويحمل أفكارا أقل خوفا من الإسلام ممن سبقه) وتوصل إلى قناعة مفادها أن كتابة اللغة العربية الدارجة بالحروف اللاتينية أمر غير عملي، وأمر بالتدريس بالعربية الفصحى فى سائر أنحاء كردفان أسوة ببقية مديريات السودان الشمالي. لم يتم تنفيذ ذلك الأمر على الفور بل استغرق عدة سنوات إذ إن معلمى مدرسة الجمعية لم يكونوا يجيدون قراءة

وكتابة العربية الفصيحة، دعك عن التدريس بها. كان جون إسبنسر ترنجهام (١٩٠٤ – ١٩٨٧م)، واحد من أهم الأكاديميين فى مجال الدراسات الإسلامية فى أفريقيا فى القرن العشرين، وسبق له العمل فى الجمعية الكنسية التبشيرية فى الثلاثينيات) من أنصار استخدام اللغة الدارجة بالحروف اللاتينية، فهو يرى أن "استخدام الحروف العربية معيق لإعطائها أصواتًا لغة حية"، ومنح هذا الرأى ذريعة للمبشرين للاستمرار فى استخدام الحروف اللاتينية فى كتابة اللغة العربية إلى حين.

ختمت الكاتبة مقالها بالقول: إن الساسة الشماليين فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين كانوا ينادون باتخاذ الحروف العربية لكتابة اللهجات / اللغات الجنوبية، وكان المبشرون المسيحيون يدعون قبل ذلك لكتابة العربية بالحروف اللاتينية (للحد من النفوذ الإسلامي)، بينما ظهرت فى السنوات الأخيرة دعوة من بعض الساسة الشماليين لاستخدام اللهجات العامية المعربة فى المدارس الأولية كخطوة تثاقفية (acculturative step) نحو دراسة اللغة العربية الفصيحة، وربما الإسلام. وقد أجريت بالفعل بعض التجارب لكتابة لغة الشلك بالحروف العربية فى بعض مدارس أعالى النيل الابتدائية عوضا عن ما كان مكتوبا بالحروف اللاتينية. وأوردت الكاتبة أيضا ما قاله الخبير اللغوى السوداني البروفيسور يوسف الخليفة أبو بكر من أن "الحكومة المركزية تأمل فى أن يؤدى توحيد الأبجدية إلى تقليل التنوع اللغوي، وأن يفضى ذلك بالتالى إلى تقريب الشقة (الاجتماعية) بين الشمال والجنوب." بالطبع لم يحالف ذلك الأمل أدنى توفيق، بل حدث –كما هو معلوم– ما هو أسوأ.

أبرز ما يميز هذه المقالة هو احتشادها بالتوثيق الدقيق لكل معلومة أو رأى يرد على لسان من تأتى الكاتبة على ذكرهم، واستعانتها بالمختصين فى مجالات متعددة تطرقت لها فى بحثها. وبالنظر إلى أنها (مبلغ علمنا) ليست مسلمة، فإن مقالها يتميز بالتوازن ويعرض الآراء المتضاربة وتحليلها دون تحامل أو ميل. لا ريب أن بعض مما جاء فى المقال عن محاولة استخدام حروف اللغة العربية فى كتابة بعض لغات جنوب السودان لم يعد له أهمية كبيرة الآن بالنظر إلى انفصال الجنوب، بيد أن هنالك مناطق أخرى بالسودان ليست بالقليلة لا يتحدث فيها الناس باللغة العربية، مما يجعل ما أثير فى هذا البحث أمرا حيويا وله من النتائج السياسية والاجتماعية ما له.

ساتى ماجد: مؤسس سودانى للدعوة الإسلامية فى أمريكا

Satti Majid: A Sudanese Founder of American Islam

باتريك د. بوان Patrick D. Bowen



نشر هذا المقال فى الجزء الثانى من العدد الأول للدورية الأمريكية "مجلة الديانات الإفريقية" والتى تصدر عن دار نشر جامعة بنسلفانيا فى عام ٢٠١٣م. لم تذكر المجلة كما هى العادة دوما فى المجلات الأكاديمية وغيرها عنوان المؤلف و/أو جهة عمله، بيد أنه بحسب المعلومات الموجودة بالشبكة العنكبوتية من مقال لذات الكتاب عن "ملون عبقري" من الزعماء التاريخيين للمسلمين الملونين (من أصل أفريقي) فى أمريكا يتضح أن المؤلف هو طالب دراسات عليا فى مدرسة اللاهوت فى جامعة دينفر بالولايات المتحدة.

يدندن المؤلف فى هذا المقال عن ذات ما كتب ونشر من قبل عن ساتى ماجد (مثل ما جاء فى عملين سابقين لمحمد عبد الحميد أحمد وكتاب للدكتورة رقية م. أبو شرف عن أوائل المهاجرين السودانيين لأمريكا، ومقال للدكتور أحمد أبو شوك وآخرين عن "ساتى ماجد" فى دورية "سودانك أفريكا" الصادرة عام ١٩٩٧م) بيد أن باتريك بوان يسجل على أنه قد ركز فى مقاله الحالى على الإنجازات المؤسسية والتأثيرات الفكرية التى خلفها ذلك الداعية الإسلامى الأول فى أمريكا منذ سنوات الحرب العالمية الأولى وحتى عام ١٩٢٩م، وبنجاحه فى أن يجعل من الإسلام فى أمريكا ديانة معترف بها فى سنوات عشرينيات القرن الماضي، وفى خلقه لمنظمات خيرية اجتماعية خدمت جمهرة المسلمين فى تلك القارة (وكثير منهم كانوا من فقراء الناس) وألفت بين قلوب عدد كبير من الأمريكيين من أصل أفريقى للإسلام السني، وترك من بعده من هؤلاء عدداً من قادة العمل الدعوى الإسلامى من أمثال داؤود أحمد فيصل. من مناقب "ساتى ماجد" التى خصها المؤلف بالذكر هى قدرته على مجادلة ومناظرة خصومه من القساوسة وغيرهم (بالتى هى أحسن).

لتبرير قيامه بهذا البحث يقرر الكاتب بثقة وجزافية ويسر فى مبتدأ بحثه أن ما سبقوه بالكتابة عن "ساتى ماجد" لم يسجلوا إلا شذرات متفرقة وصورة غير مكتملة عن

العشرين عاما التى قضاها "ساتى ماجد" فى أمريكا، ويزعم أنه بمقاله هذا سيكشف عن أن الدور الذى لعبه "ساتى ماجد" فى جعل الإسلام "دينا مؤسسيا وعاما ومهما" فى أمريكا أكبر مما سجله من سبقوه بالكتابة عن الرجل، ويقرر فى الجملة التالية أن الجمعيات الأمريكية الإنسانية والدعوية التى أنشأها "ساتى ماجد" قد اضمحلت واختفت فى نهاية المطاف وأن عمله قد طواه النسيان!

بدأ المؤلف مقاله بتاريخ موجز لتاريخ "ساتي ماجد"، وذكر أنه عاش فى أمريكا بين عامى ١٩٠٤ –١٩٢٩م، متنقلا بين مدن كثيرة أهمها ديترويت وبيترسبيرج ونيويورك وبفلو، وحمد له نظرته الإستراتيجية للإسلام فى أمريكا وضرورة تقديمه بصورة "عصرية" وعدم تكرار الأساليب الدعوية لإسلام القرون الوسطى "التقليدي" واعترافه بحرية الأديان ومحاربته للعنصرية، بل ونقله لكل تلك الأفكار والممارسات "الجديدة" لأفريقيا عند عودته لها! كرز الكاتب ما هو معروف الآن من أن "ساتى ماجد"، مولود فى ١٨٨٣م فى دنقلا العجوز لعائلة معروفة بالتدين عمل كثير من أفرادها فى القضاء (الشرعي) والإفتاء، ودرس العلوم الشريعة فى الخلاوى بمنطقته، وكان يأمل فى الاستزادة من العلوم الشريعة فى الأزهر بمصر فشد الرحال إليها فى نهاية القرن التاسع عشر أو بدايات القرن العشرين. يبدو أن من حفزه أكثر لمغادرة السودان هو رغبته فى نشر الإسلام خارج السودان وما تناهى لسمعه من دعاية مضادة للإسلام فى نيويورك، فشد الرحال أولا إلى بريطانيا حيث بدأ الدعوة (ذكرت د/ رقية أبو شرف فى كتابها المذكور آنفا أن سبب ذهابه لبريطانيا أولا هو رغبته فى تعلم الإنجليزية "على أصولها").

لا يعرف على وجه الدقة –بحسب الكاتب– التاريخ الذى حط فيه "ساتى ماجد" على الأراضى الأمريكية ، فهو يذكر فى مقابلة صحفية له فى العشرينيات أنه وصل لأمريكا فى ١٩١٢م أو ١٩١٥! بيد أن بطاقة السفر التى عثرت فى مقتنيات الرجل تفيد بأنه وصل لميناء نيو أوليانز البحرى فى ١٩٠٤م، ويتحدث الرجل فى مقابلة أخرى أجريت معه فى عام ١٩٣٥م عن عمله الدعوى الإسلامى بأمريكا فى سنوات ١٩٠٨م و١٩١٢م. وثق "ساتى ماجد" من علاقاته مع المسلمين فى الساحل الشرقى للولايات المتحدة فى العقدين الأولين من القرن العشرين، خاصة مع "شيخ محمد علي" إمام سفارة

الإمبراطورية (الخلافة) العثمانية بواشنطن، والتى قامت فى عام ١٩١٠م باستئجار شقة فى الطابق الثالث بشارع ريكتور فى مانهاتن لاستخدامها كمقر لمسجد "ساتى ماجد" ولنشاطه الدعوي. كان للشيخ التركى "محمد علي" مكانة كبيرة عند المسلمين فى أمريكا إذ التف حوله عدد من الأتباع والمريدين فى مختلف المدن الأمريكية والتى كان يداوم على السفر لها. يزعم الكاتب أن نجاح الشيخ التركى قد أثار إعجاب "ساتى ماجد" فمضى يحاول محاكاته متنقلا بين المدن الأميركية بين عامى ١٩١٢ –١٩١٣م، وخاصة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى وسقوط الخلافة العثمانية (والتى تحالفت مع الحلف النمساوى – المجرى الذى خسر الحرب). بدأ "ساتى ماجد" فى العمل الاجتماعى فأنشأ "الجمعية الخيرية الإسلامية" وساعد فى شراء أكثر من ٢٠٠ مقبرة إسلامية فى مدافن المدن المختلفة، وفى ديترويت أقام فرعا لجمعية "الهلال الأحمر"، وفى نيويورك وغيرها حاول مساعدة من فقدوا وظائفهم من البحارة المسلمين (من السودانيين واليمنيين والآسيويين الجنوبيين) الذين كانوا يعملون فى سفن بريطانية بالكتابة إلى القنصلية البريطانية لإعادتهم للعمل. وفى ديترويت أنشأ "ساتى ماجد" جمعية أخرى سماها "الجمعية الخيرية الإسلامية" كان من نوازع إقلامه لها هو النقد العنيف الذى كان يلقاه الإسلام وجماعات المسلمين فى صحف تلك البلاد المحلية باعتبارهم جماعات تؤمن بالعنف والراديكالية السياسية، بينما كان هو يؤمن بأن مرد ذلك هو ما كان يقوم به "الإمبرياليون الأوربيون" تجاههم من عسف وجور واضطهاد.

لعب "ساتى ماجد" أيضا دورا فى التوسط بين الجماعات الإسلامية المتشاكسة فى ديترويت من أمثال "الأحمدية" و البربر (Moorish) والمسلمين الأوائل من أصل أفريقي، وكان يسعى جاهدا لتوطيد الإسلام السنى فى أمريكا كدين جامع لكل المسلمين فى أمريكا.

كل ما ذكر مسجل –وباستفاضة– فى ما كتب من قبل عن تاريخ "ساتى ماجد" الدعوى فى أمريكا، ولم يأت فيه المؤلف بجديد سوى تسجيله لصوت لوم للرجل من أنه خاض فى الصراعات بين الجماعات المسلمة (المتباينة) فى أمريكا ونافسها فى الحصول على إعانات من الدولة، وأنه كان يعمد أحيانا لتضخيم انجازاته حتى يثبت نجاح مجهوداته. لم

يبذل الكاتب هنا مجهودا يذكر ليدعم هذا الزعم بوقائع ووثائق محددة توضح أين وكيف ومتى ضخم "ساتى ماجد" من مجهوداته، وعن أى "مجهودات" يتحدث المؤلف، فلساتى ماجد "مجهودات" متنوعة فى مختلف ضروب العمل العام الاجتماعى والدينى والسياسي، كما أشار كاتب المقال نفسه. اكتفى المؤلف بإيراد ما جاء فى صحيفة تصدر فى مدينة بفلو فى شرق الولايات المتحدة فى عام ١٩٢٤م من أن "ساتى ماجد" زعم أنه وحتى عام ١٩٢٤م قام بإدخال ألف فرد فى الإسلام منهم امرأة واسعة الثراء عالية التعليم فى نيويورك، بينما زعم فى موضع آخر أنه نجح فى إدخال ما يزيد على ٤٥٠٠٠ فرد للإسلام (بحسب ما جاء فى كتاب الدكتورة رقية أبو شرف ومقال أبو شوك وآخرين). كذلك أشار المؤلف لطموح "ساتى ماجد" الزائد والذى تعدى وظيفته كشيخ لديترويت، ورغبته العارمة فى أن يغدو شيخا لكل الأراضى الأمريكية، وهذه خوض بالغيب فى النوايا ودعوى عريضة لا يؤيدها ما أورده المؤلف من أن "ساتى ماجد" أنشأ "جمعية المسلمين المتحدة" والتى يدعى أن عضويتها تبلغ مائة ألف أو يزيدون، بينما كانت عضويتها الحقيقية لا تزيد على بضعة آلاف. رغم ما زعمه مؤلف المقال من أن "ساتى ماجد" بالغ فى تقدير قوته وضخم دوره أكثر مما يجب، إلا أنه يعترف بأنه كان أول من سعى لإنشاء كيان (ديني) جامع للمسلمين فى أمريكا، معارضا بذلك من يزعمون أن عبد الله أقرام / أجرام القاطن فى مدينة سيدار رابد (فى ولاية أيوا) هو أول من سعى لتكوين مثل ذلك الكيان فى غضون سنوات الحرب العالمية الثانية.

سجل المؤلف طرفا من تاريخ "ساتى ماجد" فى مدينة بفلو بولاية نيو يورك فذكر أنها كانت مكانا مثاليا لساتى ماجد ليثبت جدارته وقدرته على قيادة المجتمع الإسلامى فى تلك المدينة، والتى تقاطر عليها منذ بداية القرن العشرين عدد كبير من المهاجرين المسلمين. كان المهاجرون هؤلاء يتجمعون فى مقهى يملكه أحدهم، وكان "ساتى ماجد" يقيم (ربما مع عائلته) فى شقة تقع فوق ذلك المقهى نفسه بين عامى ١٩٢٤ – ١٩٢٧م منها كان يدير عمله الخيرى فى أوساط المسلمين ومساعدتهم بأعمال الترجمة لهم وتعليمهم اللغة الإنجليزية والعادات الأمريكية.

من قصص الصراعات (المثيرة) التى خاضها "ساتى ماجد" مع غيره من قادة العمل

الإسلامي في أمريكا في تلك السنوات التي وردت في المقال قصة خصومته مع مسلم اسمه "أحمد علي" ويبلغ من العمر ٤٧ عاما (لم يذكر عنه غير اسمه وعمره) والتي هدد فيها المذكور "ساتي ماجد" بالقتل، وتمت محاكمته لهذا السبب وأدين وحكم عليه بالسجن لنصف عام. كان الشاهد في المحكمة رجل مصري اسمه رمضان أحمد شهد بأن المتهم أحمد علي قد أعطاه مبلغ ٣٠٠ دولار في القهوة التي يتجمع فيها المسلمون في "بفلو" لقتل "ساتي ماجد"، وأيد رجل آخر ما ادعاه ذلك الشاهد. قال المتهم في دفاعه عن نفسه : إن "ساتي ماجد" دعي (faker) اختلق أنه رجل دين وإصلاح ويخدع بني وطنه. ذكر المؤلف أن الصحيفة التي غطت تفاصيل تلك المحاكمة ذهبت إلى أن لذلك الصراع بين "ساتي ماجد" و"أحمد علي" جذورا عنصرية وربما دينية أيضا، وصورت الأمر كله على أنه صراع حول قيادة "ساتي ماجد" للعمل الإسلامي في أمريكا ومحض منافسة له. قال القاضي الذي نطق بالحكم : "يجب على هؤلاء الرجال عند مغادرتهم لأرض العرب (sic هكذا وردت) ووصولهم إلى هنا أن يتركوا صراعاتهم (السابقة) خلفهم. يجب أن نوقف هذه الانتفاضة المسلمة". كانت تلك أول مرة تفصل فيها المحاكم الأمريكية في أمور تتعلق بالقيادات الإسلامية بالبلاد. يعتقد المؤلف أن قسوة الحكم الصادر قد يعبر عن تخوف (مبكر) من ذلك الدين القادم ومن أن تتطور الصراعات بين المسلمين إلى ما هو أسوأ. لم تغب تلك الحقيقة عن "ساتي ماجد" والذي عين له محاميا (وكان اسمه صمويل فلايشمان) ليمثله في تلك المحكمة. من طريف (بل غريب) ما ذكره ذلك المحامي هو أن "ساتي ماجد" هو سليل مباشر (رقم ٢٩) للعترة النبوية الشريفة، وهو من "السادة الأشراف". كانت تلك أول مرة – بحسب المؤلف – تتناول محكمة أمريكية أمر النظر في سمعة وقوة حجة الشخصيات القيادية للمسلمين في أمريكا.

أفرد المؤلف الجزء الأخير من مقاله لمناقشة تركيز "ساتي ماجد" في دعوته الإسلامية السنية على الأميركيين من أصل أفريقي، وعبر عن إيمانه بأن نجاح الرجل في ذلك المسعى سيبقى هو إرثه (legacy) الأكبر. تشير سجلات مكتب التحقيقات الفيدرالي أن عضوية الجمعيات التي أسسها "ساتي ماجد" كانت تتألف أساسا من الأمريكيين من

أصل أفريقى مع قليل من العرب المهاجرين. كان من أهم أسلحة "ساتى ماجد" فى دعوته للفئة الأولى هو محاربة الإسلام للتفرقة العنصرية المبنية على العرق واللون. لعل أبرز من نجح "ساتى ماجد" فى خلقهم كدعاة وتابعين لدعوته هو " داؤود أحمد فيصل " ذلك الرجل الملون الذى ولد مسيحيا باسم ديفيد أ. دونالاد فى جرينادا (جزيرة فى الكاريبي) وهاجر لأمريكا وعمره ٢١ عاما، وكان حينها موسيقيا بارعا وبحارا أيضا. عمل الرجل ك "ممثل" لساتى ماجد فى حى هارليم بنيو يورك، وساهم معه فى إدخال عدد من البحارة للإسلام، وورث لاحقا أعمال شيخه "ساتى ماجد" بعد مغادرته لأمريكا فى ١٣ من يناير ١٩٢٩م، وظل يقود العمل الإسلامى فى منطقته حتى ستينيات القرن الماضي حيث صرم سنواته فى الدعوة والعمل الخيرى والتأليف والنشر أيضا.

عند وصول ساتى ماجد للقاهرة فى طريق عودته النهائية للسودان اتصل بالأزهر لإصدار فتوى ضد أحد منافسيه السابقين فى مجال الدعوة الإسلامية وهو نوبل درو علي، والذى قيل أنه ادعى النبوة، ونزل عليه وحى بقرآن جديد فى عام ١٩٢٧م. وبالفعل أصدر الأزهر فتوى باللغتين العربية والإنجليزية تؤيد ما قاله ساتي، ونجح الشيخ أيضا فى استصدار ذات الفتوى من بلاده عند عودته لها. بيد أن تلك الفتوى كانت نصرا "فارغا عديم الجدوى" لساتى –بحسب قول المؤلف– إذ أنها لم تصل أبدا للأرا ضى الأمريكية حتى كشف الباحثون النقاب عنها فى تسعينيات القرن الماضي. كان "ساتى ماجد" يؤمل أن يعود للولايات المتحدة محملا بتلك الفتوى حتى يزيح من أمامه ذلك المتنبئ المنافس نوبل درو علي، وكان يؤمل أيضا أن يعينه الأزهر رسميا كإمام للمسلمين فى أمريكا، بيد أن الأزهر رفض ذلك الطلب بذريعة أن الرجل غير متخصص (بطريقة نظامية) فى علوم الشريعة الإسلامية (ورد فى مصادر أخرى منها ما ذكره الأستاذ/ محمد عبد الحميد أحمد من أن فى خروج "ساتى ماجد" من أمريكا وعودته لمصر والسودان شبهة خديعة لعل الأزهر كان ضالعا فيها، إذ كان رجالات الأزهر –بحسب زعم الأستاذ محمد عبد الحميد– يحسون بالغيرة والحسد من نجاح جهود "ساتى ماجد" الدعوية فى أمريكا والتى لم يكن للأزهر فيها وجود فى تلك الأيام).

قضى "ساتى ماجد" سنوات الثلاثينيات متنقلا بين السودان ومصر ليشهد المؤتمرات

ويلقى المحاضرات وشارك فى إنشاء مجلة وجمعية إسلامية مقرها الأزهر بالقاهرة.

يقول المؤلف: إن "ساتى ماجد" خرج من وطنه وهو فى شرخ الشباب بعلم (شرعي) متواضع القدر وخبرة قليلة بهذا العالم، وعاد إليه بعد سنوات وهو متمكن من العلوم الشرعية وأساليب الدعوة الحديثة، وغدا (إلى أن توفى فى عام ١٩٦٣م) خطيبا مفوها وداعية ماهرا وقائدا اجتماعيا محنكا وصاحب قضية (apologist) أيضا إذ أدلى بدلوه فى قضايا زمانه الملحة مثل نضال الدول الإفريقية (مثل أثيوبيا) ضد الاستعمارى الأوروبى وظل يتواصل مع أتباعه فى أمريكا للتبرع المادى لتلك القضايا. كان "ساتى ماجد" سباقا أيضا للدعوة لإقامة نوع من التعاون الاقتصادى بين مصر والسودان وإثيوبيا والأمريكيين من أصل أفريقيا فى الولايات المتحدة.

لا شك أن الاهتمام والعودة إلى تاريخ "ساتى ماجد" وغيره من الأفارقة فى أمريكا (مثل ديوس محمد على [محمد على دوس]وفيليكس دارفور وغيرهما) بالدراسة والتحليل (مثلما حاول هذا الطالب الأمريكي) أمر محمود ومطلوب، خاصة عندما يتناول الأمر بحيدة وموضوعية بعيدا عن التعظيم والإكبار والمشاعر العاطفية المتحيزة (إيجابا أو سلبا) ودون ميل أو هوى. وهنالك –مبلغ علمي– من الذين يمكنهم التوسع فى التصدى لمهمة تتبع وتحليل تاريخ هؤلاء المهاجرين الأوائل والكتابة التاريخية الموثقة عنه، خاصة فى أوساط الأكاديميين الأمريكيين من أصل سوداني. وأخيرا تجدر الإشارة لكتاب فى ذات الموضوع لفت نظرى له أحد الأصدقاء وهو كتاب "السودان والأفريقانية" للأستاذ الراحل/ عبد الهادى الصديق نشر عن مركز الدراسات الإستراتيجية بالخرطوم فى عام ١٩٩٧م، وهو يتناول سير بعض الإعلام من السودانيين الذين ساهموا بأقدار متفاوتة فى "حركة الزنوجة" فى أمريكا.

عرض لكتاب "الكبابيش: قبيلة سودانية عربية"

The Kababish, a Sudan Arab Tribe

شارلس جبرائيل سيلقمان وبرندا زي. سيلقمان

C.G. Seligman and Brenda Z. Seligman

بقلم: آر. ديفس R. Davis

◇◇◇◇◇◇

مقدمة: هذه ترجمة لبعض ما جاء فى عرض بقلم المفتش الإدارى البريطانى آر. ديفس عن كتاب عنوانه "الكبابيش: قبيلة سودانية عربية" للبروفسيور شارلس جبرائيل سيلقمان وزوجه برندا زي. سيلقمان،وقامت بنشره "الجمعية الإفريقية" بهارفارد فى ماساتشوستس فى عام ١٩١٨م. وبحسب ما جاء فى الموسوعة البريطانية للأكاديميين ، فإن لهذا العالم البريطانى المشهور والمتخصص فى الطب البشرى ، ثم فى علم الأنثروبولوجيا والذى عاش بين ١٨٧٣ و١٩٤٠م أعمالا مشتركة أخرى مع زوجه (المتخصصة فى المجال ذاته أيضا) منها كتاب "القبائل الوثنية فى السودان النيلي" الصادر فى بريطانيا عام ١٩٣٢م، ولهما أعمال عن السكان الأصليين فى بلاد أخرى كالفيداس فى سيلان (تسمى الآن سيرلانكا) وميلنيزيا (تسمى الآن غينيا الجديدة فى المحيط الهادي)، ونشر أيضا كتابا عمدة عن "الأعراق فى أفريقيا " و"مصر والشعوب الزنجية فى أفريقيا ". عاش المؤلفان فى السودان بين عامى ١٩٠٩ – ١٩١٢م ، ثم بين عامى ١٩٢١ – ١٩٢٢م.

كان أهم ما لفت نظرى فى هذا العرض أنه جاء من مفتش إدارى خبر الكبابيش جيدا فى غضون سنوات عمله بينهم وتعلم لغتهم ، ولم تمنعه (وترهبه) شهرة وعلم وريادة الأكاديمي شارلس جبرائيل سيلقمان، وكونه "أيقونة" فى علم الأنثروبولوجيا، من النظر الفاحص الناقد لما كتب عن تلك القبيلة بعد أن قضى بين ظهرانيها أسابيع قليلة. فيما كتب ذلك الإداري مثال جيد على الدور الذى لعبه الإداريون البريطانيون فى عهد الحكم الثنائى فى التعريف بالسودان من نواح قد لا تخطر على بال أحد من نظرائهم اليوم من

الـذين انحصـرت جـل اهتمامـات معظمهـم فى الحصـول عـلى مزايـا الوظيفـة والسـلطة وتحصيل الضـرائب والعوائـد وتوزيـع المـواد الغذائيـة دون الاهـتمام بالكتابـة التوثيقيـة عـن طرق عيش الناس الذين يحكمونهم ولغاتهم وتقاليدهم وعاداتهم وثقافتهم. المترجم.

***

من محرر المجلة:

لقد قام بروفسيورشارلس جبرائيل سيلقهان وزوجه برندا زي. سيلقهان بنشر العديد من الأوراق العلمية المهمة عن مختلف القبائل فى جنوب السودان، والتى سلطت الضوء على كثير مما كان مجهولا عن تلك القبائل. بيد أنهما قاما فى هذا العمل الذى نحن بصدده بدراسة واحدة من أشهر القبائل العربية فى السودان، والتى زارها فى شتاء عامى ١٩١١ — ١٩١٢م. لقد نجح المؤلفان فى دراستهما هذه فى تطبيق الطرق الأنثربولوجية التى لطالما أبدع فى استخدامها من قبل بروفسيور سيلقهان من قبل فى دراسة القبائل "المجهولة" التى لم تتم دراستها من قبل. لا غرو إذن إن اكتشفا ما لم يسبقهما عليه باحث أنثروبولوجي. لا يمنع هذا بالطبع أن يقوم موظفون حكوميون عاشوا بين ظهراني هذه القبيلة سنين عددا (وليس أسابيع قليلة) ويتحدثون بلغتهم المحلية بإضافة بعض المعلومات إلى ما سجله المؤلفان، وتصويب بعض ما وقعا فيه من هنات وأخطاء فى بعض الأحايين. لذا نعد أنفسنا محظوظين بتلقى هذا العرض لدراسة بروفسيورشارلس جبرائيل سيلقهان وزوجه برندا زي. سيلقهان من السيد آر ديفيس، والذى عمل مفتشا لمنطقة الكبابيش لسنوات طويلة.

***

جمعت مادة هذه الدراسة فى غضون زيارة قصيرة قام بها المؤلفان لبادية الكبابيش فى شتاء عامى ١٩١١ — ١٩١٢م. وبالنظر إلى الصعوبات الجمة التى واجهها المؤلفان، والتى كان من أهمها جهلهما باللغة العربية، وضخامة المعلومات التى جمعاها كما ونوعا، كان من المحتم أيضا أن تأتى الصورة التى أخذاها عن الكبابيش ناقصة ومبتورة ، وفى بعض الأحايين غير دقيقة تماما.

يعترف د/ سيلقهان رسميا بأن الكبابيش ليسوا قبيلة بالمعنى المعروف (إلا من ناحية سياسية) بل هم مجموعة من القبائل أصولها متباينة، وكانت تضم فى الماضى قبائل عديدة لم تعد الآن تعد نفسها من قبيلة الكبابيش. بيد أن المؤلفين يذكران فى دراستهما هذه بعض العادات والتقاليد والأعراف التى لا توجد فى الواقع إلا فى الجزء الذى يعيش فيه ناظر الكبابيش، وفى الجزء الذى يقطنه "برارة" (ذوى أصول جعلية) من الذين لم يلتحقوا

بالكبابيش إلا أخيرا. يصف المؤلفان من جهة أخرى شكل خيام الكبابيش ويعدها خاصية تميزهم عن غيرهم، بينما هى فى الواقع لا تختلف عن خيام كل رعاة الإبل الرحل فى كردفان وربما فى غيرها كذلك. فى ما جاء به المؤلفان تعميم كاسح فى بعض النواحى واختصار مخل فى نواحٍ أخرى. فعلى سبيل المثال نجد أن فرع الكبابيش "أولاد عقبة" الذين يسكنون فى شرق دار كبابيش ويربون الأغنام يختلفون فى لغة حديثهم عن الكبابيش رعاة الأبل فى الغرب، ولا أرى غرابة فى أن تكون عاداتهم وتقاليدهم مختلفة أيضا. كتب د/ سيلقمان أن الكبابيش "لهم مناسبة خاصة هى هجرتهم السنوية إلى الشمال الغربى ويطلقون على تلك المناسبة كلمة "نشق". أعد هذه الجملة مثالا جيدا على نوع الأخطاء (اللغوية) التى وقع فيها الكاتب إذ إن "النشق" ليس حكرا على قبيلة الكبابيش، وهى لا تعنى على أية حال عملية هجرة بعض أفرع قبيلة الكبابيش إلى منطقة "الشمال الغربي" فقد سمعتها عند بعض أفراد الكبابيش بمعنى "الرحيل شمالا" ، فالهجرة السنوية إذن تشمل كل الكبابيش إلى مناطق مختلفة. فأولاد عقبة مثلا يرتحلون نحو مناطق الجنوب الغربى حيث يقع جبل أبو تبر. و"النشغ" كما يجب أن يكتب (وليس "النشق") لا يعنى البتة الرحيل نحو الشمال الغربي، بل تعنى –كما جاء فى قاموس "محيط المحيط" – أن يفيض الماء فى الأودية بعد هطول الأمطار (بحثت فى ذلك القاموس فوجدت أن نشغ الماء هو سيلانه، وأن النشوغ هو جريان المياه فى الوادي. المترجم).

يذكر د/ سيلقمان أمرين أجد صعوبة فى تقبل أى منهما. يدعى د/ سيلقمان أن اللاحقة التى تضاف إلى آخر الكلمة "أب – âb" فى اسم فرع القبيلة يشير إلى أن أصلها من الشرق (وبالتحديد من البجا) ولكنه يقول أيضا فى معرض نقاشه عن بعض العادات غير الإسلامية فى أوساط الكبابيش : إنها من بقايا عصور ما قبل الإسلام فى جزيرة العرب أو من تأثير قبيلة البجا، ثم يضيف إن "ليس هنالك من أدنى سبب لتبنى النظرية الأخيرة" ويقصد بها بالطبع تأثير البجا على عادات الكبابيش. إن كان لنا أن نقبل السابقة، فإن تأثير البجا يجب أن يشمل أكثر من ثلث قبيلة الكبابيش، وهذا يعنى بالضرورة أن هنالك سببا قويا لنعزى وجود عادات غير إسلامية مشابهة عند الكبابيش للبجا. لا شك عندى فى أن منظور الكاتب لهذا الأمر يحتاج لبعض الإصلاح.

يضخم د/ سيلقمان من ثروة الكبابيش تضخيما مفرطا ويفترض أن الثروة عندهم موزعة توزيعا عادلا، وهذا مما يجافي الحقائق. فالواقع يقول : إن ثروة الكبابيش لا تزيد ولا تنقص عما هو معهود عند أي قبيلة في السودان، وقد يعزى ذلك لكثرة عدد أفراد هذه القبيلة (لا يخفى خطل هذا التعميم الكاسح وعدم منطقية ما خلص إليه هذا المفتش البريطاني. المترجم). ففي المتوسط فالكباشي يعد أفقر حالا من متوسط رجال المسيرية والحمر، وأشد فقرا من أفقر رجال الكواهلة. يمتلك الكبابيش أعدادا من الأغنام تعادل ستة أمثال ما تملكه من الإبل (لا غرو أن كان اسم القبيلة "الكبابيش"!) وأعدادا ما لديهم من الإبل تعادل ضعف ما لديهم من أبقار. زعم د/ سيلقمان في مقاله أن من عادات الكبابيش أن يقدم الأب الموسر لابنه عند زواجه مائة ناقة هدية عرس، بينما يقدم الأب الفقير ١٠ إلى ١٥ من الضأن، ويقدم متوسط الحال منهم نحو ٥ إلى ٦ من النوق لولده عند عرسه. لا أعتقد أن ذلك يمكن أن يكون صحيحا فبحسب خبرتي في المنطقة فعدد الأثرياء الذين يمتلكون مائة ناقة في كامل قبيلة الكبابيش قد لا يصلون إلى ١٢ رجلا، وهنالك رجال كثيرون من مختلف أفرع قبيلة الكبابيش لا يملكون حتى حوارا واحدا، وبحسب معايير الكبابيش فإنه لا يمكن أن نصف من يقدم لولده ٥ إلى ٦ من النوق بأنه رجل فقير بأية حال من الأحوال. يذكر د/ سيلقمان أيضا أن الدية عند الكبابيش تصل إلى ٣٠ ثورا، والواقع يقول: إن بعض أفرع الكبابيش لا تمتلك ثورا واحدا.

ما ذكره د/ سيلقمان عن التنظيم والتركيبة الاجتماعية عند قبيلة الكبابيش فيه نظر. فالكاتب لم يوف ناظر القبيلة حقه باعتباره زعيم القوم وأهم شخصية في قبيلته، ويعمل تحت إدارته عدد من الشيوخ والعمد وغيرهم. قد يكون صحيحا أن بعضا من هؤلاء قد تكون لديهم بعض السلطات (المفوضة من قبل الناظر)، وبعضهم قد يكون مهابا مسموع الكلمة في أوساط فرع قبيلته، بيد أنه من الواجب التنبيه على أن هؤلاء الشيوخ والعمد عادة ما يكونون من عوام الناس وعرضة للفصل أو العقوبة بالغرامة أو حتى بالسجن (سرا) من قبل الناظر. عادة ما يتم اختيار هؤلاء العمد والشيوخ بالانتخاب المباشر من أفراد فرع القبيلة، بيد أن أمر تعيينهم في مناصبهم رهين بموافقة الناظر ولاعتبارات يراها هو (وليس غيره) عند اختيار من ينوب عنه في إدارة شؤون أفرع القبيلة ، خاصة في

جوانب التوريث.

ربما تسببت حقيقة أن أحد كبار مخبرى دكتور سيلقمان كان هو الشيخ/ محمد التوم، ولا يخفى ما لهذا الاختيار للمخبرين من تأثير فى المعلومات عن ناظر القبيلة ومدى سلطته الفعلية وسلطة الشيوخ والعمد الآخرين، والحقيقة هى أن كل من يعيشون فى "فريق" شيخ / محمد التوم إنما يعتمدون اقتصاديا بصورة شبه كاملة على ما يجود به عليهم ذلك الشيخ. لقد كان الرجل يعطيهم الحيوانات التى يملكونها، ويمدهم بالطعام والملبس، بل ويدفع المهر لمن يرغب منهم فى الزواج.

لقد وقع المؤلفان بسبب جهلهما بلغة الكبابيش فى أخطاء لفظية وأخطاء فى تفسير ما سمعا (يذكر المفتش البريطانى هنا، ولأول مرة فى نقده، أن للمقال كاتبان وليس كاتب واحد هو دكتور سيلقمان كما ظل يكرر! المترجم) . من أمثلة ذلك خلطهما فى الأسماء المحلية للخيم والإبل والنجوم، وتخليطهما فى أمور متشابهات أخر. كذلك انتقد الكاتبان اختيار الكبابيش لمعسكر إقامتهم قرب بئر الماء وتجمع أعداد كبير من البهائم فى مكان واحد مما جعل المكان ملوثا بعد أيام قليلة. لعل المؤلفين لا يدركان أن الاعتبارات الصحية ليس لها من كبير اعتبار عند الكبابيش والذين تأتى عندهم راحة ورفاه حيواناتهم وتوفير المياه والمرعى لها فى المقام الأول.

كذلك خلط دكتور سيلقمان فى وصف العلاقة بين الشيخ و"الغريب" الذى يقدم على الشيخ من فرع آخر من القبيلة ويقيم كضيف فى "فريق" الشيخ. زعم دكتور سيلقمان أن مثل ذلك الرجل يسمى "محنة الشيخ" بينما نعلم إن تلك الكلمة لا تطلق على الرجل ولكن على المشاعر الطيبة بين الشيخ وضيفه، ويتعدى بالطبع استعمال تلك الكلمة لغير العلاقة بين الشيخ وضيفه. يمكن أن تطلق كلمتى "سيد محنة" عند الكبابيش على أى شخص بغض النظر عن عيشه مع الآخر أم لا. لعل ما يقصده دكتور سيلقمان فعلا يطلق عليه الكبابيش "جيران الشيخ"، بينما يسمون الضيق الثقيل "الملزق بالقوم" والذى يطيل المكوث بـ "القعيد" (من وراء ظهره بالطبع!).

ذكر دكتور سيلقمان فى مقال ترجمة لعدد من الأغانى الشعبية عند الكبابيش، وحفل ما جلبه الرجل من ترجمة ونسخ لحروف العربية باللغة الإنجليزية (transliteration)جملة

من الأخطاء. وهذا مثال واحد للأغانى المعروفة عن الكبابيش والتى جانب المؤلفان فى نقلها الصواب :

إن مشت مو سريعة

وإن ضحكت مو قريقيعة

ضيفة بهم القيعة

تقول نوار فى صقيعة

لا يسمح المجال هنا للتعرض الناقد والمفصل لكل فصول الدراسة الثمانية عشر عن حياة الكبابيش المختلفة ، ولا أزعم أنى لى من العلم ما يجعلنى أنتقد بعض ما ورد فى كل الفصول. بيد أن بعض ما ورد فى تلك الدراسة يستأهل الرد. فعلى سبيل المثال يقول المؤلفان :إن "ليس الكبابيش ألعابا منظمة للأطفال والبالغين" وهذا قول باطل ، فالكبابيش يقومون — خاصة فى أيام رمضان- بتناسى الجوع والعطش بالقيام بألعاب تستمر لساعات وساعات، ولهم ألعاب مميزة لا توجد عند غيرهم فى كردفان مثل "أم البقرة" و "المنقلا" و أم البنات". ولهم ألعاب مبتكرة أخرى تدور فى معظمها حول العصى وأخرى عن سباقات الإبل (والثيران أيضا).

كذلك أغلفت الدراسة فى الفصل الثانى عشر ذكر ضريح "أبو غريبة "الموجود على حدود دار كبابيش، و ذكر المؤلفان "الحاج اللين" وكأنه من الكبابيش (بينما هو قرية فى ضواحى أم كريدم ببادية دار حامد. المترجم). كان على المؤلفين ألا يأتيا على ذكر " سيدى الحسن" ضمن ما ذكراه من قائمة الأضرحة إذ إن ليس لذلك السيد أى علاقة بالكبابيش. كذلك فإن فى ما ذكره دكتور سيلقمان عن الحلف بالأولياء والصالحين وبالقرآن وبالحنث بالقسم عند الكبابيش فيه كثير من التخليط، فالكبابيش لا يرون بأسا من الحنث بقسم على "مصحف الحكومة" باعتبار أن ذلك أمر قليل الخطر والضرر. كذلك أنكر المؤلفان أن الكبابيش يمارسون أى نوع من العرافة (scrying)وهذا ليس بصحيح، فهم يضربون الرمل خاصة لمعرفة من سرق بهائمهم وممتلكاتهم الأخرى.

من المعروف أن أول ما يوصى به عالم الأجناس (ethnologist) هو أن يكون دقيقا

فى عمله كله، وأن يهتم غاية الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة. بالنسبة لى فإن ما كتبه دكتور سيلقمان يقصر عن بلوغ تلك الغاية. بيد أننا نلتمس العذر للدكتور سليقمان والسيدة سيلقمان للأسباب التى ذكرناها آنفا ولقصر المدة التى قضياها فى دار كبابيش، بيد أن ما ذكراه من نظريتين حول أصل الكبابيش وعاداتهم وتقاليدهم ذات الأصل غير الإسلامى سيثير بالقطع شهية الباحثين الآخرين (والمسؤولين كذلك) لمتابعة هذا البحث والتنقيب فى شأن هذه القبيلة المتفردة والتى هى فى الواقع تمثل مجموعة متعددة من القبائل.

مذكرة عن تاريخ قبيلة الكبابيش

A Note on the History of the Kababish Tribe

بروفيسور طلال أسد

Professor Talal Asad

◇◇◇◇◇◇

مقدمة: هذه ترجمة مختصرة لبعض ما جاء في مقال للبروفسيور طلال أسد (١٩٣٣م) نشر في العدد السابع والأربعين من مجلة "السودان في مدونات ومذكرات" الصادر في عام ١٩٦٦م. ويحسبما ورد في مصادر مختلفة في الشبكة العنكبوتية فإن هذا البروفسيور هو رجل سعودي/ أمريكي الجنسية (والدته سعودية ووالده هو الرجل المشهور محمد أسد (ليوبولد فاييس سابقا) اليهودي من أصل نمساوي والذي دخل الإسلام في عشرينيات القرن الماضي، ويعتبر من أكثر مسلمي أوروبا في القرن العشرين تأثيرا) . يعدبروفسيور طلال أسد الآن من أشهر علماء الانثربلوجيا (علم الإنسان) المختصين بدراسات الإسلام والمسيحية في مرحلة ما بعد الاستعمار. درس بجامعتي أدنبرا وأكسفورد، ثم عمل بجامعة الخرطوم في ستينات القرن الماضي، وأصدر في عام ١٩٧٠ كتابا شهيرا عن "عرب الكبابيش". يعمل الآن أستاذا غير متفرغ في مركز الدراسات العليا بجامعة نيويورك. المترجم.

***

من الثابت منذ أمد بعيد أن القبائل العربية فى شمال السودان ليست متجانسة عرقيا، وأنه توجد فى دماء كل قبيلة من هذه القبائل عناصر متباينة من أصول مختلفة. بيد أن التداخل بين تلك العناصر وآثارها الاجتماعية والسياسية لم تحظ بكثير من الاهتمام البحثي، إذ أنصب غالب جهد الباحثين على دراسة أنساب القبائل وفروعها وبطونها وأفخاذها مثل دراسة ماكمايكل الصادرة عام ١٩١٠م عن أصول وأنساب الكبابيش. فى هذه المقالة القصيرة سأستعرض وبإيجاز ما هو معروف عن البناء السياسى فى تاريخ قبيلة الكبابيش الباكر فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي.

إن البناء السياسى المعاصر للكبابيش حديث العهد نسبيا، وهو يدور بصورة رئيسة حول أول ناظر للقبيلة الشيخ الداهية / على التوم بعد استعادة المصريين والبريطانيين لحكم السودان فى عام ١٨٩٨م. إن معظم المعلومات التى سأوردها فى هذا المقال هى مستقاة من كتابات الرحالة الأوربيين، وهى كتابات شحائح فى العدد والمحتوى، ولكن هنالك من الدلائل ما يكفى للقول بأن النظام السياسى للكبابيش كان مختلفا جدًا عما تلاه بعد ذلك عام ١٨٩٨م.

إن الكبابيش رعاة رحل يقطنون منطقة شبه الصحراء الواقعة فى شمال كردفان على أطراف الصحراء الليبية، وتسمى منطقتهم تلك رسميا "المنطقة الريفية لدار كبابيش"، ويقوم على إدارتها "مجلس ريفى دار كبابيش". يشارك الكبابيش فى السكن بهذه المنطقة عدد من القبائل الصغيرة، بعضها مستقر والبعض الآخر يرتحل من مكان لآخر (بحثا عن الماء والكلأ)، ولكل قبيلة من تلك القبائل الصغيرة نظام حكمها التقليدى الخاص من ناظر أو عمدة، ولكن للكبابيش "ناظر عموم" يرأس جميع نظار وعموم الكبابيش والقبائل الأخرى التى تشاطرهم السكن فى المنطقة. وبهذا فإن "ناظر العموم" هذا يعد فى واقع الأمر (وبحكم المنصب) نائبا لرئيس المجلس الريفى المحلي، والذى عادة ما يكون المفتش الحكومى لشمال كردفان، ورئيس المحكمة الأهلية أيضا فى منطقته.

إن سيادة ناظر العموم على كامل المنطقة (والتى أكدتها المحكمة العليا فى عام ١٩٥٣م بعد صراع نشأ بين الكبابيش والهواوير) تستند على الاعتراف الصريح من الحكومة بأن منطقة "دار كبابيش" هى للكبابيش، مع ملاحظة أن لبعض القبائل الأخرى التى تعيش

فى ذات المنطقة "حقوقا تقليدية" للانتفاع ببعض أجزاء من "دار كبابيش". وللتدليل الرمزى على سيطرة وغلبة وسيادة "ناظر العموم" فقد اتخذ ذلك الناظر له طبولا تسمى "النحاس" تقرع فى المناسبات الاحتفالية.

تنقسم قبيلة الكبابيش فى الوقت الحالى إلى ١٨ فرعا منهم النوراب وأولاد عقبة وأولاد حوال وأولاد سليمان وأولاد طريف والحمداب والجماداب والرواحلة والربيجات والكبيشاب والطوية والحواراب والريقاب وبررة والطوال والعويضة. يجب ذكر أن ليس لأى من هذه الفروع "هوية مؤسسية" غير فرع النوراب الذى ينتمى له ناظر عموم القبيلة. تنتشر سائر أفرع قبيلة الكبابيش فى كل أرجاء مناطقهم ويختلطون ببعضهم البعض وينعمون بحقوق فى الماء والمرعى مكفولة لكل فرد فى القبيلة بحكم أنه فرد فى القبيلة بغض النظر عن فرع القبيلة التى ينتمى إليها. تعد "العائلات الأولية" هى الوحدات الاقتصادية الأساسية فى القبيلة، بحيث يعمل أفراد العائلة الواحدة بشكل جماعى مترابط فى رعى الحيوانات التى يمتلكها كل فرد منهم بصورة فردية. تسند عند الكبابيش كل الأمور السيادية السلطوية وتلك المتعلقة بالقضاء والتقاضى إلى "أولاد فضل الله" وهم جماعة من النوراب (الفرع المهمين فى القبيلة). ليس لشيوخ القبيلة الآخرين أى سلطة سياسية وينحصر عملهم فقط فى جمع العشور والضرائب المفروضة على البهائم. يجدر بالذكر أن من لا يرغب من أفراد فرع من أفرع القبيلة فى تسليم ضرائبه إلى شيخ منطقته – لأى سبب أو آخر – فيمكنه تسليمها مباشرة للناظر أو أحد مساعديه.

يتضح من هذا عدم أهمية الانتماء لفرع من أفرع القبيلة، فللقبيلة تنظيم للسلطات ممعن فى المركزية له اليوم هوية سياسية واضحة، من أهم معالمها ترك الحكومة للسلطة الفعلية فيما يتعلق بأمور الرعى والسقاية بـ "دار كبابيش" لناظر عموم القبيلة. كثيرًا ما يعبر قادة "النوراب" عن وحدة أفراد قبيلة الكبابيش وإخلاصهم الشديد لناظرهم الذى يمثلهم. يقولون – وبصوت واحد – للحكومة وللقبائل الأخرى: "يقف الكبابيش وقفة رجل واحد".

كان أول مرجع أعثر عليه عن الكبابيش مخبوءً فى كتاب بروس "الرحلات" (المقصود هو الرحالة الاسكتلندى جيمس بروس ١٧٣٠ – ١٧٩٤ م الذى سعى لاكتشاف منابع

النيل. المترجم). كان بروس موجودا فى سنار عاصمة مملكة الفونج فى عام ١٧٧٢م عندما أخبره أحدهم عن وجود قبيلة الكبابيش (وأيضا "بنى جرار" و"بنى فزارة") فى صحراء بيوضة. كتب الرحالة بروس ما يفيد بأن: "الطريق عبر هذه الصحراء... غير سالكة.... ففيها تجد الكبابيش وبنى جرار وبنى فزارة، وجميعهم من العشائر العرب الأقوياء القادمين من جهة الغرب بالقرب من كردفان... وقد استولى هؤلاء جميعا على كل الآبار الموجودة على الطريق الصحراوي، فلا مجال إذن لتحاشيهم." مضى بروس فى القول "الكبابيش كثيرو العدد وينتشرون بعيدا فى جل أصقاع صحراء سليما حتى الحدود مع مصر".

وبعد نحو عقدين من ذلك التاريخ أشار براون (هو الرحالة البريطانى د. ج. براون والذى كان أول أوروبى تطأ قدمه دارفور بين عامى ١٧٩٣ – ١٧٩٦م، ونشرنا ترجمة لمقاله بذات العنوان فى الجزء الأول من "السودان بعيون غربية". المترجم) إلى أن الكبابيش يوجدون بالقرب من بير (بئر) المالحة (النطرون) حيث يقومون بنهب ما يطيقونه من القوافل التى تمر على تلك المنطقة.

يتضح من المراجع السالفة الذكر أن الكبابيش كانوا يعيشون بالقرب من ثلاثة من طرق القوافل الممتدة فى الصحراء من مصر إلى دارفور والغرب: درب الأربعين، ووادى الملك ووادى المقدم، وجميعها طرق تسلكها كثير من القوافل. أطنب الرحالة براون وثلة من الرحالة الآخرين الذين أتوا من بعده فى وصف البضائع التى كانت تنقلها تلك القوافل وكمياتها. لا ريب أن الكبابيش كانوا يستفيدون من وجود تلك التجارة وطرقها حيث يتنقلون، ليس فقط بنهب بعض القوافل المحملة عندما يجدون الفرصة مواتية، بل أيضا بتأجير الإبل، وتوظيف بعضهم كمرشدين يدلون القوافل فى طرق تلك الصحراء. من المحتمل جدًا أن الكبابيش كانوا يمارسون التجارة أيضا بصورة من الصورة، مثل نقل "العطرون" من واحة النطرون، ويعملون أيضا فى تجارة الرقيق، حيث ينقلون المستعبدين من دارفور إلى أسواق مديرية دنقلا.

يجب القول هنا بأن الكبابيش لم يكونوا وحدهم هم سادة طرق الصحراء إذ نازعهم فى تلك السيادة حكام سنار، ثم حكام مملكة كردفان (بزعامة هاشم المسبعاوي) وأخيرا

سلطان دارفور، وجميعهم كانوا قد أعلنوا –وفى فترات تاريخية مختلفة– سيادتهم على كل أو على الأقل جزء من المناطق التى يقطنها الكبابيش. كان للكبابيش بالإضافة لذلك بعض المنازعات مع قبائل أخرى تشاطرهم السكن فى ذات البقعة من الأرض. بلا شك كان أشهر تلك القبائل هى "بنى جرار" والذين كانت لهم عداوة تقليدية مع الكبابيش.

أورد المفتش الإنجليزى هـ. سي. جاكسون فى كتابه "سن النار: مملكة سنار القديمة" والصادر عام ١٩١٢م رواية أدلى بها له ملك قبيلة الجموعية عن كيف أن "بنى جرار" كانوا قد ضيقوا الخناق على الكبابيش فى منتصف القرن الثامن عشر، فطلب الكبابيش العون من قبيلة الجموعية لقتال "بني جرار". كان ملك الجموعية فى تلك السنوات هو "أبو لكيلك" والذى استولى على مملكة كردفان وضمها للملك سنار فى حوالى عام ١٧٤٧م، وليس من المستبعد أن يكون دخول جزء من أفراد قبيلة الكبابيش إلى ما يسمى الآن "شمال كردفان" قد تزامن مع ضم كردفان لمملكة سنار. إن ما سجلته أنا شخصيا من التاريخ الشفاهى من بعض رجال الكبابيش يؤيد فى معظمه أقوال ذلك الملك الجموعي، والتي تخلص إلى أن "الكبابيش كانوا فى دنقلا، وبنى جرار كانوا فى كردفان بالقرب من الأبيض". كان ذلك فى أيام السلطنة الزرقاء فى سنار. غزا "بنى جرار" دنقلا فتراجع الكبابيش جنوبا بمحاذاة النيل حتى وصلوا لمنطقة الجموعية، حين عقدوا معهم اتفاقا توقفوا بموجبه عن الهروب جنوبا. بذا أحرق الكبابيش سفنهم وامتطوا إبلهم وتقدموا فى عام ١٧٨٠م لقتال "بنى جرار" والمسبعاتفى منطقة "الحنيك" الواقعة شمال غرب جبل أولياء.

[تطرق الأستاذ حسن محمد صالح فى مقال له بصحيفة "الصحافة" يوم ٢٤/١٠/٢٠١٢م لتلك الواقعة مستندا على كتاب الدكتور عبد الله على إبراهيم "فرسان كنجرت– ديوان نوراب الكبابيش وعقالاتهم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر" الصادر عن دار نشر جامعة الخرطوم فى ١٩٩٩م. ومن المفارقات المحزنة (والمعتادة للأسف) ما جاء فى ذات الصحيفة يوم ٢١/ ١٠/ ٢٠١٠م ما نصه: "شهد معتمدو سودرى وجبرة بشمال كردفان وأم درمان ووزير الأوقاف والإرشاد بولاية الخرطوم عثمان البشير الكباشى أمس فى منطقة الحريقة بشمال كردفان مؤتمرا للصلح بين قبيلتى الكبابيش والجموعية بعد مقتل

رجل من الكبابيش مؤخرا على يد شخص من الجموعية .وحضر الصلح ناظر الكبابيش وعمدة الجموعية ورجالات الإدارة الاهلية وسط حشد كبير من القبيلتين اللتين أعلنتا فتح صفحة جديدة فى علاقاتها وتجاوز ما حدث" ... وليس فى السودان تحت الشمس من جديد! (المترجم).

انتصر الكبابيش فى موقعة "أم حنيك" ومضوا فى التقدم غربا عبر وادى مجر ووادى أم سدر، ثم انتقلوا إلى "الصافية" و"كجمر" وجبرة الشيخ" ومناطق أخرى فى الغرب تتوفر بها آبار مياه.

وفى نهاية القرن الثامن عشر، ومع التدهور الذى حاق بمملكة سنار، سقطت شمال كردفان على يد هاشم المسبعاوي. يبدو أن الكبابيش كانوا من أنصار هاشم فى صراعه مع دارفور، والذى أدى لسقوطه فى نهاية المطاف.

بعد ذلك لم يعد هنالك ما يمكن تسجيله عن تاريخ الكبابيش حتى تاريخ غزو الجيش المصرى –التركى للسودان فى عام ١٨٢١م عدا القليل الذى سجله الرحالة بيركهاردت (هو المستشرق والرحالة السويسرى جون لويس بيركهاردت الذى عاش بين ١٧٨٤ – ١٨١٧م . المترجم) فى مذكراته المعنونة "رحلات فى بلاد النوبة " والصادرة فى عام ١٨١٩م، والذى أشار فيها إلى ضلوع الكبابيش فى تجارة الرقيق والتى كانت تتم بين دنقلا ودارفور.

جاء أول ذكر للكبابيش بعد انتصار الغزو المصرى –التركى للسودان فى عام ١٨٢١م فى ما أورده كلود فى كتابه "رحلات فى مروي" (المقصود هو فيريدريك كلود الرحالة والعالم الطبيعى الفرنسى المتخصص فى علم المعادن والقواقع والذى أتى للسودان مع حملة جيش محمد على باشا كخبير معادن للبحث عن الذهب. المترجم). كتب كلود أن الكبابيش استسلموا طواعية للجيش الغازى بيد أنهم امتنعوا عن دفع أى ضرائب أو مكوس لحكومتهم بعد أن آبوا لصحرائهم. لا يعلم إن كان امتناعهم هذا أو العداء الذى أبدوه للجيش الغازى هو سبب قيام "محو بيه" وجنده، وبأوامر مباشرة من محمد على باشا، بمهاجمة تجمعات الكبابيش (والحسانية أيضا) فى صحراء بيوضة فى عام ١٨٢٢م. نال الكبابيش الحمداب النصيب الأكبر من تلك "الحملة التأديبية" للجيش

المصرى – التركي.

أفرد كذلك اقناتس بالمى والذى عاش فى كردفان بين عامى ١٨٣٧ – ١٨٣٨م فصلا صغيرا عن الكبابيش فى كتابه "رحلات فى كردفان". وصفهم ذلك الكاتب بأنهم قبيلة صغيرة مترحلة وفقيرة تسكن فى منطقة غرب النيل الأبيض، وذكر عرضا بأنهم مجموعة من القبائل المتحالفة فى صحراء بيوضة. يشتغل الكبابيش بحسب وصف اقناتس بالمى بالتجارة، ولكنهم لا يربون (أو يكاثرون) الإبل، بيد أنهم يحصلون على ما يستخدمونه من هذه الحيوانات باستئجارها من قبيلة الحمر المجاورة. يعمل بعض أفراد الكبابيش فى مجال إرشاد القوافل فى طرق الصحراء وفى نقل البضائع عبرها، وبهذا ففائدتهم للحكومة وللقوافل التى تعبر الصحراء عظيمة.

يعد الصمغ العربى والذى يتنج غالبه فى كردفان هو المحصول الرئيس للبلاد وتحتكر تجارته الحكومة، بينما يقوم الكبابيش بنقله من الأبيض إلى دنقلا. وصف اقناتس بالمى ببعض التفصيل كيف كانت الحكومة المصرية – التركية تخادع وباستمرار تجار الصمغ العربى وتسلبهم أرباحهم المستحقة. أدى ذلك بحسب ما يعتقده إقناتس بالمى لاستياء وامتعاض هؤلاء التجار وهجرة بعضهم إلى دارفور فى عام ١٨٣٨م بقصد الاستقرار فيها. لم ترق تلك الهجرة لسلطان دارفور آنذاك فقام بصدهم وإخراجهم عنوة من مملكته وردهم من حيث أتوا. بدأ الكبابيش فى قبول الأمر الواقع والتعايش مع النظام القائم خاصة مع زيارة الخديوى محمد على باشا للخرطوم فى عام ١٨٣٨م. فى تلك الزيارة استدعى الخديوى زعيم قبيلة الكبابيش سالم للمثول أمام حضرته وأثنى عليه وبذل جهدا واضحا فى التقرب منه وكسب جانبه. بلغ من حسن استقبال الخديوى لزعيم الكبابيش أن أجلسه إلى يمينه واستمع باهتمام لشكواه مما يلقاه الكبابيش على يد جنود وعمال الحكم المصرى – التركي. طيب الوالى خاطره ووعده بالعمل على إصلاح الأمور كلها. لا ريب أن الخديوى كان يدرك جيدا ضرورة كسب ود الكبابيش واتقاء شرهم لما لذلك من بالغ الأهمية فى حفظ أمن طرق التجارة عبر الصحراء من الأبيض لدنقلا. كان أفراد من قبيلة "بنى جرار" يغيرون على القوافل التجارية بين الأبيض ودنقلا وذلك بحسب ما أورده مانسفيلد باركنز فى مقال له نشر فى المجلة الجغرافية الملكية فى عام ١٨٥١م. اضطرت

الحكومة بعد تكاثر هجمات "بنى جرار" على القوافل التجارية لتعيين بعض أفراد قبيلة الكبابيش كجنود حماية لتلك القوافل يجوبون الصحراء على ظهور الإبل والخيل بحثا عن "قطاع الطرق" من "بنى جرار". لا ريب أن الحكومة المصرية – التركية أفلحت بهذا التخطيط فى الاستفادة القصوى من العداء التقليدى بين القبيلتين ووظفته بذكاء لخدمة مصالحها.

جاء فى أقوال بعض من قابلتهم من كبابيش اليوم عن ما حدث بعد طرد الكبابيش لبنى جرار من كردفان ودفعهم للاستقرار فى دارفور فى غضون سنوات النصف الثانى من القرن التاسع عشر:

"حدث ذات مرة أن هاجم أفراد من قبيلة بين جرار قافلة كانت فى طريقها لدنقلا تخص سلطان دارفور (جد على دينار). عندما بلغ السلطان ذلك الخبر أرسل فى أعقابهم جيشا عرمرما ردهم إلى "الصافية" بكردفان. كان ذلك فى عهد زعامة فضل الله بيه سالم لقبيلة الكبابيش، والذى ضم بنى جرار لقبيلته فصارت قبيلة الكبابيش بذلك قبيلة كبيرة العدد والقوة، وظلت كذلك حتى رحل فضل الله عن الدنيا. حدث ذلك قبل ظهور المهدية بستة عشر عاما".

ليس هنالك من كتابات معلومة عن الكبابيش حتى منتصف القرن التاسع عشر غير كتاب إقناتس بالمى ومقال مانسفيلد باركنز الذى سبقت الإشارة إليه. يزعم مانسفيلد باركنز أنه عاش مع الكبابيش لفترة طويلة (بين أعوام ١٨٤٤ – ١٨٥٠م) مما أتاح له تصحيح كثير من الأخطاء التى وردت عن تلك القبيلة فى كتاب إقناتس بالمى المذكور آنفا. يقسم مانسفيلد باركنز الكبابيش بحسب طرائق عيشهم إلى ثلاثة أقسام:

فريق من الكبابيش يقضون كامل عامهم فى الصحراء، ولا يغشون المناطق المستقرة إلا لماما لشراء الذرة.

فريق آخر يقضى موسم الجفاف فى المناطق المستقرة ويترحل فى موسم الأمطار للصحراء.

فريق أخير مستقر بصورة دائمة أو شبه دائمة ويربى الأبقار ويمارس الزراعة.

خلافا لما زعمه اقناتس بالى فى كتابه المذكور فإن المجموعة الأولى والثانية من الكبابيش تمتلك وتربى أعدادا كبيرة من الإبل، عدد باركنز ٣٢ فرعا للكبابيش وقدم وصفا دقيقا لأماكن وجودهم. لا بد من ذكر أن تصنيفه ذاك قد لا ينطبق على كبابيش اليوم، فبعض أفرع تلك القبيلة الموجودة اليوم لم يأت باركنز لها على ذكر.

كتب مانسفيلد باركنز أن أفراد قبيلة الكبابيش لا يخشون من زعماء أفرع قبيلتهم ويصرحون أمامهم بكل ما يريدون قوله بحرية، ولا يأبهون لغير كبير قومهم. خص بالذكر هنا فضل الله ود سالم والذى كان يسود كل أفرع القبيلة عدا قليل منها فى نواحى دنقلا حيث كان زعيمهم هنالك هو حاكم ود الديب.

من المؤكد أن أفراد الكبابيش لم يقوموا إلا نادرًا بعمل (سياسي) موحد يجمع كامل القبيلة، ولعل السبب فى ذلك هو اتساع الرقعة الجغرافية التى كانوا ينتشرون فيها مما يجعل العمل الموحد شبه مستحيل. ضرب مانسفيلد باركنز لهذا مثلا بقيام بعض أفرع الكبابيش بالهجوم على "بنى جرار" ورفضهم لطلب المساعدة من أفرع القبيلة الأخرى فى ذلك الهجوم بدعوى أن "الغرباء الذين يحاربون إلى صفك دون أن يكون لهم معك مصلحة مشتركة سيكونون أول الهاربين من المعركة، وسيضعفون بذلك الروح المعنوية للمقاتلين الآخرين" كما قال لى أحد رجال الكبابيش.

من الرحالة الأوربيين الذين كانوا يجوبون كردفان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أحصى الفرنسى الكونت دادكايراك فى كتابه "صحراء السودان" ٢٦ فرعا للكبابيش تختلف قليلا عما أحصاه باركنز. وقام كولستون (والذى جاب كردفان فى بدايات سبعينيات القرن التاسع عشر) بنشر ورقة عن الكبابيش فى غرب النيل وقبيلتى العبابدة والبشاريين فى شرق البلاد. زعم كولستون أن الكبابيش يتحدثون ذات اللغة التى يستخدمها العبابدة والبشاريون والتى تسمى البداويت أو التبداوية. (يبدو أن هنالك خلطا ما فى هذا الجزء إذ إن تلك اللغة هى لغة البجاء، بيد أن خبيرا أنبأنى بأن أحد فروع العبدلاب وهم "الأتمن" يقال: أنهم فى الأصل أبناء عثمان بن الشيخ عبد الله جماع جد العبدلاب وأمهم بجاوية يتحدثون بهذه اللغة. المترجم). لا بد أن الرجل قابل رجالا من الكبابيش فى دنقلا يتحدثون بهذه اللغة، بيد أنه يجب التأكيد على أن ما من أحد من

الكبابيش اليوم يتحدث بغير العربية، ولم يقل أحد من المؤرخين السابقين بغير هذا.

أما فيما يخص وضع الكبابيش فى غضون سنوات المهدية فأهم حدث فيها هو مقاومة الكبابيش (خاصة فرع النوراب) لحكم الخليفة عبد الله وهى مقاومة لم يكتب لها النجاح. سطر أحداث تلك المقاومة اوروفالدر وسلاطين ونيوفلد وروسيقونولى (وجميعهم من أسرى ذلك الخليفة. المترجم)، وتجد تلخيصا لكل تلك الكتابات فى مؤلف هولت الشهير "دولة المهدية فى السودان". يجب القول هنا بأن حكم الخليفة عبد الله قد وجد قبولا مبدئيا عند بعض أفرع قبيلة الكبابيش فى بداية عهده. لخص لى أحد المخبرين من نوراب الكبابيش موقف الكبابيش من المهدية بما معناه: " عندما حز المهدى رأس التوم زعيم قبيلتنا فى الأبيض أشعل بذلك الحرب بيننا وبين المهدية. صرح المهدى بعد قتله لزعيمنا بأن الكبابيش أنفسهم وما يملكون هى غنائم له، مما اضطر معه بعض أفرد بعض أفرع الكبابيش كالكواهلة والعوضية والجهينة وآخرين للتنكر لأصلهم والتصريح علنا بأنهم ليسوا من الكبابيش. فقد الكبابيش فى تلك الأيام كل شيء وتفرقوا فى الأرض واستدعى بعضهم لأم درمان".

جاء فى تقرير للمخابرات رقمه ٥٠ صدر فى مصر عام ١٨٩٨م أن للكبابيش فرعين: كبابيش دنقلا وكبابيش أم درمان، والفرع الثانى هو الأكبر عددا وينقسمون لثلاثة أفرع هم النوراب (ولهم شيخان) وأولاد عقبة والسراجاب (ولكل منهما شيخ واحد). اتفق هؤلاء جميعا على مناهضة تقدم الجيش الإنجليزى المصرى فى غزوه للسودان، وشاركوا مع الخليفة عبد الله فى معركة أم درمان فى عام ١٨٩٨م بأكثر من سبعمائة مقاتل.

يتضح من روايات المؤرخين والرحالة المذكورين، رغم قلتها كما ونوعا، أن "الكبابيش" اسم جامع لكونفدرالية فضفاضة من القبائل التى تعيش فى شمال غرب السودان، وليس لتلك القبيلة أى حدود سياسية محددة، ولا يمكن تحديد منطقة بعينها يمكن الجزم بأنها تخص الكبابيش وحدهم دون غيرهم. عدت بعض القبائل فى فترات تاريخية معينة فروعا لقبيلة "الكبابيش" بينما لم تعد الآن كذلك. من تلك القبائل من تتحدث اللغة التبداوية على ضفاف النيل بالقرب من دنقلا. من أمثلة تلك القبائل هى "الكواهلة" وهى ليست قبيلة الكواهلة (المعروفة) التى تقطن شمال كردفان، ويزعم

أفرادها أنهم قبيلة منفصلة ولم يكونوا يومًا من "الكبابيش". من القبائل التى عدت فى فترة من الفترات (خاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر) من "الكبابيش" يمكن ذكر بنى جرار والبطاحين والهواوير.

فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر صرنا نسمع عن قسمين للكبابيش: كبابيش دنقلا وكبابيش كردفان، والقسم الأخير هو الأكبر انتشارا وعددا، ويتزعمه "شيخ المشايخ". كان ذلك بالطبع فى غضون الحكم المصري- التركى، والذى فرض على كل قبيلة أن تتخذ لها شيخا واحدا ليسهل عليها أمر إدارة البلاد وقبائلها الكثيرة. فى تلك السنوات منحت الحكومة المصرية-التركية لقب "بيه" لشيخ الكبابيش فضل الله سالم، وأعطته أيضا عددا من طبول النحاس رمزا لسلطته. بيد أننا -كما أسلفت- نجهل للأسف مدى سلطة الشيخ أو "شيخ الشيوخ" فى هذه القبيلة، لأن الحكومة لم تقم أبدا بتعريف تلك السلطات ولا حدودها، إذ إنها لم تكن فى حاجة لذلك، فقد كانت قد أوكلت أمر إدارة الرحل بالكامل إلى شيوخ القبائل، ولم يكن يعنيها من أمرهم غير ضمان دفع الضرائب والمكوس والعوائد بصورة منتظمة، واستتباب الأمن والسكينة فى مناطق الدولة الاستراتيجية. لابد أن قدرة "شيخ الشيوخ" على إرضاء الحكومة والإيفاء بمتطلباتها كان يعتمد بصورة كبيرة على قدرات ذلك الشيخ فى إقناع وتخويف كل أفراد كونفدرالية القبائل الفضفاضة التى يتزعمها، وهى قبائل قد لا تكون فى واقع الأمر فى حالة وحدة سياسية مع بقية القبائل، وهذا مما يجعل إدارتها أكثر صعوبة.

من الحقائق اللافتة للنظر هو عدم احتفاء كبابيش اليوم بتاريخ قبيلتهم. كانت الفترة الذهبية فى تاريخ تلك القبيلة هى فترة الناظر شيخ على الكريم فى العقود الأربعة من هذا القرن. وهذا أمر يمكن فهمه، خاصة بعد معرفة ما حاق بقبيلة الكبابيش من كوارث فى عهد المهدية، وعلو قدرها من بعد ذلك فى غضون سنوات الحكم الثنائى (الإنجليزي- المصري). بيد أن هذا التفسير قد لا يكون كافيا أو مقنعا. فى اعتقادى فإن قبيلة الكبابيش لم تبرز تماما إلا فى عهد ناظرها الشيخ على التوم. كان هذا بسبب توضيح هوية الكبابيش القبلية، وتحديد أماكنهم بدقة أكثر، وتنظيم عمليات جمع الضرائب منهم، وتركيز الحكومة للسلطات فى يد الشيخ على التوم دون منازع، مع منحه امتيازات إدارية ومالية واسعة.

أفلح الشيخ على التوم فى جمع شتات وبقايا أفرع الكبابيش القديمة ، ونجح أيضا فى إزالة ما كان لهذه الأفرع من القبيلة من هويات سياسية متباينة. صار فى عهده كل حق أو منفعة تأتى للفرد الكباشى تكون بسبب أنه من قبيلة "الكبابيش" وليس بسبب انتمائه لفرع معين منها. قد يفسر لنا هذا غياب أى ذكر لسلسلة نسب أو أنساب genealogy للكبابيش ككل، وذلك على العكس مما هو حادث عند القبائل الكردفانية الأخرى مثل الكواهلة ودار حامد و الحمر ، والذى يعتزون بسلسلة طويلة من الأنساب، قد يفسر هذا الاختلاف ببساطة فى أن الكبابيش لا يمتلكون "وحدات نسب lineage units" ذات أهمية سياسية، وبذا تنعدم الحاجة لتبرير وحدة أفرع القبيلة فى قبيلة كبيرة موحدة بناءً على سلسلة نسب. لا تعتمد هوية الكبابيش على وحدة سياسية بين أفرع القبائل التى تكون قبيلتهم الكبيرة، بل تعتمد فى الأساس على احتكار السلطة القبلية وتركيزها فى يد شخص واحد هو ناظر القبيلة. كانت فترة زعامة الشيخ على التوم كما ذكرنا هى فترة ذهبية بالفعل، فبفضله ظهر الكبابيش كـ "قبيلة" واحدة ومميزة ضمن النظام البريطانى للحكم غير المباشر فى السودان.

من بعض ما ورد في كتاب "
نظريات المرض وسوء الطالع عند بجا الهدندوة"

Theories of sickness and misfortune amongst the Hadandowa Beja

فرودة ف. جيكوبسون Frode F. Jacobsen

◇◇◇◇◇◇

هذا عرض موجز لبعض ما أورده البروفيسور النرويجى فرودة ف جيكوبسون (وينطق اسمه كما علمت من خبير لغوى "فخوذة") عن بعض نظريات المرض وسوء الطالع عند بجا الهدندوة فى كتاب صدر فى عام ١٩٩٨م عن دار نشر كيجان بول العالمية (لندن –نيويورك). يبحث الكتاب فى المعرفة الثقافية وتعلمها ونقلها وحفظها عند أفراد قبيلة البجا، وهى من القبائل التى تتمتع بذخيرة باذخة الغنى والتنوع فى مجالات التقاليد الثقافية الشفهية. كان هذا الكتاب ثمرة لبحث امتد لثلاث سنوات أنجزه المؤلف فى منطقتى سنكات وبورتسودان، وقام بتمويله مجلس الأبحاث النرويجى وجامعة بيرجن.

لمؤلف هذا الكتاب سجل تعليمى مثير للانتباه، فبحسب سيرته المبذولة فى الشبكة العنكبوتية فقد تخرج الرجل فى البدء ممرضا من جامعة بيرجن فى عام ١٩٨٧م، ثم نال درجة البكالوريوس والماجستير فى الأنثربلوجيا الاجتماعية والماجستير فى عام ١٩٩٠م، ثم انتقل لدراسة الطب فى جامعة بيرجن بين عامى ١٩٩٠ – ١٩٩٤م، ثم نال درجة الدكتوراه فى الأنثربلوجيا الاجتماعية من ذات الجامعة عام ١٩٩٧م، ثم درس علم الأحياء وطرق البحث العلمى فى مجال الأحياء بين عامى ١٩٩٧ – ٢٠٠٢م.

يمكن تصنيف بحث فرودة جيكوبسون ضمن أبحاث "علم الأنثربولوجى الطبي" و"علم النفس المعرفي" وحول مفاهيم "المرض" و"الصحة" وعمل "المعالجين الشعبيين/ الروحيين"، إذ طاف فى بحثه هذا على كل الجوانب السابقة ووصف وحلل جوانب متنوعة من حياة البجا وتقاليدهم الشفهية ومروياتهم فى أمور الصحة والمرض وسوء الطالع.

جاء الكتاب فى تسعة فصول كان أولها محاولة لتقديم العمل ووصف المكان والزمان الذى أجرى فيه. أعجبتنى المقولة التى اقتبسها المؤلف من ك. بوبر وابتدر بها مقدمته الصغيرة وجاء فيها: "تقع على كل مثقف مسؤولية خاصة، إذ إنه قد حظى بامتياز الحصول على فرص للتعليم والقدرة على البحث، يجب على المثقف رد الجميل بأن ينقل لشعبه (أو لمجتمعه) نتائج دراساته وأبحاثه بأقصر وأبسط الطرق وأكثرها تواضعا. إن أكبر جرم يمكن للمثقف أن يرتكبه هو أن يتصور أنه أكبر قدرا وأجل مكانة من مواطنيه العاديين، وأن يتعالى ويتذاكى عليهم بفلسفات محيرة. إن كل من يعجز عن التحدث (مع الناس) ببساطة ووضوح يجب أن يخرس تماما ويواصل عمله إلى يتمكن من فعل ذلك."
لعل المؤلف يود أن يقول: إنه من هؤلاء المثقفين الذين يهمهم أن ينقلوا معارفهم (فى هذه الحالة المقصود هو بالطبع نتائج أبحاث ثلاثة أعوام - ١٩٩٣ إلى ١٩٩٥م- عاشها فى وسط البجا) بصورة مبسطة وواضحة لقطاع واسع من جماهير القراء غير المتخصصين.
لا أدرى كيف كان سيكون عليه هذا الكتاب إن جاء بخلاف ما زعمه المؤلف من التبسيط والوضوح، فمادة الكتاب فى نظرى المتواضع ليست بتلك البساطة والوضوح الذى يدعيه المؤلف، فهو عندى كتاب للمتخصصين فى علوم الأنثربولوجى الطبية وعلم النفس والاجتماع، أو على الأقل للمهتمين بها، ويصعب تصوره ككتاب "شعبي" واسع التداول.

يقول الكاتب: إن من أسباب اهتمامه البحثى بتجربة "الصحة والمرض" ومفهومهما عند البجا هو ملاحظته لما يوليه البجاويون (كغيرهم من خلق الله!) من اهتمام بالغ بهذين الأمرين، وسعيهم الدؤوب واستثمارهم لكثير من الوقت والمال والموارد الثقافية للتخلص من المرض وبلوغ الصحة.

فى الفصل الثانى من الكتاب يطنب المؤلف فى تعريف بعض المفاهيم الأساسية المستخدمة فى دراسته، وفى مناهجه البحثية وطرق تحليل نتائجه. يتميز هذا الفصل عن كل الفصول الأخرى بالعسر البالغ (لغير المتخصص) وبالجفاف الشديد والتخصص العميق فى دقائق منهجية البحث مما يثير الشك فى أن الكتاب موجه بالفعل للقارئ غير المتخصص.

أما في الفصل الثالث فيقدم المؤلف عرضا جغرافيا مبسطا للمنطقة التي يقطن فيها البجا، ووصفا أثنوجرافيا واضحا (نسبيا) لثقافة البجا ومجتمعهم، ويحاول إيجاد تفسير لاستخدامهم لطيف ضيق فقط من جوانب ثقافتهم لتفسير الحالات الحقيقية للمرض وسوء الطالع.

يتفق الكاتب مع من يقول: بأن البجا أفلحوا في العيش في منطقة شدة لا تصلح للعيش الآدمي، وظلوا يدافعون عنها وكأنها أرض أسلافهم منذ آلاف السنين. لقد قاوم البجا كل من غزاهم من الرومان والمصريين والبريطانيين ودافعوا عن أرضهم رغم بؤسها الشديد. يؤيد المؤلف كذلك ما سجله كثير من الباحثين من أن البجا قوم تقليديون يتمسكون بطرقهم التليدة في حالات الصحة وفي حالات المرض أيضا. يؤكد هذا مقاومتهم للعناية الطبية "المعاصرة" خلال عهد الاستعمار البريطاني وإصرارهم على مواصلة طرقهم التقليدية في طلب التداوي.

تناول الكاتب أيضا في هذا الفصل ديانة البجا، فذكر أن بجا اليوم يعدون أنفسهم مسلمين، وأشار إلى أن دخول الإسلام إلى بلادهم جاء متأخرا نسبيا (في حوالي القرن السابع عشر)، رغم أن بعض أفراد البجا كانوا قد بدؤوا في الدخول إلى الإسلام بصورة فردية منذ القرن العاشر الميلادي. لم ينس المؤلف أن يورد رأي القسيس المؤرخ ترنجهام الذي نفى صفة التدين عن البجا، ووصف تدينهم بأنه "محض قشرة خارجية" وأنهم – مثل غالب السودانيين– قوم شديدو الإيمان بالخرافات ويسارعون في تصديق أي فكي يزعم أن "البركة" قد حلت عليه. يقول المؤلف: إن هنالك من يعارض رأي ترنجهام ويؤمن بأن الإسلام (كغيره من "ديانات الكتب السماوية") يحدث في كل مكان كـ "ظاهرة محلية" تخالطها في غالب الأحايين كثير من العادات والخصائص المحلية، وبما أن الأمية متفشية في أوساط البجا فليس من سبب لأن نتوقع منهم الالتزام الدقيق بكل ما جاء في القرآن والسنة. ضرب المؤلف هنا مثلا بما شاهده شخصيا من تعليم شيخ ديني في سنكات لجماعة من رجال أميين قادمين ريف سنكات. كان ذلك الشيخ يعلمهم مبادئ الصلاة الأساسية ومواقيتها، ولاحظ المؤلف حماس وحرص هؤلاء الأميين على تصحيح أخطائهم في مواقيت الصلاة، وعد ما شاهده دليلا مؤكدا على شدة تدينهم (الفطري)، ولم

يتابع ويصدق ما زعمه ترنجهام عن رقة الدين عندهم. بيد أن المؤلف أضاف أن هذا لا ينفى بالطبع حقيقة أن البجا يؤمنون أشد الايمان بالأولياء والصالحين، ولا يلقون بالا لما يقوله شيوخ وعلماء الدين، فإيمانهم ببركة الصالحين ثابت غير قابل للتغيير إذ هى فكرة مركزية فى المعتقدات الدينية عندهم.

لخص المؤلف التنظيم الاجتماعى للبجا وذكر أنهم يتكونون من عدة وحدات قبيلة رئيسة وفرعية، أهمها البشاريين (الذين يسكنون فى شمال وشمال غرب الإقليم) والأمرار (القاطنين فى السهول الساحلية شمال بورتسودان وسفوح التلال) والهدندوة (وهى أكبر قبائل البجا وتسكن بين تلال البحر الأحمر ونهر أتبرا). يتحدث البجا باللغة الكوشية الشمالية المسماة Tu Bedawie بينما يتحدث البنى عامر لغة "التقري" السامية. هنالك اختلاف آخر بين القبيلتين فى أن البجا لديهم تنظيم اجتماعى يتسم بالمساواة، بينما لبنى عامر نظام اجتماعى تقليدى طبقي.

لكل فرع من فروع قبيلة البجا أرضهم المحددة، يكون فيها جار المرء دوما هو أقرب الأقربين له. يحرص كل فرد من أفراد البجا على الزواج من فتيات ذات القبيلة وشعار كل بجاوى هو "لا تتزوج الغريبة... فتياتكم أفضل"، ولديهم فى ذلك حكاية فلكلورية عن طائر الغراب والذى تزوج طائرا ليس من نوعه هو الكركي. عقب الزواج طلبت الزوجة (طائر الكركي) من زوجها الغراب أن يطيرا بعيدا عن بلادهما عبر محيطات عديدة. ولما كان الغراب لا يجيد الطيران لمسافات طويلة فقد طلب من زوجته الكركى المساعدة. أقنع أهل الزوجة ابنتهم بمساعدة الزوج فى المرة الأولى، ولكن مع مرور الوقت بدأت الزوجة تضج من مساعدة زوجها وهجرته فى نهاية المطاف وتركته غريبا عن دياره.

لكلمة "ديواب" البجاوية أهمية قصوى فى جانب التقسيم القبلى فهى وحدة اجتماعية/ اقتصادية لا يتعدى عدد أفرادها ٥٠ – ٢٠٠ عائلة، وهى كلمة ذات معان مختلفة، قد تفيد معنى كلمة "وطن" أو "عشيرة" أو "عائلة" أو "بيت" أو "أقارب" أو "مجموعة" أو حتى "زوجة". تتقاسم كل "ديواب" مجموعة حقوق عديدة فى الأرض والممتلكات والمواريث والموارد الأخرى، وهذا من باب حفظ الثروة فى الـ "ديواب" الواحد. يحرص الرجل البجاوى على عدم إعطاء معلومات عن "ديوابه" خشية أن

يلحقهم أذى من قبل من هم من غير عشيرته الأقربين.

مما ذكره المؤلف نقلا عن صديق له من البجا أن البجاويين قوم كرماء مع ضيوفهم، فهم يضيفون القادم عليهم ويعاملونه كملك فى الثلاثة أيام الأولى لزيارته، بيد أنه يظل عندهم مجرد "ضيف" وليس "صديقا موثوقا به"، وهو بهذه الصفة يتلقى من المعلومات من مضيفيه ما يردون له أن يعرف وليس أكثر من ذلك. فى هذا يستوى عندهم الأجنبى (غير السوداني) والسودانى من غير البجا، والبجا من غير "ديوابهم".

تطرق المؤلف أيضا للموضوعات التى يتناولها البجا فى أشعارهم الغنائية التقليدية فقال : إنها تدور أساسا حول حب امرأة معينة والتغزل فى جمالها وشبابها وأعضاء جسدها خاصة عيونها السوداء الواسعة، وطريقة مشيتها مرفوعة الرأس، ولونها الفاتح، بيد أن ذكر اسم المرأة من المحرمات عندهم. يقرض البجاويون أيضا الشعر فى حيواناتهم خاصة الإبل، والتى يعشقونها وينزلونها منزلة عظيمة فى قائمة ممتلكاتهم، فهى رمز مهم من رموز حياتهم البدوية ولبنها بالنسبة لهم غذاء ودواء يعالج ويحمى من الأمراض أيضا، وشربه يزيد من الباءة.

للعمل وتقسيمه عند البجا طرقا وطقوسا محفوظة. فالرجل منوط به الرعى بحيواناته وسقايتها وحلبها، بينما تقضى المرأة جل وقتها فى خيمتها حيث تقوم بتحضير الطعام وطحن الذرة لتحضير الإوتم o'tam (وهى نوع من "العصيدة" التى هى الطعام الرئيس عند البجا) وخض اللبن لإنتاج السمن، والذى يستبدل أو يباع عادة للحصول على نقود لشراء مستلزمات أخرى. تصنع المرأة البروش وتغزل الصوف لصناعة المفارش الأرضية، وتهتم على وجه العموم بمحتويات الخيمة، بيد أن أهم واجباتها على الإطلاق هى رعاية أطفالها والعناية بهم. كثيرًا ما كان المؤلف يسمع فى غضون إقامته فى مدينة سنكات لبعض النساء والواحدة منهن تحمل سلة وتغنى وهى فى طريقها لخارج البلدة. عرف من مخبريه أن المرأة من هؤلاء تحمل مشيمة (تبيعة) طفل مولود حديثا، حيث ستعلقها على غصن شجرة بعيدة. عرف المؤلف أن مشيمة المولودة (خلافا للمولود) تدفن فى صمت فى داخل الخيمة أو البيت. خلص المؤلف أن ذلك يعكس بجلاء الأدوار المتوقعة لاحقا من الذكور والإناث عند البجا، فالمرأة مكانها البيت

(الخيمة)، والرجل يعمل فى الخارج (أو العالم الخارجي) حيث الأشجار والزراعة.

بحسب ما سجله المؤلف فإنه بالنسبة للرجل فالطبخ أو نصب الخيمة والعناية بها عمل "مخجل" يندرج تحت خوارم مروءة الذكر. ليس من عادات الرجال المستحبة البقاء مع النساء وهن يقمن بنصب وأعداد الخيام بل يفضلون الذهاب مع رفقائهم خارج معسكرهم حيث يستمتعون بشرب الجبنة تحت ظل شجرة أو فى خيمة "رجالية"، أو فى مقهى أو سوق إن كانوا موجودين فى المدينة، فالسوق عندهم منطقة رجالية صرفة لا ينبغى للمرأة الاقتراب منها بتاتا، بل عليها أن تكلف زوجها أو أحد أقربائه بشراء ما يلزمها منه.

تظل المرأة الهدندوية تحت حماية أهلها الذكور (الأب والإخوان والأبناء والأزواج) طوال حياتها، وهو أمر مقلق لهؤلاء الحماة، فشرف العشيرة "الديواب" الجماعى معلق بسلوك المرأة عندهم. تحرص نساء البجا على ختان المرأة ختانا فرعونيا فى الغالب (بحسب ما جاء فى كتاب دكتورة أسماء الضرير الشهير عن الختان فى السودان) وفى سن مبكرة جدًا قد تكون الشهر الأول من عمر الطفلة، بيد أنه حدث تغيير فى ذلك المنحى فى السنوات الأخيرة من قبل الرجال والذين كثيرًا ما يوهمون زوجاتهم بأن ختان البنت سيكون "فرعونيا/ كاملا" بينما يقنعون الخاتنة سرا بأن تقوم بعمل الختان السنى (الأخف وطأة).

خلص المؤلف إلى أن البجاوى يعيش فى عالمه (الذكوري) الخاص، بينما تعيش البجاوية منعزلة كذلك فى عالمها (الأنثوي) الخاص بها. رغما عن ذلك فقد ذكر المؤلف أيضا أن بعضا من مخبريه من البجا أخبروه بأن المرأة البجاوية هى الناظم الرئيس لاقتصاد العائلة ورفاهيتها، إذ أنها تمارس برغم تلك العزلة أدوارا اجتماعية مهمة فى تحديد العلاقات الاجتماعية للزوج وعلاقاته والزيارات الواجبة فى المناسبات الهامة عند أفراد "الديواب" مثل الأعراس والمآتم (الفراش) والولادات. تلعب الزوجة البجاوية كذلك دورا مهما فى أمور "الصحة والمرض والعلاج" فى العائلة، وفى أمور زواج الأبناء والبنات والختان وميزانية البيت.

أعجبنى المثل البجاوى الذى أورده المؤلف فى خواتيم فصله الثالث الطويل وهو:

"ابحث عن الأشياء الجميلة، فالأشياء القبيحة تأتى وحدها دون دعوة".

فى الفصل الرابع قدم المؤلف عرضا أوليا للوضع الصحى وأكثر الأمراض انتشارا فى منطقة تلال البحر الأحمر معتمدا على ما يعتقده الأهالى الهدندوة وليس بحسب ما يرد فى التقارير الطبية والصحية التى يعدها الأطباء بناء على "أبحاث" و"دراسات علمية". لا يعير المؤلف فيما يبدو كبير اهتمام أو تصديق لتقارير وأرقام السلطات الطبية والصحية الرسمية (وربما كان محقا فى ذلك!). أورد المؤلف قائمة بأكثر الأمراض والحالات شيوعا فى منطقة البحر الأحمر زوده بها دكتور محمد أبو آمنة فى بورتسودان، ويتصدر تلك القائمة النقص الغذائى (خاصة فى البروتين والفيتامينات) وفقر الدم (الأنيميا)، ربما لعدم تناول البجا للخضروات والفواكه فى طعامهم. أورد الكاتب أن سبب الأنيميا عند البجا سببه هو شربهم لألبان المعز لعدم توفر لبن الأبقار والتى زعم أنها مصدر غنى للحديد، وهذا ليس بصحيح فمعلوم أن ألبان الحيوانات على وجه العموم فقيرة فى الحديد، ومن هنا جاءت المقولة "المشهورة" من أن اللبن كان سيعد غِذاءً كاملا لولا افتقاره للحديد. وفى هذا الصدد نذكر أنه قد نشر فى عام ٢٠١١م مقال علمى عنوانه: "تناول لبن البقر سبب من أسباب فقر الدم عند الأطفال

Consumption of cow's milk as a cause of iron deficiency in infants and toddlers.

شملت القائمة أيضا أمراض الجهاز المضمى خاصة الإسهالات، ثم أمراض الجهاز التنفسي البكتيرية والسعال الديكى والحصبة والسل (فى الصدر والعظام والجلد) والالتهابات الصدرية والكزاز (التتنس). ذلك ما يقوله الأطباء. أما الهدندوة فلهم رأى آخر رغم إدراكهم –على وجه العموم- لارتباط التغذية بالصحة. عبر عن ذلك العمدة العجوز "أبو عاشة" بقوله: "لقد زاد المرض الآن. فى الماضى كان المرض نادرا. فى الماضى إذا جرح واحد منا كنا نعالجه هنا بوضع سمن على الجرح ولا نأخذه للمستشفى. الآن يموت الإنسان من أقل خدش! إن أعطيت مريضا لحما وسمنا فإنك ستضره. الآن ازداد المرض. قد يكون السبب هو السعوط والقهوة التى يستخدمها الناس بأكثر مما فى السابق، الآن الناس يأكلون اللحم والسمن بأقل مما كانوا يفعلون فى الماضي...". يبدو أن

الهدندوة يربطون بين نقص الغذاء والأطعمة الجديدة التى دخلت على مجتمعهم وكثرة الأمراض التى "نزلت" عليهم فى السنوات الأخيرة. يقسم البجا الأمراض (تماما كما يفعلون فى كثير من بلاد الشرق الأوسط) إلى أمراض "حارة" وأمراض "باردة". يعزو البجا الأمراض "الباردة" إلى برودة الجو أو الماء أو غير ذلك، بينما يردون الأمراض "الحارة" إلى الأطعمة الحارة أو الحريفة. يعالج البجا الأمراض "الحارة" بعكسها (أى بتناول الأشياء الباردة) والأمراض "الباردة" بتناول الأشياء الحارة.

أورد المؤلف قائمة مطولة بالأمراض كما يسميها البجا وشرح لمعانيها، وفى هذا الجزء استعنت بالأستاذ محمد عثمان إبراهيم فأمدنى بالترجمات التالية لأسماء بعض الأمراض والحالات التى ذكرها المؤلف. يجب ملاحظة أن بعض الأمراض المختلفة قد تشترك فى ذات الاسم، فكلمة "كوليت" مثلا ترجمها المؤلف بمرض السيلان، وهى الكلمة البجاوية المقابلة لمرض الزهرى (يسميه القاموس الطبى الموحد "الإفرنجي")، وعند البجا فإن السيلان هو البجل. وتعدد الترجمات العربية للمرض الواحد معهود فى القواميس الطبية فى مختلف الدول العربية.

فقر الدم	كسولت	Kosult
زيادة الحموضة	همينايت	Hemineit
والتهاب المفاصل الحمى	توردة	Gurda
السيلان/ السكري	كليت	Koleit
العصبيالقولون	تأفلم	Taflam/ Afram
فقدان الشهية	واتاب	Watab
يرقان	هيرار	Herar
مرض الكبد	هاف	Haf
الإرهاق	سر	Sirr
المرضي/ الخوفالرهاب	ميركواي	Mirquay
الجنون	هالى	Haale

أفرد المؤلف صفحتين كاملتين لمهنة نسوية صرفة هى مهنة الوداعية (وهى سيدة تتنبأ بما سيحدث لمن يطلب منها معرفة المستقبل). تستخدم "وداعية" سنكات (مثل عيشة المرأة المسنة من الحمداب) ٧ قواقع/ ودعات معكوفة ترميها على الأرض وتحلل المواقع التى تقع عليها تلك الودعات وعلى أي جانب تستقر وتستنج منها ما تريده أو تظنه. يؤمل المريض أو الطالب أن تتعرف الوداعية على تشخيص مرضه أو طريقة علاجه أو أفضل المعالجين لعلته. أخبرت عيشة الوداعية المؤلف بأنها ورثت مهنتها عن والدتها وأن الزبائن يتقاطرون عليها يوميا فى الحى الذى تقطنه فى سنكات (لعل اسمه دينابيت) وأيضا من كل أحياء سنكات وما حولها من القرى. أخبرته أيضا أن زوراها فى تزايد مضطرد دوما. أورد المؤلف فى هذا الفصل أيضا طرفا من سيرة آمنة وهى امرأة طيبة متدينة كثيرة الكلام تقوم الآن بدور "الفكي" للنساء بعد أن هجرت مهنتها القديمة كوداعية. حكت للمؤلف أنها كانت قبل أن تعمل فى رمى الودع امرأة فقيرة معدمة. ازدادت حالتها سوءا بعد طلاقها فقررت أخذ قرض (لم تحدد مصدره) مقداره خمسون جنيها استخدمته فى تجارة البيض، وكان تنوى رد ذلك الدين من أرباح تجارتها بيد أنها أصيبت بملاريا أقعدتها عن العمل. فى أيام مرضها أتاها فى المنام حلم رأت فيه طائرا كبيرا يحمل بين منقاره ورقة نقدية من فئة الخمسين جنيها. قال لها ذلك الطائر: "خذى هذه الورقة النقدية وسلميها لمن استدنت منه، وبعد ذلك اعملى كوداعية". وبالفعل فعلت ذلك رغم معارضة إخوانها وزوجها (الثاني). بعد نجاحها الداوى كوداعية "صادقة لا تتوانى عن إخبار زبونها بحقيقة ما تراه" تحولت للعمل كفقيرة تعالج بالمحايات والأعشاب الطبية وبالآيات القرآنية، وتمارس أيضا مهنة "البصارة". لاحظ المؤلف أن ما قالته تلك "الفقيرة" يتكرر عند كثير ممن قابلهم. يرددون دوما أن "رؤيا منامية" معينة هى ما ساقتهم للعمل "فقير" أو "فقيرة". من الممارسات التى يقوم بها الفقير (أو الفقيرة) ما يلي:

١ .وصل: هى آيات قرآنية مكتوبة على ورقة تحرق بالنار ويخلط رمادها مع الماء وتعطى للمريض ليشربها.

٢. محاية: سبعة آيات من القرآن تكتب بالحبر على ورقة أو قطعة من الخشب، ثم تغسل بالماء، ويجمع ذلك الماء ويعطى للمريض ليشربه.

٣. حجاب: قصاصة ورقة مكتوب عليها آيات قرآنية ملفوفة فى "حجاب" (فى الأصل تميمة) تستخدم فى الحماية ضد الأرواح الشريرة. يستخدم الحجاب والمحاية بصورة واسعة فى كل أرجاء السودان وكثير من أنحاء العالم الإسلامى الأخرى.

٤. تلاوة القرآن: يتلو الفقير (أو الفقيرة) آيات من القرآن وهو يضع يده اليمنى على رأس المريض، وقد يبصق على الأرض بعد تلاوة كل كلمة، أو يبصق على وجه المريض مباشرة.

لاحظ المؤلف أن "البصير" يختلف عن "الفقير" فى أن الأول عادة ما يكون أميا، بينما يكون "الفقير" متعلما أو على الأقل ملما باللغة العربية كتابة ومخاطبة.

يلجأ البجا لـ "الفقير" فى حالات الإصابة بأمراض نفسية أو عقلية تعزى دوما للجن، ويلجؤون لـ"البصير" فى غير ذلك من الأمراض، غير أن لهذه القاعدة استثناءً واحدا فى حالة البصير الذى يعالج "التفألم" والذى هو "مرض القولون العصبي" . يؤمن البجا بأن "بصير التأفلم" قادر على التعامل مع "الجن غير المسلم" الذى يعتقدون بأنه يسبب ذلك المرض. يختص "بصير التأفلم" بعلاج كثير من أمراض الجهاز الهضمى مستخدما أعشابا طبية أو بالكى فى منطقة البطن أو بتلاوة بعض الآيات القرآنية أثناء المسح على البطن. كذلك يعالج هذا البصير نوعا من إصابات الثدى يسميها البجا "توديه Toodih" يعتقدون أن سببها هو ذلك "الجن غير المسلم". يعالج البصير هذا المرض بالهمس فى ثدى أو أذن المريضة بآيات قرآنية "محذرة" للجن أو بكى المنطقة حول الثدى بالنار. لاحظ المؤلف أن هذه الممارسات تشابه ممارسات المعالجين الشعبيين فى أثيوبيا والصومال.

تطرق المؤلف إلى استخدام "الزار" وشيخاته وذكر أن حفلات الزار فى سنكات تنقسم إلى نوعين:

١/ حفلات الجالوكة (لعل المقصود الدلوكة"؟!) وهى ترمز للآلة الموسيقية المستخدمة فى الحفل والذى قد يستمر من ٣ إلى ٧ أيام ويذبح فيه كبش ضخم فى اليوم الأول ويتواصل فيه تقديم الوجبات الغذائية لكل الحضور طوال أيام الحفل. يلزم فى هذا الزار أن يتم تزيين المريضة (والكبش أيضا) بالحناء، ويطلق على المريضة لقب "العروسة"

والتى تزف إلى عريسها "روح/ جن الزار". تعطى المريضة / العروس كمية من دم الكبش المذبوح لتتجرعها. يعقب ذلك غناء صاخب ورقص شديد الانفعال على قرع الدلوكة المتعالي، مع شعور عام بالانتشاء يصاحبه معرفة "الجان" المسبب للمرض وطلباته، والذى تكون الاستجابة لها هى سبب الشفاء. يتقمص الجان المسبب للمرض شخصيات متباينة، فقد يكون عقيدا فى الجيش البريطانى أو مومسا إثيوبية، وتختلف طلبات الجن المتلبس للمريضة بحسب الشخصية التى يتقمصها ذلك الجان.

٢/ الطيبTayyab: هو حفل أصغر ليس فيه قرع لأى نوع من الطبول، وهو على نوعين: نوع يمارس فى المدينة وآخر (أكثر بساطة) يمارس فى القرية. فى "الطيب" قد يكون العلاج ببساطة هو شراء بعض أشياء خاصة للمريض/ المريضة. يعالج هذا النوع من الزار من يعانى من سوء طالع فى أى أمر من الأمور.

توسع المؤلف فى بقية فصول الكتاب فى نظريات أنثروبولوجية وفلسفية ونفسية متقدمة عن نظرة البجا للأمراض ومسبباتها وطرق التداوى منها، وحللها تحليلا أكاديميا معمقا مقارنا إياها بما هو منشور فى الأدبيات العالمية عن مناطق أخرى من العالم معتمدا على إفادات ما قابلهم من عينات من أفراد مجتمع البجا فى سنكات وبورتسودان، وكذلك على دراسات حالات case studies ، فعلى سبيل المثال لخصت امرأة أمية بجاوية هى "حواء علي" نظرة البجا إلى الأعشاب الطبية والتداوى بها فقالت: "يجب على المرء الحرص عند حصد الأعشاب الطبية، فهذه الأعشاب قد تكون مفيدة بطريق واحد، بينما تكون مضرة بتسعة طرق أخرى"، وهذا باب فى "حكمة الشعب الفطرية" توسع فيها المؤلف فى جوانب أخرى من بقية فصول كتابه.

ختم المؤلف كتابه بسبعة ملاحق كان أولها ثبت الأسماء العربية (السودانية) للكلمات المهمة الواردة فى بحثه. أورد فى الملحق الثانى معانى الكلمات البجاوية الواردة فى الكتاب. ما لم أجد له مسوغا هو ما أورده المؤلف عن طائفة الختمية فى الملحق الثالث. فما أورده الكاتب هو سرد تاريخى بالغ التبسيط لنشأة وتطور تلك الطريقة الصوفية فى السودان وصراعها مع المهدية والتطورات التى حدثت فيها فى القرن العشرين والحكومات (الديمقراطية) التى تآلف فيها الختمية مع الأنصار (حزب الأمة)! كل ذلك

دون أن يبذل المؤلف جهدا يذكر فى الربط بين الأسس العقدية والفكرية لتلك الطائفة الدينية (والتى يتبعها كل أو غالب البجا من شملهم بالدراسة فى منطقتى سنكات وبورتسودان) وتعاليمها وممارساتها وبين اعتقاداتهم وممارساتهم فى أمور المرض والتداوي. من أكثر المعلومات إثارة للصدمة ما أورده المؤلف من نسب وفيات الأطفال والتى تحصل عليها من الاستبيانات التى أجراها فى غضون السنوات الثلاث التى قضاها فى شرق السودان فى أوساط ثلاثين عائلة بجاوية. ذكر المؤلف أنه من بين ٢٨٤ طفلا ولدوا فى خلال السنوات الماضية (١٢٨ ولدا و٨٤ بنتا) عاش منهم ٢١٢ وتوفى ٧٢ (أى أن أكثر من ربع المواليد فقدوا حياتهم بعد الولادة). تبين للمؤلف أن تلك الوفيات حدثت فى الغالب فى سنوات الجفاف الذى ضرب المنطقة فى عامى ١٩٨٤م و١٩٩١م. أورد المؤلف أيضا ما ذكره أحد الخبراء من أن احتمال موت المولود فى السودان على وجه العموم هو ١٧٪، وأن هذه النسبة تنخفض فى الخرطوم إلى ١٢٪ بينما ترتفع فى منطقة البحر الأحمر إلى أكثر من ٢٥٪.

رغم الملاحظات العابرة وغير المتخصصة التى أوردناها عن هذا الكتاب فلا شك أنه يمثل إضافة حقيقية للدراسات الأكاديمية (المحدودة) عن عرقيات السودان المختلفة، والتى قام ويقوم بها علماء من العالم الغربى فى غالب الأحوال، مما يشير إلى أن "عبء الرجل الأبيض" ربما لا يزال ماثلا ينتظر من يقوم به! قد يجد المتخصصون فى الجوانب التى تطرق إليها المؤلف (وهى عديدة متنوعة) فى هذا الكتاب مجالا خصبا للتمحيص والمراجعة والنقد، بيد أن الجوانب العامة التى لمسنا طرفا يسيرا منها فى هذا المقال تؤكد أن الكتاب –على الأقل فى بعض فصوله وملاحقه– لا يخلو من بعض الفائدة (وربما المتعة أيضا) حتى لغير القارئ المتخصص، ففيه بعضا من قصص البجا وحكاياتهم الفلكلورية المثيرة للدهشة ومقدرتهم على التكيف مع العيش فى بيئة بالغة القساوة وكما قيل فإن "كل امرئ فى عيشه ثاقب العقل".

أختم بتعليق سريع على غلافى الكتاب الخارجيين. ففى الغلاف الأمامى تجد صورة معبرة ومؤثرة (بالأبيض والأسود) لثلاثة أولاد وسيمى الطلعة ما تعدت أعمارهم الخامسة إلى السابعة يجلسون فيمكان صَخِرٌ مجدب على سفح تل مقفر، وأجسادهم

الناحلة ونظراتهم تذكرك بمقولة النميرى فى نهايات ستينيات القرن الماضى عن "الحزانى فى الشمال والجوعى فى الشرق إلخ"، وفى الغلاف الخلفى صورة (بالأبيض والأسود أيضا) لبيت من السعف وأسرة من عشرة أفراد لعلهم تجمعوا لأخذ تلك الصورة، وتلك الصورة تلخص فى مرارة بالغة حالهم الذى يغنى عن كل سؤال. كان ذلك قبل نحو عقد من الزمان...فهل تغير الحال يا ترى؟

***

أود تسجيل شكرى للصديق (البجاوي) محمد عثمان إبراهيم لملاحظاته المفيدة على هذا المقال.

حول عادة وضع الحصى على المقابر عند النوبيين

م. دبليو كافندش M. W. Cavendish

◇◇◇◇◇◇

هذا تلخيص موجز لبعض ما أورده م. دبليو كافندش عن عادة وضع الحصى على المقابر عند النوبيين، وذلك في مقال نشر في مجلة "السودان في مذكرات ومدونات" العدد ٤٧ لعام ١٩٦٦م.

الشكر موصول لكثير من الأصدقاء من النوبيين (وغيرهم) لمراجعة هذا المقال. **المترجم**

***

لاحظ بيركهاردت (هو المستشرق والرحالة السويسري جون لويس بيركهاردت الذي عاش بين ١٧٨٤ –١٨١٧م وألف كتاب "رحلات في بلاد النوبة" والذي صدر في ١٨٢٢م. المترجم) عند زيارته لمنطقة النوبة السودانية في عام ١٨١٣م أن السكان في تلك المنطقة (وهم من المسلمين الذين يمارسون عباداتهم الإسلامية دون غلو أو تعصب) يزينون قبور موتاهم بأكوام من حجارة صغيرة أو بحصى كوارتز (الكوارتز هو معدن يوجد في كثير من مختلف أنواع الصخور ويتألف من ثاني أكسيد السيلكون. المترجم). كتب ذلك الرحالة ما معناه: "يضع النوبيون وعاءا فخاريا بجانب كل قبر يملؤونه بالماء لحظة مواراة الجثمان الثرى، ويتركونه هنالك. ويغطون القبر نفسه بحصى صغيرة مختلفة الألوان ، ثم يغرسون سعفتي نخيل كبيرتين عند طرفي القبر. وقد جعل النوبيون من رمز النصر ذاك رمزا للموت".

ولا تقف تلك الممارسة عند حدود النوبة بل تنتشر على امتداد النيل جنوبا. وقد سجل بيركهاردت عند زيارته لأم داوود بشرق أتبرا ما نصه : "أنهم يغطون قبور موتاهم بحسب العادة النوبية بحصى كوارتز بيضاء ، ويضعون عمودا على جانبي كل قبر". عندما

واصل ذلك المؤرخ سيره جنوبا وحل فى الدامر كتب ما مفاده: "عندما صرنا على مقربة من تلك القرى الصغيرة مررنا بعدد كبير من القبور الجديدة فى وسط الصحراء وعليها "شواهد" تنتصب حزينة تشهد بما حصده وباء الجدرى من أرواح. وبحسب العادة التى لاحظتها من قبل فى أرض البرابرة، فقد كانت تلك القبور مغطاة هى أيضا بقطع صغيرة من الحصى الأبيض وقطع من الكوارتز".

وفى الدامر لاحظ بيركهاردت العادة نفسها تمارس، بيد أن القبور فى تلك المدينة تغطى بالحصى الأبيض فقط. وكتب يقول: "فى عصر أحد الأيام وبينا أنا أحمل بضاعتى من الخرز بادرنى "الفكي" بالسؤال عما إذا كنت أستطيع القراءة ... شاهدت بعيد ذلك عددا كبيرا من الناس فى مأتم أحد المتوفين حديثا، ورأيت عددا من الرجال يتلون القرآن بصوت خفيض. ثم أتى بعد ذلك شيخ كبير كان مجيئه إيذانا للقراء برفع أصواتهم بالتلاوة كما هو مألوف فى بلدان الشرق. استمرت القراءة نحوا من ثلاثين دقيقة حتى أتى بعضهم بصوانى العشاء، أحضروا طعاما وفيرا إذ إنهم كانوا قد ذبحوا لتلك المناسبة فى ذلك اليوم بقرة. وبعد أن تناول الجميع طعامهم فى عجل شديد استأنفنا التلاوة. جلب أحد الشيوخ للقراء سلة مليئة بحصا صغيرة بيضاء قاموا بالتلاوة عليها مرات عديدة. تبين لى أن تلك الحصى ستنثر على قبر ذلك المتوفى، تماما كما رأيت الناس فى أماكن أخرى يضعونها على قبور الأموات حين يوارونهم الثرى. أخذ العجب والتعجب منى كل مأخذ من شيوع تلك العادة والتى لم أر قط مثلها فى أى قطر إسلامى أزره من قبل، فسألت الفكى عن ذلك فرد على بالقول: إنها "مجرد عادة مستحبة، ولكنها ليست واجبة ولا ملزمة لأحد، ولكن يظن الناس أن روح الميت (والتى ستزور القبر بعد دفنه) ستسعد لوجود ذلك الحصى، وستستخدمها كالخرز للتزين عندما تصلى لبارئها".

لقد غمرت المياه كثيرًا من القبور التى تشابه القبور التى شاهدها بيركهاردت عند زيارته للسودان وذلك عقب قيام سد أسوان. يلاحظ المارة أن تلك القبور كانت توجه جهة الجنوب، بينما يسجى الميت على شقه الأيمن ووجهه يستقبل القبلة. ويوجد على طرفى كل قبر علامة (شاهد) مصنوعة من الحديد أو الحجر، وبين الشاهدين هنالك كوم تراب تتناثر عليه حصى صغيرة بيضاء اللون كثيرة العدد، وجريد نخل مغروس عند

موضع الرأس والقدم. (أورد الكاتب هنا رسما توضيحيا لما وصفه، وكتب تحت الرسم شرحا له يقول: بأن القبر هو قبر فى أرض النوبة بعمودية دويشات، مشيخة دويشات وفى حلة عشير. المترجم). من المثير للانتباه وجود إناء ماء فخارى أو معدنى مفتوح يوضع على القبر وبجانبه طاس (أو ما يشبه الصحن العميق) عند موضع رأس الميت، وكنه وظيفته. يسكب بعض ذلك الماء على الحصى الأبيض المنثور على قبر الميت (شبهه الكاتب بما يعرف بالـ Libation وهو طقس من الطقوس يمارس فى كل الديانات القديمة منذ عهد الفراعنة. المترجم). يقوم شيخ من الشيوخ بتلاوة آيات من القرآن فى غضون عملية سكب الماء على القبر، من الملاحظات المثيرة للانتباه أيضا غرس أوراق خضراء من نبات الذرة المحلية عند موضع رأس الميت. شرح لى سكان "مقافيل Mugaffil" بعمودية ومشيخة صرص الأمر بأنه من الواجب فى نظرهم وضع "شيء لين رطب" قرب القبر.

قام رجال "مقافيل" بشرح عادات القبور عندهم عند زيارتى للمنطقة فى ديسمبر من عام ١٩٦٤م شرحا عمليا، فجلسوا القرفصاء على الأرض وقاموا بأياديهم الخبيرة السريعة المدربة بتحضير نموذج قبر نوبى بلغ طوله نحو ٦ بوصات (أرفق الكاتب هنا شكلا توضيحيا لما قام به رجال حلة "مقافيل" فى مشيخة صرص – تهالى بعمودية صرص). تذكرت فى تلك اللحظات ما سجله الرحالة بيركهاردت من ملاحظات فى ذات البقعة من أرض النوبة والتى أورد فيها الطريقة التى يتحصل رجال النوبة على أى "هدايا" صغيرة من المسافرين الذين يمرون ببلادهم. كتب يقول : "إنهم ينزلون من نقاط معينة فى جبل "عقبة البنات" ... ويتسولون هدية (من المسافرين العابرين). وإن لم يقبل أحد من المسافرين العابرين لمناطقهم أن يعطيهم شيئا فإنهم يقومون وعلى الفور بجمع كوم من الرمل وتشكيله على هيئة قبر صغير ويضعون على طرفيه حجرين. وبهذا العمل يبلغون (أو بالأحرى يهددون) المسافر الذى يمتنع عن أن يعطيهم شيئا أن "قبره قد جهز" وأن لا أمن له ولا أمان فى هذه البرية الصخرية. يستجيب أغلب المسافرين العابرين للمتسولين، ويؤثرون التبرع بهدية ضئيلة مما يملكون على أن يروا قبورهم تحفر أمام أعينهم."

لم يكن ثمة دليل على أن هنالك أى شيء يدور فى خلد أولئك الرجال من "مقافيل" وهو يرونى ذلك القبر المصغر غير "الدقة العلمية"! قاموا بوضع عصاتين صغيرتين عند طرفى القبر تمثل شاهدى القبر. وبعيدا عن العصاة المغروسة فى الجزء الجنوبى من القبر رسموا برؤوس أصابعهم دائرتين على الأرض، كانت الدائرة القريبة تمثل صحن الماء، بينما تمثل الدائرة الثانية الحبوب. ذكروا لى أن سكب الماء على القبر يستمر لأسبوعين بعد الدفن، ويأتى أقرباء الميت أيضا لسكب الماء على القبر فى أيام عيد الفطر ولقراءة آيات من القرآن، تنمو حبوب الذرة التى ينثرها المشيعون على القبر بفعل الماء المسكوب فى الأيام الأولى التى تعقب الدفن، ثم لا تلبث أن تذبل النبتة، ثم تموت بعد أن ينقطع عنها الماء. يقومون كذلك بوضع جريد النخيل على القبر فى الأعياد.

لرجال حلة "مقافيل" تفسير لوضع الحصى الصغيرة على القبر يختلف قليلا عن التفسير الذى قدمه بيركهاردت فى الدامر. فإنهم يقولون: إن تلك الحصى تستخدم لحساب عدد الصلوات، ليست التى يؤديها الفقيد، بل أقرباؤه. كانت هنالك ١٠٠٠ من الحصى بالتمام والكمال، لا تزيد ولا تنقص. بُعيد مواراة الجثمان الثرى، يقوم المعزون بوضع كل ذلك العدد من الحصى واحدة بعد الأخرى، وبعد كل مرة يكررون شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، بعد ترديد الشهادة للمرة الألف ينصرف المعزون كل إلى حال سبيله. فى صباح يوم العيد يأتى أقرباء الميت إلى القبر ويجلسون حوله على الأرض على شكل دوائر متقاربة يرسمونها على الرمل بأصابعهم، ومع كل دائرة يرسمونها يرددون شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. بعد ذلك يصبون الماء على القبر، ثم ينصرفون.

هنالك عادة أخرى يمارسها النوبيون فى الأعياد، ألا وهى إعطاء الأطفال بعض الذرة وهى على هيئة تشبه الذرة الشامية المتفتقة (الفشار). يعطى كل طفل منديلا واحدا مملوءا بهذه الذرة يأخذه معه حين يزور القبور، يفرش طفل منهم منديله على حصى القبر البيضاء ويتبعه الآخرون، ثم يبدؤون فى أكل تلك الذرة.

وتجبس المرأة النوبية فى دارها أربعين يومًا حدادا على زوجها المتوفي، وفى اليوم الحادى والأربعين تخرج لتزور قبر بعلها تحمل ذرة تقوم بمنحها لمن يتصادف وجوده فى المقابر

صدقة يأكلها قرب قبر زوجها بينما تجلس هى عند القبر وهى تنتحب لعدة دقائق تنصرف بعدها لدارها.

وفى مناطق النوبة الجنوبية وتحديدا فى عمودية دويشات بمشيخة أم بكول وتحديدا فى قرية تنقسى (فى الأصل Engsi المترجم) يقوم الناس أيضا بأخذ حبوب الذرة والقمح للقبور ويتصدقون بها على الأطفال.

ولا تختلف مظاهر العيد فى هذه المنطقة عما سواها من مناطق النوبة ، بيد أن القبور هنا تغطى بجريد النخيل وليس بالحصى الأبيض. وفى هذه المناطق تعلمت شيئا جديدا عن الحصى التى توضع على القبور. أنهم لا يضعونها أبدا على قبور الأطفال ولا يمارسون طقوس وضع بصمات الأصابع على ترابها. السبب فى ذلك هو أن وضع تلك الحصى البيضاء وبصمات الأصابع تعد بمثابة صلوات ودعوات للرحمة والغفران من الخطايا والذنوب، ومعلوم أن ليس للأطفال من خطايا أو ذنوب تستدعى طلب الرحمة والغفران. وكذلك تعلمت أنه فى هذه المنطقة ورغم أنهم قد حافظوا على عملية اختيار ١٠٠٠ من الحصى البيضاء الصغيرة، تمثل كل حصاة واحدة منها دعاءً أو صلاة، إلا أنهم لا يجهرون بالصلاة أو الدعاء أو الشهادة عند وضع الحصى على قبر الميت، ولكنهم يضعونها فى داره التى فارقها (بينما هم يتلون القرآن) فى اليوم السابع لوفاته. ويترك تلك الحصى بدار المتوفى ليومين أو ثلاثة قبل أن تؤخذ للمقابر لتنثر على قبره دون أن يصاحب ذلك الفعل أى تلاوة. وتمارس ذات الطقوس فى مشيخية "ملك الناصر" وقرية "الحواتة" الكائنة بالدويشات عدا أن الأطفال هنا يحملون الذرة للمقابر فى صحون خشبية يبلغ طول قطر الواحد منها نحو ٣٠ بوصة.

وقد تبين لى أن النوبة يقومون بممارسة طقوس عند دفن الميت لا توجد فى بقية العالم الإسلامي، فالنوبيون هنا يختارون حجارة صغيرة (من نوع كوارتز عادة) يقومون بالصلاة فوقها، ثم ينثرونها على الجثمان والقبر. بعد ذلك يصبون الماء على القبر فتنبت أرض القبر نباتا أخضرا، إما بطريق مباشر من حبوب الذرة التى يزرعونها بأيديهم على أرض القبر عقب الدفن، أو بطريق غير مباشر مما يقع من الحبوب التى يعطونها للأطفال كى يأكلوها وهم يتحلقون حول القبر.

وتوجد مثل هذه الطقوس على امتداد شاطئ النيل شمالا أو جنوبا. يمارس النوبيون فى مصر أيضا عادة وضع الحصى على القبور ولكن بصورة أقل كثيرًا مما هو حادث عند نوبيى السودان.

وقد ذكرت الدكتورة جين فيليبس من جامعة هاورد الأمريكية أنها شاهدت مثل تلك العادة تمارس فقط فى "دهمت" بجنوب أسوان، وشاهدت الحصى على بعض (وليس كل) القبور فى "سيالة" على الجبل المقدس المسمى قرني، فسرت الدكتورة جين فيليبس وضع الحصى على القبور بأنه يشبه بما يفعله الحجاج من رمى للجمرات فى عرفات بمكة فى نهاية الحج (لا يخفى على القارئ بالطبع خطل المعلومات الواردة فى تفسير هذه الدكتورة فى أمور الحج. المترجم).

وقد كتبت إميليا إيدوارد التى جابت مناطق النوبة على طول النيل فى عام ١٨٨٨م عن مقبرة تقع فى منطقة دير Derr (وبها معبد بناه رمسيس الثانى وأهداه لإله للشمس، ثم حوله المسيحيون بعد قرون لكنيسة. المترجم) فقالت: إن كل القبور فى تلك الجبانة كانت مسورة بسور صغير من الصخور، وكانت غُفْلا من الأسماء، وقليل منها فقط ما كان فى حالة جيدة، أما البقية فكان الإهمال باديا عليها.

وقد كانت جميع القبور مغطاة بحصى صغيرة مرقشة لامعة، وعند موضع رأس كل ميت فى القبر وضع كوب فخاري، وذكرت إميليا إيدوارد أنها شاهدت الجنائز تحضر لذلك المدفن وينوح الناس حولها ، ويقيمون عزاءً يمتد لأربعين يوما، يحضر أقرباء الميت للقبر كل صباح جمعة ، ويملؤون ذلك الإناء الفخارى الموضوع عند موضع رأس المتوفى بالماء حتى تشرب منه الطيور، صدقة لروحه. لم تذكر أميليا إيدوارد عادة صب الماء على القبر (كما هو مشاهد عند النوبيين السودانيين)، بيد أن بروفيسور أميرى يذكر فى كتابه المعنون "كنز النوبة" هذه العادة عند النوبيين فى مصر ، ويؤكد أن كل النوبة الآن يدينون بالمحمدية بيد أن طقوس الموت والدفن وما يتعلق بهما (مثل وضع الماء والطعام داخل وفوق القبر حيث موضع قدمى الميت) عندهم لا تزال وثنية الطابع لم تتغير منذ قرون سحيقة فى القدم (بحسب موقع أمازون فإن كتاب "كنز النوبة" لمؤلفه والتر براين أميرى صدر فى عام ١٩٤٨م). وأرى أنه من المستبعد أن يضع نوبة مصر الطعام والماء عند

قدمي الميت، وأرجح أنهما يوضعان عند موضع رأسه، ولا أرى ثمة علاقة بين ما يضعه أهل الميت فوق القبر وما يضعونه بداخله كما ذهب إلى ذلك بروفيسور أميرى .

ويذكر بروفيسور أميرى أنه شاهد كثيرًا من نساء النوبة من اللواتى يتلقين العون من المسؤولين البريطانيين يقمن بشراء الخمور الإغريقية الرخيصة من الباعة المتجولين ويسكبنها على قبور أقربائهن! وقد استدرك بروفيسور أميرى وكتب ما نصه : "ولكن يجب القول بأن الرجال كانوا لا يشجعون نساءهم على ذلك الفعل " .

ولاحظ الرحالة بيركهاردت فشو عادة وضع الحصى على القبور فى المناطق التى تقع جنوب أرض النوبة مثل بربر والدامر وأتبرا، وهى مشاهدة أيضا فى قرى الجزيرة (بحسب ما قاله لى الأستاذ مصطفى إبراهيم طه بجامعة الخرطوم)، ولكنهم لا يلتزمون بأن يبلغ عدد الحصى ألفا، ويقومون بحفر القبر وإدخال جثمان الميت داخله ، ثم يهيلون عليه التراب ويبنون بعد ذلك تلا صغيرا من الطين يثرون عليه بعض الحصى البيضاء. بعد ذلك (وحرصا منهم كما يقولون على عدم إهدار وتبديد الماء) يسكبون ما تبقى لهم من الماء الذى استخدم فى عمل الطين على الحصى المتناثر على القبر.

ولا يرى الناس فى الجزيرة حاجة أو سببا معينا لوضع الحصى على القبر ولكنهم يداومون على وضعها ولكن دون أن يصحب ذلك أى دعاء مخصوص.

وقد يحضر بعض الناس عندما يزورون القبور أجزاء مما يفضلون من سور القرآن لتلاوتها عند القبر، ولكنهم لا يحضرون أى نوع من الأطعمة لتناولها فوق القبر كما قد يفعل فى مناطق النوبيين السودانيين. فى سنوات خلت كان أهل الميت يقومون بذبح كبش وتوزيع لحمه للفقراء كصدقة لروح ميتهم، بيد أنهم فى السنوات الأخيرة صاروا يوزعون ملابس الميت عوضا عن اللحم.

(عرض المؤلف بعد هذه المقارنة لمقارنة أخرى بين عادات وطقوس الدفن عند النوبيين السودانيين وعند قبيلة الباري. المترجم)

وربما لا تكون عادة وضع الحصى على قبر الميت عند النوبيين أكثر من تقليد لرمى الجمرات فى عرفة فى مكة، وهى تأكيد على حبهم وإخلاصهم لدينهم. ولكن تبقى حقيقة

أن هذه الممارسة ليست موجودة فى أى منطقة من العالم الإسلامي، وتقتصر على مناطق النوبيين بالسودان والمناطق التى تقع جنوبها على شاطئ النيل، ويندر أن تشاهد عند النوبة فى مصر.

وقد يرى البعض أن لتلك الممارسة صلة بالطعام والحبوب، ولكنها بلا أدنى شك ذات صلة بالماء، وتشبه رمى الجمرات فى عرفات، وتشبه كذلك بعض الممارسات الروحية عند قبيلة البارى النيلية، والتى يتم فيها استدعاء أرواح أجداد الميت للتفاعل مع أحجار الكوارتز من أجل زيادة خصوبة القبيلة.

حياة وعمل قابلة "داية" حبل فى دارفور

رامونا دينك

The Life and Work of a Rope Midwife in Darfur

Ramona Denk

◇◇◇◇◇◇

مقدمة: هذا مقال وقعت عليه مصادفة خلال بحثى عن بعض ما نشر فى الأدب العلمى والطبى والصحى عن/ فى السودان، وهو بقلم قابلة أمريكية أتت للعمل متطوعة كرئيسة لبرنامج "الصحة الإنجابية" فى منظمة تعمل فى مجال العمل الإنسانى بدارفور. وهى كما جاء فى سيرتها شغوفة بأمر تدريب القابلات، ولها موقع فى الشبكة العنكبوتية عن الولادة الآمنة والخالية من الألم. مما ذكرته فى موقعها هذا أن شغفها بالولادة والتوليد بدأ منذ أن شهدت –وهى فى الخامسة عشر من عمرها– ولادة أحد أشقائها.

كتب المقال –كما قد يلاحظ القارئ بأسلوب مبسط فى شكل يحاكى قصص الأطفال، بيد أنه يلخص –وبفعالية– المشاكل الصحية فى المنطقة، خاصة فى أمور "الصحة الإنجابية". نشر المقال فى مجلة " العدد ٨٩ عام ٢٠٠٩ .Today Midwifery

***

هذه حكاية خيالية مركبة عن حياة وعمل قابلة تقليدية متخيلة فى قرية بدارفور. ترتكز الحكاية على عدة مصادر للمعلومات تشمل الخبرة المباشرة والملاحظة والمقابلات الشخصية وأبحاث لآخرين. لم تأت فى الواقع المعلومات الواردة فى هذه المقالة عن التقاليد (الدارفورية) من مكان واحد أو شخص بعينه.

نبذة قصيرة عني:

اسمى هو "محظوظة" وأعمل كقابلة تقليدية فى القرية الصغيرة التى أعيش فيها فى منطقة ريفية بدارفور فى غرب السودان، ذلك القطر الواقع فى شمال شرق القارة الإفريقية.

أنا أرملة ولى سبعة من العيال البالغين (صاروا الآن ستة بعد موت إحدى بناتى فى العام الماضي). أقوم بكفالة أطفالها الثلاثة اللواتى تركتهن لي. أعمل كقابلة بالإضافة لعملى الآخر كمزارعة للدخن والخضروات التى نستهلكها كغذاء لنا فى العائلة. فى السنوات التى كنا ننعم فيها بأمطار غزيرة كنا نزرع ونحصد ما يفيض عن حاجة عائلتنا ونبيعه. أما فى سنوات الجفاف فكنا نعانى ما نعانى ونكتفى بوجبة يومية واحدة فقط. نزرع كذلك نبات الكركدى ونبيعه للحصول على نقود نشترى بها الزيت والشاى والسكر والصابون، معزتان وعدد قليل من الدجاجات هو كل ما نمتلكه الآن من الحيوانات الأليفة، ولكن كان لدينا فى سنوات مضت قطيع كبير من الضأن وبقرات ثلاث نهبت جميعها فى غضون الحرب الأهلية المستعرة إلى يوم الناس هذا، يقوم أحفادى بجمع حطب الحريق للطبخ وبعض الأعشاب لتغذية حمارينا الصبورين، يركب أكبرهم على أحد الحمارين ليملأ أربعة "جراكن" من البئر، وتستغرق رحلته اليومية تلك كامل اليوم إذ إن البئر تبعد كثيرًا عن مكان سكننا.

عشت طويلا ورأيت كثيرا، بيد أن بصرى قد بدأ يضعف مع مرور السنوات، بل لقد فقدت البصر تماما فى إحدى عيني، لا أدرى كم أبلغ من العمر الآن، فليس لدى شهادة ميلاد ، بيد أنى أعلم أن أهلى قد زوجونى وأنا فى سن الطفولة، وربما لم أكن قد أكملت الخامسة عشر من عمري. الآن لبنتين من بناتى حفيدتان.

تدريب القابلة:

أعمل كقابلة أو ما يسمونه محليا "داية حبل" لأن القابلة فى هذا النوع من الممارسة الطبية تطلب من المرأة التى فى حالة المخاض أن تمسك بحبل يتدلى من السقف. بدأت فى ممارسة مهنتى من تلقاء نفسى دون سابق علم أو تدريب أو خبرة. كنت ذات يوم فى الحقل أكد فى عملى حين سمعت صوت امرأة فاجأها المخاض فصارت تصرخ متألمة وتطلب العون. لم يكن معنا أحد ليساعدها، فتذكرت ما فعلته القابلة التى ساعدتنى فى ولاداتى المتعددة وقمت بذات الشيء ووضعت المرأة حملها. هكذا غدوت –وببساطة– قابلة.

أذكر أنه فى سنوات ماضية كانت وزارة الصحة تتولى تدريب عدد من النساء لعدد من

الشهور فى أقرب المدن لقراهن ليصبحن قابلات، وكان بعض من هؤلاء المتدربات يتعثن للتدريب فى "مدرسة القابلات" لمدة تمتد إلى عام ونصف. للأسف لم أحظ بأى من فرص التدريب تلك. فى تلك الأيام كان على كل امرأة ترغب فى العمل كقابلة أن تتدرب فى تلك المدرسة وألا يزيد عمرها عن ثلاثين عاما عند بدء التدريب، وأن لا تكون حاملا أو مرضعا، وتفضل عادة من لها إلمام بالقراءة والكتابة. كل تلك الشروط تستبعد فى الواقع كل من فى القرى من نساء يرغب فى العمل فى تلك المهنة عدا واحدة أو اثنتين فى كل قرية. كانت القابلة المؤهلة الوحيدة فى منطقتنا الشاسعة تسكن على بعد مسيرة ساعتين بالحمار، لذا فقد كان عبء توليد النساء فى قريتنا يقع على كاهلى وحدي. لكم أود أن أتلقى تدريبا فى مهنتي، بيد أنى الآن أبذل –رغم عدم تلقى لأى تدريب– كل ما وسعى لتأدية مهنتى على أكمل وجه ممكن.

تقاليد الزواج وما قبله:

لعل الزواج وإنجاب الأطفال هو غاية ما تتمناه غالب الفتيات فى ثقافتنا، إن رزقت المرأة برحمة عظيمة من خالقها فقد تنجب سبعة أو ثمانية أو خمسة عشر من الأطفال. يتزوج الرجال عادة من بنات أعمامهم أو أخوالهم، وتمثل العائلة الممتدة لنا أمرا بالغ الأهمية. يعدد كثير من الرجال فى الزوجات، ويكمل قليل منهم الأربعة زوجات التى يسمح بها الدين الإسلامي.

يعد شرف العائلة فى أمور الجنس أمرا مهما وقيمة عالية، لذا فإن تزويج الفتيات يتم عادة بعد سنوات قليلة من بدء الحيض الشهرى عندهن، لهذا السبب أيضا نقوم بختان (أو ما نسميه "طهارة") البنات بين سنى الخامسة والثانية عشرة ، يسمى البعض ممارستنا التليدة هذه "تشويه الأعضاء التناسلية". فى كثير من مناطق دارفور لا يتزوج الرجل امرأة غير مختونة ، لأنها فى نظره "غير نظيفة"، وأيضا لأن سلوكها قبل الزواج قد لا يكون منضبطا أخلاقيا.

فى أيام مضت كانت القابلة التى تقوم بعملية الختان تقطع كامل البظر والشفرين مستخدمة الموسى وتخيط جانبى ما تبقى من العضو التناسلى تاركة فقط فتحة صغيرة للتبول وخروج الدم الشهري. كان هذا ضمانا للمرأة من الاعتداء (الجنسي) عليها إلى أن

تتزوج فيقوم بعلها بالدخول عليها بالطريق المعتاد (أو قد يلاقى عنتا فى تلك العملية مما يلجئه لاستخدام آلة ما). ترقد البنت المختونة على ظهرها فى السرير لمدة لا تقل عادة عن أسبوعين كاملين إلى أن تبرأ، وقد تمرض وتصاب بالحمى والهزال والضعف من كثرة الدم الذى فقدته فى العملية مما يؤدى لوفاتها. قامت الحكومة بتحريم إجراء ذلك النوع من الختان قانونا، بيد أن هذا لم يمنع غالب الناس من مواصلة ممارسته، وإن كان بصورة أخف وطأة، تصر والدة الطفلة أو جدتها على عمل الختان حتى لو كان الوالد من المعارضين لإجرائه، تقوم الخاتنة الآن بإزالة البظر فقط أو تخدشه خدشا خفيفا، وفى هذه الحالة تبرأ الطفلة بسرعة فائقة، بينما يطمئن جميع الحاضرين لحفل الختان إلى أن الطفلة قد ختنت بالفعل.

تقاليد الحمل:

تتميز النساء الدارفوريات بالقوة والقدرة على العمل الشاق وتحمل مسؤوليات الأسرة وتربية الأطفال ورعاية حيواناتهم ومزارعهم، تشمل مسؤوليات المرأة الدارفورية أيضا التأكد من أحدًا من أفراد العائلة قد ذهب ليجلب الماء من البئر، والتى قد تكون على بعد ساعات سيرا على ظهر حمار، يساعد الزوج فى بعض الأعمال الشاقة فى المزرعة، ويبدأ الأطفال فى المساعدة فى الزراعة ورعاية الحيوانات عند بلوغهم سن الثالثة أو الرابعة من العمر، تحمل المرأة الدارفورية طفلها خلف ظهرها بعد أن تلفه بقطعة من القماش أثناء عملها فى المزرعة أو غيرها أو عندما تذهب للسوق الأسبوعي.

تظل المرأة الدارفورية الحامل تعمل بصورة عادية إلى أن تحين ساعة وضعها لحملها. عادة ما ننصح المرأة الحامل ألا تنام طويلا وألا تقلل من ساعات نومها أيضا. ننصح المرأة الحامل كذلك بعدم تناول البيض لأنه يسبب لها التورم.

إن حملت المرأة وهى ترضع صغيرا لها فيجب عليها التوقف عن الإرضاع فورًا وأن تفطم صغيرها لما يسببه الحمل من ضرر على رضيعها.

تذهب بعض النساء الحوامل إلى عيادة النساء فى مدينة قريبة. هنالك يعطونها حبوب حديد مجانية وبعض الأدوية الأخرى التى قد تحتاجها، وعند قرب موعد ولادتها قد يصرفون لها — إن كان متوفرا — طقما للولادة فى المنزل (Homebirth delivery kit)

يحتوى على أشياء مثل قطعة فرش بلاستيكية وموسى وخيوط لربط الحبل السرى وقطعة صابون صحي. لا أقوم عادة بالكشف الدورى على النساء الحمل إلا حين يطلب منى تقدير شهر الحمل عند سيدة ما، أو معرفة وضع الجنين عندما تكون الحامل فى شهرها التاسع.

تنظيم الأسرة والاجهاض:

تتعاطى نساء المدن أحيانا حبوبا لمنع الحمل لفترات محددة. لا علم لنا بتوفر مثل هذه الحبوب، ولا حاجة لنسائنا بها على أيه حال إذ إنهن يرغب فى مزيد من الأطفال بحسب مشيئة خالقهن، ربما تحمل فتاة قبل زواجها بسبب نزوة عابرة وطيش شباب من خطيبها، أو تحمل سفاحا من أحد "الجنجويد" وهى تجمع الحطب من خلاء السافانا، وربما تحمل امرأة وزوجها غائب فى مدينة أخرى. فى كل تلك الحالات، وبسبب "العار" الذى قد يلحق بسمعة العائلة تحاول الحامل إسقاط ذلك الحمل بأية وسيلة. شاع بين النساء أن شرب محلول الغسيل الأزرق أو الحقن الوريدى لأدوية الملاريا أو تناول عدد كبير من حبوب الأسبرين، قد تنجح فى إسقاط الجنين، قد تحاول أخرى أن تقوم بعمل يدوى أو مجهود عضلى عنيف مثل الجرى لإسقاط الجنين، أحيانا تقوم القابلة التقليدية بإدخال جسم غريب فى داخل جهاز الحامل التناسلى مثل قسطرة بولية مستعملة أو أنبوبة بلاستكية من النوع الذى يدخل فى الأوعية الدموية أو حتى فرع شجرة صغير، وقد تدخل بعض الأعشاب أو الحبوب النباتية فى رحم الحامل.

تقاليد المخاض والولادة:

عندما يحين موعد وضع امرأة لحملها تأتينى إحدى أفراد عائلتها لتأخذنى لبيت الحامل، ويأتى لذلك البيت عدد كبير من الأهل والجيران لشهود الحدث أو للتعبير عن التضامن والمساندة. عادة ما تكون هذه فرصة مواتية لتدريب النساء على تقاليدنا. فى ثقافتنا لا تبدى المرأة الكثير من الجزع والصراخ عند المخاض، وتجاهد كى تبدو صبورة متماسكة. أقوم بتعليق حبل فى سقف القطية حتى تجد المرأة شيئا تمسك به عندما تجثو على ركبتيها فى أثناء عملية التوليد. يفضل الناس استدعاء "قابلة حبل" تقليدية حتى فى القرى التى توجد بها قابلات مدربات، وذلك لأن القابلة العصرية المدربة تقوم بتوليد المرأة

وهى مستلقية على ظهرها، وشاع بين النساء أن ذلك يترك حفرة (أو فراغا) فى الظهر! من طرق عمل القابلة التقليدية المهمة هو أنها تقوم بتكرار المسح بيدها اليمنى ، ثم اليسرى (بالتتابع) على ظهر المرأة حتى تصل لعضوها التناسلى فى المقدمة. يعتقد أن هذا المسح يعجل بإخراج الجنين من رحم أمه. عندما يظهر رأس المولود أقوم بفتح موضع ختان المرأة على الجانبين بالموس. بعد خروج الجنين تضم المرأة ساقيها وأضع بعضا من ملح الطعام على الموضع لأعجل ببرء الجرح. عادة ما تقوم القابلة المدربة بخياطة الجرح.

عند خروج المولود أمسك به وأعطيه لوالدته ، ثم آخذه منها مرة أخرى، ثم أعيده لها تارة أخرى وأكرر ذلك ثلاث مرات عندما يكون المولود ذكرا وأربع مرات عندما تكون أنثى.

تقاليد ما بعد الولادة

بعد الولادة يتقاطر كل الأهل والجيران على بيت المرأة لتهنئتها وزوجها بالمولود. تظل النفساء فى البيت لا تغادره أربعين يوميا، ولا تفعل شيئا غير الاستلقاء على السرير وإطعام مولودها، بينما يقوم على خدمة بيتها فى أيام النفاس هذه بعضا من أقربائها. عند قيامى بتوليد واحدة من النساء أظل بجانبها لعدة أيام من أجل تقديم العون والنصح، نعتنى بغذاء النفساء فنسقيها مديدة دخن ولبن به كثير من السكر، عند إكمال المولود الأسبوع الأول من حياته تقام وليمة يشهدها الأهل والجيران احتفالا بتسمية المولود.

لا أطالب بأى مبلغ محدد من المال نظير خدماتي، ولكننى أتلقى من أفراد العائلة عادة هدايا تشمل النقود والطعام أو غير ذلك. أوقن أننى سألقى الجزاء الوافى يوم الحساب نظير ما أقوم به من عمل خير، لذا لا ألقى بالا لأمر النقود والهدايا.

مضاعفات الولادة:

إن لدينا طرقنا التقليدية للتعامل مع المشاكل التى قد تطرأ فى أثناء الحمل أو النفاس. إذا كان وضع الجنين معكوسا أو سيئا (مثل أن يأتى بعجيزته أو قدميه أولا وليس برأسه breech) فعادة ما يمسك عدد من الحضور بالمرأة من قدميها رأسا على عقب ويهزونها هزاء، ولعلاج الحمى قد يذهب الزوج أو من يوفده للعيادة لجلب حقن بنسلين. إذا لم

يتنفس المولود حديثا فيمكن أن تدخل حقنة (من غير إبرة) فى فتحة أنفه ويسحب منها الهواء، وإذا أصيبت النفساء بنزف أو تورم فالعلاج هو كى جبهتها.

يأمرنى الأطباء والممرضون بأن أرسل أو أحضر لأقرب مستشفى كل من تتعسر ولادتها أو تصاب بمضاعفات، وأن تحضر مولودها أيضا، وضربوا لى مثلا بحالات النزف الشديد، أو إذا تأخر المخاض كثيرًا أو إذا لم يخرج المولود بعد أن تتمزق الأغشية ويسيل داؤها، أو إن كانت حالة المولود سيئة أو وضعه لا يساعد على خروجه من أمه. أحاول بقدر الإمكان أن أفعل ذلك لكن الأمر ليس بهذه البساطة. تدلل القصة التالية على صدق ما أقول.

قصة نقل (متعسر)

أصيبت "فاطنة"، تلك السيدة التى تسكن فى قرية تجاور قريتنا، بحمى شديدة فى العام الماضي. حدث ذلك بعد أربعة أو خمسة أيام من وضعها لمولودها. قامت بتوليدها والدة زوجها، إذ إن تلك الولادة أتت بغتة ولم يكن بالإمكان انتظارى حتى آتى لتوليدها. فكرت فى أن تلك الحمى قد تكون بسبب الملاريا، فالموسم كان موسم الأمطار. أعطيتها حبوبا لعلاج الملاريا، لكن حالتها زادت سوءا، فطلبت من زوجها أن يأخذها للمستشفى فى المدينة. رفض فى البدء فعل ذلك فهو رجل فقير وليس لديه ما يدفعه نظير نقل زوجته للمدينة. كذلك كانت كل العائلة منشغلة بالحصاد، وليس بمقدورها التخلى عن فرد من أفرادها ليقيم بالمستشفى بقرب "فاطنة". أقنعته فى نهاية المطاف أن الأمر مهم جدًا فاقتنع بالذهاب. ركب حماره وذهب لقرية أخرى بها رجل يمتلك شاحنة نقل "بيك آب" قديمة. لم يجده فى داره، فقد خرج الرجل للزراعة فى حقل بعيد، فأرسل فى طلبه أحد أولاد القرية. عندما وصل صاحب العربة وزوج النفساء المريضة للقرية لأخذ "فاطنة" للمدينة حيث المستشفى كانت الشمس قد غربت وحل الظلام. لم يوافق صاحب شاحنة النقل على أخذ "فاطنة" فالطرق غير آمنة وعصابات النهب المسلح فى كل مكان. وفوق هذا وذاك فقد كانت مصابيح سيارته لا تعمل!

فى الصباح بدأنا سيرنا نحو المستشفى. ركب زوج "فاطنة" وجار له فى المقدمة مع السائق، بينما ركبت مع "فاطنة" وأمها وأختها فى الخلف بعد أن غطينا "فاطنة" بعدد من

البطانيات. أحضر أقرباء "فاطنة" لها بعض التمائم والتعاويذ و"حجاب" به آيات قرآنية خطها شيخ فى القرية وضعوه حول عنق "فاطنة" طلبا للحماية والسلامة. تركنا المولود فى رعاية امرأة فى القرية تعهدت بإرضاعه. عادة ما تستغرق الرحلة عبر الطريق الرملى فى الصحراء ساعة كاملة بيد أن الرحلة إستغرقت هذه المرة ثلاث ساعات وذلك لأن أحد الإطارات انفجر ولزم تغييره، وكذلك لأن إطارات السيارة ، علقت فى الوحل الذى خلفته الأمطار.

طالب صاحب الشاحنة زوج "فاطنة" بدفع ٦٠٠ جنيه سودانى (تعادل ٣٠٠ دولار أمريكى فى الوقت الذى تتحدث عنه هذه الكاتبة. المترجم) نظير تلك الرحلة، بيد أن الزوج نجح فى تقليل المبلغ إلى ٥٠٠ جنيه. فى العادة يطالب السائقون بمبلغ لا يتجاوز ٣٠٠ جنيه فى موسم الجفاف، ويزيدون المبلغ فى موسم الأمطار. وافق السائق بعد لأى على قبول ١٠٠ جنيه تدفع فورا على أن يسدد الزوج بقية المبلغ حين يتمكن من جمعه من تبرعات أفراد عائلته وجيرانه. لفاطنة أخ يعمل فى مجال البناء فى المدينة ويحصل على ٢٦٠ جنيها شهريا وفى استطاعته تقديم بعض العون.

فى العيادة قرر مساعد الطبيب أن "فاطنة" مصابة بعدوى فأعطاها مضادا حيويا بالوريد، وأخرج منها دما متجلطا متعفنا ، ونصح الزوج بأخذها لمستشفى المدينة فحالتها الصحية العامة كما قال سيئة جدًا ، وهى مصابة بفقر شديد فى الدم. وافق صاحب الشاحنة على أخذنا للمدينة والتى بها المستشفى الوحيد فى كامل الولاية المتخصص فى أمراض النساء والتوليد. عاتبنا الطبيب بعنف على تأخرنا فى الوصول للمستشفى بعد أن قرر لها العلاج اللازم عن طريق الوريد. فارقت "فاطنة" الحياة فى منتصف الليل. أحيانا تصيبنا الأقدار بكوارث عنيفة، لكن علينا الرضا والقبول التام بما هو مقدر علينا.

أنا شاكرة ومقدرة لمعظم النساء الذين قمت بخدمتهن وسهرت من أجل راحتهن، وللأطفال الذين يسعدنى أن أراهم فى تمام الصحة والعافية. ليس لدى أدوات طبية متقدمة ولا قفازات مثل تلك التى تستخدمها القابلات المدربات، لكنى لدى قلب وعقل وشجاعة وخبرة ويدان مدربتان على العمل منذ سنوات طويلة مضت.

قلاقل فى دارفور

Trouble in Darfur

من فصل فى كتاب "المحاربون السودانيون

"The Fighting Sudanese"

H. C. Jacksonهـ. س. جاكسون

◇◇◇◇◇◇

مقدمة: هذا تلخيص لما ورد فى فصل بعنوان "قلاقل فى دارفور" فى كتاب صغير الحجم عنوانه "المحاربون السودانيون" صدر عام ١٩٥٤م عن دار نشر ماكميلان بلندن لمؤلفه ها. س. جاكسون، الذى عمل فى السلك الإدارى فى دولة الحكم الثنائى لخمسة وعشرين عاما متصلة فى بربر وحلفا ومدنى وغيرها من مدن السودان.

يشيد الكتاب بالسودانيين كشعب محارب شجاع، ويذكر طرفا مما شهده من حروبهم، وأهدى لهم كتابه هذا بقوله: "إلى شعب السودان، والذين خدموا بإخلاص وحاربوا بشجاعة من أجل حرية البشرية". ونشر المؤلف أيضا كتبا أخرى عديدة عن السودان منها "عثمان دقنة" و"السودان: أيام وعادات" و"الزبير باشا السلطان تاجر الرقيق" و"السودان الحديث" ومقالات متنوعة منها مقال شهير عن الأمثال السودانية سبق لنا ترجمته. المترجم

****

انطلقت فى نهاية أغسطس عام ١٩٢١م إشاعة غامضة فى أوساط رجال القبائل حول مدينة نيالا بقرب حدوث قلاقل فى المنطقة. وفى الخامس من سبتمبر وصلت لأسماع السيد/ تنينت ماكنيل باشمفتش المديرية أنباء عن تزعم الفكى عبد الله ود السحينى لقوة كانت تنوى مهاجمة مدينة نيالا، والتى هى من أقصى النقاط الإدارية فى السودان، فهى تبعد نحو ١٢٠ ميلا جنوب الفاشر (عاصمة مديرية دارفور)، ويفصلها عن الأبيض (آخر مدينة تصلها السكة حديد فى غرب البلاد) منطقة شبه صحراوية طولها ٣٩٦ ميلا،

وتبعد الأبيض عن الخرطوم مسافة قدرها ٤٢٨ ميلا.

كانت دارفور هى آخر المديريات التى ضمت لدولة الحكم الثنائى (المصرى – البريطاني)، إذ إن الحكم الجديد بعد تسنمه لسدة الحكم فى عام ١٨٩٨م كان قد سمح لعلى دينار بحكم دارفور مقابل دفعه لجزية رمزية. إلا أن على دينار استجاب فى عام ١٩١٦م لإغراءات ومداهنات الألمان والأتراك وتخلى عن حلفه مع الحكم الثنائي، والذى لم يتردد فى الإطاحة بحكمه فى حملة قصيرة لكنها ناجزة، ومن بعد ذلك ضمت دارفور لدولة الحكم الثنائى بصورة تدريجية. وأثار هذا الضم بالطبع بعض المشاعر العدائية عند كثير من الدارفوريين الذين ساءهم أن تحرمهم الحكومة من فرص سابقة كانوا يزدادون بسببها ثراءً على حساب جيرانهم.

كان يقطن فى نيالا أناس من أعراق مختلفة، ولا يجمع بينهم غير كرههم لأى سلطة تفرض عليهم من قبل حكومة مسيحية. ومما زاد الطين بلة وصعب من مهمة الحفاظ على الأمن والنظام هو نقص عدد الموظفين الحكوميين فى كل المجالات بنيالا. فقد كان من المتعذر على المفتش البريطانى زيارة كل المناطق البعيدة الواقعة تحت سلطته بالتواتر المطلوب، وكان غيابه عن تلك المناطق البعيدة –كما تبين لاحقا– يشجع البعض، وبصورة متزايدة، على القيام بانتهاكات وفظائع. وكان بعض الشيوخ والعمد ممن أوكلت إليهم مهمة تقدير وجمع الضرائب والعوائد يأكلون أموال المواطنين بالباطل. وكان كثير منهم يحذو حذو من سبقهم من المصريين والأتراك فى استخدام وسائل غير إنسانية فى جمع الضرائب، بل وقاموا بتقييد وضرب بعض زعماء القبائل البارزين وجلدهم بالسياط علنا من أجل ابتزاز مزيدا من الأموال منهم. وكما كان الحال فى عهد التركية، كان بعضا من هؤلاء يستغلون بعض نساء القرى التى كانوا يجمعون منها الضرائب. وبهذا تنامت المظالم الاقتصادية والسياسية عند الأهالى واختلطت بمشاعر التعصب الدينى فخلقت مزيجا خطيرا شديد الانفجار.

وعندما سمع السيد/ تنينت ماكنيل باشمفتش المديرية بأنباء تلك القلاقل لم يجد أمامه سوى خيارات أحلاها مر. فقد كان يمكن له أن يفترض أن تلك الأنباء كاذبة أو مبالغ فيها، وأن لا يفعل شيئا البتة وينتظر إلى أن تتضح صورة الموقف ويحصل على مزيد من

المعلومات. غير أن ذلك التأخير قد يجعل من فعل أى شيء لاحقا أمرًا مستحيلا. وكان يمكن أيضا للباش مفتش أن يرسل طلبا لتعزيزات عسكرية، بيد أن ذلك كان سيهزّ الثقة فى سلطاته الإدارية إن ثبت خطل تلك الأنباء عن تمرد ذلك الفكي، لا سيما وأن الثقة فى النظام الإدارى كانت ترتكز على هيبة (prestige) المسؤول البريطانى المنعزل الوحيد الذى تسنده قوة غامضة على بعد أميال وأميال.

قرر السيد/ تنينت ماكنيل ألا يتسرع فى طلب مدد عسكرى حتى يتيقن من عدم إمكانية العثور على حل آخر ممكن. كان يدرك أن الفكيا Fekis (جمع فكي) ظلوا دوما مصدر كل القلاقل وحالات التمرد فى السودان، بيد أن كثيرًا من تلك الحالات لم تكن تسبب غير إزعاج مؤقت للسلطات ليس له من كبير تأثير أو خطر. فقد كانت طلقة نارية واحدة من بندقية شرطى فى اللحم كفيلة بأن تثبت بأن طلقات الحكومة النارية لن تستحيل ماءً كما كان الفكى يعد أتباعه، وكانت تلك الطلقة النارية تنجح دوما فى تفريق الجموع. هل سيصدق هذا السيناريو فى هذه المرة يا ترى؟ صعب على السيد/ تنينت ماكنيل أن يبت فى الأمر، فقد كان رجلًا مريضا وفى حاجة عاجلة لاستراحة طويلة، وكان مسؤولا فى منطقة تبعد حوالى مائة ميل من أقرب مكان به رجل أبيض، وبذا لم تكن لديه الفرصة لمشاورة أى إنسان من بنى جلدته. ولعل الرجل قد أعتقد بأن مرضه قد يؤثر سلبا على مقدرته على الحكم على الأشياء ويضخم له من المشكلة التى تجابهه. ولم يتضح إلا بعد ذلك التاريخ بكثير أن الفكى عبد الله ود السحينى كان مثالا نموذجيا للقائد المتعصب دينيا والذى كان قد أفلح فى إقناع أعداد كبيرة من التبع الجهلاء بأنه مجدد للدين، وبامتلاكه لقدرات هائلة معجزة. وكان بعض من مريديه يزعمون أنهم قد سمعوا بآذانهم طبول الجنة تدق فوق رأسه، وبأن ثمانية من النسور البيضاء تهبط من السماء وتحرسه من الأمام ومن الخلف حين يقوم بفرش فروته على الأرض، وبأنه إن غرز حربته العريضة فى أرض ما، فلن يكون بمقدور كائن من كان أن ينزعها عنها، وبأن له القدرة على تحويل طلقات رصاص الحكومة النارى إلى ماء لا يضر. وكان ذلك الفكى قد قام بعمل استعراض لبعض "معجزاته" أمام بعض أتباعه بعد أن استبدل سرا الرصاص الذى كان محشوا فى طلقة نارية وملأها بالماء، وأطلق الرصاص فسال الماء أمام أعين المريدين

فازدادوا به إيمانا!

سمع السيد/ تنينت ماكنيل بقرب حدوث الهجوم على نيالا فأرسل العيون لمحاولة معرفة تحركات الفكى المتمرد ونواياه. وأثبتت الأيام لاحقا بأن أولئك البصاصين لم يكونوا مخلصين أو مجيدين فى عملهم. وفى يوم ١٧ من سبتمبر قرر السيد/ تنينت ماكنيل أن الفكى عبد الله عاقد العزم على الهجوم على نيالا فأرسل رسولا إلى الفاشر يحمله رسالة مفادها أن هنالك رجلًا اسمه عبد الله قد أعلن الجهاد ضد الحكومة، وأنه يزعم أنه "النبى عيسى"، وأن له ٢٠٠ من الأتباع، وأكد لمدير المديرية أنه بصدد القبض على ذلك الفكى المتمرد. وتبين فيما بعد أن السيد/ تنينت ماكنيل كان يجهل فى الواقع العدد الحقيقى لأتباع ذلك النبى المزعوم.

بعد ثلاثة أيام على بعثه لتلك الرسالة جاءه من يبلغه بأن نيالا ستهاجم فى تلك الليلة فأصدر أوامره لمن تحته من رجال الشرطة وحرس السجون (ولم يكن عددهم يزيد على الأربعين رجلا) بالاستعداد، وصرف للموظفين السبعة العاملين فى إدارة محطته (مثل القاضي وعامل البناء والحلاق وغيرهم من العاملين) بنادق صغيرة (carbines) وذخيرة إضافية. وقام أيضا بتزويد التجار ببنادق عتيقة كانت قد غنمت من جيش على دينار فى عام ١٩١٦م وذلك لحماية ممتلكاتهم فى سوق المدينة.

وبحلول الساعة الثامنة من ليل ذلك اليوم كان الجميع فى أقصى حالات الحذر والترقب والاستعداد لهجوم ذلك الفكى المرتقب. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، ومرت تلك الليلة بسلام. وفى صبيحة اليوم التالى انشغل الجميع بحفر خندق حول المدينة لمنع دخول المتمردين القادمين على ظهور الخيل، وقاموا أيضا بوضع أسلاك شائكة كثيفة على بعد ثلاثين ياردة من مكاتب الحكومة حماية وتأمينا لها، إلا أنه سرعان ما تكشف ضعف تلك التحصينات عندما قام حصان شرطة هائج بالاندفاع نحو السلك الشائك واختراقه لحظة الانتهاء من نصبه!

ظل الجميع فى حالة من القلق والتوتر والتوجس لأربعة أيام بلياليها وهم ينتظرون الهجوم المحتمل إلى أن قدم أحد بصاصى الحكومة وجواسيسها يوم ٢٤ من سبتمبر وأعلن أن الفكى عبد الله وجنده على بعد مسيرة يوم ونصف من نيالا، أى أنهم

سيهاجمون نيالا فى ليل السادس والعشرين. وهنا دعنا نترك أمر تلك الحامية الصغيرة المؤلفة من نحو خمسين رجلًا تنتظر هجوما كاسحا من جيش قدره بعضهم من فرط القلق والتخوف والرعب بعشرة آلاف مقاتل متمرد، ولنذهب لمعرفة ما حدث للرسل الذين بعث بهم السيد/ تنينت ماكنيل إلى الفاشر لإبلاغ المسؤولين هنالك بأنباء ذلك الغزو المحتمل.

فى ١٧ من سبتمبر غادر المندوب الأول الذى بعثه مفتش نيالا إلى الفاشر مدينته حاملا أنباء التمرد، وقطع المسافة بين نيالا والفاشر والبالغة ١٢٠ ميلا فى المدة المعتادة وهى خمسة أيام.

وعلى الرغم من أن السيد ماكنيل مفتش نيالا لم يطلب عونا عسكريا، إلا أن السيد نكولوس نائب مدير مديرية دارفور أحس بأن الأخبار الواردة من نيالا خطيرة بما فيه الكفاية وأن عليه إرسال تعزيزات عسكرية لنيالا.

وعلى الفور أمر بأن تغادر الفاشر قافلة مكونة من أربعة وستين جنديا من فيلق عرب الغرب (Western Arab Corps) عند الساعة الثالثة من صباح يوم ٢٣ من سبتمبر وأعطيت لها أوامر صارمة بأن تكون فى نيالا فى أو قبل يوم ٢٨ من سبتمبر.

وتصادف أن كان الضابطان البريطانيان الوحيدان فى الفاشر مريضين فتولى القيادة ضابط سودانى هو النقيب بلال أفندى رزق، فى رفقة ضابط سودانى آخر هو ملازم ثانٍ سعد أفندى عمر كنائب له.

وفى غضون الأيام القليلة التالية بعث السيد ماكنيل من نيالا بخمس رسائل إضافية وصلت إحداها للفاشر فى يومين فقط.

وكان واضحا أن السيد ماكنيل كان فى حالة كرب شديد وخطر عظيم. فقد جاء فى رسالته ما يلى : "لقد حصنت مبانى المركز ونصبت أسلاكا شائكة حولها. وإلى الآن لم أتبين حقيقة الفكى السحينى أو أتلقى أى معلومات عنه. يبدو الأمر غريبا الآن، وأخشى أن تكون هنالك مؤامرة شاملة، وأن الأهالى بالمدينة والذين يدعون أنهم سيحاربون بكل ما لديهم من قوة على علم مسبق بهذه المؤامرة ... لدى الآن خطاب بعث به إلى الناظر أبو

الحميرا مع مندوبين يفيد بأن لهذا الفكى عددًا كبيرًا من الأتباع، وسمعت من المندوبين أن للرجل نحو ثمانمائة أو تسعمائة من الجنود. ولدى شعور عميق بأن هؤلاء المندوبين من الخونة، بيد أنى أصدق تقديرهما لعدد أتباع الفكي. حسنٌ... إن كان عدد هؤلاء كما زعم هذان الرسولان فسوف تكون أمامنا معركة حامية الوطيس. إن سمعة الدارفوريين أمام نيران البنادق ليست حسنة، وسنذيقهم إياها نارا لهبا، وليس أمامهم من سبيل غير إضرام أسقف بيوت المركز، ولكننا سنصمد حتى النهاية..... آسف جدًا لأننى أشعر الآن بالاكتئاب، ولكن يجب ألا تقلقوا علينا، وأن تدركوا أن كل فرد منا هنا سيفعل أقصى ما فى وسعه.... وإن بعثتم لنا بتعزيزات فستجرى الأمور على ما يرام."

وبدأت فرقة المشاة المحمولة سيرها ببطء نسبي، وقبل أن تقطع مسافة طويلة قابلت أحد رسل السيد ماكنيل وهو يحمل للمسؤولين فى الفاشر رسالة مكتوبة باللغة الإنجليزية لم يستطع أحد قراءة كلمة واحدة منها.

ولكن خمن النقيب بلال أفندى رزق، وبعد أن رأى بعض الكلمات مكتوبة بالقلم الأحمر على ظرف الخطاب، أن الأمر جد خطير فجد فى السير.

وعند منتصف الليل، وبعد أن كان الجنود قد ساروا ثمانى ساعات، توقفوا لأخذ استراحة قصيرة، ولكن سرعان ما جاءهم مندوب يحمل رسالة إلى النقيب بلال أفندى رزق تنبئه بأن الحالة فى نيالا حرجة جدا، وأن عليه أن يصلها ليلة الأحد أو قبلها.

وهب الجنود من فورهم عقب سماعهم لفحوى تلك الرسالة لمواصلة مسيرتهم القاصدة نيالا دون توقف ولم يضيعوا دقيقة واحدة إلا لتناول لقيمات، ولإطعام خيولهم وسقياها.

وفى العاشرة من مساء يوم السبت وصلت فرقة الجنود إلى منواشى وحينها لم تعد البغال التى كانت تحمل المؤن قادرة على مواصلة السير، ولم يكن هنالك من بد من إنزال ما عليها من أثقال، ووضعت على قليل من تلك البغال الذخيرة وملابس الضباط.

وواصل بعد ذلك الجند مسيرتهم وهم يرددون الأهازيج الحماسية فى روح معنوية عالية وفى شوق عارم لخوض المعركة المنتظرة. وعند الثالثة صباحا من يوم الأحد لاحت لهم من بعيد معالم نيالا، والتى وصلوها بعد ٤٨ ساعة من تحركهم من الفاشر، ودون أى

خسارة فى الرجال أو الخيول.

وفى الفاشر، وبعد مغادرة تلك الفرقة لها بساعات قليلة آب الرائد شون (وهو من الفيلق البيطرى الملكي) إلى مطعم الضباط بعد يوم طويل قضاه فى صيد البقر الوحشي.

وعندما سمع بأنباء القلاقل فى نيالا تطوع من فوره للذهاب لنيالا، حيث إنه كان قد وعد زميلا له بزيارة السيد ماكنيل فى نيالا فى أقرب فرصة تتاح له.

كان الرائد شون يدرك مقدار الأخطار التى قد يتعرض لها فى نيالا، بيد أنه لم يلق لها بالا وقام بتوديع الرقيب الذى يعمل معه وهو يقول : "من الممكن ألا أعود ثانية... فلا تبتئس!".

بدأ الرائد شون رحلته فى رفقة رجل شرطة وخادمين عند منتصف الليل، وقطع فى اثنتين وعشرين ساعة مسافة قدرها اثنان وسبعون ميلا قبل أن تنهار الجمال التى كانت تحمل الأمتعة.

عندها أركب شون خادميه على جمل واحد، ومضى مواصلا الرحلة الطويلة إلى أن انهارت قوى حصان رجل الشرطة الذى كان يرافقه، وبدأ حصانه هو فى العرج.

لم يثنه كل ذلك فمضى فى سيره مشيا بالأقدام تحت حر قائظ حتى وصل نيالا قبيل الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين ٢٦ من سبتمبر بعد رحلة عسيرة استمرت دون انقطاع ستين ساعة كاملة.

دلف إلى المدينة من الناحية الشمالية الشرقية فوجدها مهجورة خاوية على عروشها، إلا أنه وجد على الأرض بعض قصاصات من أوراق مكتوب عليها: "لا تخافوا... هذه التعويذة (البخرات) ستحيل رصاص الحكومة إلى ماء" مما أكد له أن العدو كان قد حل بهذه المنطقة. سار شون نحو مبنى المركز حيث وجد السيد ماكنيل، وأفراد فرقة المشاة المحمولة ورجال الشرطة وبعض الكتبة والتجار، وكلهم فى حالة من اليقظة والحذر والاستعداد لصد الهجوم المرتقب.

***

تقع نيالا على الخط الذى يفصل شمال السودان القاحل عن جنوبه الوافر الخضرة.

وتعد تربتها الرملية الحصبائية امتدادا للظروف المناخية التى سادت المنطقة، إلا أن وجود أشجار الأكاسيا الصغيرة ومجموعات أشجار الدوم والتبلدى الضخمة تبين أن المياه الجوفية ليست غورًا تحت الأرض، وعادة ما تهطل فى فصل الصيف أمطار

تكفى لجنى محصول وافر من الذرة والدخن والسمسم يسد حاجة سكان لا يقومون بكثير من الأنشطة البدنية.

وعلى بعد مائة وألف ياردة إلى الجنوب من مبنى المركز يوجد خور لا تجرى فيه المياه إلا عقب هطول أمطار غزيرة، بينما تحيط بالمكان من جهتى الغرب والجنوب أشجار اللعوت الكثيفة.

وأما من جهة الشرق فتوجد مساحة خالية مفتوحة ليس فيها غير بعض قطاطى الأهالى وشجرة تبلدى ضخمة (ستبين لاحقا أهميتها فى المعركة التى دارت بالمكان). وإلى الشمال يقع السوق، والذى بعث له ملازم ثانٍ سعد أفندى عمر مع خمسة عشر من الرجال من أفراد فرقة المشاة المحمولة.

قديبدو للوهلة الأولى أن تشتيت قوة صغيرة كهذه ليس من الحكمة فى شيء، ولكن – وكما أثبتت الأحداث لاحقا – فقد أنقذ ذلك التحرك الموقف فى ذلك اليوم.

لم تكنْ لنيالا فى أيام التمرد تلك أى نوع من الدفاعات، إذ لم تكن فى أى مبنى فيها حلقات تحصين، وكانت أسقفها من القش اليابس والذى يسهل إضرام النار فيه.

ولا يوجد فى السودان قاطبة إلا فيما ندر أى مبنى يمكن أن نطلق عليه بحق اسم "قلعة"، وحتى عند وجود هذه "القلعة" فهى فى حقيقة الأمر لا تعدو أن تكون زريبة من نبات شوكى يحيط بمعسكر حربي.

وكانت سياسة الحكومة تعتمد على الدخول المسالم (الناعم) لضابط أو موظف مدنى يطوف مع رجل أو رجلين من الجيش أو الشرطة. ولم تكن القوة العسكرية تستخدم إلا عندما تثور قبيلة جامحة (wild) وتتحدى السلطات أو تغير على جيرانها وتنهب أبقارها وعبيدها كما كان يفعل كثيرًا منهم فى الأيام الخوالي.

كانت نيالا مدينة تصعب السيطرة عليها، إذ لم يكن فيها ما يعرف عند العسكريين

بـ(field offire) فعند الخور فى جهة الجنوب يمكن لجند العدو أن يحتشدوا دون أن نراهم، ولا يمكن لنا رؤيتهم وهم على بعد سبعمائة ياردة إلا بعد أن يعبروا بسلام التلال الرملية. ولا يمكن لمن وضعناهم من جنود الاستطلاع على سقف السجن أن يعلموا شيئا عن تحركات العدو إلا بعد أن يكون على بعد أربعمائة ياردة فقط منا.

وبعد عشرين دقيقة من وصول الرائد شون ثار النقع وغطت موجة عاتية من الغبار المكان معلنة عن بدء المعركة المنتظرة، وتعالت صيحات الدراويش وطبولهم وهم يرددون: "الدين منصور...منصور الدين....نجاهد فى سبيل الله" ويندفعون للقاء جنود الحكومة. وكان ملازم ثانى سعد أفندى عمر مع خمسة عشر من جنوده يحرسون منطقة السوق فى شمال شرق المدينة، بينما تمركز فى جهة الغرب نحو ثلاثمائة وأربعمائة جندى من "قوات صديقة" كانوا (وباستثناء قوات سلطان كبكيبه) لا يعتمد عليهم. كان السيد ماكنيل قد صرف لهؤلاء الجند شارات حمراء ليميزهم عن قوات الفكى المهاجمة، إلا أن معظمهم أطلق ساقيه للريح لحظة المعركة، بينما نزع آخرون شاراتهم الحمراء وانضموا للمتمردين.

وفى مبنى المركز نفسه بقى السيد ماكنيل والرائد شون مع أربعين من المدنيين وحرس السجون بقيادة الملازم أول حسن محمد الزين مسلحين بالبنادق الصغيرة، وخمسين من رجال فيلق عرب الغرب بقيادة النقيب بلال أفندى رزق.

كان المتمردون يحملون الحراب والسيوف العريضة ويتقدمون على ثلاثة محاور وتحت رايات تسع نسج أو كتب على كل منها آيات قرآنية.، بينما أتى الفكى عبد الله السحينى مع مائتين إلى ثلاثمائة من الخيالة وتقدموا شرقا حتى يقطعوا الطريق على كل من يضطر للانسحاب والتراجع للفاشر. تقدم بعض المتمردين شمالا نحو قطاطى الأهالى فأضرموا فيها النيران.

وفى هذه العملية فقد المتمردون المئات من رجالهم، وكانت خسائرهم ستكون أفدح لولا خشية ملازم ثانٍ سعد أفندى عمر من أن تصيب نيرانه بالخطأ من هم بالمركز. كذلك أفلح سلطان كبكيبه فى صد المعتدين من جهة الغرب. ولكن كانت الكثرة هى الغالبة فتدفق المتمردون عبر الأسلاك الشائكة واستولوا فى أقل من عشرة دقائق على المركز،

وقتل فى ذلك الهجوم الرائد شون وثلة من رجال فيلق عرب الغرب. وقتل كذلك السيد ماكنيل وهو يحاول التسلل للإسطبل مع بعض رجاله من أجل الانسحاب ومعاودة الكرة مع العدو فى يوم آخر.

وعند الساعة التاسعة إلا ربعا صباحا كان الموقف كالتالي: كان نحو خمسين من الدراويش يعيثون فسادا فى المركز ويسلبون ويحرقون مبانى الحكومة، (! المترجم) وكانت قطاطى الأهالى تحترق، بينما تمركز الفكى عبد الله تحت شجرة التبلدى الضخمة فى شرق المدينة.

ويقى ملازم ثانٍ سعد أفندى عمر فى منطقة السوق مع رجاله الخمسة عشر (والذين لم يهاجمهم المتمردون) دون ذخيرة بعد أن استنفدت بالكامل. وكان بقاؤهم فى تلك المنطقة يعنى الموت المحقق فقرر الرجل أن يغامر بمحاولة استعادة مبنى المركز، والذى كان جزء منه يحترق ربما بسبب نيران كان حراس السجن قد اشعلوها لطبخ طعامهم وذلك قبيل هجوم المتمردين.

وهكذا انتهى الفصل الأول من معركة نيالا.

عند تقدم الملازم ثانٍ سعد أفندى عمر نحو المركز فر المتمردون وهم يسابقون الريح محاولين النجاة من زخات طلقات البنادق التى كان يقذفهم بها رجال الشرطة وحراس السجون (وبعضهم كان مصابا بجراح خطيرة). واتخذ النقيب بلال رزق والملازم ثانى سعد أفندى عمر وجندهما (والذين بلغ عددهم الآن ستة وأربعين رجلا) وعدد آخر من الموظفين موقفا دفاعيا فى جهة الشرق على بعد مائة ياردة من مبانى الحكومة، بينما كانت طبول نقارة الفكي السحينى تدق منادية جنده للتجمع حوله تحت شجرة التبلدي.

صدم الملازم ثانى سعد أفندى عمر عند استرداده للمركز عندما وجد أن ما كان عند فيلقه من الذخيرة قد أشرف على النفاد، بيد أنه سر أيما سرور عندما أخبره ابن لأحد الكتبة أن بالمخزن نحو أحد عشر ألفا من الطلقات النارية.

ساد الصمت مسرح المعركة لدقائق معدودة، ولم يكن الملازم ثانٍ سعد أفندى عمر يريد أن يتيح للفكى السحينى ودراويشه فرصة إعادة تنظيم قواتهم ففتح عليهم نيرانا

كثيفة لاستفزازهم كى يهاجموا قواته. وبالفعل فعلوا ما أراد لهم فعله، وكانت قوة نيرانهم بسبب عددهم الضخم كبيرة جدا.

والآن بدأت أكثر حوادث تلك المعركة بطولة، إذ شاركت زوجات رجال الشرطة وحراس السجن الرجال فى القتال. ومع أصوات الزغاريد العالية الحادة كن يقاتلن، ويحثن الرجال على الصمود، ويجلبن الذخيرة والماء من حوض كان على بعد خمسين ياردة جنوب سور الأسلاك الشائكة المحيطة بالمركز.

لم يحفظ لنا التاريخ غير أسماء قليل من هؤلاء البطلات(بطلات من منظور الكاتب بالطبع.. المترجم) بكل، وهن: حمدة زريقة ومريم أم ديرا. وفى تلك المعركة استولت مريم على صندوق للذخيرة وحاولت فتحه برميه على الأرض مررا، إلى أن عثرت على فأس حطمت به الصندوق. وفى قصة أخرى من قصص بطولات النساء قامت حمدة زريقة بمساعدة رجل اسمه زيتون كان يحرس نساء مدينته بسيف وحيد. جمعت تلك المرأة عددا كبيرا من الحراب، وظلت تقدم للرجل تلك الحراب واحدة بعد أخرى ليقذفها فى وجوه المهاجين. وكذلك أبدت شجاعة فائقة عندما تصدت لمن سرق متاع سيدها وناقته وحماره، وجرت خلفه وأفلحت فى إجباره على التخلى عن ما سرقه!

لم تكن هنالك لحظة من لحظات المعركة لم تشارك فيها النساء بجهد ما. وعندما كانت البنادق تصبح حارة لا يمكن مسها، كن يجلبن الماء فى جرار ويقمن بتفريغها على البنادق حتى تبرد.

ورغم صمود المدافعين، فقد ظل المتمردون يتقدمون رغم خسارتهم لأرواح بعض منهم مع كل ياردة يكسبونها، ولكن بدا تقدم المتمردين برغم كثافة النيران المصوبة تجاههم وكأنه تصديق لنبوءة الفكى السحينى بأن رصاص الحكومة سيستحيل ماء.

ومضت المعركة تزداد أوارا، ومع مرور الدقائق والساعات أخذت ذخيرة جند الحكومة فى النفاد، حتى حدث فجأة ما قلب موازين القوى، وكانت تلك من اللحظات العابرة والتى كثيرًا ما غيرت نتيجة الحرب فى كثير من أرجاء العالم عبر تاريخه. شاهد أحد جنود الحكومة الفكى السحينى من على بعد مائة وخمسين ياردة فى رفقة حامل الراية وضارب النقارة ونافخ البوق (البروجي). أطلق الجندى طلقتين ناريتين على ضارب

النقارة والبروجى فصمتا وإلى الأبد فتزعزع المهاجمون لهنيهة إلا أنهم استفاقوا بعيد تلك الصدمة واستأنفوا الاندفاع. وانتهز الملازم ثانٍ سعد أفندى عمر السانحة وأمر أحد رقبائه المجيدين بالتصويب على الفكى السحينى وحصانه، وما هى إلا لحظات وقد هوى الفكى جريحا من على فرسه، والذى أصيب هو الآخر فى مقتل.

وجَم المهاجمون عندما رأوا رأى العين زعيمهم مجندلا على الأرض، فلم يكن الرجل بالنسبة لهم قائدا عسكريا فحسب، بل كان رجلًا ذا قدرات غير طبيعية نجح باستغلالها فى غسيل أدمغتهم وإيهامهم بأنه النبى عيسى. وبسقوطه سقطت هممهم وانحسر هجومهم.

ولم يبق أمام المتمردين إلا أن ينسحبوا ليتبعهم جنود قوات سلطان كبكبيه الصديقة، ويمطرونهم زخات من نيران طلقات البنادق التى ورثها هؤلاء من رجال الشرطة الذين سقطوا صرعى.

وعند العصر وارت قوات الحكومة جثث قتلاها الثرى، وظل رجال الحامية المنهكون واقفين وسط أكوام قتلى المتمردين وجرحاهم وهم فى ضيق من أنينهم وتأوهم، يحرسون المركز ويترقبون هجوما جديدا من المتمردين لم يقع أبدا (لم يذكر المؤلف ما فعل بمن قتل أو جرح من أتباع الفكى السحيني. المترجم).

وكانت فرقة المشاة المحمولة قد سارت فى غضون الخمسة وسبعين ساعة الأخيرة نحو عشرين ومائة ميلا، وقضت ليلة كاملة دون نوم أو راحة وهى فى أقصى درجات الاستعداد، وخاضت معركتين شرستين، ومع ذلك فقد توجب عليهم مكابدة ليلة أخرى ملؤها السهد والترقب. ولم يكن حال المدنيين الذين كتب عليهم القتال بأحسن حالا من العسكريين، فقد كانوا قد قضوا الأسبوع الماضى كله فى كرب وضيق وتحسب.

ونفخ جندى حكومى بوقه ليعلن للناس أن المركز ما زال فى يد الحامية، وأن النصر كان حليف الحكومة.

لم يعرف العدد الحقيقى لمن قتل من أتباع الفكى السحينى فى تلك المعركة، إلا أن حقيقة أن ستة عشر الفا من الطلقات (rounds) قد صبت نيرانها عليهم تكفى للتدليل على أن عدد القتلى لا بد أن يكون كبيرا.

ولم يبق من الناجين من أتُون تلك المعركة كثير من الرجال ليحكوا تفاصيل ما حدث وكم كان عدهم.

غير أن شهادة أحد سجناء سجن نيالا واسمه الغالى تاج الدين (وقد ثبت فيما بعد أنه كان قد أتهم زورا وبهتانا بخيانة الأمانة وأدين بها) قد تلقى بعض الضوء على ما حدث فى غضون ساعات ذلك الهجوم والذى كان السجين يراقبه من باب السجن المصنوع من الأسلاك.

ذكر ذلك السجين أن عدد الدراويش الذين هاجموا المركز يساوى تقريبا ضعف عدد أفراد قبيلته عندما يخرجون فى استعراض عسكرى (parade)، مما قد يعنى أن عدد المهاجمين كان يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف رجل. ولكن لا ينبغى افتراض أن كل هؤلاء كانوا مشتركين فعليا فى المعركة، فمعلوم أن بعضهم كان قد وضع كقوة احتياطية فى الخور. ويعنى هذا أيضا أن نسبة عدد جنود الفكى الحسينى إلى عدد جنود الحكومة ومن معها كان أربعين إلى واحد فى الهجوم الأول، وربما ثمانين إلى واحد فيما تلاه من هجوم.

لقد انتصرت القوات الحكومية حقا، إلا أنه كان انتصارا مأساوى الكلفة.

فقد قتل فى المعركة الرائد شون والسيد ماكنيل مع أربعة من الكتبة. وقتل سبعة عشر من فرقة المشاة المحمولة، وكان عدد أفرادها خمسة وستين جنديا. وقتل نصف عدد رجال الشرطة الأربعين.

وبالجملة يمكن القول بأن نصف عدد المدافعين قد قتل فى تلك المعركة، وكان عدد القتلى يساوى ضعف عدد الجرحى مما يشير إلى ضراوة المعركة وإصرار المحاربين من الجانبين على انتزاع النصر.

وتم فيما بعد منح قواد المعركة مثل بلال رزق وحسن محمد الزين نيشان الخدمة الممتازة (Distinguished Service Order) بينما نال الضابط سعد عمر "الصليب العسكرى The Military Cross، ومنح الآخرون ما يستحقونه من تكريم نظير إيقافهم لتمرد كان من الممكن أن يقود لو كتب له النجاح إلى تمرد واسع الانتشار. وبالفعل كانت قد سرت فى بعض مناطق كردفان ودارفور إشاعات عن هزيمة الحكومة

شجعت قيام ثلاث حوادث محدودة للتمرد، إلا أن الحكومة قامت، وبسرعة، بإخماد تلك الحركات فى مهدها فلم تقم لها قائمة.

لم تنس الحكومة دور النساء اللواتى شاركن فى تلك المعركة فتم منحهن من أبقار كانت الحكومة قد صادرتها من المتمردين الذين ساهمت أولئك النسوة فى دحرهم. وبذا تم تأمين أمر معاشهن فى مستقبل الأيام.

***

من أحداث تلك الأيام الغريبة قصة مندوب كان قد أرسل للفاشر فور انتهاء المعركة وحمل صندوقا مغلقا به قائمة بأسماء من قتلوا أو جرحوا فى المعارك خشية أن تصل لعاصمة المديرية أنباء كاذبة وإشاعات مغرضة عن أعداد قتلى وجرحى المعركة. ولكن كان ذلك جهدا ضائعا إذ إن أحد خدم السيد ماكنيل كان قد انسل خلسة من نيالا مع أول إشارة لبدء المعركة وهرب للفاشر التى تبعد مائة وعشرين ميلا يسابق الريح فوصلها فى أربعين ساعة فقط، وهناك أشاع أخبارا وأرقاما كاذبة عن حصاد تلك المعركة. كانت حكاية ذلك الرجل وجبنه مصدرا للتندر والأغانى السفيهة، والتى عاشت بعد مماته لسنوات وسنوات، وظلت متداولة حتى بعد أن طمر النسيان اسم ذلك الخادم.

وظل الناس لعهد طويل يتداولون فى جلسات سمرهم المسائية قصص تلك المعركة ويتحدثون عن شجاعة من شاركوا فيها وعن من قاتلوا ببسالة رغم جروحهم النازفة حتى نفدت ذخيرتهم، ويحكون حكاية الغالى تاج الدين، ذلك السجين البريء، والذى جلبت له زوجه سيفا له مقبض فضى منع به من أراد من المسجونين الهرب والالتحاق بجنود الفكي السحيني، وهو يصيح فيهم: "الدين منصور".

ويقى الناس يذكرون حامد طمبل، ذلك الصبى الغض الذى كان أحد حراس خيول المركز، والذى قتل بمفرده اثنى عشر من جنود الأعداء (من وجهة نظر الكاتب بالطبع. المترجم.)، ولم يفقد حصانا واحدا مما كان يحرسه.

أما حارس السجن العريف موسى رحمة فقد أبى بشمم أن تنتزع من فخذه اليمنى إلا بعد انتهاء القتال حربة من النوع الذى يشابه صنارة صيد السمك، وتهتك الجسد عند

دخولها وعند إخراجها أيضا. وطلب الرجل من رفيق له أن يكسر رمح الحربة، ثم ربط فخذه بلفافة قماش ومضى يزحف على مؤخرته مستندا على يده اليمنى وساقه اليسرى حتى وصل خط إطلاق النار على بعد ثلاثين ياردة.

كانت تلك بعض لمحات لصور من البطولة والبسالة التى سجلتها ذاكرة من شهدوا تلك الموقعة، ولا ريب أن هنالك ما يماثلها أو يفوقها من صور بديعة قبرت مع من فقدوا أرواحهم وهم يقاومون ذلك التمرد.

***

طافت بخاطرى ذكرى تلك المعركة وأنا فى زيارة لمدينة أبى حمد بمديرية بربر حين طلبت زيارة قبور الجنود السودانيين والبريطانيين الذين قتلوا فى المعركة التى دارت فى السابع من أغسطس من عام ١٨٩٧م أثناء حملة النيل. وكما نبه من قبلى السير رينال روود (شاعر ودبلوماسى وبرلمانى بريطانى شهير. المترجم) فقد نبهت أنا أيضا إلى ضرورة أن تكون زيارتى لتلك القبور فى النهار، إذ إنه (وكما يعتقد بعض الأهالي) ما إن يرخى الليل سدوله فإن الجنود السودانيين الأحد والعشرين يقومون على حراسة قبرى الضابطين البريطانيين الرائد هـ. م. سيدنى والملازم أى فيتزكلانس المدفونين بقربهم ويطلقون النار على كل من يقترب من المقبرة!!!

الجندر والتحالف فى وسط السودان

Gender and Alliance in Central Sudan

بروفيسور سوزان كنيون Susan M. Kenyon

◇◇◇◇◇◇

هذا عرض وتلخيص لبعض ما ورد فى مقال لبروفيسور سوزان كنيون الأستاذة الفخرية لمادة الأنثربولوجى (علم الأجناس) بجامعة بتلر بولاية إنديانا الأمريكية، والذى نشر فى العدد التاسع من مجلة علم الشيخوخة بين الثقافات Journal of cross-cultural gerontology لعام ١٩٩٤م.

تناقش بروفيسور كنيون هنا أمر المصاعب التى تكابدها المرأة السودانية فى مجتمع تسوده ثقافة ذكورية، وتناقش فى أصول المشاحنات التى عادة ما تنشأ بين الزوجة السودانية وأصهارها (أم وأخوات الزوج)، وذلك فى إطار التوتر المتأصل فى المجتمع الذى تسود فيه الزيجات التقليدية المدبرة سلفا، خاصة بين الأقارب. وتزعم الكاتبة أنه قد صاحبت وأعقبت التطورات المهمة التى حدثت فى السودان فى عديد الجوانب الاقتصادية والاجتماعية كم هائل من التغيرات الكبيرة فى تركيب الأسرة السودانية، وكذلك فى الفرص المتاحة أمام المرأة مما قلل من آثار ذلك الصراع القديم (بين الزوجة وأصهارها)، وأدى لقيام تحالفات جديدة بين النساء.

تتعرض ورقة بروفيسور سوزان كنيون لقصص سمعتها من أفواه النساء فى غضون سنوات ثمانينات القرن الماضى الأولى (١٩٧٩ – ١٩٨٥م) والتى قضتها بمدينة سنار فى ولاية النيل الأبيض، وكانت تلك القصص هى مدخلها لمناقشة التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى حدثت فى السنوات الأخيرة فى ذلك المجتمع.

بدأت الكاتبة مقالها بقصة تراجيدية (لا تخلو من غرابة) وقعت فى قرية تقع بالقرب من سنار وتوضح – بالنسبة لها على الأقل – نوع العلاقة السائدة بين الزوجة وحماتها. جاء فى القصة أن فتاة صغيرة متزوجة من رجل مغترب بالسعودية رزئت بـ "نسيبة" غاية فى اللؤم والشراسة لا تكف عن تقريعها ومضها بالقول، وكانت تلك الزوجة الصغيرة

تكتفي بالصمت الكريم وتتجاوز عن كل ما لحق بها من أذى من حماتها الشريرة. وعندما عاد الابن من مهجره بعد غياب عامين شكت له أمه من زوجه وطالبته بتطليقها على الفور. وعند سماع الزوجة بذلك قامت بوضع صبغة حناء سامة (وليس زرنيخا كما ذكرت الكاتبة خطأ. المترجم) في قهوة حماتها فماتت العجوز بعد نحو ساعتين من تناولها لذلك السم. ودل بحث وتحريات الشرطة على أن القتيلة قد تناولت سما في قهوتها، وأشارت يد الاتهام للزوجة الصغيرة. وما إن سمع الزوج بذلك حتى طلق زوجته وهب من فوره وذهب لقاتلة أمه وأطبق يديه على عنقها وقتلها. لم تفعل الشرطة شيئا لمن أخذ القانون في يده باعتبار أن الرجل قد اقتص لنفسه من قاتلة أمه.

في مثل هذا النوع من القصص يميل الناس عموما (والنساء على الخصوص، حتى المسنات منهن) في وسط السودان إلى التعاطف مع الزوجة الصغيرة أكثر من الحماة. ومن المسلمات عند النساء في مجتمع وسط السودان أن أهل الزوجة (خاصة أم وأخوات الزوج) عادة ما يسيؤون معاملتها، ولعل هذه هي من الموضوعات الأثيرة للنساء من مختلف الأعمار عند تجمعهن في جلسات الغيبة "القطيعة" والمؤانسة، فهي من الاهتمامات والقواسم والهموم المشتركة والتي قلما تنجو منها إحداهن.

ولا ريب أن مثل قصة الزوجة الصغيرة التي ذكرت آنفا تبين مقدار عدم المساواة بين الرجال والنساء في مجتمع وسط السودان، فهو مجتمع أبوي (patrilineal) أو من الناحية الإيديولوجية على الأقل مجتمع يميل إلى عائلة الزوج (patrilocal) أو مجتمع بطريركي (patriarchal)أكثر ما يميزه هو الفصل بين الجنسين، وهيمنة الرجال على النساء، وإلزام المرأة أن تبقى فيه مستكينة أو معزولة (على الأقل في حضرة جمع من الناس). ولكن يجب أيضا القول هنا أن هذا الأمر في واقع الأمر ليس بهذه البساطة ويختلف مثل هذا السلوك بحسب عوامل عديدة. وكما توضح القصة التي ذكرت في بداية المقال فإن عدم المساواة ينطبق على النساء فيما بينهن أيضا، ويختلف بين النساء والرجال. فمن الناحية السلوكية فإن بعض النساء ينلن حظا من المساواة أكثر من غيرهن، وربما يكون مرد ذلك هو أعمارهن الاجتماعية (social age).فالمرأة الصغيرة يجب عليها إبداء كامل الاحترام للمرأة المسنة، وهذه المرأة المسنة يجب عليها في المقابل إظهار الاحترام

للرجل حتى وإن كان صغيرا فى السن.

وفيما يتعلق بعلاقة النساء والرجال فى الأمور الاجتماعية فإن مجتمع وسط السودان يمتاز بالاهتمام بالسن والقرابة، وهما عاملان مهمان يحددان دور كل من الجنسين فى مجتمعى النساء أو الرجال المصغرين. وفى المناطق الحضرية، والتى يكثر فيها تحرك الناس وتنقلهم بين الأماكن (mobility)، تظهر أيضا عوامل أخرى تحدد التراتيب الاجتماعية مثل الوضع الاجتماعى والتعليم والرتبة وغير ذلك.

وفى موضع آخر حكت عن قصة مخالفة للقصة الأولى، إذ أننا نجد فى هذه القصة الثانية الحماة (النسيبة) وهى توصف هذه المرة بالمرأة "المسكينة" والتى تعاملها زوجة ولدها الموظفة المتعلمة بتعال وغرور وقلة احترام، وترفض مساعدتها لها إبان أيام وضعها، بل وتشتكى منها لزوجها (المحب لها)، فينتصر الزوج لها ضد والدته!

حدثت فى السودان خلال السنوات الثلاثين الماضية (١٩٥٥ – ١٩٨٥م) تغيرات اقتصادية واجتماعية وبيئية وسياسية وثقافية عديدة، فقد دخلت فى البلاد بعض الصناعات أسرعت بعملية الانتقال لمجتمع حضرى تساهم فيه المرأة بدور نشط. ولمست الكاتبة بحسب ما تقول من خلال عملها فى منطقة فقيرة تقطنها نساء من مناطق ريفية مجاورة لسنار (والتى عدتها المدينة السابعة عشر فى ترتيب المدن السودانية) أن أولئك النسوة لديهن مشاعر إيجابية تجاه الحياة الحضرية، بسبب ما توفره لهن شخصيا من مزايا، وللفرص العديدة التى تتيحها تلك الحياة لأولادهن فى مجالات الصحة والتعليم والتوظيف والحياة الاجتماعية على وجه العموم. ولم تبد إلا قلة منهن الندم أو الأسف على الهجرة من قراهن الأصلية (والتى يزرنها بانتظام على كل حال) إذ قد أفلحن حيث أقمن بالمدينة فى بناء شبكة علاقات اجتماعية وقرابات مصطنعة/ زائفة (pseudokin) ليس بها أو عليها قيود. وكانت الميزة الكبرى لسكنهن بالمدينة هى حصول كل واحدة منهن على منزل مستقل يحررها من السكن الجماعى فى وسط عائلة الزوج فى القرية.

لا يزال الزواج بحسب رأى الكاتبة هو الحدث الأعظم فى حياة كل رجل وامرأة فى وسط السودان، ولا تبقى دون زواج عادة إلا قلة من الجنسين. بيد أن نمط الزواج قد تغير فى العقود الماضية، فلم يعد الشاب يترك أمر اختيار زوجته لوالدته، وقلت نسب

الزواج بين الأقارب، وتلعب الآن المرأة دورا فى اختيار زوجها وفى تنظيم عملية الزواج. وهنالك أيضا عامل الاستقلال الاقتصادى للمرأة (إما بسبب الحاجة أو الرغبة أو كليهما)، وعامل اغتراب الأزواج فى دول الخليج العربى بسبب سوء الأحوال الاقتصادية بالسودان، مما يترك الزوجة هى "رأس العائلة" فى كثير من الأحوال، على الرغم من وجود رمز "بطريركي" كالأخ أو الولد أو أى قريب من الذكور.

يبدأ فصل الجنسين فى منطقة سنار (ووسط السودان عموما) فى مرحلة مبكرة فى عمر الأنثى، قسمت الكاتبة دورة حياة الأنثى إلى خمس فترات هى الميلاد إلى سن البلوغ، ثم سن البلوغ إلى سن الزواج، وسنوات الزواج، ومن نهاية سنوات الإنجاب إلى سن انقطاع الطمث، ثم أخيرا سنوات العجز، وفصلت خصائص كل فترة كما يلي.

فترة الميلاد إلى سن البلوغ: يلعب الأطفال من الجنسين فى هذه الفترة سويا دون قيود، ويتوقف ذلك بعد الختان (عادة بين سن الرابعة والثامنة). وتتعرض كثير من البنات للختان بأنواعه المختلفة ومن بينها ما يسمى بالفرعونى (وهو بعكس الختان السنى الأخف وطأة) غير مقبول قانونا، بيد أنه لا يزال يمارس.

تقوم صغار الفتيات بمساعدة أمهاتهن وأخواتهن الكبار فى عمليات النظافة وغسيل الملابس والاعتناء بالصغار وخدمة الضيوف (ويتعلمن هنا إبداء الاحترام للكبار). بينما يقوم الأولاد فى هذه السن بالظهور علنا للمجتمع، ويبعث بهم لقضاء الحاجات وجلب الأغراض من الجيران ومن السوق وغيره.

فترة سن البلوغ إلى سن الزواج: بعد عملية الخفاض يجب أن تكف البنت عن اللعب مع الأولاد وأن تلبس لبوس التواضع والتحفظ أمام العامة، أو عندما تقابل كبار النساء، حيث يجب عليها أيضا تغطية شعر رأسها ، ولا تفرض عزلة على البنت فى هذه السن، بيد أن حركتها خارج الدار تظل محسوبة ومراقبة ، وتتولى البنت بعض أعمال البيت تحت إشراف أمها وقريباتها اللواتى يكبرنها سنا. وعند بلوغ البنت سن البلوغ (حتى وإن كانت فى المدرسة) تبدأ العائلة تفكير جديا فى أمر تزويجها. وعادة ما تكون حفلات الزواج ، والمناسبات الاجتماعية الأخرى فرصا مواتية للشباب للبحث عن فتاة أو شاب للزواج. وتتبادل الأمهات والخالات والعمات عندما لقاء الصديقات سير الشباب المقبلين على

الزواج واحتمال تقدمهم لخطوبة فتاة بعينها.

فترة الزواج والإنجاب: هنالك تمييز واضح جدًا فى مجتمع وسط السودان بين المرأة المتزوجة وغير المتزوجة. وفى المدن كسنار يكون العريس عادة فى أواخر العشرينيات ولكن قلما يتم تزويج بنت يقل عمرها عن ١٦ سنة. ويكون احتفال العرس هو أهم احتفال فى المجتمع السوداني، وأهم احتفال للرجل وللمرأة على المستوى الشخصي، وتكون الليلة التى تسبق العرس محتشدة بالإثارة والدراما عند عائلتى العريسين. وتتولى أخوات وقريبات العروس من المتزوجات تجهيزها وتعليمها ما يجب عليها فعل فى أمور الرقص وحركات الجسد والسلوك وغير ذلك.

أفاضت الكاتبة بعد ذلك فى وصف أحوال المرأة المتزوجة وزينتها وعطورها (مما لا يسمح به لغير المتزوجة)، وما يفعل بها بعد كل ولادة لطفل من ما أسمته "إعادة الختان" وعن عودتها لزوجها وهى كـ "العروس الجديدة".

عند إنجاب المرأة لعدد كبير من الأطفال تقوم أخواتها وقريباتها من غير المتزوجات بالمساعدة فى رعايتهم. ومن هنا يبدأ ظهور "سلطة" المرأة المتزوجة على من يصغرها من النساء، وسيشمل ذلك فيما بعد بناتها وزوجات أولادها أيضا.

يتوقع من الزوجة الصغيرة السن –كما يتوقع عند غيرها من النساء– أن تظهر الخضوع والتواضع والتحفظ مع الجميع، وأن توفر كل جهدها وطاقاتها لخدمة بيت زوجها (بيت العائلة). وينظر المجتمع للمرأة المتزوجة على أنها امرأة مسؤولة، وتظفر عادة بقدر معين من الاستقلال إذ أنها لم تعد عالة على بيت أبيها.

نهاية فترة الإنجاب وبداية سن انقطاع الطمث: مع تقدم المرأة فى السن وعندما يكبر أطفالها تحصل المرأة على قدر أكبر من الحرية وتتحلل تدريجيا من ما هو مفروض عليها فى المرحلة السابقة من عمرها (انظر رقم ٣ أعلاه)، وتدع بعضا أو كثيرًا من مسؤوليات البيت والعائلة لبناتها، وتتحرك حيث تقطن، وتسافر بحرية خارج دارها مشاركة بفعالية أكثر فى شبكة العلاقات الاجتماعية النسائية الواسعة. وفى هذه المرحلة من الحياة تحصل امرأة وسط السودان على قدر من السلطة والنفوذ فى دائرة النساء من حولها وأيضا فى عالم المجتمع الواسع. ويجب عليها فى هذه المرحلة من عمرها أن تسدى النصح والإرشاد

لصغار الفتيات فى داخل وخارج عائلتها فى أمور الحياة العامة والخاصة، وغالبا ما تكون هى "صاحبة القرار" فى بعض أو كل هذه الشؤون. وبالإضافة للاستقلال الاجتماعى يتاح للمرأة فى هذه السن أيضا استقلالا اقتصاديا، إذ يمكنها العمل فى مهن لا تقبل مجتمعيا عادة ممن يصغرها فى العمر.

فترة كبر السن (العجز): تسمى المرأة فى هذه السن "حبوبة" (ويسمى الرجل "جد"). تنال المرأة والرجل فى هذه السن قدرا كبيرا من الاحترام والاستقلالية، رغم اعتمادهما الكبير على أولادهم البالغين. وفى حالة النساء يكون الاعتماد الأكبر فى رعاية مسنات العائلة على الأخوات اللواتى يكن عادة فى الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من العمر.

تحالفات جديدة فى مجتمع مدني
New Alliances in Urban Society

منح العيش فى الحضر النساء السودانيات فرصا جديدة لم تكن متاحة لهن فى القرى، وقامت نساء الحضر بعقد تحالفات (غير رسمية) وشبكات رعاية وحماية (patronage) لمن يصغرهن فى السن، وشبكات أخرى للاتصال مع الجيران والصديقات والمجموعات ذات المصالح الخاصة (specialinterest groups). سمت الكاتبة تلك الشبكات والتحالفات بـ "الواسطة" والتى تفهم على إنها استفادة المرء من علاقته أو صلته بمن يحقق له رغبة أو هدف معين. وفى حالة كبار السن من النساء فإنهن فى موقف من يمكنه تقديم النصح والإرشاد والمساعدة لمن يصغرهن من النساء الأخريات.

عددت الكاتبة أنواع التحالفات الممكنة وشملت التحالفات الاجتماعية والاقتصادية والمالية والتعليمية والدينية تلك المتعلقة بالعادات والطقوس التقليدية.

التحالفات الاجتماعية: تربط نساء وسط السودان فى مجال العلاقات الاجتماعية شبكة متداخلة وبالغة التكامل ومستقلة تماما عن عالم الرجال. وتتزاور النساء أحيانا عند الضحى وغالبا فى فترة الظهيرة، ويعد رد الزيارة أمرا لازما لاستدامة الصلات بينهن.

وتكون الزيارات إما "غير رسمية"، وهذه تكون يومية تقريبا لصديقة مقربة بغرض تناول القهوة أو الشاى وتبادل الأخبار أو المشاركة فى حمام البخار (لعلها تقصد "الدخان" السودانى المعروف. المترجم) واستعراض إنجازات اليوم السابق (خاصة فى مجال الحنة) أو غير ذلك. وقد تكون الزيارات "شبه رسمية" بغرض تبادل التهانى بمناسبة ما كشراء سيارة أو وصول ضيف من مكان بعيد، أو شفاء مريض أو غير ذلك. وقد تكون الزيارات "رسمية" مثل أداء فروض العزاء فى من رحل أو حضور "كرامة" أو حفل ختان أو زواج أو غير ذلك. ويتوقع فى مثل هذه الزيارات الرسمية المساهمة فى تكاليف المناسبة (إما بدفع مبلغ معين أو شراء مادة كثيرة الاستخدام مثل السكر) أو بالخدمة اليدوية مثل النظافة أو الطبخ أو غيره.

التحالفات الاقتصادية: رغم أن الصرف على الزوجة والأطفال يعد من واجبات الزوج، إلا أننا نجد أن الزوجات فى المدن والمناطق الحضرية عموما يعملن خارج البيت للحصول على دخل يذهب جله على العائلة. ويستعاض الآن بتقديم النقد (الكاش) عوضا عن الخدمات التى كانت النساء تؤديها للعائلة الممتدة بيديها، وسمت الكاتبة هذا بـ "اقتصاد الظل / الاقتصاد الخفى Shadow economy"، وهو اقتصاد شائع لم يتتبه له كثير من الرجال، ولم يعوا بعد لأهميته فى جلب مداخيل متنوعة.

وتعتمد النساء على أنفسهن وصديقاتهن فى قيام مشاريعهن الاقتصادية الصغيرة. ففى سنار مثلا تقوم بعض النساء ببيع كميات قليلة من الخضراوات والمشروبات مثل القهوة والشاى على جانبي الطريق. وهنالك نساء أخريات فى منتصف أعمارهن، كن أكثر طموحا إذ نجحن فى إنشاء سوق نسائى فى أطراف المدينة بعد أن حصلن على التصديقات اللازمة عقب زحفهن على مكاتب المسؤولين الإداريين ومطالبتهن بالحصول على سوق (أكشاك) مستقل للنساء. وفى السنوات الأخيرة بدأت بعض النساء من صغار السن (وتحت ضغط الحاجة) فى العمل فى ذلك السوق تحت رعاية من تكبرهن سنا.

وهنالك مهن أخرى كانت تعد من المهن التقليدية، مثل مهنة القابلة (الداية). وهنالك الآن عدد من القابلات (فى منتصف العمر) اللواتى أكملن تدريبهن فى مدرسة القابلات التابعة لوزارة الصحة، ولكنهن (وخلافا للممرضات) لا يعملن بأجر ثابت من الحكومة نظير التوليد وعمليات الختان. وفى عام ١٩٨٢ تجمع عدد من القابلات فى سنار لمطالبة السلطات الصحية المحلية بمنحهن مرتبات ثابتة أسوة بالممرضات. وكما هو متوقع لم تنجح محاولتهن تلك إذ إن قرار منح القابلات مرتبات ثابتة هو قرار مركزى وليس محلي، بيد أن الدرس المستفاد من مطالبتهن تلك هو أن القابلات قد بدأن فى تقدير قوة وفعالية العمل التعاونى الجماعي.

التحالفات المالية: تمارس النساء (خاصة من متوسطات وكبار السن) فى المناطق الحضرية وسيلة ادخارية فعالة تسمي "الصندوق" وهى نوع من نظام الائتمان المتناوب (rotatingcredit system). وللكاتبة – ولغيرها أيضا من الغربيين – عدد من الأوراق عن هذا "الصندوق" كوسيلة ادخارية مبتكرة. وتدير "الصندوق" عادة امرأة

موثوقة ومتفرغة من الأعباء العائلية وذات مال (لتغطية أى خسارة قد تحدث) ومعرفة بالقراءة والكتابة والحساب لمسك الدفاتر.

عملت الكاتبة مع امرأة فى سنار كانت تدير عدة صناديق لمدة ١١ عاما منذ أن أتت للمدينة قادمة من قرية مجاورة. ومن ما إدخرته تلك المرأة فى تلك الصناديق نجحت فى مساعدة عائلتها فى إقامة مشروع صغير للنقل وشراء منزل. وكانت تلك المرأة تدير صناديقها بوعى تام بمن من النساء كانت تحتاج للمال فتعطيها "صرفتها" قبل الأخريات.

عادة ما تكون "ستات الصناديق" من قادة النساء فى أوساط مجتمع النساء فى وسط السودان.

٤. التحالفات التعليمية: لا شك أن تعليم الأولاد والبنات ضرورة هامة بالنسبة لنساء المدن. ومع شيوع تعليم المرأة صار دخولها لمجال العمل (خاصة فى المجالين الأكثر احتراما فى نظر المجتمع: التعليم والطب) أكثر انتشارا، رغم أنه ما زال قليلا دون الطموح. ولا شك أيضا أن قلة عدد النساء فى مجال الطب يعوق استفادة أعداد كبيرة من النساء من الخدمات الطبية. وكذلك تعوق قلة أعداد النساء فى سلك التدريس الجامعى وجود "قدوة" للنساء فى هذا المجال الحيوي، و تتسبب أيضا فى قلة أعداد المشرفات الأكاديميات الكافيات لأعداد الطالبات المتزايدة فى الجامعات.

كذلك ترتاد النساء الأميات مدارس "محو الأمية" بأعداد كبيرة لإيمانهن بأهمية القراءة والكتابة. وتقوم بالتدريس فى فصول "محو الأمية" مدرسات ينلن مرتبات قليلة، تتم زيادتها من القليل الذى يؤخذ من الطالبات. ويتعدى تأثير مدرسات "محو الأمية" على طالباتهن مجرد تعليم القراءة والكتابة، فهن يعتبرن بمثابة "قدوة صالحة" لهؤلاء النساء الفقيرات، ويقدمن أيضا لهن معرفة فنية ومهارات تسويقية تكون عونا لهم فى حياتهن العادية، وفى سوق العمل أيضا.

٥. التحالفات الدينية: تعتبر الكاتبة أن للدين الإسلامى تأثيرًا كبيرًا على نساء سنار. فالإسلام يحدد نظام اليوم لهؤلاء النساء ويتخلل أفكارهن وكلماتهن، بيد أنه لا يوفر لهن قيادة أو تدريبا منظما. وتقبل النساء بالدور الذى حدده لهن الدين، بيد أن معظمهن لم يتلقين إرشادا وتعليما كافيا عن الإسلام نفسه. وفى سنواتها فى سنار رأت الكاتبة عددًا

كبيرًا من "رجال الدين" و"الشيوخ" الذين كانوا يتولون أمور المعالجات الروحية عند السكان، ولكنها لم تصادف إلا امرأة واحدة، كانت عالمة متدينة فى منتصف الخمسينيات من عمرها تسمى "بت الجميل"، وكانت تتولى وعظ النساء وإرشادهن، وتداوى المريضات منهن بالعرافة ومختلف أنواع المعالجات الروحية. تعرفت الكاتبة عليها وعلمت منها أنها متزوجة من ابن عمها منذ أربعين عاما، وقد أدت فريضة الحج ٩ مرات من قبل. قالت لها: إنها ظلت تدخل ومنذ ٢١ عاما خلت فى مرحلة انجذاب مرضى (trance) حتى تتصل بالله عن طريق خادم روحى يسمى بشير. توسعت الكاتبة بعد وصفها الموسع لما كانت تمارسه "بت الجميل" من معالجات روحية، وناقشت تفاصيل ومعانى الطقوس الشائعة عند النساء مثل "الزار" وغيره.

نختم بالقول بأن كثيرًا مما أتت به هذه العالمة الأمريكية فى مقالها قد يبدو عاديا ومألوفا للقارئ السوداني، بيد أنه بالقطع ليس كذلك لغير السودانيين. وعادة ما تجد فى كتابات "الأجانب" عن السودان أبعادا قلما يتطرق إليها من يتصدى للكتابة عن مثل هذه الأمور الاجتماعية من السودانيين (وهم قلة على كل حال).

يلاحظ، وعلى وجه العموم، أن كثيرًا مما أوردته الكاتبة قبل أكثر من ربع قرن قد تغير فى زماننا الحالي، وغدت المرأة السودانية فى كثير من مدن السودان (وسنار ليست استثناءً) تشارك بفعالية أكثر فى مختلف ضروب الحياة، وعلى قدم المساواة مع الرجال فى غالب الأحيان . بيد أن هذا لا يعنى بالطبع أن المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات قد تحققت، فالكثير من النساء (وربما بعض الرجال أيضا) يرون أن "عازة ما زال مشوارها طويلا". وربما سيكون من المفيد أن تجرى أبحاث أنثروبولوجية عن ذات المنطقة بعد مرور كل هذه السنوات لتقويم مدى التغيرات التى حدثت فى أحوال المرأة الاجتماعية والاقتصادية غيرها.

الجنس والعبودية والسوق: ظهورالبغاء في شمال السودان (١٧٥٠ – ١٩٥٠م)

Sex, Bondage & the Market: the emergence of Prostitution in Northern Sudan (1750 – 1950)

ج اسبولدينق و س بيسويك J. Spaulding & S. Beswick

◇◇◇◇◇◇

هذا عرض وتلخيص لقليل مما ورد فى مقال نشر هجاى اسبولدينق واستفنى بيسويك عن تاريخ البغاء فى شمال السودان بين عامى ١٧٥٠ – ١٩٥٠م فى العدد الخامس من الدورية الأكاديمية الأمريكية "مجلة تاريخ الممارسة الجنسية (الجنسانية) Journal of the Sexuality History of" والصادر فى عام ١٩٩٥م عن دار نشر جامعة تكساس. ويعمل بروفيسور جاى إسبوليندق الأمريكى الجنسية الآن أستاذا للتاريخ فى جامعة كين بولاية لنيو جيرسي، وله عدد كبير من المقالات والكتب عن السودان (خاصة الدولة السنارية). وتعمل الدكتورة إستافنى بيسويك أستاذة مشاركة فى علم التاريخ بجامعة بول بولاية أنديانا الأمريكية، ولها عدد من المقالات والكتب عن أوضاع المرأة وعن الرقّ فى جنوب السودان.

ويدور المقال حول دور اقتصاديات السوق وعلاقات رأس المال فى تاريخ البغاء فى مختلف المجتمعات السودانية منذ عام ١٧٥٠م (أى فى عهد الدولة السنارية "السلطنة الزرقاء") وحتى منتصف القرن العشرين، وعلاقة ذلك بالتأثير الأجنبى وبالاسترقاق لبعض الإثنيات، ففى مجال التأثير الأجنبى يذكر المؤلفان مثلا نفى محمد على باشا لبعض الراقصات المصريات للسودان، ومرافقتهن للجيش المصرى / التركى فى غزوه للسودان، ومن ثم استقرارهن بالبلاد وتقديمهن لخدماتهن لعلية القوم من المواطنين والأجانب. واعتمد المؤلفان فى هذه النقطة على عدة مصادر ذكرت أن هؤلاء الراقصات قد طردن عام ١٨٢٢م من حامية الجيش الغازى فى دنقلا العرضى بواسطة القائد التركى (الذى أشيع أنه شاذ جنسيا)! كذلك أورد المؤلفان عددًا من المراجع التى تحدثت عن تاريخ مدينة الخرطوم فى عهد التركية (السابقة) وعن مناطق سكنية معزولة/ غيتو

ghettos كانت توجد بها بيوت للبغاء يديرها رجال ونساء من شمال وغرب السودان، وكانت النساء في الغالب من المسترقات، بيد أنه كانت هنالك أيضا نساء سودانيات غير مسترقات (حرائر) مارسن تلك المهنة تحت ضغوط الظروف الاقتصادية الصعبة في سنوات الحكم المصري – التركي الأولى. وذكر أيضا أن ذلك الحكم الغازي سمح وصرح لجنوده في قليل من الحالات باغتصاب وخطف من يرغبون من النساء في القرى الواقعة على النيل، وإجبارهن على ممارسة البغاء والتكسب من وراء ذلك، وعدم إرجاعهن لأهلهن إلا بعد دفع فدية مقدرة. ولا يخفى صعوبة عيش أولئك النسوة بصورة عادية مرة أخرى في وسط مجتمعهن القديم بعد ما عانينه في غضون الفترة التي خطفن فيها، وقد يغدو البغاء هو الوسيلة الوحيدة المتاحة لهن للعيش، وأورد المؤلفان ما ذكر في كتاب حرره بول سانتي وريتشارد هيل عن "الأوربيين في السودان" من أمثلة لبعض أولئك النساء، منهن واحدة اسمها عائشة كانت تسكن بمدينة تقع على شاطئ النيل الغربي، فأسترقها الجيش المصري – التركي الغازي وبعث بها – مع ابنتها آمنة – لمصر حيث أجبرت على ممارسة البغاء حينا من الدهر إلى أن أعتقت فآبت مع ابنتها لمدينتها القديمة حيث افتتحت البنت بيتا للبغاء يرتاده "علية القوم". وخلص مؤلفا المقال الذي نستعرضه إلى أن أمر البغاء في تلك الفترة عند أولئك النساء وغيرهن أمر معقد تتداخل فيه عوامل العنف والاسترقاق والتهجير والفرص المتخيلة (المفترضة) في الحياة.

وما أن انتصف ذلك القرن حتى صارت غالب المدن، بل وحتى القرى التي تمر بها الطرق السفرية تقبل (مع بعض الحذر والتستر) بوجود بيوت للبغاء تديرها نساء، وتقدم خدماتها من طعام وشراب وغير ذلك للمسافرين العابرين. وعرفت المدن الكبيرة أحياء معلومة (red –lightdistricts) بها بيوت بغاء تعمل فيها نساء حرائر ومسترقات.

كانت عشرون عاما من الحكم المصري التركي الاستعماري كافية لإيجاد نوع مميز أو طبقة من النساء في كثير من مدن السودان كن يحيين خارج البناء المجتمعي للعائلة، ويعشن على ما يكسبنه من مال نظير تقديم خدمات جنسية لطالبيها. وكانت بعض هؤلاء النسوة من المسترقات (قانونا) وكان بعضهن الآخر (من الناحية القانونية على الأقل) غير مسترقات. غير أن هؤلاء النسوة كن يشكلن في نظر الدولة معضلة وخطرا متعاظما للنظام

الاجتماعي القائم، وذلك لأن دخول البلاد لعهد "اقتصاد السوق Market economy" كان قد "حرر" هؤلاء النسوة من صور الاعتماد التقليدي المعتادة على الرجال. ولجأت الحكومة في مواجهة ذلك الخطر المتمدد إلى اتخاذ إجراءات عديدة منيت جميعها بالفشل الذريع. وكان من أمثلة تلك الإجراءات ما أصدره أحمد باشا الشاملي (لعله هو أحمد باشا جركس (أبو ودان) مؤسس مدينة كسلا، وحاكم السودان بين عامي ١٨٣٨ –١٨٤٣م) بعد أن لاحظ أن الأسواق مليئة بالنساء اللواتي يؤثرن البغاء على الزواج والبقاء تحت قيود الزواج، أصدر أمرا بضرورة تزويج كل امرأة غير متزوجة، وأصدر أيضا أمرا بتقليل المهور ومصاريف الزواج الأخرى، وبعث بعماله لمراقبة تنفيذ الأمرين. وبعد مرور بعض الشهور أصدر حاكم الخرطوم، بحسب ما أورده بروفسيور ريتشارد هيل في كتابه Frontiers of Islam أمرا إضافيًا يحرم الختان الفرعوني، وأبطل التقليد المعتاد والذي كانت تطالب بموجبه الزوجة (المختونة فرعونيا) بعلها بمبلغ مالي نظير "إعادة فتح" الندبة التي تسد مهبلها بعد الولادة.

انتزع المهدويون الحكم من الأتراك في عام ١٨٨١م وحكموا معظم مناطق السودان لمدة سبعة عشر عاما، وحافظوا في غضون تلك السنوات على ذات النظرة والسياسة التي كان يتبعها سلفهم. ومارس الخليفة عبد الله بعد عام ١٨٨٥م أكبر عملية لتجميع وإعادة توزيع الزوجات، مما يذكر بما كان يفعله سلاطين الفونج في سنار، وواصل أيضا في اتباع السياسة التي وضعها أسلافه من الحكام الترك (والفونج أيضا) بفرض الزواج جبريا على النساء. بيد أن ما كان يميز ما فعله الخليفة في هذا الصدد هو ذلك الاضطراب والخلخلة العنيفة التي أحدثها في المجتمع العادي باسم الإسلام وخدمة مثله وتعاليمه، فقد جند آلاف الشباب لحروبه الداخلية والخارجية، وجلب كثيرًا من سكان الأرياف لعاصمته أم درمان حتى تضخم عدد سكانها فقارب بحسب بعض التقديرات ٢٥٠ - ٤٠٠ ألف نسمة كان ثلاثة أرباعهم من النساء. وكان من نتائج ذلك الاختلال في أعداد الذكور والإناث، والالتزام بتنفيذ أمر تزويج الفتيات أن فشا تعدد الزوجات بصورة متسلسلة خاصة بين جنود الخليفة. وكان هنالك أيضا بعض الخاسرين جراء تلك الإجراءات، منهم تجار الرقيق والذين كانوا يستخدمون المسترقات في البغاء وصنع وبيع المريسة، فقد

كسدت تجارتهم واضطروا لإطلاق سراحهن ليكسبن عيشهن بأى طريقة يعرفنها، شريطة دفع جعل معلوم لهم (لعله من المستبعد تماما أن تكون صناعة الخمور البلدية وبيعها علنا من الأمور التى يتساهل فيها الخليفة ورجاله، لذا فإن النقطة الأخيرة المذكورة قد لا تكون دقيقة تماما).

ونتيجة لسياسات الخليفة (المعلومة) أصابت البلاد مجاعة عظيمة (مجاعة سنة ١٣٠٦ هجرية الموافقة لعامى ١٨٨٨ – ١٨٨٩م)، وكانت نساء المدن أكثر الناس تضررا فى تلك المجاعة. وكان من جراء تلك الكارثة أن هجرت كثير من النساء فى أم درمان (وغيرها من المدن) الرجال و"تحررن" من قيود سادتهن (والذين انشغلوا بأنفسهم)، وسحن فى الأرض بحثا عن لقمة العيش والتى وجدنها فى البغاء. ضرب المؤلفان هنا مثلا بامرأة اسمها حسينة جلبت لأم درمان كخادم مسترقة، وزوجت قسرا لأحد الأوربيين فى أم درمان وكان اسمه شارلس نيوفيلد. وعندما حبس الخليفة عبد الله زوجها فى السجن لم تجد حسينة ما تعول به نفسها فامتهنت السرقة، وسمع بذلك زوجها فطلقها وتركها تجابه مصيرها بنفسها. وبعد مرور عدد من السنوات استرد نيوفيلد حريته فغادر أم درمان فى طريقه لمصر، وشاءت الأقدار أن يمر بمدينة بربر فإذا به يصادف مطلقته حسينة تعمل بغيا فى تلك المدينة. يزعم المؤلفان أنه فى بداية القرن العشرين كانت هنالك العديد من النساء مثل حسينة فى كل مكان بالسودان، اضطررن اضطرارًا لاتخاذ البغاء حرفة من أجل البقاء على قيد الحياة.

خصص المؤلفان بابا منفصلا لمناقشة أمر البغاء فى السودان فى غضون سنوات الاستعمار الثانى (١٨٩٨ – ١٩٥٦م)، وناقشا فى استفاضة الآثار والتغييرات التى تركها نظام الحكم الجديد فيما يخص أمور النظام الاجتماعى والثقافة والقيم والزواج وبقية المؤسسات الاجتماعية الأخرى. وكان من إفرازات تلك التغيرات ارتفاع تكاليف الزواج (المدبر فى الغالب من قبل الأم أو الأب أو العائلة مجتمعة) عند أبناء العائلات "المحترمة". وهنا برزت عند هؤلاء الحاجة لإشباع رغباتهم الجنسية خارج إطار الزوجية، فى إطار ما أسماه المؤلفان "القيم العربية – الإسلامية البرجوازية المهيمنة" والتى سجل السويدى تور نوردناشتام فى كتابه "الأخلاق السودانية" الصادر فى عام ١٩٦٨م أنها "تفرض قيودا

صارمة على السلوك والنشاط الجنسي للأنثى، وتعرف شرف العائلة بمدى عفة نسائها ويعدهن عن اقتراف المعاصي". بيد أن المجتمع السوداني يدرك (ويتغاضى عن) أن الشباب من الذكور يغشى دور البغاء، وقد لا تنقطع زياراته تلك بعد الزواج أو عند كبر السن.

نشأ كذلك طلب محدود (ولكنه مرن) للجنس التجاري مجهول الهوية anonymous commercial sex من الرجال الذين لديهم ميول شاذة (سواء مثلية الجنس أو للجنسين) والذين لم يعودوا يجدون ذات القبول النسبي الذى كان موجودا فى المجتمع فى غضون سنوات الحكم المصرى – التركي. كذلك كان هنالك طلب (صغير الحجم والتأثير) عند الجنود السودانيين والمصريين والموظفين الأجانب على الخدمات التى توفرها بيوت البغاء.

ونشأت كذلك مع مرور أعوام القرن العشرين الأولى طبقة سودانية وسطى، وبدأت المرأة السودانية تتحرر / تتخلى بالتدريج عن دورها التقليدى فى الإنتاج الزراعي، وبدأت تلك الطبقة المتوسطة تؤمن بأن المرأة "المحترمة" ينبغى ألا تعمل خارج أسوار بيتها، وبدأت الروابط القوية التى كانت تشد أفراد العائلة الممتدة فى التراخى تحت تأثير التحديث، وانحصرت العائلة فى "ذوى القربى" الأقربين، وبدأت النساء فى فقدان الحماية التقليدية والرعاية التى كانت تقدم لجداتهن نظير انتمائهن – ولمدى الحياة- لتلك العائلة الممتدة. ولم يعد الزواج لامرأة القرن العشرين أمرا حتميا ومضمونا، فثلث الزيجات تنتهى عادة بالطلاق (وهو سهل نسبيا للرجل المسلم)، خاصة إن كان للزوجة ضرات أخريات، وهنالك ما هو أسوأ من الطلاق، ألا وهو الهجر، والذى حاق بكثير من النساء السودانيات واللواتى هجرهن أزواجهم من المصريين والأتراك مع بداية الحكم الثنائي. وكان هنالك أيضا التحرر التدريجي للمسترقّات السودانيات فى السنوات بين ١٩٠٠ – ١٩٤٠م، ودخول الرجال إلى "سوق العمل الاستعماري" والذى أدخل النساء فى طور من "الإهمال الاجتماعى "خاصة وأن النساء اللواتى حررن من العبودية والنساء اللواتى هجرتهن أزواجهن لم يكن قد تلقين أى نوع من التعليم. لم يكن هنالك أمام أولئك النسوة من مفر غير الاتجاه نحو مهنة البغاء للبقاء على قيد الحياة.

كان الاستعمار حذرا جدًا عند تعامله مع "مؤسسة البغاء"، وذلك لخشيته من إثارة مشاعر الغضب أو الاحتجاج عند من يحكمهم من المسلمين، وكان ينظر للبغاء من منظور طبي محض بالنسبة لجنوده وموظفيه، وخوفا من تفشي الأمراض المنقولة جنسيا بينهم كان هؤلاء ينصحون بالامتناع التام عن ممارسة الجنس، وكان يصدر للمومسات اللواتي يقدمن خدمات جنسية لجنوده وموظفيه تصاريح خاصة ويطلب منهن الخضوع لكشف طبي منتظم. بيد أن كل هذا كان على الورق ولم يعر أحدًا لتنفيذه بالا.

أصدرت الحكومة في عام ١٩٠٥م مرسوما ضد "التشرد" يشمل من ضمن ما يشمل تحريم ارتداء ملابس الجنس الآخر، وتجريم البغاء والتكسب منه. وأنشأ كذلك معسكرات تدريب يرسل إليها العطالين والعاطلات (ومنهم البغايا) لمساعدتهم/ لمساعدتهن في إيجاد مهن ووظائف يتعيشون منها. بيد أن التكلفة العالية لتلك المعسكرات أجبرت الحكومة بعد وقت قصير على التخلي عن ذلك البرنامج.

توضح إحصائيات الشرطة في الخرطوم بحري أنه بين عامي ١٩٢٣ – ١٩٢٥م تم اعتقال ٢٧١٤ شخصا بتهمة الدعارة، وكان معظمهم (تحديدا ٢١٥٩) من الرجال المتهمين بممارسة الشذوذ الجنسي. وكذلك نظمت الحكومة أعمال دور البغاء وبيئتها بطريق غير مباشر بتنظيم بيع وشراء المشروبات الكحولية. ولعل هذه الإجراءات تشير إلى أن الحكومة كانت تتقبل البغاء كأمر واقع لابد من التعايش معه، خاصة بعد أن انتشرت دوره في المدن والقرى.

وبعد الحرب العالمية الثانية أخذت مؤسسات البغاء تتخذ لها مناح ومعان ثقافية جديدة. فبعد انتشار الأندية الثقافية والفئوية والتي كانت تتنوع بحسب الأعراق والمهن والمكانة الاجتماعية غدت بيوت البغاء (والأنادي) هي المؤسسة البديلة لتلك الأندية للساخطين والفضوليين ومن لف لفهم، إذ ليس فيها تفرقة أو قيود عرقية أو ثقافية أو مهنية. وكانت هنالك أيضا صالة للموسيقى (كابريه) اسمها "صالون غوردون للموسيقي" تشابه بعض كباريهات القاهرة البائسة، ولم تكن سمعتها فوق الشبهات، إذ كانت تستقدم راقصات (بيض) من بلدان مختلفة من شرق وجنوب أوروبا مرة كل شهرين، وكان الأثرياء من المواطنين والأجانب يتسابقون على "استضافة" و"مرافقة"

واحدة أو أكثر من هؤلاء الراقصات فى خلال فترة إقامتها فى الخرطوم نظير أجر يتفق عليه مع إدارة الصالة. ولعل تلك الصالة كانت المكان الوحيد المتوفر بالسودان فى تلك السنوات لرجل أسود للالتقاء بامرأة بيضاء نظير أجر.

تناول المؤلفان أيضا تاريخ وتطور الأنادى وبيوت البغاء فى مديرية النيل الأزرق عقب سنوات الركود العظيم الاقتصادى الذى ضرب العالم فى الثلاثينيات، وكيف أن تلك الأنادى والبيوت (والتى كان البريطانيون يطلقون عليها تندرا اسم Cat Houses) ترقت مع السنوات وصار يرتادها موظفو مشروع الجزيرة من السودانيين، ومن الأجانب أيضا الذين كانوا يعانون من الوحدة والعزلة ويتوقون لـ" تواصل بشري". كانت تلك البيوت لبعضهم أيضا مكانا لتناول الطعام وشرب الجعة وتبادل الأخبار والغيبة والتعرف على أشخاص جدد (سودانيين وأجانب) فى إطار اجتماعى طليق ليس به حواجز، وللأنس بمختلف ضروبه، أى أنها كانت كما عبر عن ذلك موظف بريطانى "نادى متكامل"!

أتاحت أجواء تلك البيوت الحرية فى التعامل مع البريطانى بندية وثقة، فقد حدث ذات مرة أن تقدمت إحدى العاهرات بشكوى ضد أحد زبائنها من الموظفين البريطانيين واتهمته بسرقة شيء من ممتلكاتها، وفى المحكمة أدين الموظف بما اتهم به وفصل من عمله وأبعد خارج السودان. وهنالك أيضا قصة الموظف البريطانى والذى اتخذ له صديقة (دائمة) من السودانيات العاملات فى المهنة التى نحن بصددها، ولكنه هجرها فجأة وبعد ثلاثة سنوات من الصحبة بعد قدوم زوجته من بريطانيا. تقدمت المرأة السودانية بشكوى ضد صديقها السابق مطالبة إياه بتعويض مادي، وكان أن حكمت المحكمة لصالحها وأمرته بدفع ما طلبت من تعويض (بمعدل ثلاثة جنيهات فى كل شهر)، يجب ملاحظة أنه لا يتصور أبدا أن تقدم امرأة سودانية "محترمة" على التقدم بمثل ما ورد فى مثل تلك الحالات القضائية.

كذلك فتح الاتصال بين بيوت البغاء والبريطانيين مجالات مهن جديدة للنساء لم تكن مطروقة من قبل. فمع توسع المؤسسات العلاجية فى السودان فى سنوات الاستعمار الأخيرة ازداد الطلب على خدمات الممرضات، وكان غالب السودانيين يستهجنون عمل

المرأة ممرضة لتعارضه – بحسب قولهم – مع الإسلام، والذى يمنع اختلاط الجنسين. وجد البريطانيون فى النساء اللواتى كن يمتهن تلك المهنة فى السابق رغبة وقدرة على العمل كممرضات مجيدات (اعتمد المؤلفان فى هذا الجزء على ما أورده دكتور أحمد بيومى فى كتابه "تاريخ الخدمات الصحية فى السودان" والصادر بنيروبى فى عام ١٩٧٩م، وكتاب الإكسندر كروكوشانك عن "المغامرات الطبية فى جنوب السودان" والصادر عام ١٩٦٢م).

اختتم المؤلفان مقالهما بذكر ظروف الحرب فى بداية الخمسينيات بين الأثيوبيين والإرتيريين، والتى نتج عنها دخول عدد كبير من اللاجئين من نساء البلدين إلى شرق السودان، وعن امتهان هؤلاء النسوة مهنة البغاء كوسيلة لكسب العيش. وظفرت هؤلاء النسوة بنسبة مقدرة من "سوق العمل" فى هذا المجال. وكانت لكثير من النساء اللواتى اضطررن للعمل فى هذه المهنة أحاسيس وطنية عميقة مضادة للمستعمر، حتى إنهن قد رفضن يوم استقلال السودان واليوم الذى يليه (١ و٢ يناير ١٩٥٦م) تقديم أى نوع من الخدمات لزبائنهن من الرجال البيض!

عرض مختصر لكتاب "بكرة إن شاء الله بعض عادات أهل السودان"

بقلم: ألين إسماعيل

◇◇◇◇◇◇

تقديم: هذا عرض مختصر لكتاب السيدة الألمانية / السودانية الفاضلة ألين إسماعيل "بكرة إن شاء الله: نظرة لثقافة أهل السودان"، والصادر فى طبعته الثانية فى عام ١٩٨٦م عن دار نشر ألمانية هى Hundt Druck فى مدينة كولون. وكنت قد سمعت عن الكتاب فى عام صدوره ولم تتيسر لى فرصة الحصول عليه، إلا أن شهدت الشهر الماضى زوج المؤلفة البروفيسور الماحى إسماعيل (الخبير الموسيقى المشهور ومؤسس معهد الموسيقى والمسرح) يذكره فى لقاء تلفزيونى فسعيت للحصول عليه وعرض بعضا مما ورد فيه تعميما للفائدة وسعيا لتتبع ما كتب عن "السودان بعيون غربية".

يلاحظ أن كثيرًا من العادات فى السلوك وتفاصيل الحياة اليومية السودانية التى ذكرتها الكاتبة فى بداية ثمانينات القرن الماضى قد تغيرت جدًا فى سودان اليوم، مما يجعل كثيرًا مما ورد فى هذا الكتيب يتطلب المراجعة والتحديث، ولكنه يوفر أيضا موضوعا لدراسة ومقارنة التغيرات الاجتماعية المتسارعة التى حدثت فى البلاد فى العقود الأخيرة.

المؤلفة حاصلة على الدكتوراه فى علم الأنثربولجيا (علم الإنسان) من جامعة كولون، وقد عملت لفترات مختلفة بالتدريس فى جامعة الخرطوم وبالصحافة.

كاتب المقال

****

هذا كتيب صغير مكون من ٩٠ صفحة (مع ١٠ صفحات للصور الأبيض وأسود) من القطع الصغير بقلم الكاتبة الألمانية ألين اسماعيل، خصصته كما جاء فى مقدمتها "لمساعدة الأجنبى الزائر للسودان لفهم أهل البلاد وثقافتهم" ووصفت فيه بعضا من أنماط سلوكهم وتركيبتهم وعاداتهم الاجتماعية ومعاييرهم وقيمهم، وتعرضت لما اعترى المجتمع السودانى من تغيرات وهو "يترنح على حافة التقليد والحداثة" كما جاء فى تعبير لصحفى من صحيفة الأسكوتسمان معلقا على رواية "حارة المغنى" لليلى أبو العلا. فالمؤلفة تؤمن – كما قالت – بأن التفاهم بين الشعوب المختلفة لن يتأتى إلا بفهم (وتقدير) ثقافة كل شعب للآخر، ومعرفة واحترام ثقافته وعاداته. ولعل دافع الكاتبة لكتابة ونشر هذا الكتيب كان هو ما سمعته ولمسته لما يعترى الأجنبى الزائر للسودان من حيرة حيال بعض ما يراه ممارسا ومألوفا عند سكان البلاد. بيد أن الكاتبة – وبحكمة وتواضع وذكاء – تتحسب من الإدعاء بأنها قد أحاطت علما بكل العادات السودانية رغم طول احتكاكها المباشر بالسودانيين فى بلادهم، فسجلت محذرة الزائر الأجنبى أنها لا تضمن أن يتصرف كل سودانى ذات التصرف الذى ذكرته فى كتيبها إذ إنه لا صحة للنظرية التى تقول بأن لكل حافز أو منبه فى الحياة الواقعية استجابة محددة، وأضافت معتذرة عن التبسيط (المخل) بأنه من المستحيل الإحاطة فى كتيب صغير كمؤلفها هذا بكل عادات "المجتمع السوداني" وهو مكون من خليط (غير متجانس) من مئات القبائل والمجموعات السكانية يتحدثون بأكثر من ٥٠٠ لغة مختلفة.

اختارت المؤلف لكتيبها عن عمد عنوانا غامضا للقارئ الأجنبى هو "بكرة إن شاء الله"، يلخص فى نظرها كثيرًا من أنماط سلوك الإنسان السوداني، ولا مشاحة عندى فى أن المقصود هى خصل السوف والمطل والتأني (تقرأ البطء القاتل. كاتب المقال) حتى غدت "إن شاء الله" عند البعض لا تحمل إلا معنى عدم احتمال الحدوث! ويجدر بنا كسودانيين الإقرار بهذه الصفات والعمل على التخلص منها عوضا عن الإنكار والغضب على من يتجرأ على ذكرها. تقول المؤلفة فى آخر كتيبها أن قصدها من ذلك العنوان الغريب هو "خذ الأمور ببساطة Take it easy " ليس أكثر!

كان الكتيب ثمرة ملاحظات الكاتبة الشخصية بعد أن عاشت لعقود طويلة مع

زوجها السوداني في بلاده، واحتكاكها المباشر مع السودانيين والأجانب فيه، وكذلك كان مبنيا على المعلومات التي استقتها من استبانات ومقابلات شخصية مع بعضا من عامة السودانيين وصفوتهم ومع بعض المسؤولين بالدولة كذلك. من أهم ما تناولته الكاتبة أيضا أوضاع بنات جنسها السودانيات في ظل مجتمع تتنازعه بواعث التجديد والمعاصرة من ناحية، وتشده التزامات بقيم وتقاليد محافظة من جهة أخرى.

في صفحات الكتيب الأولى قدمت المؤلفة نبذة تاريخية وجغرافية عن السودان (وأشارت فيه لبدء حركة تمرد جنوبية جديدة اسمها "أنانيا ٢"، مدللة على الفترة التي كتبت فيها هذا الكتاب في عام ١٩٨٣م أو نحوه). عند الحديث عن تاريخ البلاد لم تنس أن تذكر "تجارة الرقيق" وكيف أن شمال السودان بدأ يستقبل فيضا متواليا من "العبيد" من جنوب السودان، وكيف أن كلمة "عبد" لا تزال تستعمل أحيانا في دارج لغة الشماليين العربية للإشارة للسودانيين الجنوبيين. أشارت المؤلفة إشارة مقتضبة لأن بعض المسترّقين من جنوب السودان قد وجدوا طريقهم للبيع في مصر وأجزاء أخرى من الإمبراطورية العثمانية، بيد أنه كان من الواجب في نظري أن تتوسع الكاتبة في أمر الرق قليلا، إذ إنه أمر يحرج ويؤرق الآن بال الكثيرين ممن ولغوا في مستنقعه من عرب وأفارقة وأوربيين، أو أن تشير إلى مصدر موثوق في ثبت مراجعها عن تلك التجارة البغيضة. كذلك لم أفهم ما كتبته المؤلفة عند الحديث عن المهدية من أن الخليفة عبد الله وبعد أن تمكن من هزيمة أعدائه "قام باستعدادات لإضعاف مجموعات قبيلة بعيدة عن المركز he made... preparations toweaken the centrifugal tribal groups" فربما كان العكس هو الصحيح! حفل كذلك ما كتبته المؤلفة عن تاريخ الأحزاب السياسية في السودان قبل وبعد الاستقلال ببعض الأخطاء، وما كان أغناها عن الخوض في كل ذلك في كتيب يهدف لإعطاء الزائر الأجنبي فكرة مبسطة وسريعة عن بعض أنماط سلوك وعادات رجال ونساء شمال السودان. فعلى سبيل المثال ذكرت المؤلفة وفي يسر وجزافية بأن نميري قد حل بعد انقلابه في ٢٥ من مايو ١٩٦٩م جميع الأحزاب السياسية عدا الحزب الشيوعي السوداني، والذي لم يحل بزعمها إلا بعد فشل انقلاب ١٩ من يوليو ١٩٧١م! كذلك وصفت ما حدث في ٦ من أبريل عام ١٩٨٥م بأنه "انقلاب أبيض بعد

أسابيع من المظاهرات"!

من غريب ما ذكرته المؤلفة وهى تصف السودانيين، هكذا جملة واحدة وقولا واحدا، وبتفسير أغرب بأن لديهم "كرامة طبيعية وثقة بالنفس natural dignity and self-confidence " بيد أنها تضيف بأنهم من ناحية أخرى وعند النظر إليهم كشعب، فإن لديهم أحيانا نوع من أنواع عقدة النقص inferiority complex بسبب الاحتكاكات الكبيرة بين الشمال والجنوب!

لعل حدس المؤلفة قد صدق حينما ذكرت بأن سكان جنوب السودان وعلى الرغم من عدم وجود سمات ثقافية مشتركة وبنية اجتماعية واحدة عندهم، فإنهم متفقون على أمر واحد ألا وهو ضرورة قيام دولة موحدة تضمهم جميعا.

اختارت المؤلفة عند الحديث عن المجموعات العرقية فى السودان أربعة عناصر تمثل كل واحدة قبائل الغرب والشرق والجنوب والشمال ووصفت ببعض التفصيل عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وما إلى ذلك من الخواص. اختارت الكبابيش (كمثال لقبيلة من الغرب) وأسهبت فى سرد بعض عاداتهم فى الزواج والطلاق وغير ذلك. ومن طريف ما ذكرته أن العريس عندهم يحرص على أن تكون علاقته جيدة بوالد زوجته، ولكنه يتحاشى ما وسعته الحيلة والدتها (وهو أمر قالت المؤلفة أنه شائع عند سائر القبائل الإفريقية). لخصت المؤلفة أمر الشايقية (كمثال لقبائل الشمال) فى صفحتين، ومما أثار انتباهى فى مقالها هو ما ذكرته من أن الوضع الاجتماعى والعرق أهم بالنسبة للشايقية من الغنى، وضربت لذلك مثلا بالقول بأنهم يعتبرون أن المنحدرين من نسل المسترقين السابقين أقل شأنا منهم رغم أن هؤلاء مسلمين وظلوا يقيمون معهم لأجيال خلت! كذلك أشارت لشيوع الختان الفرعونى فى أوساط بناتهم رغم أنه ممنوع قانونيا منذ عام ١٩٤٦م (وكان مصدرها هو كتاب الدكتورة أسماء الضرير الصادر فى عام ١٩٨٢م).

أما القبيلة التى اختارتها المؤلفة كممثلة لجنوب السودان فقد كانت قبيلة الدينكا. قالت بأن الدينكا قبيلة مكونة من نحو ٢٥ مجموعة عرقية مستقلة، يعرفون أنفسهم جميعا بأنهم جينغ jieng (ومفردها جانق jang) ويسمون كل ما سواهم جورور Juur ، وهو لفظ –بحسب ما قالته– لا يخلو من احتقار.

ذكرت المؤلفة أن الأبقار تستخدم عوضا عن النقد كمهر للعرس، والذى يتراوح بين ٤٠ — ٢٠٠ ثورا، ويرتفع المهر إن كانت العروس متعلمة. ذكرت كذلك أن عمر العريس غالبا ما يكون فوق الثلاثين عاما بسبب طول أمد فترة المفاوضات بين أهل العروس والعرس ودخول كثير من أهل الطرفين كوسطاء. أشارت المؤلفة مستعينة بكتاب دكتور فرانسيس دينق عن قومه أن الدينكا لهم رب واحد يسمونه **Nhialik**، وهم أناس تقليديون يفضلون أن "يتركهم الآخرون فى حالهم" ويكرهون تدخل أو دخول الآخرين فى أوساطهم خشية ضياع ذاتيتهم التقليدية المميزة.

كتبت المؤلفة عن الأنقسنا كممثلة للقبائل فى شرق السودان فقالت أن ليس للأنقسنا اسم واحد فى لغتهم، وأن اسم "الأنقسنا" هم اسم أعطاه لهم العرب أيام مملكة الفونج. لهذه القبيلة لهجات مختلفة ليست لها علاقة بلغات المجموعات العرقية التى تساكنهم أو تجاورهم.

تزعم المؤلفة أن الإسلام والمسيحية لم يصلا بعد لتلال الأنقسنا (كتب هذا القول فى بدايات ثمانينات القرن الماضي. كاتب المقال) وتقول معتمدة على كتاب دبليو جيمس عن الفونج والصادر فى عام ١٩٦٩م :إن الأنقسنا لهم ديانتهم الخاصة، فعندهم أن "تل **Tel**" يمثل الشمس التى يعدونها هى خالق الكون، وأقدس معابد الأنقسنا يوجد فى بوننغ قرب وسكا، وعند سكان كل جبل من جبالهم قائد دينى يظفر بالاحترام والتقديس وله دور سياسى أيضا.

عند الحديث عن التعليم فى السودان أوردت المؤلفة جدولا عن عدد طلاب المدارس الثانوية من الجنسين فى ١٥ ولاية / محافظة عن كتاب الإحصاء السنوى للسودان لعام ١٩٧٧م يذكر المرء بما جاء فى "الكتاب الأسود" مجهول المؤلف. فذكرت مثلا أن عدد طلاب المدارس الثانوية الذكور والإناث فى الخرطوم مثلا بلغ ٣٥٠٨ و٢١٤٦ على التوالي، بينما بلغ فى الجزيرة ٦٠٣٧ و٢١٥١، وفى جنوب كردفان ١٣٠٠ و٢٧١ على التوالى وكأنها تلمح لعدم تساوى الفرص فى التعليم بين مناطق السودان المختلفة، بيد أنها أغفلت ذكر عدد السكان الكلى فى المناطق التى ذكرتها. ذكرت الكاتبة أيضا أنه فى عام ١٩٨٤م وجد أن ٨٠٪ من خريجى الجامعات السودانية قد تقدموا للعمل فى دول الخليج

العربي الغنية بالنفط.

أفردت المؤلفة فصلا كاملا من ١٠ صفحات عن الدين فى السودان، أفردت فيه أقساما للحديث عن الإسلام التقليدى والإسلام الشعبوي، والشريعة، وأركان وقواعد الإسلام والعبادات مثل صوم رمضان (والذى تطرقت فيه لبعض أنواع المأكولات والمشروبات التقليدية فيه مثل الحلومر والأبرى واللقمة وغير ذلك) والحج والطقوس التى تصاحب العودة من الحج وما يزين به بيت الحاج عند قدومه من الأراضي المقدسة. كتبت أيضا عن المسيحية وعن أن اللورد كتشنر (والذى حكم السودان بين عامى ١٨٩٨ –١٨٩٨م) لم يشجع على التبشير المسيحى فى شمال السودان خشية استفزاز المسلمين، بيد أن الحكومة وتحت ضغوط من الرأى العام البريطانى حينها سمحت بالتبشير المسيحى لأول مرة فى جنوب السودان عام ١٩٠١م. وفى العام الذى يليه قامت الإرسالية الأميركية بفتح أول بعثة تبشيرية لها وسط قبيلة الشلك.

والآن (حوالى عام ١٩٨٤م) يقدر عدد المسيحيين فى السودان بمليونين غالبهم من متعلمى الجنوب. كذلك توجد بالبلاد كثير من الديانات التقليدية المختلفة، والقاسم المشترك الأعظم بين معتنقى هذه الديانات والمسلمين والمسيحيين فى السودان هو أن سلوك وتصرفات معتنقى هذه الديانات مرتبط أشد الارتباط بعقيدتهم، وتنصح المؤلفة الأجنبى بتوخى الحيطة والحذر عندما يشاهد تصرفا غير مألوف له من أصحاب تلك الديانات!

فى فصل آخر ركزت المؤلفة على البنية الاجتماعية لكثير من السودانيين وعن اهتمامهم الشديد بالأنساب والأصل العرقي، وعن أن الإسلام يمثل "الإطار الهيكلي" لحياتهم، ويعلمهم القبول (السالب) بالقضاء والقدر. تصنف الكاتبة إسلام السودانيين بكل المقاييس على أنه "إسلام ليبرالي" مع استثناء الأصوليين (وذكرت أنها تقصد "الجبهة الإسلامية") والذين وصفتهم بأنهم أقلية متحمسة وذات دافعية عالية ويمثلون حركة فاعلة ونشطة سياسيا.

قدمت المؤلفة فى فصل آخر عرضا مختصرا عن العائلة ودورها فى السودان، وعن طقوس الزواج والختان (للجنسين) والطلاق فيه مما قد يجده الأجنبى أمورا غريبة غير

مألوفة. كتبت أيضا عن التغيرات الثقافية التى اعترت المجتمع خاصة فى المدن الكبيرة، والتى تصيب كبار السن من السودانيين بالامتعاض والترقب والخوف، خاصة تلك التى تعد من تأثير الحضارة الغربية.

من ما ذكرته الكاتبة -وهى صادقة- ضعف إحساس السودانيين بالوقت وقيمته، وترى أن الأجنبى فى السودان يجب أن يتحلى بالصبر كى يتمكن من قضاء أبسط الأمور، فلا سبب يدعو للعجلة، وأن من الحكمة ألا يفقد المرء كرامته وهو يحاول استعجال أمر ما، فالأمور كلها تؤخذ بتريث وتطويل و"مهلة" حبلها يربط ويفضل كما يقولون. تعتقد الكاتبة إن كثيرًا من المنازل ليست بها ساعات (حائطية) وإن وجدت فهى مجرد ديكور.

يستخدم الكثيرون الشمس للمواقيت، فإن قال لك السودانى إنه سيزورك فى ما بعد الظهيرة فسيزورك فى وقت ما بين الساعة الخامسة إلى الثامنة مساء، أو حتى الساعة الحادية عشر ليلا! وفى بعض الحالات قد يزورك دون سبب وفى أى وقت فقط لأنه وجد نفسه بالقرب من الحى الذى تسكنه.

يجد السودانيون صعوبة شديدة فى فهم أن هنالك أناسا فى هذا العالم "يعيشوا ليعملوا" بينما الحال عند معظم السودانيين أن "يعملوا ليعيشوا"! فالطقس فى السودان يعيق معدل سرعة العمل (مقارنة مع طقس البلدان الباردة والمعتدلة الجو).

لاحظت الكاتبة أن كثيرًا من السودانيين يعافون العمل الذى لم يطلب منهم تحديدا، بينما هو مما يعد متوقعا من العاملين من أمثالهم فى المناطق الأخرى، فالموظف مثلا لا ينظف سيارة الدولة التى يستخدمها، والطباخ لن ينظف (من تلقاء نفسه) أرضية المطبخ الذى يعمل فيه، وهكذا. قد يرى البعض فى مثل هذه الأقوال الصريحة بعض العنصرية والشعور بالفوقية أو الأبوية، ولكن يجب فى الوقت ذاته الاعتراف بأن ما ذكرته المؤلفة فى هذا الجانب صحيح ومشاهد ومعلوم لكل من أتيحت له فرصة الدراسة أو العمل فى السودان وفى غيره من البلدان.

قدمت المؤلفة بضع نصائح للأجنبى فى أمور يومية مثل التحية (بالعناق أو المصافحة أو هز الرأس). مما ذكرته الكاتبة أن الرجل يمكن أن يسأل عن صحة عائلة من يصافحه، ولكنه لا ينبغي أن يسأل تحديدا عن صحة زوجه إذ أنها جزء من "العائلة"! قد تستغرق

عملية التحية وقتا طويلا تتعالى فيه الأصوات ويكون مصحوبا بلفتات وحركات معينة، وكل ذلك ينبغي أن يتم قبل الدخول في الغرض الذي أتى الشخص الزائر من أجله! تطرقت أيضا لأمر "الزيارة" وطقوسها ووصفت التزاور في البلاد بأنه من أهم الوسائل لتزجية الوقت وعدته "هواية وطنية / قومية"، وبأنه أمر لا عجلة فيه ولا سرعة، بل يجب أن يتم في تمهل وأناة وبكل الطقوس والشكليات الواجبة، مثل تقديم المشروبات الباردة أولا والتي يعقبها القهوة أو الشاي. تكون أغلب زيارات النساء (المتبادلة) لبعضهن في الصباح بين الساعة الحادية عشرة صباحا والواحدة ظهرا، بينما تكون أغلب زيارات الرجال بين الخامسة والسابعة ليلا، وقد يصر المضيف على تقديم العشاء لزائره إن تأخر الوقت عن ذلك! (صار كل ما ذكر "أثرا بعد عين" عند غالب سكان المدن الكبرى في العقدين الأخيرين لأسباب معلومة. كاتب المقال).

من أطرف ما ذكرته الكاتبة عن عادات السودانيين هو طريقتهم في قيادة السيارات، وهي طريقة أقل ما توصف به هو أنها مروعة (لعل المؤلفة لم تر سلوك السائقين في بعض الدول العربية. كاتب المقال). وتساهم المؤلفة في إنقاذ حياة الأجنبي الذي ينوي الدخول في مغامرة قيادة سيارة في المدينة بنصحه بحس فكاهي بالتالي:

لا تثق أبدا في الإشارات الضوئية (إن صادف أنها كانت تعمل!) فيجب أن تعيد النظر كرتين (أو أكثر) في الشارع والشارع المتقاطع معه حتى تتأكد من خلوه من المارة أو الحمير أو الكلاب أو غير ذلك من المخلوقات. ولأن تلك المخلوقات قد تظهر فجأة ودون سابق إنذار فينبغي التقليل من السرعة لأقصى حد عملي.

لا تنس أن تركز في التصرفات المحتملة للسائق خلفك والسائق أمامك، فالسيارات في الغالب ليست في أفضل حالاتها، وقد لا تعمل إشاراتها وكوابحها الخ

يجب فهم الإشارات الجسدية التي يقوم بها السائقون، فهنالك إشارة تعني "اصبر قليلا" وأخرى تعني "أعطني مساحة لأمر من أمامك" وأخرى تعني "دعني أدخل في مسار العربات أمامك"، ولا تنس أن ما يقوم به السائق أمامك أحيانا من حركات بيده إن هو إلا جزء من نقاش حام دخل فيه مع من يركب بجواره!

من أجمل فصول الكتيب هو تلك الصفحات الأخيرة التي عرضت فيها لصور قامت

المؤلفة بالتقاطها فى أماكن متفرقة من السودان، فهنالك مثلا صورة لكنيسة فى القضارف، وقبة فى الأبيض، وبيت متهدم فى سواكن، وأخرى لبص كادقلى – الأبيض يقف فى الطريق الصحراوي، وصورة لشارع فى الجنينة بدارفور. بيد أن أجمل الصور وأكثرها تعبيرا فى نظرى هى للأطفال خاصة تلك التى كانت لأم تقوم فى اجتهاد بائن بتسريح شعر إحدى بناتها وأخواتها ينتظرن دورهن وقد علت وجوههن البريئة بسمات مشرقات.

فى الختام لا شك أن المؤلفة قد قامت بجهد مشكور فى زمن تثاقل الناس فيه عن الكتابة الموثقة بعد أن انقضى عهد الكتاب الأوربيين الأوائل من ذوى الأغراض (الأكاديمية وغيرها)، ولا ريب أن لهذا الكتيب، على علاته (وأى كتاب يسلم من العلات!) فوائد جمة للزائر الأجنبى للسودان (هذا إذا وقع تحت يده، فالكتاب الآن من الكتب النادرة، ولعل نسخه القليلة التى كانت متوفرة فى منافذ البيع الإسفيرية للكتب الجديدة والمستعملة مثل "أمازون" قد نفذت الآن)، ولكن مما قد يؤخذ على هذا الكتيب، كما قد أوردنا فى أماكن متفرقة فى هذا العرض، التبسيط (المخل أحيانا كثيرة) فى شرح بعض الأمور السياسية والاجتماعية المعقدة، والتعميم المفرط فى أمور تتباين كثيرًا فى أقاليم السودان المختلفة. أرى هذا أن الكتيب —وبعد التحديث والتصويب والتنقيح والإضافة – يصلح كمقدمة مختصرة للقارئ الأجنبى الذى يرغب فى الحصول على معلومات وانطباعات شخصية لسيدة أوربية عاشت فى السودان سنين عددا (فهى كما ورد فى كتيبها متزوجة من سودانى منذ عام ١٩٥٧م)، وأتمنى أن تجد المؤلفة أو من تثق به الوقت لتقوم بإصدار طبعة محدثة ومصوبة لهذا الكتيب، تماما كما أتمنى أن نقرأ كذلك فى المستقبل القريب للأستاذة جوهرة (جريزلدا) عبد الله الطيب كتابا يحكى عن تجربتها فى العيش فى السودان، وسيكون ذلك بلا ريب من أمتع الكتب وأغناها فى مجاله.

شذرات متفرقة ما جاء عن السودان في كتاب "أغنية الفداء: قصة عملية موسى"

Redemption Song

لويس رابو بورت

Louis Rapoport

◇◇◇◇◇◇

مقدمة: هذا عرض وترجمة مختصرة لقليل مما جاء عن السودان في كتاب بعنوان من تأليف الصحفي الأمريكي لويس رابورت الذي كان يعمل محررا في صحيفة "جوريسلم بوست". والكتاب كما هو واضح من العنوان يتناول العملية السرية المسماة "عملية موسى" والتي قامت بها إسرائيل في منتصف ثمانينات القرن الماضي لترحيل اليهود الفلاشا من أثيوبيا إلى إسرائيل عبر أراضي وأجواء السودان. صدر الكتاب عن دار نشر HBJ في الولايات المتحدة عام ١٩٨٦م. للمؤلف مقالات كثيرة وكتبا عديدة أخرى تتناول في غالبها قضايا اليهود في مختلف أنحاء العالم مثل كتابه "اليهود الضائعون" و"تاريخ المحرقة" و"تاريخ اليهود" وغير ذلك. المترجم.

***

فى الفصل الثالث للكتاب (والمعنون "المدرس") حكى المؤلف عن قصة اليهود الفلاشا وعن تاريخ المجهودات التى قام بها نفر من اليهود فى الذهاب لهؤلاء فى مناطقهم فى أثيوبيا وفى اختيار الصغار النابهين منهم وإرسالهم للتعليم فى فلسطين ودول أوربية أخرى عديدة. توسع المؤلف فى وصف تاريخ حياة واحد من هؤلاء الصبية الأثيوبيين اليهود (من "بيتا إسرائيل beta Israel الذين هم جماعات اليهود الذين يعيشون فى شمال وشمال غرب أثيوبيا) لم يكن لديهم فى خمسينيات القرن الماضى قائد يتحدث باسمهم غير شخص اسمه يونا بوقولا والمولود فى قوندار فى عام ١٩٠٨م. كان ذلك الرجل الإثيوبى اليهودى رجلًا مثقفا ومجيدا لعدد من اللغات منها العربية والإنجليزية والإيديش والإيطالية والألمانية، بالإضافة لعدد من اللغات الإثيوبية. كان الرجل، وفى السنوات التى سبقت عام ١٩٧٩م (حين هاجر إلى إسرائيل وهو فى سن الواحدة والسبعين) يداوم على إثارة قضية يهود ا أثيوبيا فى أوساط المحافل والتجمعات الرسمية والشعبية لليهود. أثمرت جهود يونا بوقولا وأستاذه فيت لوفيتش وغيرهم عن اقتناع كبار رجال الدين اليهودى بصحة "يهودية" الفلاشا بحسب القانون اليهودى المعروف باسم هالاشا، وإصدارهم لبيان بذلك المعنى فى ٩/٢/١٩٧٣م. جاء فى ذلك البيان أن "الفلاشا هم من نسل قبيلة إسرائيلية هاجرت للجنوب لتستقر فى إثيوبيا". قرر المسؤولون الإسرائيليون فى ١٤/ ٣/ ١٩٧٧م أن قانون "عودة اليهود لدولة إسرائيل" ينطبق على اليهود الإثيوبيين أيضا فقاموا بين عامى ١٩٧٩ و١٩٩٠م بترحليهم عبر السودان فى عملية سموها "عملية إخوان Operation Brothers" كانت أضخمها "عملية موسى Operation Moses" التى هى موضوع هذا الكتاب.

أدى الجفاف والتصحر والمجاعة لموت عدد كبير من الفلاشا فى إثيوبيا، وتكتمت إثيوبيا بقيادة الإمبراطور هيلاسلاسى على تلك المجاعة وعلى موت آلاف الفلاشا ونفوق بهائمهم، وتعذر القيام بمد يد العون والمساعدة لهم حيث هم لصعوبة الوصول لأماكنهم النائية القصية. كذلك تعرض الفلاشا للاضطهاد والتهجير القسرى من بعد سقوط الإمبراطور فى عام ١٩٧٤م وتولى حكومة يسارية التوجه مقاليد الحكم فى البلاد. ازدادت معاناة الفلاشا مع مرور السنوات، فكتبوا للمجلس اليهودى العالمى خطابا يناشدون فيه

يهود العالم لإنقاذهم "من المسيحيين الذين يقتلوننا ويهجروننا من أرضنا ويزعمون أننا نمص دماءهم..." بحسب ما ورد فى ذلك النداء المستغيث.

***

فى عام ١٩٨٢م أعلن نميرى عن بدء العمل بقوانين الشريعة الإسلامية (الصحيح بالطبع أن تلك القوانين أعلنت فى ١٩٨٣م. المترجم) والتى تضمنت عقوبات الشنق فى الميادين العامة، وقطع أطراف اللصوص والمهربين. رغم توجهه الإسلامى مضى نميرى فى محاربة المسلمين الأصوليين بقيادة الإخوان المسلمين (والذين كان يسميهم "إخوان الشياطين"). وما أن أتى عام ١٩٨٤م حتى وقعت البلاد فى قبضة موجات جفاف وتصحر ومجاعات، وانكمش الاقتصاد بأكثر من معدل هبوط منسوب النيل لأقل مستوى مسجل له فى التاريخ، ووجهت الحكومة كل ما تبقى لها من موارد شحيحة لقتال المحاربين الوثنيين والمسيحيين فى الجنوب. تدفق آلاف اللاجئين على حدود السودان من أثيوبيا وتشاد، وتمادت ليبيا وإثيوبيا فى التدخل السافر فى شؤون السودان، وطفق رجال البنوك الخليجية يحلبون ما بقى فى البلاد من مال ولا يقدمون لها شيئا يذكر. باختصار، كان عند نميرى ما يشغله وأكثر عن متابعة أمر الفلاشا وترحيلهم من بلاده.

مضت إسرائيل و دون عون من المانح الأكبر للسودان (أى الولايات المتحدة) تخطط لترحيل يهودها الفلاشا من السودان إلى أن بقى على تنفيذ عملية ترحيلهم جوا (والتى أسميت عملية موسى) بضعة شهور قليلة. فى غضون تلك الشهور ظلت الاتصالات مع المسؤولين السودانيين عشوائية وغير منتظمة.

فى السنوات الست التى قضاها مناحم بيجن على رأس الحكومة الإسرائيلية والتى انقضت فى نهاية ١٩٨٣م اكتمل ترحيل ٣٠٠٠ من يهود الفلاشا إلى إسرائيل. بيد أن الأهم من ذلك هو أن ما فعله بيجن قد بدأ عمليات الترحيل ومهد الطريق لمزيد من عمليات النقل والتى رحلت أعداد أضخم فيما أقبل من أعوام.

***

تعد الخرطوم، تلك المدينة الصحراوية المتربة، مكانا لالتقاء الناس، ولالتقاء النيلين الأبيض والأزرق أيضا. تأتى غالب مياه النيل من النيل الأزرق الذى توجد منابعه فى أثيوبيا حيث تمر سريعا على الأرض التى ظل الفلاشا يقطنونها منذ عقود سحيقة القدم. تعد الخرطوم كذلك ملتقى طرق للعرب والأفارقة وللمسلمين والمسيحيين كذلك. كانت الخرطوم بكل صفاتها تلك هى مركز عملية تهجير اليهود الفلاشا لإسرائيل. كان "يهودا" من ضمن عدد قليل يعد على أصابع اليد الواحدة من العملاء الذين بعثت بهم إسرائيل للسودان فى أوقات معينة بالغة الحرج لمتابعة "عملية موسى". كانت أهم إنجازات "يهودا" فى الشهور العشرة التى صرمها بالسودان فى عام ١٩٨٠م هى نجاحه فى ترحيل مجموعات صغيرة من اليهود الفلاشا خارج السودان، وتمهيده لعمليات قادمة تم فيها بنجاح إخراج أعداد ضخمة نسبيا من هؤلاء الفلاشا.

كان الخرطوم تبدو كمشروع بناء ضخم لم يكتمل العمل فيه بعد، فهى مغبرة وواهنة ومتعفنة. الحرارة فيها بالغة الارتفاع (قد تصل إلى التسعين بمقياس فهرنهايت) وتصيب المرء بالإعياء حتى فى شهر يناير، والذى يعد أبرد فصول العام. كان طقس الخرطوم بالنسبة ليهودا، والذى ألف جو مرتفعات إثيوبيا البارد وطقس مدينة القدس اللطيف، حارا لا يطاق. كان يستأجر –كغيره من زوار المدينة من الأجانب– سيارة أجرة غالية الأجرة لأقل المشاوير قصرا وذلك تفاديا لضربات الشمس. رغم ذلك لم ينقطع عن تذكر حال مئات الآلاف من قومه فى المعسكرات شرق الخرطوم، وهم جوعى وعراة ومصابين بمختلف أمراض سوء التغذية.

كان يهودا يستخدم بالطبع أوراقا مزيفة واسما مستعارا، فقد كانت مهمته بالغ الحرج والخطورة وكان يغامر فيها بحياته. حتى ذلك الوقت (وإلى صيف ١٩٨٤م) لم يكن جهاز الأمن والمخابرات السودانى قد بدأ التعاون بعد مع إسرائيل، ولم يتعاونوا إلا لاحقا بعد تدخل ووساطة أمريكية كانت تتحدث باسم الإسرائيليين. أتى بعد يهودا الذى عمل كمنسق عام لعملية ترحيل الفلاشا رجل آخر اسمه "تقرين فلاشا" بيد أن ذلك الرجل اليهودى التقراى لم يكن مدربا بما يكفى لذلك النوع من العمليات، فنجحت السلطات السودانية فى اعتقاله بعد وصوله بوقت قصير، وتطلبت عملية إطلاق سراحه المعقدة

تدخل جهات عديدة فى أماكن متفرقة. يجب أن نذكر هنا أن يهودا لم يكن أيضا عميلا محترفا، بيد أنه بدأ يمارس ذلك النوع من العمل منذ عام ١٩٧٧، وتدرب على العمل فى غضون سنوات مهمته، وكان رجلًا بالغ الحرص يدرك تماما حدود قدراته وإمكاناته، ويتذكر دوما ما فشل من محاولات سابقة لترحيل الفلاشا.

أحس يهودا براحة عظيمة فى عمله وهو يجوب فى الخرطوم بشوارعها المغبرة المكتظة بالبشر من كل جنس ولون فى أزيائهم المتنوعة. كان عمله يسير دون ضغوط تذكر، إذ إن كل من قابله من السودانيين كانوا جد لطفاء وكرماء معه، وكانوا يعاملونه بحرارة ومودة. كان من بين هؤلاء مسؤول كبير استخرج له إقامة (visa) نظير "بقشيش" مقدر! رغم ذلك فقد كان يهودا يلزم دوما جانب الحذر ولا يختلط بالسودانيين أو غيرهم كثيرا، وقلما يقابل أحدًا ليس له عنده من حاجة.

ذات مساء كان يهودا يجد فى طريقه نحو فندقه المتواضع المسمى "الأكربول" فى وسط الخرطوم عندما سمع من خلفه صوتا يناديه باسمه. تجاهل يهودا ذلك المنادي، وكان رجلًا يهوديا إثيوبيًا يعرف يهودا من أيامه فى أديس أبابا. تنبه الرجل إلى أن تجاهل يهودا له يعنى أن فى الأمر سرا فتوقف عن مناداته ومضى فى طريق آخر وابتلعه زحام السابلة. شاءت الأقدار أن يلتقى يهودا بذات الرجل بعد ذلك بسنوات وهما فى مطار "بن غوريون" وكانت تلك الحادثة فى الخرطوم مصدر تندر ضاحك لهما. لم يقبض على يهودا فى الخرطوم غير مرة واحدة، حين قام من قبض عليه بتفتيشه فوجد فى جيبه مبلغ ٢٥٠ دولار، فاتهمه على الفور بأنه لا بد أن يكون قد سرق ذلك المبلغ. نفى يهودا ذلك وقال إنه يعمل مدرسا، وهو يقيم فى السودان كلاجئ سياسي، وأن ذلك المبلغ كان قد بعث به إليه قريبه فى إيطاليا. وكالعادة حسم الأمر بالطريقة التقليدية (والمتوقعة) بأن تنازل يهودا عن معظم المبلغ لمن قبض عليه واستبقى لنفسه (درءا للشبهة) مبلغا قليلا من ما وجد عنده. فى الواقع كان يهودا لحظة القبض عليه يحمل مبلغ ٢٠٠٠ دولار فى حذائه! كان الرجل الحريص يحتفظ بمبالغ كبيرة من الدولارات فى أماكن متفرقة من العاصمة، وفى القضارف أيضا، حيث كانت تعد مركزا للاجئين.

***

فى ربيع عام ١٩٨٠م اكتمل وصول بضع آلاف من الفلاشا لمعسكرات اللاجئين. قام حينها يهودا بالتشاور مع العملاء الإسرائيليين الآخرين الذين دخلوا للسودان عن طريق جوبا فى الجنوب، أو بالطيران للخرطوم من كينيا للاتصال بهؤلاء الفلاشا وإخبارهم بأنهم سيرحلون خارج البلاد فى مجموعات صغيرة لا تزيد الواحدة عن ١٥ – ٣٠ فردا كل أسبوع بالحافلات أو الشاحنات أو بسيارات "لاند روفر". أخبرهم أيضا بأنهم سيقضون بعض الوقت بالقضارف ريثما يتم نقلهم للخرطوم للسكن فى "بيوت آمنة" إلى أن يمكن تسفيرهم جوًا إلى أثينا أو باريس.

فى غضون شهرين فقط استطاع يهودا أن يساعد الجهات الأمنية الإسرائيلية على بناء شبكة متكاملة من العملاء تقوم بالعمل على تسهيل الترحيل الداخلى واستخراج وثائق وتصاريح المرور من وزارة الداخلية والشرطة والصليب الأحمر والموظفين السودانيين من العاملين فى شؤون اللاجئين. كان يمكن – وبسهولة – تغيير الصور والأسماء فى تلك الوثائق والتصاريح وإضافة صور عوائل كاملة عوضا عن صورة شخص واحد فى كل وثيقة. كانت العقبة الكأداء هى توفير "بيوت آمنة" فى الخرطوم. كان من المتعذر استئجار منازل ليعيش فيها عشرات من اللاجئين الأثيوبيين دون أن يثير ذلك الانتباه. إضافة لذلك فقد كان سوق استئجار المنازل المناسبة محدودا جدًا فى الخرطوم. ولكن نجح يهودا أخيرا – وبمساعدة سيدة من دولة مجاورة للسودان تعمل فى "أقدم مهنة فى التاريخ" – فى استئجار بيت واسع يلاصق بيتا للدعارة. كان ذلك "البيت الآمن" يضم فى بعض الأوقات ما لا يقل عن خمسين شخصا، وكان من المتعذر أحيانا الحفاظ على سرية المكان. كان كثيرًا ما يشتكى الجيران من الضجة التى يحدثها ذلك العدد الكبير من السكان، بل قامت ذات مرة إحدى العاهرات فى البيت المجاور بتقديم شكوى للشرطة من إزعاج سكان ذلك البيت الكبير! كان يهودا يتولى بطرقه الخاصة تسوية تلك الشكاوى، بيد أنه اضطر فى نهاية المطاف للبحث عن بيت أكثر أمنا وخصوصية. كذلك حرص يهودا على التنقل المستمر بين الفنادق، فسكن لمدد مختلفة فى فنادق فخمة (مثل فندق قاعة الصداقة) وفنادق أخرى متواضعة موبوءة ببعوض الملاريا، بيد أن اجتماعاته السرية مع العملاء الإسرائيليين كانت تتم دوما فى المطاعم والسيارات حيث يتم فيها تبادل مبالغ ضخمة من

الأموال محشوة فى أكياس بلاستيكية سوداء. كان يهودا يحصل كل أسبوعين على ٩٠ألف جنيه سودانى (تعادل حينها ٢٠ ألف دولار) ليوزعها على قادة اللجان المصغرة الذين عينهم يهودا لتوزيع الأموال على زملائهم اللاجئين والذين كان يبلغ عددهم نحو ٣٠٠٠ من اليهود الأثيوبيين. حل توزيع تلك الأموال على اللاجئين مشاكل عديدة، بيد أنه خلق مشاكل من نوع جديد تمثل فى الصراع حول المبالغ المعطاة وعدالة توزيعها، وأثار كذلك الشك (والغيرة) فى نفوس بعض اللاجئين الآخرين من غير الفلاشا.

كانت أصعب مراحل العملية هى توفير وسائل النقل الكافى والمناسب لهؤلاء اللاجئين، فقد كان السودان يمر بحالة حرجة من النقص فى المواد البترولية حتى أن طائرة نميرى رئيس البلاد نفسه كانت تحمل بكثير من الوقود الإضافى عندما يستقلها للسفر لجوبا، خوفا من عدم وجود وقود كافى فى تلك المدينة! تحتم شراء كل شيء فى "السوق الأسود" وبأسعار مضاعفة. كان استئجار سيارة "لاند روفر" لبضعة أيام يكلف قرابة الألف من الدولارات، وكان الوصول للقضارف يستغرق نحوا من خمس ساعات كاملة. كانوا يغادرون الخرطوم للقضارف فى الفجر الباكر حتى يضمنوا رجوعهم منها للخرطوم قبل المغيب حين تقل السابلة فى الطريق ولا يثير إنزال أعداد كبيرة من اللاجئين فى ذلك "البيت الآمن" أى شبهة من أحد المارة. لم تكن نقاط التفتيش التى يقيمها الجيش أو الشرطة تمثل أى عقبة حقيقية ليهودا فقد تعلم أن الرشوة بالمال يمكن أن تحل أى مشكل طارئ.

أشاد يهودا بحرفية العملاء الإسرائيليين الذين عملوا فى تلك المهمة الخطرة، فهم يجيدون اللغة العربية باللهجة السودانية، ويجيدون كذلك التخفى والعمل تحت مختلف الظروف، فقد تجد أحدهم يرتدى يومًا حلة أنيقة ورباط عنق حريرى وهو يناقش فى تفاصيل عقد ما، ثم تراه بعد أيام وهو يجوب شوارع الخرطوم المغبرة فى ثياب رثة وكأنه متشرد بائس. حكى يهودا قصة عجيبة عن حادث وقع لهم وهم فى طريقهم بسيارتى "لاند روفر" حيث تعطلت إحدى السيارتين ولم يجدوا سلسلة حديدية لجرها. اضطر عميل اسرائيلى للمشى لمدة ١٠ أميال للقضارف حيث لجأ لتسلق سور كنيسة هناك و"صادر" سلسلة حديدية من مخزن سياراتها. قال فيما بعد ضاحكا: "يدين الفاتيكان

لليهود بأكثر من هذا"! حكى يهودا أيضا قصة أكثر غرابة حين تم وضع بعض الفلاشا الإثيوبيين عن طريق الخطأ فى طائرة الخطوط العربية السعودية (وليس الخطوط اليونانية المعروفة باسم "أولمبيك" كما كان مقدرا) ، وتم اكتشاف الأمر وإصلاحه فى آخر لحظة!

***

ذكرت بعض المصادر أن المكتب السامى لشؤون اللاجئين فى السودان لعب دورا مهما فى إخراج الفلاشا لإسرائيل عبر السودان، وذلك بتسهيل استخراج التصاريح والتأشيرات، بيد أن الإسرائيليين ينفون ذلك نفيا قاطعا وقال: إن ذلك المكتب لم يكن ليساعد فى خروج اليهود الفلاشا فقط دون غيرهم من كل اللاجئين، فإنه إن فعل ذلك فسيعرض نفسه للتهم التحيز ومخالفة القانون.

***

لم تقم أى جهة رسمية أو مسؤول حكومى سودانى بالتعاون الصريح فى عملية نقل الفلاشا لإسرائيل، بل لقد قامت السلطات السودانية فى بعض الأحايين بين عامى ١٩٨٠ – ١٩٨٤م باعتقال من يشكون أنه من عملاء الفلاشا. يجب القول هنا أن الحكومة السودانية لم تكن على علم كامل بمدى تورط جهاز الاستخبارات الإسرائيلية فى تلك العملية ، بيد أنهم لا بد أن يكونوا قد أحسوا بأن هنالك "شيئا ما" يجرى التحضير له، وظل الرئيس نميرى – مع كان يحيط به من مشاكل – يغض الطرف عن حقيقية أن اليهود الفلاشا كانوا ينقلون من بلاده إلى إسرائيل، مثلما حدث حين حطت طائرة "هيركيوليس" ضخمة فى صباح يوم ١٦ مارس ١٩٨٢م فى أرض يباب بمنطقة مغبرة تقع فى منتصف الطريق بين معسكرى اللاجئين فى "تواوا" و"أم راكوبة" (التى أطلق عليها الكاتب فى الفصل الخامس "أم الطاعون". المترجم). كان من المفروض أن تقل تلك الطائرة مائة من الفلاشا، بيد أن عدد من كانوا فى انتظارها بلغ ألفا، وتسببت الفوضى التى حدثت عقب ذلك فى حادث سيارة مات فيها بعضهم. تكرر هبوط تلك الطائرات الكبيرة التى تنقل الفلاشا حتى آخر رحلة لها فى يوم ٤ مايو ١٩٨٤م ، ولفت ذلك نظر بعض رعاة الأبل فى المنطقة ، ومن بعد ذلك ذاع نبأ ترحيل الفلاشا فوصل إلى أسماع الأوساط الدبلوماسية والمخابراتية فى الخرطوم. بيد أنه من الثابت أن ما من أحد خارج الدوائر الإسرائيلية كان

على علم كامل بكل تفاصيل العملية.

***

قمت فى تلك السنوات بزيارة للخرطوم ومعسكرات اللاجئين. لم أفصح بالطبع عن اهتمامى بالفلاشا، بيد أن بعض المتعلمين السودانيين كانوا كثيرًا ما يسألوننى عن ما إذا كنت أنوى الكتابة عن الوضع العام فى البلاد أم عن عملية ترحيل اليهود الفلاشا تحديدا. كان كثير من السودانيين يلخصون رأيهم فى تلك العملية بطريقة ساخرة/ عائبة cynical ويقولون : إن تلك العملية لابد أن تكون قد أدخلت فى جيب النميرى ونائبه ع. م. الطيب مالا كثيرا. لم يكن ذلك بصحيح.

لم يصرح أحد من المسؤولين السودانيين بشيء عن أمر نقل الفلاشا سوى ما أدلى به متحدث عسكرى لم يقل إلا ما يعرفه الجميع سلفا. صرح الرجل فيما بعد بالقول: "يكرهنا العرب الآن بسبب الفلاشا". وفر ترحيل الفلاشا لمعارضى نميرى الكثر أسلحة إضافية لمهاجمة نظامه، وأدت تداعيات الأحداث السياسية والاقتصادية فى السودان للإطاحة بنميرى فى انقلاب عسكرى فى أبريل من عام ١٩٨٥م ، بيد أنه ما من أحد فى السودان يعتقد جادا أن لـ"عملية موسى" دخلا فى سقوط نميري.

تلت "عملية موسى" عملية أخرى سميت "عملية سبأ"Operation Sheba" شاركت فى وضع لمساتها الأخيرة فى أوائل عام ١٩٨٥م أطراف من المخابرات السودانية والأمريكية لاستكمال تهجير الفلاشا من السودان (بحسب بعض المصادر سميت تلك العملية أيضا بعملية يوشع بن نون Operation Joshua وتم فيها ترحيل ٤٩٤ من اليهود الفلاشا لإسرائيل. المترجم).

حول كتاب "حياتى وبلادى وعالمي"للدبلوماسى الأمريكى السابق بالخرطوم
جيمس ليونارد ماك

My Life My Country My World by James L. Mack

◇◇◇◇◇◇

هذا عرض وتلخيص مختصر لبعض ما ورد فى فصل عن السودان بين عامى ١٩٦٤–١٩٦٧م فيمذكرات السيد/ جيمس ليونارد ماك الدبلوماسى الأميركى السابق فى الخرطوم عن أيام عمله فى سفارة بلاده فى الخرطوم فى منتصف ستينات القرن الماضى ، وعن بعض آرائه وخواطره ونظرته للأحداث فى السودان وما حوله فى تلك السنوات. صدرت المذكرات فيكتاب من ١٤٠ صفحة من القطع الكبير من دار "دورانس" بفلادلفيا فى طبعته الأولى عام ٢٠٠٨م. قسم المؤلف الأمريكى (وهو شاعر ومن أصل أفريقي) كتابه إلى عشرين فصلا صغيرا بدأه بمقدمة قصيرة عن حياته (١٩١٦م) وعن أمريكا وعن تطورها فى كل المجالاتبفضل النابهين والعباقرة من رجالهامثل إبراهام لينكولن وتوماس أديسون وهنرى فورد وهلبرت رايت على سبيل المثال لا الحصر، ونوه بمساهمة أمريكا المهمة والحاسمة للحلفاء فى الحرب العالمية الثانية، ومشروع مارشال بعد نهاية تلك الحرب، وكيف أنه أنقذ أوروبا واليابان، وأشاد بالوكالة الأميركية للتنمية الدولية التى تساعد الدول النامية فى أفريقيا وآسيا على تنمية مجتمعاتها اقتصاديا، وبـ"فيلق السلام" والذى أنشئ فى عهد الرئيس الأميركى جون كيندى لمساعدة شعوب العالم النامى من قبل متطوعين من الشباب الأمريكي. بعد تلك المقدمة المادحة تطرق المؤلف لحياته بترتيب زمنى منذ أن كان طالبا، ثم سفره بالبحر لأوروبا (باريس وروما تحديدا) لمدة شهر كامل فى عام ١٩٥١م وعودته لبلاده لتلقى التعليم العالي، حيث حصل على درجة الدكتوراه فى التربية من جامعة هارفارد فى بدايات الستينيات. التحق المؤلف بالعمل الدبلوماسى فى عام ١٩٦٣م، وكانت الخرطوم أول محطات حياته الدبلوماسية فى ١٩٦٤م، ومن هنا يبدأ الفصل الذى سنستعرض طرفا مما جاء فيه.

بدأ الفصل بالقول أنه –وزوجه مارجيري– قرر أن يزور بلدا آخر وهو فى طريقه للسودان فحط الرحال فى القاهرة. كتب بعض السطور عن تاريخها القديم، وعن تدين أهلها منذ عهد الفراعنة حتى مجيء الإسلام. لفت نظره ما يرتديه الرجال من جلابيب والنساء من أثواب تغطى رؤوسهن، وقال: إنه انزعج من الصوت الحاد والمتواصل للملة (بقصد المؤذن) وهو يدعو الناس للصلاة. كان منظرا غريبا بالنسبة له أن يرى –وللمرة الأولى فيما أحسب– مئات المصلين يصطفون متجهين نحو جهة الشرق ويركعون معا ويقعون ساجدين "لرب لا يرونه" كما ذكر. عند الصلاة تتوقف الأعمال والتنافس السياسى (وأضاف متظارفا "والمضاجعة أيضا")!

بعد أيام قليلة فى القاهرة سافر السيد/ ماك بالطائرة إلى الخرطوم مساء يوم ١١/٥/١٩٦٤م، أول محطة خارجية له فى مسيرة عمله الدبلوماسي. كان السودانى الوحيد الذى يعرفه من قبل هو القاضى محمد يوسف مضوى (كتب الأسم الأخير خطأ)، وبحسب ما قاله السيد/ ماك فإن معلوماته عن أفريقيا (وهو من أصل أفريقي) لم تكن تزيد على ما شاهده فى أفلام طرزان! بل كانت والدته تخشى عليه من أن تأكله الحيوانات الوحشية، أو أن تقوم قبيلة من آكلى اللحم البشرى بسلقه والتهامه فى السودان، وقال بأنه عندما أخبر زنجيا من أصحابه بأنه سيسافر للسودان رد عليه الزنجى بلا كثير مبالاة بأنه سيبدأ فى قراءة شيء عن أفريقيا إن وجد وقتا لذلك!

رأى السيد/ ماك من نافذة الطائرة أنوار العاصمة المثلثة فأطمئن قلبه وذكرته تلك الأنوار بأنوار لوس أنجلس، أو كما قال! عندما حط فى أرض الخرطوم كانت درجة الحرارة ٨٠ درجة فهرنهايت (٢٧ درجة مئوية) فحمد الله على أنه وصل الخرطوم فى منتصف الليل! أصيب الرجل وزوجه كما قال بصدمة ثقافية ، وهو يرى الناس يتجولون بجلابيب بيضاء ذكرته بما يرتديه أفراد المجموعة العنصرية المعادية للسود "كو كلوكس كلان"! ذكر بأن أول شيء أثار عجبه هو أن السودانيين أناس مهذبون وودودون وأكفاء، ويتحدثون العربية والإنجليزية! كان أول من قابله فى المطار هو القاضى محمد يوسف مضوى مع مجموعة من القضاة السودانيين وسبقوا بذلك طاقم السفارة الأميركية الذى كان يقف بالخارج فى انتظار خروجه من المطار، وبسبب العناق السودانى التقليدى الذى

حيا به مضوى صديقه الأمريكى القديم فقد ظن طقم السفارة الأميركية الذى كان يقف بعيدا أنه رجل سودانى وليس هو الدبلوماسى الأمريكى الذى جاؤوا لاستقباله فى المطار! أخيرا تقدم السيد/ ماك إلى منتظريه الأمريكيين وعرفهم بنفسه! أخذوه لبيته الجديد وفى الصباح تعرف الرجل على أعضاء السفارة (السفير وضابط العلاقات العامة ونائب رئيس البعثة ورئيس الوكالة الأميركية للتنمية الدولية بالسودان، والمسؤولين عن القسم السياسى والاقتصادى ووكالة الاستخبارات المركزية وبقية الموظفين الأمريكيين والسودانيين). تسلم السيد / ماك شؤون مكتب الملحق الثقافى الذى كان على وشك العودة لأمريكا، وكان يساعده فى العمل السودانى أحمد عمر (لست متأكدا من أن المقصود هو الأستاذ أحمد عمر والذى عرفناه أمينا للمكتبة الأميركية فى الخرطوم فى أعوام ١٩٦٨ و١٩٦٩م ونحن فى مرحلة المدرسة الثانوية. الكاتب). أطنب السيد/ ماك فى الثناء على أحمد عمر ووصفه بأنه "جوهرة"، وأشار لفوائد تعيين موظفين محليين فى السفارات الأميركية وذكر من تلك الفوائد أنها تقوى العلاقات مع الدولة المعينة، وتسهل عمل السفارة لما لهؤلاء الموظفين المحليين من معرفة وعلاقة بكبار المسؤولين فى البلاد، وتساعد حكومة الدولة المستضيفة للسفارة بتعيين موظفين بمرتبات عالية نسبيا (مقارنة مع الدخول المحلية) وتوفر المال للحكومة الأميركية وذلك لارتفاع أجور الأميريكيين، بيد أن لها فى نظره عيبا خطيرا، وهو احتمال إطلاع حكومة البلد الذى توجد فيه السفارة الأميركية على ما يدور فيها من نشاط فى بلادهم. يجب ملاحظة أن ذلك كان فى أيام الحرب الباردة والخوف من انتقال المعلومات (التى كانت تعد سرية) بواسطة من لا تحوم حولهم الشبهات.

أخبرت السفارة السيد / ماك منذ البداية أنه لا توجد قواعد معينة فيما يتعلق بالتعرف على كبار المسؤولين والشخصيات المتنفذة من ذوى الهيئات بالدولة، فالأمر كله متروك لذكاء الدبلوماسى ومبادراته واستعداده للتضحية بساعات طويلة من يومه لمقابلة العديد من الشخصيات، وأنه لا توجد أى قيود على دعوة هذه الشخصيات على حفلات الغداء أو العشاء أو الاستقبال. بعد أن استقر السيد/ ملك قليلا فى الخرطوم أقام مدير العلاقات العامة بالسفارة حفل استقبال كبير لوداع المغادرين واستقبال القادمين الجدد للسفارة،

وكانت فرصة طيبة مواتية له للتعرف على عدد كبير من الشخصيات السودانية والأجنبية من الدبلوماسيين الأجانب بالخرطوم، وبذل جهدا كبيرًا –كما قال– لحفظ أسمائهم كاملة.

كان أول من سعى للتعرف عليهم من شخصيات المجتمع السوداني هم من عائلة المهدي. وقدم المؤلف لقصة هذا التعارف بشرح مختصر (في نصف صفحة) للمهدية وتاريخها منذ مولد مؤسسها محمد أحمد في حوالي عام ١٨٤٨م، ولخص فلسفتها في أنها كانت تدعو لوحدة شاملة ومساواة كاملة ودين وقانون موحد لكل العالم، وكل من يعترض أو يعارض ذلك فيجب القضاء عليه سواء أكان مسلما أو يهوديا أو مسيحيا أو غير ذلك! لخص الدبلوماسي الأمريكي رأيه في تلك الفلسفة بكلمتين لا ثالث لهما: يا للغطرسة! وشرح ما يعنيه بأنه ما من دولة مهما توفرت لها من أسباب القوة والمنعة استطاعت أن تنجح –وبصورة دائمة– في فرض كامل سيطرتها على العالم بأسره وعلى شعوب العالم على اختلاف معتقداتهم الدينية والمذهبية والسياسية.

كان أول فرد من عائلة المهدي يلتقيه الدبلوماسي الأمريكي هو السيد/ إسحاق شريف الخليفة. قاد إسحاق سيارته من أم درمان ذات يوم للقاء السيد/ ماك في مكتبه بالخرطوم لدعوته وزوجه لحفل عشاء عائلي صغير في فيلته بأم درمان. ووصفه الدبلوماسي الأمريكي بأنه رجل ممتلئ الجسم، مربوع القامة، وشديد الأناقة في زيه الأنصاري ذي "العزية" المميزة والجلباب الناصع البياض. تمت الزيارة في يوم الجمعة، حيث أخذهما سائق السفارة (والذي كان بعنوان بيت الرجل خبيرا) ولقيا السيد إسحاق وحرمه في فيلتهم (والتي وصفها الدبلوماسي وصفا دقيقا). جلسوا جميعا في الحديقة، ولمنع الذباب من إفساد الحفل أمر المضيف أحد الخدم بإشعال أعواد من الصندل لم تطرد الذباب فقط بل أشاعت في المكان عبقا طيبا. خلال العشاء ذكر إسحاق بأنه يرغب في الذهاب للولايات المتحدة لدراسة نظم الحكم والإدارة فيها، وخاصة فيما يتعلق بفصل الدين عن الدولة، والعلاقات بين الأعراق المختلفة، إذ إن "للسودانيين (مثلهم مثل الإسرائيليين) مشكلة في عدم الفصل بين الدين والدولة". ليس من الواضح في النص إن كانت الجملة الأخيرة من أقوال السيد/ إسحاق أم الدبلوماسي الأمريكي. ذكر السيد / ماك أن مضيفه السوداني كان يعلم أن الملحق الثقافي الأمريكي هو صاحب القرار الأخير فيمن يحصل

على منحة أمريكية للدراسة فى أمريكا، فرد على طلب إسحاق بالقول بأن هنالك عددا كبيرا من كبار موظفى الدولة الذين تقدموا للحصول على منح للدراسة فى أمريكا، وأن هذه المنح محدودة للغاية، بيد أنه لم "يقطع عشم" الرجل تماما، فهو كما قال: قد تعلم باكرا أنه فى العالم العربى يجب على المرء ألا يجيب بالنفى مباشرة، بل عليه أن يترك الباب مواربا على أمل أن شيئا إيجابيا قد يحدث.

بعد تلك الزيارة دعت السيدة/ سارة المهدى (الزوجة الثانية للسيد/ الصادق المهدي) السيد / ماك وزوجه مارجرى إلى حفل عشاء فى سراى المهدي. كان الدبلوماسى الأمريكى يعلم أن السيدة/ سارة قد تخرجت حديثا فى جامعة أميركية هى Western College for Women، وأنها ترغب فى أن يقابل الدبلوماسى الأمريكى زوجها وبعض أفراد عائلة المهدى الآخرين. قبل أن يقبل السيد/ ماك الدعوة قام بمشاورة السفير الأمريكى راوينترى بخصوص تلبية دعوة معارض سياسى للحكومة العسكرية القائمة (برئاسة الفريق إبراهيم عبود)، وكان من رأى السفير أن يلبى الرجل الدعوة، فهو مجرد ملحق ثقافي، ولا علاقة له بالأمور السياسية. استقبلتهما السيدة/ سارة أمام السراى وأخذتهما لفراندا ضخمة وضعت فيها مائدة الطعام. وجدا فى استقبالهما هنالك أيضا الدكتور حسن الترابى (والذى حصل على درجة الدكتوراه من جامعة السوربون بفرنسا) ويعمل أستاذا بكلية القانون بجامعة الخرطوم وهو أيضا رئيس "جبهة الميثاق الإسلامي" الأصولية. وصفه المؤلف بأنه نحيل الجسم، مربوع القامة، وله لحية مشذبة بعناية وكان ليلتها يرتدى جلبابا أبيضا وعمامة، وله طبع سهل وابتسامة أخاذة لا تقاوم. وجدوا مضيفهم السابق السيد/ إسحاق وزوجه، والذين حكيا للحضور عن دعوتهم السابقة للدبلوماسى الأمريكي! كان السيد/ الصادق المهدى يرتدى جلبابا أبيضا وفوقه عباءة مصنوعة من قماش خفيف، وعمامة ذات "عزبة"، وكان يرتدى صندلا خفيفا تبرز منه أصابع قدميه، وكان ينحنى من وقت لآخر ليحك أصبع قدمه الكبير وهو يناقش أهم القضايا. كان أهم أمر تم مناقشته خلال العشاء هو كيفية التخلص من الحكم العسكرى الديكتاتورى وكيفية استعادة الديمقراطية. ذكر السيد/ ماك بأن السيد/ الصادق سأله فجأة ودون مناسبة إن كان يعرف دبلوماسيا أمريكيا فى السفارة اسمه "جويل"، ولما جاءت الإجابة بالتأكيد لم يخض السيد/ الصادق فى مزيد من الأسئلة، بل

مضى يحك أصبع قدمه الكبير، فأدرك الأمريكي أن السيد/ الصادق لم يلق الإجابة التي كان يرغب في سماعها. لم يشرح السيد/ ماك أمر الشخص الذي سأل عنه السيد/ الصادق ولا أهمية السؤال، بل ترك القارئ في حيرة من أمر هذا ال "جويل". وصف الدبلوماسي الأمريكي ما قدم في العشاء من طعام فقال: إنه كان يتكون من شرائح من لحم ضأن وكسكس وسلطة خضراء مع صلصة لحم لزجة، وكانت آنية المائدة من الفضة الخالصة. بعد العشاء وبرودة الجو قليلا أمر السيد/ الصادق أحد خدمه بإحضار عباءة أخرى أكثر دفئا، ولما أحضرت العباءة أبدى السيد/ ماك إعجابه بها فقدمها له السيد/ الصادق كهدية. ذكر الدبلوماسي الأمريكي بأنه لم يكن يعلم بأنه من العادة أن يهبك العربي فورا ما عبرت عن الإعجاب به، رفض الرجل الهدية في تهذيب، بيد أن زوجته لامته لاحقا على تضييعه لتلك الفرصة الذهبية وقالت له: إنها تعلم أن السيد/ الصادق يحتفظ بدولاب كامل مملوء بالعباءات! قدم الدبلوماسي الأمريكي وصفا لما درسته السيدة / سارة المهدي في أمريكا وعن السيدة/ آنا لورد إشتراوس رئيسة "الرابطة الأميركية للنساء الناخبات" التي كانت ترعاها في أثناء سنوات دراستها هنالك، وعن زيارة تلك السيدة الأميركية للسودان بدعوة من السيدة سارة المهدي، والتي قال: إن السفارة الأميركية بالخرطوم تلقت رسالة عاجلة من واشنطن للاهتمام بأمر تلك السيدة الأميركية المهمة في الخرطوم، بيد أنها آثرت أن تبقى في ضيافة السيدة / سارة، والتي أخذتها في جولة لمدة ثلاثة أيام في أقاليم السودان للتعرف على أحوال النساء الاجتماعية في الريف السوداني.

عاد السيد/ ماك للحديث عن الدكتور حسن الترابي (والذي وصفه بأنه أحد أفراد عائلة المهدي) وعن اتجاهه السياسي الإسلامي الأصولي وعن عدائه (هو وبقية الإخوان المسلمين) للشيوعيين لإيمانه بأن هدفهم النهائي هو تقويض سلطة الإسلام بالبلاد. ذكر الدبلوماسي الأمريكي أن تلك الجماعة كانت مصدر راحة كبيرة له

"they proved to be a great comfort to me...."

بعد يوم ٣٠/ ١٠/ ١٩٦٤م عندما أجبر الفريق عبود وزمرته على التخلي عن السلطة والعودة للثكنات، وذكر أن حكومة عبود العسكرية كانت قد استطاعت احتواء الشيوعيين وتحجيم نفوذهم، بيد أن الشيوعيين بعد سقوط حكومة عبود العسكرية ظهروا كقوة سياسية لا يستهان بها على صغر عدد عضويتهم، ربما بسبب حسن تنظيمهم

وقدرتهم على الخطابة والمناظرة وأيضا بسبب التمويل الجيد الذى كانوا يحصلون عليه من الروس. ذكر السيد/ ماك بأن الحزب الشيوعى السودانى كان يداوم على الادعاء بأنه له دورا مهما فى إحداث ثورة أكتوبر ١٩٦٤م وفى إسقاط نظام عبود، ويتخذ من ذلك ذريعة للمطالبة بتمثيل فى الحكومة والجمعية التأسيسية يناظر ذلك الدور. للإخوان المسلمين فى رأى المؤلف- الآن عدد كبير من المتعلمين من الشباب المتحمس ضد الحزب الشيوعى السوداني.

ذكر المؤلف من هؤلاء شاب اسمه يوسف كان عضوا بالحزب الشيوعى السودانى ودرس لعدة سنوات فى جامعة لومامبا بموسكو، ثم هجر الشيوعية وترك الدراسة فى روسيا وعاد للخرطوم، حيث طلب مقابلته للحصول على منحة للدراسة فى جامعة أميركية، بعد أن شكا من أن الروس لا يعاملون الطلاب الأجانب معاملة حسنة، ويعزلونهم عن العالم مما سبب لهم الاكتئاب، ولا يدعونهم - كما زعم- يصادقون فتياتهم، ولا يعلمونهم شيئا يذكر غير اللغة الروسية والدعايات الشيوعية الفجة. كان يوسف خطيبا مفوها عالى النبرات ومجيدا للمناظرات ضد الشيوعيين (بحكم تدريبه السابق معهم)، وكان يدافع عن أمريكا إن حاول الشيوعيون إلصاق أى تهم بها تتعلق بكيدها للسودان وحكومته.

زار السيد/ ماك الدكتور حسن الترابى فى مرات عديدة فى داره وفى مكتبه بجامعة الخرطوم دون سابق موعد، ويادله الترابى الزيارات فى داره حينما كان يأتى للغداء أو العشاء فى صحبة عدد من رجال القانون حيث كان النقاش يدور غالبا حول المقارنة بين القوانين الأميركية والبريطانية. كان غالب كبار رجال القانون فى السودان قد تلقوا دراساتهم العليا فى بريطانيا، لذا كان السيد/ ماك يرى أن من واجبه توفير عدد من البعثات والمنح الدراسية لرجال القانون السودانيين الشباب للدراسة العليا بأمريكا وتطبيق بعض ما درسوه فى السوابق القضائية فى المحاكم السودانية، والتى تستخدم الآن القوانين العرفية والقوانين البريطانية وقوانين الشريعة.

ذكر الدبلوماسى الأمريكى أنه لمس من جميع لقاءاته مع دكتور حسن الترابى أن همه الأول كان هو الإطاحة بحكم عبود العسكرى وقيام حكم ديمقراطى بالبلاد، بيد أنه لم

يكن يؤمن بأن الترابي يسعى لمنح ذلك الحق للجنوبيين أيضا لأنه انصرف عندما غدا نائبا في الجمعية التأسيسية لمناقشة حل المشاكل الاقتصادية التي تواجه البلاد ولم يستثمر جهدا يذكر في حل مشكلة الجنوبيين الذين -بحسب رأيه- فقدوا الثقة في الإسلام والمسلمين ويفضلون الاستقلال التام بدولتهم. لم يلحظ الدبلوماسي الأمريكي أي ميل عند الترابي لأسلمة أفريقيا، على الأقل حتى عام مغادرته للسودان في عام ١٩٦٧م حين أغلقت السفارة الأميركية في الخرطوم عقب حرب الأيام الستة.

كان المؤلف قد التقى معظم أفراد عائلة المهدي ولم يتبق له إلا أن يلتقي إمام الأنصار السيد/ الهادي المهدي. ظل المؤلف يخطئ في كتابة كلمة إمام Immam فيكتبها خطأ إمانImman، ولعل هذا من باب التصحيف السمعي! سهل له السيد/ يحيى المهدي، والذي كان مسؤولا عن ترتيب المقابلات مع الإمام لقاء السيد/ الهادي في سرايته بالخرطوم التي لا تبعد كثيرًا عن مبنى السفارة الأميركية بالخرطوم (كانت السفارة وقتها في عمارة قرب تقاطع شارعي الجمهورية والقصر، وسراي المهدي في شارع الجمهورية. الكاتب). قدم الدبلوماسي الأمريكي وصفا دقيقا للإمام ومكتبه وزيه، وتعرض للاختلافات (الجسدية وغيرها) بينه وبين السيد/ الصادق المهدي، وذكر بتفصيل دقيق نوع إبريق وأقداح القهوة المميزة التي قدم له فيها القهوة (التي لا تتوفر في الأسواق إذ انها صممت وصنعت خصيصا لقصر المهدي). بعد المقابلة طاف به الإمام على بقية أرجاء القصر ودعاه لزيارة قبة المهدي في أم درمان.

من الطريف أن المؤلف ذكر لاحقا أنه كان يرى من نافذة بيته الإمام الهادي وهو متجه نحو الخرطوم بحري مرة في سيارته الأميركية الليموزين الكاديلاك، ومرة أخرى في سيارته البريطانية الرولز رويس الصفراء، وكان يمزح مع زوجته في مع من يكون الإمام في ذلك اليوم: أمع بريطانيا أم مع أمريكا؟ بحسب السيارة التي كان يستقلها في ذلك اليوم! لم ير الدبلوماسي الأمريكي الإمام وجها لوجه مرة أخرى طوال فترة وجوده في السودان إلى أن أتى يوم كان هو وزوجته يتمشيان في شارع الشانزليزيه بباريس حين لمحا من بعيد رجلًا وسيما يرتدي جلبابا ناصع البياض فوقه عباءة حريرية بالغة الأناقة ويمشي متبخترا في ذات الشارع وكأنه وما يحوي ملك خالص له. انتظرا حتى قرب الرجل منهما

فأدركا بأنه الإمام الهادي. أسرعا للسلام عليه وهما في غاية السرور بلقائه مصادفة هكذا في الشانزليزيه!

تطرق المؤلف للمعونة الأميركية التي كانت حكومة عبود العسكرية قد قبلتها (بعد تمنع الحكومات السابقة لأسباب مختلفة). وشملت مختلف أنواع العون لجامعة الخرطوم والمدارس الثانوية وبناء الطرق البرية وإرسال العديد من طلاب الدراسات العليا للحصول على درجات علمية عليا. كان بعض السياسيين في السودان والولايات المتحدة يعارضون تلك المعونة، ويعدونها موافقة ضمنية على النظام العسكري الديكتاتوري الحاكم، وإطالة لعمره، بل إن المظاهرات الطلابية المناهضة لحكومة عبود (والتي يقول المؤلف : إن الشيوعيين هم من قاموا بتنظيمها) كانت تهاجم أول ما تهاجم السفارة الأميركية وتهتف بالشعار المعروف

.Down Down with the USA

تعرف السيد/ ماكعلى أوجه بعض الطلاب المتظاهرين ضد أمريكا حين شاهدهم في اليوم التالي يجلسون في المكتبة الأميركية يطالعون دروسهم. تقدم لبعضهم وسألهم لماذا يتظاهرون ضد أمريكا ، ثم يجلسون في مكتبتها؟كانت إجابتهم جميعا أنهم لا يخلطون بين موقفهم السياسي ودراستهم! يقول المؤلف: إن هؤلاء الطلاب كانوا يرددون فقط ما يمليه عليهم قادتهم السياسيون دون كبير تبصر. حكى المؤلف أيضا عن حادثة حاول فيها نحو ثلاثين أو أربعين من الطلاب المتظاهرين ضد أمريكا التسلل لمبنى السفارة عن طريق سلم الحريق، وكان جنود البحرية المكلفين بحراسة السفارة على أهبة الاستعداد للقيام بما يلزم لصدهم. قام السيد/ ماك بفتح النافذة ومخاطبة المتظاهرين الغاضبين وقال لهم: "الصادق المهدى لن يكون راضيا عما تفعلونه. جماعة المهدى يرغبون في مظاهرات سلمية وليس غزو السفارة". تعرف عليه أحد الطلاب فنصح جماعته بالانسحاب، ونال السيد/ ماك تقديرا من الحكومة الأميركية لحسن تصرفه في ذلك اليوم!

كانت إحدى أوجه نشاط الملحق الثقافي الأمريكي بالخرطوم هي محاولة إشاعة الثقافة الأميركية الغنية في البلاد لمجابهة الدعاية القوية التي كان يقوم بها الاتحاد السوفيتي في دول العالم الثالث، فقام بدعوة عدد من مشاهير الأميركيين في مختلف ضروب الثقافة

والعلم والشعر والطب والفن لزيارة السودان. كان من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر البروفيسور وليام ليو هانزبري، الخبير بتاريخ أفريقيا وثقافاتها فى جامعة هاوردبواشنطن. كان البروفيسور هانزبرى مهتما بتاريخ النوبيين فى منطقة وادى حلفا والنوبة فى جنوب كردفان كذلك. أقيم حفل استقبال للبروفيسور الزائر فى حديقة مقر الملحق الثقافى فى يوم الجمعة ١٦/ ١٠/ ١٩٦٤ أمه عدد كبير من مثقفى السودان (رغم أن "اليوم أكان جمعة"!) منهم بروفيسور النذير دفع الله مدير جامعة الخرطوم، ودكتور مكى شبيكة المؤرخ الشهير وعميد كلية الإداب، وعدد من أصدقاء السيد/ ماك مثل الوزير اللواء المقبول الأمين الحاج والقاضى محمد يوسف مضوى والصحافى بشير محمد سعيد وغيرهم. أشاد السيد/ ماك باثنين من الصحافيين السودانيين الذين أتوا –دون موعد سابق!– لعمل مقابلة مع المؤرخ المشهور دون أن يحملا آلة للتسجيل أو أى أوراق وأقلام لتسجيل ما يقوله الرجل، وظلا ينصتان باهتمام لكل كلمة يتفوه بها. فوجئ السيد/ ماك فى صبيحة اليوم التالى بتلخيص شامل ووافٍ فى صفحة كاملة باللغة العربية للحديث الذى أدلى به البروفيسور، وعزا ذلك للتدريب على الحفظ الذى يكتسبه السودانى من حفظ القرآن فى الصغر، وأرسل ذلك التقرير الصحفى (أو ربما ترجمة له) للبروفيسور والذى أشاد به. كذلك دعا السيد/ ماك القانونى الأميركى دكتور هنرى شيبرد لإلقاء بعض المحاضرات بكليتى القانون والاقتصاد والعلوم السياسية فى جامعة الخرطوم ونادى اللوتري، والتقى بعض خريجى كليات القانون الأميركية مثل خلف الله الرضى والأمين التاتى وحسن عمر أحمد، وأمضى وقتا لس بالقصير يناقش دكتور حسن الترابى مقارنا بين قوانين الشريعة والقوانين الأميركية.

من أبرز من دعاهم السيد/ ماك لزيارة السودان كان الشاعر الأمريكى (من أصل أفريقي) لانجستون هيوز. وضع السيد/ ماك ضيفه فى غرفة فى "فندق السودان" لا تبعد كثيرًا عن حديقة الحيوان. انزعج الشاعر الكبير من أصوات الطواويس وزئير الأسود فقال لمضيفه –ربما مازحا– إنه لم يقطع تلك المسافة الطويلة ليأتى للسودان لتزدرده الحيوانات الوحشية! لعل القارئ لهذه المذكرات كان يؤمل فى أكثر مما سجله السيد/ ماك عن زيارة ذلك الشاعر الضخم، وعن نشاطه فى غضون زيارته تلك، لا سيما وأنه كان

معروفا لكثير من المثقفين السودانيين (الذين اكتسبوا حب الشعر من العرب كما قال).
ذكر المؤلف إنه ويمساعدة إسحاق الخليفة شريف وأحمد عبد الحليم قام بتحضير لقاءات للشاعر مع أساتذة وطلاب جامعة الخرطوم، والتقى بمدير الجامعة بروفيسور النذير دفع الله المحب للشعر. شهد محاضرات الشاعر أفرادا من الإخوان المسلمين والحزب الشيوعي السوداني وما من رابط يجمعهم غير حب الشعر! التقى كذلك في حفل للشاي الشاعر الأمريكي بمجموعة من شعراء السودان، والذين أذهلوه بقدرتهم الفائقة على قراءة مطولات من أشعارهم وشعره هو بالعربية والإنجليزية والفرنسية أيضا! دفع نجاح ذلك الحفل الشعري السيد/ إسحاق الخليفة لدعوة الشاعر لحفل ضخم آخر في داره في اليوم التالي (ذبح من أجل تحضيره ثورا ضخما!) حضره السيد/ اسماعيل الأزهري رئيس البلاد، ورئيس الوزارة السيد/ الصادق المهدي ودكتور حسن الترابي ولفيف من ذوي الهيئات والحيثية. كذلك جلب السيد/ ماك للسودان فرقة فنية أمريكية اسمها The De Paur Chorus لقيت قبولا منقطع النظير عند طلاب الجامعة، بيد أن حفلها في الإستاد الرياضي كان كارثيًا لضعف الاستعداد التقني عند فني الصوت، فأغضب وأثار ذلك جمهور الحضور الذين لم يكن بمقدورهم سماع ما تردده الفرقة.

كذلك جاء في مذكرات السيد/ ماك رصد مختصر لزيارة دبرها لخمسة من الجراحين الأمريكيين لإجراء بعض العمليات الجراحية المعقدة وإلقاء بعض المحاضرات للأطباء والطلاب في كلية الطب بجامعة الخرطوم، وتعرض لأسلوب المحاضرات التي قدمها المختصون الأمريكيون واختلافه عن أسلوب الإلقاء والتدوين الذي كان يمارسه البريطانيون (والسودانيين كذلك) منذ عقود طويلة (كان هذا بالطبع في منتصف ستينيات القرن الماضي، ولكن يبدو أن العالم الآن بأسره قد تبنى الطرق التعليمية والتدريسية الأميركية. الكاتب). عبر الجراحون الأمريكيون عن إعجابهم بقدرة الأطباء السودانيين على العمل تحت ظروف قلة الأجهزة الحديثة وضعف تأهيل الكوادر الطبية المساعدة، وأخذ العجب منهم كل مأخذ عندما أخبرهم أحد الجراحين السودانيين بأنه قد أجرى ذات مرة عملية جراحية دون الاستعانة بطبيب تخدير أو فنيين مساعدين أو جهاز لنظر القلب!

حكى المؤلف عن أول حفل يلتقى فيه باللواء ا. ا. ا. (عضو المجلس الأعلى للقوات المسلحة، وصديق الرئيس إبراهيم عبود وأحد أهم وزراء حكومته) وكان ذلك الحفل قد أقامه رجل سودانى من أصل إغريقى اسمه إيفى باسولى وكان يعمل موظفا بشركة بترول بالخرطوم وزميل دراسة فى المدرسة الثانوية لذلك اللواء. لاحظ السيد / ماك أن كثيرًا من كبار ضباط الجيش كانوا ضيوفا دائمين على حفلات إيفى المشهورة بعامر الطعام وفاخر الشراب والسهر حتى خيوط الفجر الأولى. كانت تلك الحفلات فرصة ذهبية للدبلوماسى الأجنبى الذى يتمتع بقدرة على احتمال السهر الطويل لينصت لما يتفوه به أولئك الضباط بعد أن تنحل عقد ألسنتهم (بفعل ما تجرعوه) بمعلومات عن الحكومة والصحافة والسياسة، مثل من من الصحفيين يشكون فى أنه عميل للروس، ومن من الضباط له اتجاهات اشتراكية؟ خلص السيد/ ماك إلى أن هؤلاء الضباط كانوا يهدفون لحماية بلادهم من الحكومات الخارجية المعادية والقادة السياسيين عديمى الضمير. بعد نهاية حفل إيفى دعا اللواء ا. ا. ا. الدبلوماسى الأميركى وزوجه لمواصلة السهرة فى ما أسماه "نادى ليلي" فى طرف المدينة، وأخذهما معه فى سيارته الرسمية والتى كان يقودها سائقه الرسمى نحو الخرطوم بحري. تاه السائق وهو يقود السيارة فى الظلام على شارع ترابي، فتولى اللواء ا. ا. ا. القيادة بنفسه مثيرا فزع الدبلوماسى وزوجه، خاصة وأنه كان مخمورا، ولكنه نجح أخيرا فى الوصول لذلك "النادى الليلي" المغمور. عند الواحدة صباحا أعادهما اللواء ا. ا. ا. لدارهما (فى شارع المطار) سالمين وودعهما بعد أن وعدهما بالاتصال بها هاتفيا فى اليوم التالي. أخبره السيد/ ماك بأنه لا يمتلك هاتفا، وأنه ما زال فى قائمة المنتظرين لتركيب هاتف فى داره، فرد الوزير بسرعة بأنه سيدخل له هاتفا بعد ساعات قليلة. ظن الدبلوماسى أن الرجل يهرف بفعل ما ظل يحتسيه طوال الليل. ما إن أشرقت الشمس إلا وعمال الهاتف يطرقون الباب ومعهم هاتف جديد لتركيبه فى بيت الدبلوماسي! وكأن ذلك لم يكن كافيا لإدهاشهم حتى ظهر خلف العمال الوزير اللواء الهمام وهو يطلب من العمال سرعة إنجاز تركيب هاتفين (وليس هاتفا واحدا) فى بيت الدبلوماسي. ذكر السيد/ ماك أن زوجته طلبت من الوزير الكريم أن يجلس ويتناول كوبا من القهوة أو الشاي، ففاجأها بطلب مشروب "أكثر قوة" ! سجل الدبلوماسى أن ذلك

اللواء ظل صديقا وفيا لعائلته حتى بعد سقوط حكومة عبود، ويداوم على زيارتهما إلى حين غادرا البلاد، ووصفه فى مكان آخر فى مذكراته بأن له "قلب من ذهب".

حكى المؤلف فى موضع آخر وهو يرصد سجل علاقاته مع الوزراء وكبار المسؤولين السودانيين عن تجاوز بعضهم لقواعد البرتوكول أحيانا، وضرب لذلك مثلا بحفل عشاء أقامه صديقه محمد إبراهيم خليل (عميد كلية القانون السابق ووزير الحكومات المحلية ثم الخارجية فى عدد من الحكومات التى تلت حكومة عبود) وداعا للسفير البريطانى الذى كان عليه مغادرة السودان بعد قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين. تعجب المؤلف من أن الوزير لم يقم –كما هى العادة– بدعوة سفراء أو وزراء آخرين لذلك الحفل، وبدا غريبا أن يودع وزير الخارجية السودانى سفير أهم دولة ذات تاريخ وصلات مشتركة مع السودان بتلك الطريقة، بينما قام بدعوة الملحق الثقافى الأمريكى وزوجه لذلك الحفل بحكم علاقته الشخصية السابقة معهما. كذلك أخذ المؤلف على الوزير السودانى عدم اهتمامه بإجلاس الحضور بأى نوع من الترتيب بحسب المكانة أو العمر أو الجنس، بل كان الحاضرون يجلسون وكأنهم فى عشاء عائلي. أصابت الدهشة الجميع عندما حضر الطعام فطلب الوزير من السفير البريطانى وزوجه تناوله بالطريقة الشعبية السودانية، وأتبع القول بالعمل فشمر يدى جلبابه الأبيض الناصع وبدأ فى قطع اللحم بيده اليمنى. رفض السفير البريطانى مجاراة مضيفه ومحاكاته وقال له فى دبلوماسية وتهذيب إنجليزى صميم بأنه يفضل أن يأكل بالشوكة والسكين، وانسحب بهدوء بعد العشاء مباشرة. كانت المرة الأخرى التى يرى فيها المؤلف ذلك الوزير بعد أن صار –كما قال– شريكا قانونيا للسودانى اليهودى قرنفلى هى عندما دعاه لتجربة سيارته المرسيدس الجديدة على الطريق الجديد الذى بنته المعونة الأميركية (لعل المقصود هو شارع الخرطوم –مدني. الكاتب).

كذلك تطرق المؤلف للدعوة التى تلقاها من السيد/ عبد الرحمن النور، القاضى السابق والقيادى فى حزب الأمة ووزير الإعلام والعمل للعشاء فى داره بأم درمان، والذى كان قد التقاه ذات مرة فى بيت صديقهما المشترك محمد يوسف مضوي. اقترح عليه النور أن يحضر معه من يرغب من أعضاء السفارة (والتى كانت قد أغلقت عمليا

بعد قطع العلاقات بين البلدين عقب حرب الأيام الستة) خاصة وأن حفل العشاء سيحضره أيضا السيد/ الصادق المهدى وثلة من كبار رجال حزب الأمة وعائلة المهدى مثل إسحاق الخليفة شريف والدكتور حسن الترابى وأحمد إبراهيم دريج من الأبيض (هكذا أورد المؤلف!). أجلس المضيف السيد/ ماك بجنب السيد/ الصادق (كنوع من التكريم دون شك) وتبادلا الحديث عن زوجة السيد/ الصادق سارة والتى كان الدبلوماسى الأمريكى قد زارها عندما وضعت مولودها بالمستشفى، وعن والدته والتى قابلها الرجل عند زيارته لقصر السيد الصادق. ذكر الدبلوماسى الأميركى بأنه قال للسيد/ الصادق : إنه من المؤسف أن تلام الولايات المتحدة على هزيمة العرب فى حرب الأيام الستة، وقبل أن يجيب السيد الصادق، عاجله الدبلوماسى الأمريكى بسؤاله إن كان يرغب فى مقابلة المسؤول الأعلى فى السفارة الأمريكية (السيد/ كليو ويل) فأومأ بالإيجاب. يبدو أن السيد/ ماك معجب للغاية بالسيد/ الصادق المهدي، فاسمه يرد فى كل صفحة تقريبا فى هذا الفصل عن السودان. أتى على سيرته مرة أخرى وأعاد ما قاله فى أكثر من موضع عن بياض جلبابه وأناقة عباءته وعمامته ذات "العزبة" ولمعان عصاه وذلك عند الحديث عن رياضة محببة لبعض السودانيين وهى سباق الخيل، و أن السيد/ الصادق يمتلك إصطبلا للخيول العربية الأصيلة، وذكره أيضا عند الحديث عن احتفالات السفارة الأميركية بالخرطوم بعيد الثورة الأميركية فى الرابع من يوليو عام ١٩٦٤م. شهد ذلك الحفل اللواء حسن بشير نصر ممثلا للرئيس عبود، وظهر فى الحفل أيضا السيد/ الصادق رغم أنه -كما ذكر المؤلف- كان يحرص على عدم حضور المناسبات العامة خلال فترة الحكم العسكري. بعد شهور من ذلك الحفل شهد السيد/ ماك حفل عيد استقلال السودان فى القصر الجمهوري، وقدم وصفا مختصرا للقصر وما يحتويه وأشاد بالمحافظة على كنوزه التاريخية لامعة كأنها صنعت بالأمس. الطريف أن عينا السيد/ ماك التقطت من بين ٥٠٠٠ مدعو لذلك الحفل الرجل السوداني/ الإغريقى الأصل إيفى باسولى (الذى ورد اسمه آنفا عند الحديث عن اللواء ا.ا.ا.) ، والتقطت كذلك العقيد عثمان حسين، والذى قال: إنه يمتلك عربة من نوع إيدزل يحافظ عليها دوما نظيفة لامعة!

من الشخصيات الاجتماعية اللامعة التى التقاها السيد/ ماك فى غضون سنواته القليلة بالسودان الدكتور بشير البكري، مرة عندما كان الرجل يعمل مديرا لمصرف النيلين بالخرطوم (وهو بنك فرنسي سابق)، وقبل ذلك فى باريس فى عام ١٩٦١م عندما كان سفيرا للسودان فى فرنسا. من طريف ما ذكره البكرى عندما سأله السيد/ ماك فى الخرطوم عن الفرق بين الوظيفتين، وأيهما يفضل أجاب بذكاء بأنه كان فى أيام السفارة يحيل كل مشكلة تجابهه للخارجية فى الخرطوم، بينما تتوقف كل المشاكل عنده كمدير للمصرف! تماما كما قال الرئيس الأمريكى ترومان وهو يشير لطاولة مكتبه: "هذه هى المحطة النهائية لكل المشاكل!"

أورد المؤلف فى هذا الفصل عن السودان بعض أوجه نشاط زوجه ماريجرى فى المجال الاجتماعى وتنسيق الزهور وغير ذلك من النشاطات الاجتماعية والخيرية مثل "دار المايقوما لمجهولى النسب" و"مدرسة فاقدى البصر" فى الخرطوم بحري.

لا شك أن المؤلف – وكما هو واضح من انجازاته فى خلال فترة عمله بالسودان – قد أفلح فى عمل ما بعث من أجله، وكما قال هو بنفسه فى ختام كتابه: "عندما يبعث بالموظف الأمريكى لعمل ما فى الخارج فإن أهدافه يجب أن تكون هى ذات أهداف بلده الذى بعثه." ولكن إن كان من تعليق على هذا الفصل من مذكرات الرجل (البالغة الصراحة) فهى أنه جنح فيها دون فائدة تذكر لسرد قصص كثيرة يغلب على بعضها النقد الساخر، أو هتك أسرار البعض ممن قصدوا (بل وبالغوا) فى إكرام الرجل وزوجه. ولعل تلك القصص تؤيد رأى من يقولون بأن السودانى – وعلى وجه العموم – ضعيف أمام الأجنبي، ولديه استعداد غريب للقيام بإكرامه والعناية به لدرجة قد تثير استغراب (بل وأحيانا امتعاض) المكرم نفسه.

لا علم لكاتب هذه السطور بتاريخ كتابة هذه المذكرات (والتى صدرت لأول مرة فى عام ٢٠٠٨م، والمؤلف من مواليد ١٩١٦م) إذ أنها تحفل بكثير من الأخطاء فى كتابة الأسماء والأماكن. ولعل طول العهد بتلك الأيام كان هو سبب تلك الأخطاء والهنات.

كذلك يفتقد المرء فى هذه المذكرات الوحدة والتماسك، وكأن من جمعها قام فقط بجمع ولصق مذكرات صغيرة مبعثرة كتبت فى أزمان مختلفة. كان المرء يتمنى أن لو أتت

هذه المذكرات بأكثر مما أتت به من تحليل للأحداث التى عاصرها المؤلف وما ورائها، وليس فقط تسجيلا متقطعا لبعض ما شاهده أو تذكره المؤلف من مقابلات لبعض الشخصيات السودانية. بيد أن المرء قد يجد للمؤلف بعض العذر فى ذلك على اعتبار أنه كان يعمل ملحقا ثقافيا صغير السن وعديم التجربة بالعالم الخارجي، ولم تكن له علاقة له مباشرة بالأحداث السياسية فى السودان، وبالتالى تصعب مقارنة مذكراته بالمذكرات الغنية بالمعلومات والتحليل التى نشرها مثلا السفير الأمريكى السابق دونالد بيتريسون والذى عمل بالسودان بين عامي بعنوانه (وكنا قد عرضنا لكتابه "فى داخل السودان: الإسلام السياسى والصراع والكوارث" فى مقال سابق تم نشره فى كتاب "السودان بعيون غربية — الجزء الثاني")، خاصة وأن ذلك السفير قد أتى للسودان فى عهد تميز بعداء سياسى وأيديولوجى مستعر بين السودان والولايات المتحدة الأميركية، بينما عمل السيد/ ماك كملحق ثقافى فى عهد مختلف الهوية والتوجه.

دعم المؤلف فى نهاية كتابه تلك المذكرات بصور فوتوغرافية قديمة (بالأبيض والأسود) عن أيامه فى السودان، ثم فى الصومال (وهى الدولة التى عمل فيها بعد مغادرته للسودان) وعن بعض أوجه نشاط زوجه فى مجال تنسيق الزهور وغير ذلك، وبعض هذه الصور قد تعد الآن صورا نادرة. من تلك الصورة صورة أخذت لعربات الجيش تجوب شارع القصر فى أيام ثورة أكتوبر ١٩٦٤م، بالإضافة لصور أخرى للإمام الهادى والرئيس إسماعيل الأزهرى والوزراء فى مناسبات مختلفة.

كما ذكرنا من قبل فكاتب المذكرات شاعر، وقد أورد فى نهاية مذكراته بعضا من قصائده، وقصيدة واحدة للشاعر الشهير الذى دعاه للخرطوم لانجستون هيوز فى مدح الإمبراطور الإثيوبى هيلاسيلاسى بمناسبة عيد استقلال إثيوبيا فى ١٩٦٦/٥/٥م (زعم المؤلف أنه اقترح على الشاعر أن يخفف فيها من المدح الزائد للإمبراطور وذكره باضطهاده للإرتيريين ولشعبه كذلك). تشرح كثير من قصائد السيد/ ماك وتبين مواقفه السياسية مثل قصيدته التالية والمعنونة "السودان"، والتى لم يسجل تاريخ تأليفها:

THE SUDAN

Sun baked with rich African soil.

Unconscionable slaving by the North,

Guns ringing out as Southerners recoil,

Conversely, can freedom ever spring forth؟

Oil glowing underground on Southern soil,

Northerners eager to see the oil run,

Kill in the name of religion and spoil,

Will blacks profit when the rigs have begin؟

A lone bullock straining on the Nile bank,

While for most black back breaking work goes on.

Southerners still fighting as the sun sank.

Will Southern dignity ever be won؟

Freedom and democratic government

Will it in this tormented land be sent؟

Southerners to Northerners:

Ask Allah –

Where's humanity؟

الدور الذى لعبته حيوانات السودان مع الجيوش المتحالفة ١٩٤٠ - ١٩٤٦م

The part played by the animals of the Sudan with the allied armies, 1940 - 1946

P. Z. Mackenzie **بى زى ماكينزى**



هذه ترجمة موجزة لمقال نشر عام ١٩٤٧م فى "مجلة الفيالق البيطرية فى الجيش الملكي" والتى كان يصدرها فرع الطب البيطرى فى الجيش الملكى البريطاني، والذى تم إنشاؤه فى ١٧٩٦م. وكاتب المقال هو أحد أعمدة الطب البيطرى فى السودان فى أربعينيات القرن الماضي.

ذكرنى هذا المقال القديم بمقال نشر فى صحيفة "كريستيان سينس مونتور" فى عام ٢٠٠٧م بعنوان "الحمير فى دارفور" يصف فيه الكاتب الحمار فى سنوات الحرب فى دارفور بأنه ليس فقط دابة للنقل والحمل، بل هو سيارة "بيك أب" حية لحمل الماء والحطب، وللفرار من أتون القذائف وجحيم المعارك، ولإنقاذ الأرواح... ولعله بهذا التوصيف يفضل بعضا من بنى البشر من مختلف الملل والنحل والألوان. **المترجم**

***

لعبت الحيوانات بالسودان فى غضون سنوات الحرب العالمية الثانية دورا مهما يستحق التوثيق فى تاريخ حملات الجيوش فى أقطار الشرق الأوسط وغيرها من الدول.

استخدمت القوات المتحالفة فى تلك المعارك واحدا أو أكثر من أنواع الحيوانات المستأنسة فى السودان، والتى شملت الخيل والبغال والحمير والإبل وذلك للنقل وحمل الأمتعة وغيرها، وكذلك الأبقار والمعز والأغنام (الضأن) كمصادر للحوم.

كانت تصدر تلك الأنعام لبلدان بعيدة مثل إيطاليا (وفيها مركز قيادة منطقة وسط

البحر الأبيض المتوسط) وإلى سوريا وفلسطين ومصر وواحات الصحراء وإرتيريا والحبشة (حيث قيادة منطقة الشرق الأوسط)، وإلى عدن (حيث توجد قيادة شرق أفريقيا). ومن المحتمل جدًا أن حيوانات الركوب السودانية قد نقلت أيضا من الشرق الأوسط إلى بلاد فارس والعراق فى عام ١٩٤٢م، بل وإلى جنوب شرق آسيا حيث اشتدت الحاجة لمزيد من التعزيزات فى بورما فى عامى ١٩٤٤ و١٩٤٥م.

لم تنشر – مبلغ علمنا – أى دراسة هدفها تتبع حركة ومسار الحيوانات السودانية لتلك الدول البعيدة، ولا عن مصير ما بقيت منها على قيد الحياة، ولا عن كم من أفواه الجنود والضباط أطعمت. والغرض من هذا المقال هو القاء بعض الضوء على قليل من هذه الجوانب.

الأبقار والمعز والأغنام:

من المهم دراسة الأحداث التى أدت إلى أن يقوم السودان بتصدير أعداد كبيرة من الأبقار والمعز والأغنام من أجل إطعام جنود الحلفاء بين نوفمبر ١٩٤١م وأغسطس ١٩٤٦م، وذلك لأهميتها السياسية وكذلك لكبر الأعداد التى صدرت.

كان مصدر اللحوم الوحيد لجيوش الحلفاء فى مصر فى نهايات الأربعينيات هو السوق المدنى المصري، والذى كان يعتمد بدوره على لحوم الحيوانات السودانية المستوردة. ويطلب من الحكومة المصرية امتنعت جيوش الحلفاء عن الاعتماد على هذا المصدر المدنى إلا فى حالات الضرورة القصوى.

وفى يوم ١٦/١٢/ ١٩٤١ تحرك قطار شحن من مدينة الأبيض وهو يحمل أبقارا مصدرة للجيش البريطانى فى مصر. كانت تلك أول شحنة لتجار سودانيين تصدر من السودان، وأعقبتها شحنات أخرى عديدة، كان تعداد كل شحنة فيها ٣٥٠٠ رأس من البقر و١٠٠٠٠ من الأغنام ترسل شهريا لمصر. وازدادت من بعد ذلك أعداد الحيوانات فى كل شحنة فبلغت ٥٠٠٠ رأس من البقر و١٢٠٠٠ من الأغنام.

ولم يكن ثمة عائق أمام تدفق تلك الشحنات الشهرية لمصر إلا عدم توفر عربات الشحن الكافية. وفكر المسؤولون فى استخدام النقل البحرى عن طريق بورتسودان

وسواكن، إلا أن الأخطار الأمنية فى البحر الأحمر وقلة السفن التجارية حالت دون ذلك، فظل النقل البرى عن طريق السكة حديد هو الوسيلة الوحيدة المتاحة للنقل، خاصة مع توفر مواقع للحظر الصحى البيطرى (المحاجر/ الكرنتينات) قرب الحدود مع مصر.

تواصلت عمليات تصدير الأنعام السودانية تجاريا لمصر بوتيرة غير مسبوقة دون أى انقطاع لخمس سنوات متصلة، ونجح تجار الماشية السودانيون فى توفير ذلك المدد المتصل من الحيوانات دون صعوبات تذكر، وبانتظام وكفاءة، وحرص الجميع على ألا يصدروا إلا الذكور من الحيوانات، ولم يحدث أبدا أن تم تصدير الحيوانات غير البالغة أو الهزيلة أو المريضة.

كان عقد توريد لحوم هذه الحيوانات يعطى لشركة واحدة فى كل مرة، تعمل وبصورة وثيقة مع الحكومة والجيش السوداني. وبفضل هذا الترتيب ظلت أسعار اللحوم المعدة للتصدير وتلك المستخدمة محليا مستقرة دوما.

كانت الأبقار المشتراة للجيش تأتى من مناطق البقارة فى جنوب كردفان وجنوب دارفور. وأتت عبر السودان أيضا أعداد كبيرة من الأبقار من أفريقيا الوسطى (المستعمرة الفرنسية)، وكذلك جلبت للأبيض أبقار حمراء لونها ذات قرون طويلة من مناطق الفلاتة، وكذلك أبقار استوائية من مناطق أويل بالجنوب بعد عبورها لبحر العرب فى أبيي. وحملت كذلك قاطرات الشحن فى كوستى بأبقار أعالى النيل التى تسمى "ماجوك"، والتى قدمت لكوستى على ظهور البواخر النيلية.

وجمعت أعداد كبيرة من الأغنام من مختلف السلالات من المناطق الرعوية فى شمال السودان، خاصة منطقة الكبابيش فى شمال كردفان، ومن مناطق الميدوب فى شمال دارفور. وكانت تلك الأغنام تأتى لأم درمان مشيا على الأقدام، بينما كان بعضها يتوقف فى الأبيض. وجمع عدد قليل من هذه الأنعام من مناطق الجزيرة والنيل الأبيض والبطانة والفونج، وأتت أيضا أعداد من أغنام الزغاوة السوداء فى شمال دارفور، تلك التى تتميز بغزارة الشعر وطول القرون، إلا إن سلطات الجيش طلبت لاحقا عدم جلب الأغنام الزغاوية لعدم مناسبتها لاحتياجاتهم. وربما كان ذلك بسبب شكلها (conformation) أو بسبب وصولها لمناطق الحدود فى حالة صحية سيئة بسبب طول

السفر والإجهاد. وهنا تروى قصة طريفة عن تاجر مغامر أصابه الإحباط من رفض سلطات الجيش للضأن الذى جلبه لهم، فقام بإجراء عمليات تجميل جراحية (plastic surgery) قطع فيها أذيال أغنامه فى محاولة منه لجعلها تبدو كالمعز بعد أن سمع أن الجنود الهنود مغرمون بأكل لحم المعز!

وعند سقوط أرض الصومال البريطانية (British Somaliland) توقفت إمدادات اللحوم عبر ميناء عدن، فأرسلت حكومة عدن طلبا عاجلا للسودان والهند لتوفير حيوانات اللحوم. أرسل السودان فى سبتمبر من عام ١٩٤٠م سفينة شحن ملكية من بورتسودان وعلى ظهرها ١٢٠ من الأبقار و١٢٠٠ من الأغنام و٣٠٠ من المعز، وكانت تلك هى المرة الأخيرة، إذ إن حكومة عدن رأت أن ما يأتيها من الهند يناسبها أكثر.

أنشئت عدة مسالخ فى مدن مصر (كالقاهرة والإسكندرية والسويس والإسماعيلية وقنا وسفاجة) لاستقبال البهائم السودانية، وكانت لحومها تستخدم لإطعام جنود الحلفاء فى مصر، وكذلك لإطعام أسرى الحرب فى المعسكرات التى أنشئت فى مصر. ونقلت أعداد كبيرة من الحيوانات السودانية عبر صحراء سيناء حيث ذبحت فى فلسطين.

وفى عامى ١٩٤٤ و١٩٤٥م نقلت أغنام سودانية حية إلى إيطاليا لإطعام الجنود الهنود فى ساحات المعارك هناك، ونقلت كذلك من وادى حلفا لحوم بالشاحنات المبردة إلى جنود الحلفاء فى الكفرة بليبيا.

الإبل:

ابتاع الجيش فى نهايات عام ١٩٤١م وبدايات العام الذى تلاه نحوا من ١٥٠٠٠ من الإبل لحمل ونقل أثقال للقوات المكلفة بغزو الحبشة، ولنقل الإمبراطور وجنده من مناطق الحدود مع السودان إلى مرتفعات الحبشة. كانت تلك الحيوانات قد جمعت أساسا من الأبيض والنهود فى كردفان، وجمع بعضها أيضا من مديرية النيل الأزرق، وقدم الكواهلة (وهم فرع من قبيلة الكبابيش) مائة من الإبل هدية للجيش.

تعيش إبل السودان عادة فى مناطق سهلية رملية، وهى لم تألف العيش والترحال فى

المناطق الجبلية. ولذا فقد نفقت أعداد كبيرة منها فى أرض الحبشة، أو تعذرت الاستفادة منها بسبب البرد والأمراض التى أصابت مفاصلها وأقدامها وظهورها، ولعدم توفر الغذاء الذى اعتادت عليه، وبسبب تفشى وباء طفيل المثقبيات (يسمونه فى السودان مرض الجفار). وقدرت الإبل التى نفقت فى أرض الحبشة بتسعة آلاف، وكثيرا ما كانت جثث تلك الجمال النافقة تشاهد وهى تملأ سفوح الجبال والتلال.

ورغم كل تلك الخسائر الكبيرة فقد أتمت تلك الدواب مهمتها فى نقل ما أريد لها حمله، ووصلت بعض الجمال الناجية لأديس أبابا.

وبعد اختتام المهمة نقل ما بقى من الإبل التى عادت لسفوح الجبال والجروف، وتلك التى وصلت متأخرة من السودان ولم يتسن للجيش استخدامها، إلى السوق المحلي، وبيعت أعداد منها فى مناطق جنوب شرق السودان (ذكر الكاتب أنه شاهد ذات مرة جملا كباشيا وعليه وسم الجيش يعمل فى منطقة كرن بإريتريا فى عام ١٩٤٤م).

استخدمت كذلك الإبل السودانية المجلوبة لحملة الحبشة فى أعمال الحراسة التى كان يقوم بها الجنود على ظهور الإبل (الهجانة) فى جبهتى كسلا والفونج فى الفترة الأولى من الحرب حين كانت قوات دفاع السودان والقوات المتحالفة ما تزال فى مرحلة الدفاع عن الحدود. ومن بعد ذلك، وتحديدا فى أعوام ١٩٤٢ – ١٩٤٦م استخدمت قوات الهجانة تلك فى إريتريا لحفظ الأمن الداخلى فى الأراضى المحتلة، ولصد هجمات "الشفتة" ولمنع الاحتكاكات والصراعات الدموية بين القبائل على الحدود. وكانت غالب الإبل المستخدمة فى هذه الحملة فى إريتريا قد جلبت من منطقة قبيلة الشكرية فى مديرية كسلا.

مما يجدر بالذكر نقل مئات الإبل لوقود الطائرات المعبأ فى علب من الصفيح سعة الواحدة منها أربعة جوالين للمطارات فى دارفور فى عام ١٩٤٢م. فبعد أن أغلقت أمام الحلفاء، كان على إمدادات الطائرات المخصصة لقوات الشرق الأوسط أن تحمل جوا من ساحل أفريقيا الغربى عبر أجواء السودان، وأن يعاد تزويدها بالوقود فى الجنينة والفاشر. وكان وقود الطائرات متوفرا فى الأبيض، بيد أن ترحيله بالشاحنات إلى دارفور كان محفوفا بالمخاطر نظرا لطول المسافة وسوء حال الطريق وقلة الشاحنات. ولكل ما تقدم لجأ الجيش لاستخدام الإبل فى حمل الوقود. ولم يكن ذلك بالأمر السهل، فقد كانت كمية

كبيرة من الوقود (تصل إلى نصفه) تتسرب من تلك الصفائح بسبب اهتزازها وهى على ظهور الإبل، إلا أن نصف الكمية التى تصل للجنينة والفاشر كانت كافية لتسيير تلك السفريات الجوية الحيوية.

كانت القبائل التى تربى الإبل تصدر لمصر فى غضون سنوات الحرب مئات آلاف النياق السمينة من أجل بيع لحومها. ولعل مرد ذلك الطلب المتزايد على لحوم الإبل فى مصر هو ارتفاع دخول الأسر المصرية مع توافد القوات الأجنبية لمصر، وعجز الدولة المصرية عن مقابلة الطلب الكبير على اللحوم من قبل مواطنيها من المدنيين والعسكريين والقوات الأجنبية من مصادرها المحدودة من الأبقار، مما استدعى الاعتماد على الإبل السودانية.

الخيل والبغال والحمير:

بدأت الحكومة فى عملية واسعة لشراء أعداد كبيرة من الخيول من البقارة بجنوب كردفان وجنوب دارفور فى عام ١٩٤٠م، وصحبت تلك العمليات الواسعة محاولات أخرى لشراء أعداد أقل من الخيول من مديريات أخرى. وفى ذلك العام تم تجميع نحو ١٤٠٠ حصانا فى إسطبلات ضخمة فى الأبيض وواد مدنى والخرطوم. وكانت كل الخيول المشتراة تخصى (جراحيا) فور دخولها لتلك الإسطبلات، ولم يحدث أبدا أن اشتريت أفراس (إناث الخيل). ولم يسبق لتلك الخيول التعود على نوع السروج واللجامات الأوربية الطراز، واستلزم تدريبها عليها وقتا.

حاول ضابط مشتريات بريطانى شراء مائة من الخيول من قبيلة الرزيقات للجيش، فقدمتها القبيلة هدية كريمة منها للمجهود الحربي. واستخدم الجيش أيضا ما كان عند الشرطة وكردفان من خيول كإجراء عاجل، على أن يتم تعويضها كلما تيسر شراء خيول من ملاكها.

واستخدمت البغال والخيول القزمة فى حملة الحبشة لحمل المؤون والعتاد خاصة فى معركة كرن الشهيرة. وبعد انتهاء حملة الحبشة (والتى قدر أن كثيرًا من الخيول التى شاركت فيها قد سارت لمسافة لا تقل عن ألفين من الأميال) وجد أن هنالك فائضًا كبيرًا من خيول الجيش فى السودان، فتم بيع كثير منها فى مصر لاستخدامها فى عربات النقل

"الكارو"، أو تم منحها للشرطة وغيرها من المؤسسات في فلسطين ولبنان والسودان، واستخدمت لحوم الخيول المذبوحة لإطعام أسرى تلك الحرب، وأشيع أن كميات من تلك اللحوم وجدت طريقها لإيطاليا ويوغسلافيا.

لا يعد السودان من الأقطار التي تربى فيها البغال، بيد أنه يجاور الحبشة، وهو قطر مشهور بتربية هذا النوع من الحيوانات حيث يستخدم في حمل الأغراض الثقيلة، وكان يشترى بكثرة في القلابات والكرمك على حدود السودان مع الحبشة. وبعد انتهاء الحرب وجد أنه قد تبقت من البغال التي استخدمها جيش الحلفاء ١٢٠ بغلا حبشيا، فتم التخلص منها بالبيع في مزاد علني أو بذبحها واستخدام لحومها لإطعام أسرى الحرب.

وتحسبا لاحتمال تسليح قوات من الأحباش للدخول في حرب عصابات في حالة قلبت امبراطورية شرق أفريقيا المجن وغدت قوة معادية اشترت الحكومة السودانية مئات من الحمير من الخرطوم والأبيض ووضعتها في منطقة القضارف بمديرية كسلا. واستخدمت تلك الحمير في حمل وإرسال بنادق وذخائر للأحباش الذين قدموا لمناطق الحدود مع السودان لاستلامها والسير بها خلف خطوط الأعداء.

وكذلك إشترت حكومة السودان أعدادا كبيرة من الحمير لحمل الحطب للمحطات بين كوستي وجوبا حيث كانت البواخر النيلية (والتي تلعب دورا كبيرا في تقديم المواد المختلفة من شرق أفريقيا إلى الشرق الأوسط) تتوقف من أجل التزود بالحطب (مما لم يذكره كاتب المقال هنا وذكره أحد كبار ضباط الجيش السوداني الذين اشتركوا في معركة كرن أن الحمير كانت تستخدم في حروب الحبشة ككاشفات للألغام، إذ ترسل في مقدمة الجيش للتأكد من أمن الطريق وخلوه من الألغام. المترجم".

لعله من الطبيعي أن يعد المرء وطنه ومنطقته التي دارت فيها الحرب منطقة بالغة الأهمية، رغم أنها قد تكون منطقة صغيرة وليست بذات خطر أو ذكر كبير. ورغم هذا التحيز فإنني أزعم هنا أن حيوانات السودان قد لعبت أدوارا خلفية مهمة في الحرب العالمية الثانية بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٦م في مجالات توفير اللحوم وحمل المؤن والذخائر، وفي مجال النقل والتنقل بين مسارح العمليات في الأماكن المختلفة.

محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة